

جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية
كلية الدعوة والإعلام
الدراسات العليا
قسم الدعوة

دوافع الانكار في العهد النبوي وسبل علاجها

رسالة ماجستير

إعداد

عبد الرحمن بن يوسف بن عيسى الملاحي
للمعيد في قسم الدعوة

إشراف

الدكتور / سيد محمد ساداتي الشنقيطي
الأستاذ المشارك بقسم الاعلام
كلية الدعوة والاعلام

العام الجامعي ١٤١٣ هـ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية
كلية الدعوة والاعلام
الدراسات العليا
قسم الدعوة

دوافع الإنكار في العهد النبوي وسبل علاجها

رسالة ماجستير

إعداد

عبدالرحمن بن يوسف بن عيسى الملاحي
المعيد في قسم الدعوة

إشراف

الدكتور/ سيد محمد ساداتي الشنقيطي
الأستاذ المشارك بقسم الاعلام
كلية الدعوة والاعلام

العام الجامعي ١٤١٣هـ

المقدمة المنهجية : ونحتوي على :

- توطئة .
- الاستدلال على المشكلة البحثية .
- تحديد المشكلة البحثية .
- تساؤلات البحث .
- أهمية البحث وأسباب اختياره .
- أدوات جمع مادته العلمية .
- مكانته من الدراسات السابقة .
- حدود البحث الزمنية والجغرافية .
- نوع البحث ومنهجه .
- تقسيم الدراسة .
- شكر وتقدير .

توطئة :

الحمد لله لا شريك له، الحمد لله خلق الإنسان علمه البيان ، ووهبه أدوات الفهم والعلم، وكرمه على كثير ممن خلق وفضله تفضيلاً ، وأصلي وأسلم على معلم الناس الخير البشير النذير ، والرحمة المهداة .. أما بعد :

فإن الناس بين مؤمن وكافر ، أو مصدق ومنكر ، وبينهما منازل، قال تعالى (فريقاً هدى وفريقاً حق عليهم الضلالة)^(١). قاله سبحانه وتعالى هو الهادي إلى سواء السبيل، وهو الذي منح الإنسان القدرة على الاختيار ، وتفضل جل جلاله فيسر له سبل الدلالة على طريق الخير بالعقل المميز، وإرسال الرسل بالبينات ، ونصّب الآيات الدالة على بديع صنعه سبحانه ، مع ما أودع فيه من استعداد للهدى والضلال، بعد أن فطره على الحنيفية السمحاء ، وعرضه لأسباب إيقاظ الفطرة إذا تعطلت وهداية العقل إذا ضل.

وقد اقتضت هذه المشيئة أن يجري قدر الله بهداية من يجاهد للهدى ، وأن يجري قدر الله كذلك بإضلال من لا يستخدم ما أودعه الله من عقل، وما أعطاه من وسائل السمع والبصر والفؤاد في إدراك الآيات الميثوقة في صفحات الكون ، وفي رسالات الرسل الموحية بالهدى^(٢).

وإذا فلا حجة لمن جحد وكفر ، فالكل قد زود بوسائل الفهم والإدراك ، والكل قد بسطت له سبل الدلالة على الحق بطريق هداية الإرشاد.

قال تعالى : (وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم صراط الله الذي له ما في السموات وما في الأرض ألا إلى الله تصير الأمور)^(٣).

فالفرق راجع إلى الأنفس الإنسانية ومدى تقبلها ، إذ يختلف البشر في مبلغ استجابتهم للحق؛ فالذين صفت نفوسهم واستقامت سريرتهم سرعان ما يقبلون عليه مذعنين

(١) الأعراف آية : ٢٠ .

(٢) انظر في ظلال القرآن - سيد قطب ج ٣ ص ١٤٠٠ ، دار الشروق ، (ط : ٤) ١٣٩٧ هـ .

(٣) الشورى آية : ٥٢ ، ٥٣ .

خاضعين . "وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين ومالنا لا نؤمن بالله وما جاءنا من الحق ونطمع أن يدخلنا ربنا مع القوم الصالحين" (١). أما أولئك الذين اجتالتهم الشياطين فطمست النور في نفوسهم ، فإنهم يعرضون عن الحق كائناً ما كانت دلائله وبراهينه إذا كان لايناسب أهواهم، وأما إذا وافقها فإنهم يأتون إليه مدعنين "وإذا قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم" (٢) . فما السبب الحقيقي لهذا الإعراض ؟ (٣) . نعم إنه لسؤال ذو أهمية ومكانة كبيرة ، أناس ضلوا الطريق وتكبوا الصراط ليس عن عدم وضوح في الحق ولا عن قلة في دلائله وبراهينه ولانقصير من جانب الرسل والدعاة فأين الخلل إذا ؟ إنه في المدعويين أنفسهم وذلك مايجعله موضوعاً جديراً بالدراسة خاصة في ميدان الدعوة كي تتجلى معالم الحق فيه .

وهذا الموضوع «نوافع الإنكار» في العهد النبوي الشريف ، عهد خير الخلق ومعلمهم الخير، لاشك له جوانب عديدة متداخلة ومتشابكة ، ويتطلب كثيراً من الجهد والبحث والتقصي والتحليل في مصادر الهدى والنور (القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة وشروحهما) بمحاولة الاستفادة من صور الإنكار في عهده صلى الله عليه وسلم - في الحكم على الإنكار كظاهرة يمكن إخضاعها للبحث العلمي المنهجي بحيث يمكن اقتراح سبل لمعالجتها .

إن موقف المنكرين موقف معقد ومركب ، اختلف الناس فيه فهماً وتفسيراً ، إلا أن كثيراً مما كتب حوله وما صدر في ذلك من أحكام قد لا تستند إلى دليل ولا تقوم على بحث وتمحيص ولا تخلو من عاطفة " ومع أن من الأفعال ما قد ينبىء عن حقيقة الدوافع فإن الجزم بأن سبباً بعينه وراء الإعراض دون برهان من الله لا يخرج عن دائرة الظن

(١) المائدة آية : ٨٣ . ٨٤ .

(٢) الأنفال آية : ٣٢ .

(٣) أصول الإعلام الإسلامي وأسمه د/ سيد محمد الساداتي ، ص ٥٤ ، دار عالم الكتب . (ط:١) ١٤٠٦هـ .

والتخمين، ذلك أن سببه في الحقيقة من مكونات النفوس التي لا يعلمها إلا خالق النفوس
جل جلاله ..^(١) "ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير"^(٢).

(١) أصول الإعلام الإسلامي - ص ٥٤ (مرجع سابق) .

(٢) الملك - ١٤ - .

الاستدلال على مشكلة البحث :

ومن هنا رأى الباحث أن يستفرغ وسعه في تحديد دوافع الإنكار ، وبيان سبل علاجها في عهد الرسول - صلى الله عليه وسلم - من خلال العودة إلى الوحي بشقيه ، والدراسات الإنسانية الإسلامية.

وقد دعا الباحث إلى موضوع هذا البحث ملاحظه من كثرة القصص القرآني حول تكذيب الأمم لرسول الله حيث ذكر القرآن الكريم قصص خمسة وعشرين مجتمعاً إنسانياً^(١) دعتهم رسولهم بكل ما أوتوا من قوة في البرهان وتأييد من الله بالمعجزات الحسية والعقلية ومع كل هذا تجد أن عدد المؤمنين قليل، بل إن ما ذكره القرآن من عدد الأنبياء والرسول على سبيل الإجمال أكثر من ذلك بكثير " ثم أرسلنا رسلاً نورا كلما جاء أمة رسولها كذبوه فأتبعنا بعضهم بعضاً وجعلناهم أحاديث فبعداً لقوم لا يؤمنون"^(٢) " فأخبر الله عن هؤلاء الأمم أنهم تطابقوا على تكذيب رسولهم وأنه عمهم بالهلاك"^(٣) "كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون أتواصوا به بل هم قوم طاغون"^(٤) ومعلوم قطعاً أن الله لم يهلك هذه الأمم الكثيرة إلا بعد ماتين لهم الهدى فاختاروا عليه الكفر، إذ لو لم يتبين لهم الهدى لم يهلكهم"^(٥) "وما كنا مهلكي القرى إلا وأهلها ظالمون"^(٦) .

ترى ما الدافع الحقيقي لهذا الإنكار ؟ أو ما السبب الحقيقي للإعراض عن الحق؟ تلك قضية يذهب الناس في تحليلها مذاهب شتى. وهم في حكمهم عليها ربما كان كثير منهم يقف عند الأسباب الظاهرة دون النفاذ إلى ما وراءها ؛ فربما أعادوا ذلك إلى عدم

(١) انظر فصول في الدعوة والثقافة الإسلامية ، د/ حسن عيسى عبدالظاهر ص ١٤٨ ، ط ١ ، دار القلم - الكويت . ١٤٠١هـ .

(٢) سورة المؤمنون آية : ٤٤ .

(٣) هداية العياري ، ابن القيم ، ص ١٤ ، توزيع الجامعة الإسلامية . ب : ت .

(٤) الذاريات آية : - ٥٢ ، ٥٣ - .

(٥) هداية العياري ، ص ١٤ .

(٦) سورة القصص آية : ٥٩ .

ملاحة الظروف الاتصالي، أو عدم كفايته عند المرسل، أو عدم ملاحة وسيلة الاتصال، أو قصور عند المتلقي، أو عوارض متعلقة بالرسالة نفسها، أو غير ذلك من معوقات الاتصال والعوارض الذاتية أو الخارجية * (١).

ومادامت الرسالة من الله، والرسول مصطفىً من الله، فإنهما لا يمكن أن يكونا سبباً من أسباب الإعراض، فلم يبق إذاً إلا المتلقي أو المدعو.

ولأن رسالة الإسلام الخالدة التي أتى بها محمد بن عبدالله - صلى الله عليه وسلم - هي أكمل الرسالات، ورسولها أشرف الرسل وأفضلهم، فإننا نختارها نبراساً نسير في فيئه وظلاله، لنبين حقيقة هذا الإعراض وهذا الكنود الذي قوبلت به من قبل المدعويين في زمان الرسالة المحمدية العالمية، فقد وجد في زمانه الوثني والكتابي والمنافق .

وهذه الفئات البشرية التي اجتمعت في عهد الرسالة المحمدية لم يمنعها من قبول الحق عدم موضوعية الرسالة ولا قصور في الرسول دون شك، وذلك ما انتهى إليه الدارسون من قبل إن معارضة المشركين للرسالة والرسول ليست بسبب موضوعية الرسالة وما فيها من هداية للحق ومن توجيه إنساني كريم في السلوك إلى الطريق المستقيم بل لأسباب خارجة عن ذلك تماماً .. (٢).

و ترجع القيم العقلية والروحية المنخفضة لأغلب بني الإنسان إلى حد كبير للنقائص الموجودة في جوهم السيكلوجي * (٣) . « إن الملا من قريش كانوا يتبينون الحق في كل حركة قولية وفعلية تنبض بها حياة الرسول - صلى الله عليه وسلم - ، وكانوا في قرارة أنفسهم يتناجون بذلك ويدركون الانفصام بين شخصيتهم الذاتية ومسالكهم العملية تجاه الدعوة الناشئة، وإن لم يعلنوا كثيراً عن هذا الانفصام فإنهم لم يستطيعوا كتمانهم أبداً بل غلبهم خاطر النفس حيناً ، فباحوا بما يدور في خلدهم وكانوا من الجرأة الجريئة أن يعترفوا بالحق وأنه مع النبي - صلى الله عليه وسلم - ومع ذلك تراهم يرددون ذلك بعدم

(١) أصول الإعلام الإسلامي - ص ٥٤ ، ٥٥ . (مرجع سابق) .

(٢) مفاهيم القرآن في العقيدة والسلوك - محمد البهي - ص ٩٢ مكتبة وهبة ط : ١ (١٣٩٢هـ) .

(٣) الإنسان ذلك المجهول . الكسيس كاريل ، ص ١٧٥ دار المعارف . بيروت . ط : ٣ (١٩٨٠ م) .

الاستجابة لأسباب لا تمت إلى طبيعة الحق نفسه ولا إلى عدم درايتهم به، وإنما ترتبط بروابط فكرية سائدة،^(١) . إذا لم يكن وجود الحق ناشئاً من خطأ فكري صور لدى الجاحد الحق باطلاً والباطل حقاً . فإن وجود الحق عندئذ يرجع إلى إنحراف خلقي في النفس^(٢) .

هذا الإنسان العجيب يحمل من الخصائص والصفات ما الله به عليم، سواء أكانت حسنة أم سيئة، والسيئة هي لب البحث وغرضه .

إن أشد القلوب استعصاء على الهدى والاستقامة قلوب عرفت ثم انحرفت ، ولقد كان كبراء قريش يستمعون إلى القرآن ، ولكنهم يجاهدون قلوبهم ألا ترق له ويمانعون فطرتهم أن تتأثر به ، ويصدونها عنه وتجادبهم إليه قلوبهم فيمانعونها^(٣) ؟ !

ولزيادة الإيضاح يورد شامد على موقفهم هذا، فهامو أحد رجالات قريش وكبرائها يقول : يامعشر قريش .. قد كان محمد فيكم غلاماً حدثاً أمضاكم فيكم، وأصدقكم حديثاً، وأعظمكم أمانة، حتى إذا رأيتم في صدغية الشيب وجامكم بما جامكم به قلتهم ساحر ، لا والله ما هو بساحر ...، وقلتهم كاهن لا والله ما هو بكاهن ...، وقلتهم شاعر ... لا والله ما هو بشاعر ، وقلتهم مجنون لا والله ما هو بمجنون .. يامعشر قريش فانظروا في شأنكم ، فإنه والله لقد نزل بكم أمر عظيم^(٤) . "إن مشركي العرب في جاهليتهم وخاصة تلك الطبقة التي كانت تتصدى للدعوة من قريش، لم يكونوا يشكون في صدق محمد - صلى الله عليه وسلم - فقد عرفوه صادقاً أميناً، ولم يعلموا عنه كذبة واحدة في حياته الطويلة بينهم قبل الرسالة ، كذلك لم تكن تلك الطبقة التي تتزعم المعارضة لدعوته تشك في صدق رسالته وفي أن هذا القرآن ليس من كلام البشر ولا يملك البشر أن يأتوا بمثلها. ولكنهم على الرغم من ذلك كانوا يرفضون إظهار التصديق، ويرفضون الدخول في الدين

(١) الدعوة والإنسان ، د/ عبدالله الشاذلي ، ص ٤١١ . المكتبة القومية الحديثة ب : ت .

(٢) الأخلاق الإسلامية وأسسها ج ١ ص ٦٥٩ ، عبدالرحمن حسن الميداني - دار القلم - بيروت - ط: ١ (١٣٩٩هـ) .

(٣) انظر في ظلال القرآن ، ج ٤ ص ٢٢٣١-٢٢٣٢ . (مرجع سابق) .

(٤) السيرة النبوية . أبي محمد عبدالملك بن هشام الماعري ج ١ ص ٢٦٥ . تعليق / طه عبدالرؤف سعد ، دار الجليل .

بيروت ١٩٧٥ م .

الجديد. إنهم لم يرفضوا لأنهم يكذبون النبي - صلى الله عليه وسلم - ولكن لأن في دعوته خطراً على نفوذهم ..^(١) . فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون^(٢) . وعلى هذا فالمشكلة هي أن هناك أسباباً أخرى تتعلق بالمدعويين أنفسهم ولا تتعلق بالرسالة ولا بالرسول - صلى الله عليه وسلم -، لقد كان من الممكن بعد هذا الاعتراف بالحق أن يضرب الوحي صفحاً عن بيان أسباب الإنكار لدى هؤلاء الذين يعترفون بالحق، ويعرفونه جيداً ولا يؤمنون به، ولكن تعرض القرآن إلى دواعي الإنكار ودوافعه وكشف ما في نفوسهم لإبراز أن تلك الدوافع لاتصل بطبيعة الحق ذاته ولا يخلل في مناهجه وأسلوبه، أو أحكامه وتشريعه، وإنما ترتبط بفساد اجتماعي سائد وبأفكار متوارثة أو بفساد نفسي وإدراكي وقلبي، وأنت حينما تفتش في موقف معين لإنسان، أو جماعة لا يخلو تصرفها في هذا الموقف من أن يكون متأثراً بالجو الاجتماعي المحيط، أو بدوافع نفسه صرفة؛ وفي كل من الحالتين يبقى التمييز بين مسلك الإنسان أو الجماعة الفعلي، وبين ما قد تستشعره هذه الجماعة، أو ذاك الإنسان من معرفة نظرية بحقيقة هذا الموقف^(٣) .

بل إن القرآن الكريم أشار بوضوح إلى ما وصلوا إليه في عنادهم ومكابرتهم في قبول الحق ... "ولونزلنا عليك كتاباً في قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين"^(٤) . فهو يكشف عن طبيعة هذا الإنكار، إنه التعنت وعدم الرغبة في التعرف على الحق؛ فالنص القرآني يرشد إلى حقيقة إنكارهم ذلك بأن إدبار كفار قريش عن الحق ومكابرتهم وعنادهم لم يكن إلا عن نقص في الاستجابة للحق وعدم توجه لطلبه والاستماع إليه بعناية وتفكير^(٥) .. فبين القرآن الكريم للرسول الكريم - صلى الله عليه وسلم - أن أسباب إنكارهم ليست تابعة من خلل في الرسالة أو الرسول ، وكان الله عز

(١) في ظلال القرآن ، ج ٢ ص ١٠٧٤ . (مرجع سابق) .

(٢) سورة الأنعام آية : ٢٣ .

(٣) الدعوة والإنسان ص ٤٦٦ (مرجع سابق) .

(٤) سورة الأنعام آية : ٧ .

(٥) أنظر أصول الإعلام الإسلامي وأسسها ، ص ٥٩ . (مرجع سابق) .

وجل يبين له أسباب ذلك ومناشئ من طباع البشر وأخلاقهم واختلاف استعدادهم ليعلم أن الحجة مهما تكن ناهضة والشبهة مهما تكن داحضة فإن ذلك لا يستلزم الإيمان -مهما قامت عليه الحجة وانحسرت عنه غمة الشبهة- إلا في حق من كان مستعداً له، وزالت موانع الكبر والعناد، أو التقليد عنه^(١) . فهناك حواجز نفسية وسلوكية حالت بينهم وبين المسارعة إلى تلقي الحق بلا جدال ولا تأخير ، ولعل في القصة الآتية إظهاراً لأحد تلك الموانع : سأل أحد أصحاب أبي جهل عن حقيقة هذا الدين الذي جاء به محمد -صلى الله عليه وسلم- وهل هو حق ؟ فأجاب قائلاً : " تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف، أطعموا فأطعمنا ، وحملوا فحملنا ، وأعطوا فأعطينا حتى إذا تحاذينا على الركب، وكنا كفرسي رهان قالوا : منا نبي يأتيه الوحي من السماء ، فمتى ندرك مثل هذه، والله لا نؤمن به أبداً ولا نصدقه^(٢) . إذا ما الذي دفع إلى الإنكار ؟ إنه الحسد المقيت يتبين من ثنايا حديث أبي جهل .

فهذا شاهد واحد والشواهد كثيرة ،ودافع آخر تبينه الآية الكريمة الآتية : " وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم^(٣) .

قال المفسرون : القريتان مكة والطائف ، والرجلان الوليد بن المغيرة وأبومسعود عروة بن مسعود الثقفي، ودوي أن الوليد بن المغيرة يسمى ريحانة قريش - كان يقول : لو كان مايقوله محمد حقاً لنزل علي أو علي أبي مسعود^(٤) . لم يكن بوسعه التصديق بهذا اليتيم الفقير وهو من هو في المركز الاجتماعي المرموق، والمال الواسع، وكثرة الولد؛ فما هو داء الكبر وهو أحد الدوافع الرئيسية المانعة من الانقياد للحق؛ يتبين من ثنايا هذه الآية والشواهد عليه كثيرة تأتي في حينها إن شاء الله . والكبر إذا تمكن من الإنسان قد يؤدي به والعياذ بالله إلى الكفر بالله " وذلك أن المستكبر عن الحق يبتلى بالانقياد للباطل فيكون

(١) تفسير القرآن الحكيم . الشهير بتفسير المنار . محمد رشيد رضا . ج ٧ ص ٢١٠ ، دار المعرفه . بيروت ط : ٢٠٠٥ .

(٢) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٢٧٦ . (مرجع سابق) .

(٣) سورة الزخرف آية : ٢١ .

(٤) انظر الجامع لأحكام القرآن - أبي عبدالله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي . - ج ١٦ ص ٨٢ .

المستكبر مشركاً كما ذكر الله عن فرعون وقومه^(١) "وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً"^(٢) .

وفي قصة امتناع إبليس عن السجود وحقيقة امتناعه "قالرب كان يعلم ما في قلب إبليس من الكبر والحسد ما لا يعلم الملائكة، فلما أمرهم بالسجود ظهر ما في قلوب الملائكة من الطاعة والمحبة والخشية والانقياد فبادروا إلى الامتثال وظهر ما في قلب عدوه من الكبر والغش والحسد"^(٣) "أبى واستكبر وكان من الكافرين"^(٤) .

ويبرز شاهد آخر ودافع آخر بعد الانتقال والهجرة إلى المدينة المنورة، حكى الأنصار عن رأس النفاق عبدالله بن أبي قولهم للرسول - صلى الله عليه وسلم - : "يارسول الله أرفق به فوالله لقد جاأنا الله بك، وإن قومه لينظمون له الخرز ليتوجوه ، فإنه ليرى أنك قد استلبته ملكه"^(٥) . فإلى جوار الحسد يظهر دافع حب الملك، والرئاسة واضحاً جلياً .

"والأسباب المانعة من قبول الحق كثيرة منها : الجهل به، فإن من جهل شيئاً عاداه وعادى أهله، فإن انضاف إلى هذا السبب بغض من أمره بالحق، ومعاداته له، وحسده؛ كان المانع من القبول أقوى، فإن انضاف إلى ذلك إلفه وعادته ومرياه على ما كان عليه أبأؤه ومن يحبه ويعظمه قوي المانع، فإن انضاف إلى ذلك توهمه أن الحق الذي دعي إليه يحول بينه وبين جاهه وعزته وشهواته وأغراضه، قوي المانع من القبول جداً، فإن انضاف إلى ذلك خوفه من أصحابه وعشيرته وقومه على نفسه وماله وجاهه ...، إزداد المانع من قبول الحق قوة"^(٦) .

وهكذا ترى بوضوح إشارات الإمام ابن القيم لبعض هذه الأسباب ومسبباتها

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ، جمع القاسم ، ج ٧ ص ٦٢٩ . طبعة مكتبة المعارف - الرياط المغرب . بتت باشراف : المكتب التعليمي السعودي بالمغرب .

(٢) سورة النمل آية : ١٤ .

(٣) التفسير القيم ، ابن القيم ، ص ١٠٢ و ١٠٤ ، دار الفكر . بت :

(٤) سورة البقرة آية : ٢٤ .

(٥) السيرة النبوية لابن هشام، ج ٢ ص ١٦٨ (مرجع سابق) .

(٦) هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى، ص ١٦ . (مرجع سابق) .

ودرجات تفاوتها من ضعف وقوة .

وواجب أهل الحق أن يعرفوا أن عداوة هؤلاء للحق ناشئة من نفوسهم، وليست ناشئة من انعدام الحجج المقنعة التي تبين الحق وتميزه من الباطل في أدلته وشواهدة، بحيث يصير مشهوداً للقلب كشهود العين للمرئيات^(١) .

كل ذلك جعل الباحث يشعر أن هناك دوافع لدى المدعويين هي السبب الرئيس فيما كانوا فيه من الضلال، وعدم الانصياع للحق، وهي بحق تحتاج إلى جهد علمي، ويحث متأن دقيق يخرجها واضحة جلية ليستفيد منها الدعاة في كل زمان ومكان.

ومعرفة الدوافع وسبل معالجتها، مما يمكن من إظهار الحق ونشره بين الناس، أو لعلها تكون مما يساعد الناس على قبول الحق .

(١) سيكولوجية القصة في القرآن ، د/ التهامي نقرة ، ص ٤٤١ .. الشركة التونسية ، ط : ٢ .

تجديد المشكلة البحثية

وفي ضوء ما تقدم تكون مشكلة البحث قد تحددت أبعادها ويمكن صياغتها على النحو التالي :

دلت الملاحظة المتأنية التي قام بها الباحث باعتماده بعد الله عز وجل على القراءة المركزة والمتكررة في أهم المصادر والمراجع الرئيسية، التي لها علاقة مباشرة بالبحث، وعلى رأسها كتاب الله وسنة رسوله - صلى الله عليه وسلم - وسيرته إلى أن هناك دوافع قد رسخت في نفوس المدعوين وقلوبهم كانت سبباً رئيساً في الامتناع عن الاستجابة لداع، الله، بل تعدى الأمر ذلك فأدى بهم والعياذ بالله إلى الاستهزاء بالرسالة والرسول، بل أنكى من ذلك وأشد حيث أوصلهم والعياذ بالله إلى تحدي الدعوة، ومحاولة صد الناس عنها .
فالبحت إذاً محاولة للكشف عن هذه الدوافع وبيان أصولها وبواعثها وحقيقتها ومدى تغلغلها في الشرائح البشرية التي كونت المجتمع زمن النبوة وكانت سبباً في ضلال هؤلاء، ومن ثم بيان معالجتها المعالجة السليمة باستخدام الوسائل والأساليب المناسبة والمتاحة،
ونظراً لطبيعة البحث فإن الجهد فيه سينصب على الإجابة عن أسئلة محددة هي :

تساؤلات البحث :

- على أي شيء فطر البشر ؟
- ما المؤثرات على الفطرة ؟
- من هم المنكرون في عهد الرسول - صلى الله عليه وسلم - ؟
- ما أصنافهم ؟
- وبم يتمايزون ؟
- وما علاقة الظروف المحيطة بهم وقت إنكارهم ؟

- ما دوافع الإنكار لدى كل صنف منهم ؟
 - وكيف تصنف ؟
 - إلى أي شيء ترجع ؟
 - وهل هناك جوانب اتفاق أو اختلاف بينهم فيها ؟
 - هل هي قابلة للعلاج ؟ وكيف ؟
 - كيف واجه الرسول - صلى الله عليه وسلم - مواقف أولئك المنكرين ؟ وما الآثار الدعوية التي ترتبت على ذلك ؟
 - كيف يُستثمر أسلوبه - صلى الله عليه وسلم معهم في مواجهة مواقف منكري عصرنا هذا ؟
-

أهمية البحث وأسباب اختياره :

ويتضح هنا مدى فائدة هذا البحث للنشاط الدعوي في هذا الزمان فإن اختلف الزمان لم يختلف الإنسان - ميدان الدعوة الأول - بل زاد طغيانه وغروره بما وصل إليه العقل البشري من تقدم مادي ملموس فقد صعد إلى الفضاء وغاص في أعماق البحار. ناهيك عما أحدثته المدنية الحديثة بضجيجها وماديتها الشرسة المحمومة ، وتكالبها المسعور، فقد بعثت القلق في النفوس، وأورثتها أمراضاً خطيرة كثيرة، ولا سبيل لتخفيف معاناة البشرية إلا سبيل الدعوة البصيرة الحكيمة الدؤوبة.

وإدراكاً لهذه الأهمية، وإحساساً بالحاجة إلى عرض هذه القضية بصورة تختلف عما هو موجود فيما كتب فيه، حيث غلب عليه الرصد دون محاولة التفسير أو ردّ الأسباب إلى مسبباتها واقتراح الحلول والعلاج ، فقد توجهت النية إليه بعد القراءة المستفيضة حوله، والاستشارة العلمية بالإضافة إلى أسباب أخرى منها :

- القراءة المستمرة لجهود السابقين الدعوية .

- إحساس الباحث بأهمية هذه الدراسة لخدمة المعرفة الإنسانية في أشرف مجال وهو إعلاء كلمة الله.

- وكذلك ارتباطه بتخصص الباحث ، وتوفير إمكانيات إجرائه.

أدوات جمع مادته العلمية :

بالنظر إلى أن البحث بالصورة التي ذكرت بحث مكتبي وثائقي فإن الباحث سيعتمد بعد الله على القراءة المتعمقة لمعظم الدراسات السابقة في مجال البحث من جميع جوانبه وفي مقدمتها كتاب الله الكريم وسنة نبيه الأمين - صلى الله عليه وسلم - وكتب التفاسير والحديث وكتب السير والتاريخ والدراسات النفسية الحديثة والدراسات الاجتماعية ودراسات الإقناع والتأثير . وستكون هذه - إن شاء الله - هي الأساس في جمع مادته العلمية.

مكانة البحث من الدراسات الدعوية السابقة

لم أعرُ فيما اطّلعُ عليه من دراسات وأبحاث وكتب على دراسة شبيهة به، وإن كثرت الإشارة إلى موضوعه من قبل العلماء والدعاة، والمهتمين بقضايا الدعوة كما مر من قبل^(١).

(١) انظر إحياء علوم الدين لأبي حامد محمد الغزالي :

فقد تطرق - رحمه الله - إلى بعض هذه الدوافع وأسبابها واستفاض فيها . وبالآثار التي نتجت عنها . ولكن مانحن بصدده يختلف عن ذلك فالهدف هنا هو دراسة هذه الدوافع من جميع الجوانب ونبعث عن سبل تخطيها وعلاجها ومدى علاقتها بالنشاط الدعوي .

وانظر الأخلاق الإسلامية وأسما لعبد الرحمن حبنكة الميداني :

فقد تطرق لبعض من هذه الدوافع ولكن تناوله لها كان أقل شمولاً من دراسة الغزالي - رحمه الله - ناهيك عن كونها قاصرة في جانب من الجوانب حيث لم يبين موقف الداعية من تلك الدوافع بل إن تركيزه كان على دافع الكبر أما البقية فقد تكلم عنها باختصار شديد .

وهناك بعض الكتابات المتفرقة في كتب متنوعة وغالبها ربطت بكتابات نفسية أو اجتماعية أو أخلاقية ولكن هذه الكتابات لم تنص على هذه الدوافع إلا بقدر يسير وبإشارات مجملية حيث أن موضوعها لا يتعلق بهذه الدراسة ومن أهم هذه الكتب : " دستور الأخلاق في القرآن الكريم للدكتور / محمد عبدالله بركاز - رحمه الله - ومع أهمية هذا الكتاب في مجاله إلا أنه لم يتناول هذه الدوافع بتفصيل وإنما الذي تطرق إليه مماله علاقة بموضوع هذا البحث وبالتحديد بالفصل التمهيدي في بحثي هو موضوع :

" الخير والشر واختيار الإنسان لأحدهما "

وكذلك من هذه الكتب كتاب " هداية العياري في أجوبة اليهود والنصارى " لابن القيم - رحمه الله - حين أشار إلى أن من هذه الدوافع ما يؤدي إلى نكران الحق وجحوده ولكن كلامه كان منصباً على أهل الكتاب بخاصة ..
كذلك د/ سيد محمد ساداتي الشنقيطي - سلمه الله - أشار بوضوح إلى أن هناك أسباباً تتصل بنفسيات المدعويين لا يعلّمها إلا خالقها جل شانه كانت هي الأسباب الرئيسية فيما وصلوا إليه من جحود الدعوة وتحديدها وذلك في كتابه " أصول الإعلام الإسلامي وأسسها " ج ٢ . وهو جزء من رسالته لنيل شهادة للدكتوراه .

هذا ما اطلعت عليه في هذا الصدد ولذا فإنه يتبين للقارئ أن الموضوع الذي نحن بصدده
جديد كل الجدة بعنوانه هذا والله أعلم وصلى الله على نبينا محمد. وعلى آله وصحبه
وسلم .

حدود البحث

الحدود الزمنية للبحث :

هي فترة زمن الرسالة الحمديّة من بداية الأمر الإلهي لرسوله الكريم بالنبأرة والدعوة حتى آخر كلمة تفوه بها المصطفى - صلى الله عليه وسلم - " وهي الفترة التي مكثها - صلى الله عليه وسلم - يدعو إلى ربه ."

الحدود الجغرافية :

فهي الجزيرة العربية والمناطق التي وصل إليها رسل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كبلاد الشام ومصر وفارس والعراق ، ولاشك أن من أهم أسباب اختيار هذه الفترة تنوع أصناف المنكرين في ذلك الزمن ، حيث واجهت الدعوة الوثني وعقليته السانجة حيث عبد الشجر والحجر، وواجهت الكتابي صاحب العلم والكتب المقدسة ومع ذلك ضل الطريق ، فجحود العارف غير جحود الجاهل ، وكذلك ظهرت شريحة ثالثة هي فئة المنافقين الذين لم يستطيعوا أن يصرحوا بكفرهم بعد اشتداد قوة الإسلام خوفاً من العقاب. فلا شك أن تباين واختلاف هذه الفئات من البشر في الطباع والمشكلات والأحوال الدينية والاجتماعية والاقتصادية واختلاف بيئاتهم كذلك ، فإن هذا لا شك يظهر لنا أكبر عدد ممكن من هذه الدوافع التي سببت الإنكار حيث اختلفت درجته من فئة لأخرى .

نوع البحث ومنهجه

بالنظر إلى أن البحث بالصورة التي ذكرت فإنه بحث مكتبي وثائقي لذلك فإن الباحث سيعتمد في الوصول إلى حقائقه على مناهج البحث التي تلائم طبيعته وهي :

١ - منهج الاسترداد التاريخي :

يدخل البحث في مجال الدراسات التاريخية لأن الباحث يحتاج في ذلك لاسترداد الماضي، حيث يتم جمع البيانات الماضية وتنظيمها وإعادة تصنيفها وتفسير هذه الظاهرة، وصولاً إلى خلاصات تسهم في إلقاء الضوء على فرضيات جديدة .

٢ - المنهج الوصفي :

حيث يجري تشخيص طبيعة وسمات وخصائص ظاهرة الإنكار إذ توصف الظاهرة وأبعادها من خلال إيراد النصوص الواردة في القرآن والسنة الخاصة بهذه الدوافع ومسبباتها كخطوة أولى وأساسية في هذا المنهج ، ودراستها وتحديد معانيها ، وعلى أساس هذه القاعدة العريضة نستطيع بعون الله أن نستخلص المعيار العام لهذه الدوافع، ويجب أن نميز ونحدد دوافع الإنكار دافعاً دافعاً ، وأن نحلل مضمون كل دافع ، وأن نستخلص منها جميعاً المبادئ العامة للدوافع على سبيل العموم .

والتحليل والوصف للدوافع المقررة وهو العمل الأول والأساسي لهذا العمل يمكننا من إنجاز :

أ - استخلاص مفهوم كل دافع على حده وبيان الأفعال التي يمكن أن تندرج

- تحتها والأفعال التي لا يصح إدراجها تحتها .
- ب - الكشف عن علاقة كل دافع بغيره من الدوافع وعن أوجه التماثل وأوجه التباين بينها، ذلك لأن عالم الدوافع حديقة وارقة تتداخل فيها الأغصان وتتشابك الفروع وعلى الرغم من ذلك يظل التين تيناً والعنب عنباً .
- ج - ضم أي دافع يسبب الإنكار إلى قائمة الدوافع حتى ولو لم تكن اعتبرت منها لدى الباحثين السابقين .
- د - تصنيف الدوافع على أساس مبدأ عام .
- هـ - تحديد شروط وضوابط لا بد من توافرها لأي فعل لكي يدرج في الدوافع المانعة من قبول الحق .
- و - إظهار مدى فائدة دراسة هذه الدوافع للحياة المعاصرة ومدى حاجة هذه الحياة لمعرفةا .

٣ - كما سيستخدم الباحث " المنهج التكويني البنائي " حيث تجري دراسة العلاقات المتبادلة بين الحقائق التي تم التوصل إليها بهدف ربط الأسباب بمسبباتها وربط النتائج بمقدماتها^(١) .

(١) انظر الفضائل الخلقية في الإسلام د. أحمد عبدالرحمن إبراهيم ص ٣٥-٣٦ .
وانظر بحوث الإعلام الأسس والمبادئ د/ سمير محمد حسين من ص ١٢٢ إلى ص ١٥٥ ، عالم الكتب .
وانظر المدخل إلى البحوث السلوكية ، د/ صالح المساف من ص ١٨٩ إلى ص ٢٩٧ ، ط ١ ، الميكان للطباعة والنشر .
وانظر البحث العلمي ، د/ فاخر عاقل ، من ص ١٠١ إلى ١٢٥ دار العلم للملايين ، الطبعة الأولى .
وانظر أصول البحث العلمي ومناهجه ، د/ أحمد بدر ، من ص ٢٧٩ إلى ٢٩٤ ، ط ٥ ، وكالة المطبوعات .
وانظر أساسيات البحث العلمي ، د/ حنان سلطان ، د/ غانم العبيد ، ص ٢٤٩ - ٢٥٢ ، ط ١ ، دار العلوم للطباعة والنشر .
وانظر /أصول البحث الاجتماعي ، د/عبدالباسط محمد حسن ، ص ٢١٣ - ٢١٥ مكتبة وهبة - القاهرة ط ١ .

تقسيم الدراسة

العنوان : "دوافع الإنكار في العهد النبوي وسبل علاجها"
مقدمة منهجية وتشمل :

- توطئة .
- الاستدلال على المشكلة البحثية .
- تحديد المشكلة البحثية .
- التساؤلات البحثية .
- أهمية البحث وأسباب اختياره .
- مكانة البحث من الدراسات السابقة .
- حدود البحث الزمنية .
- حدود البحث الجغرافية .
- نوع البحث ومنهجه .
- تقسيم الدراسة .

الفصل التمهيدي : ويحتوي على :

- المبحث الأول : كون الناس على الفطرة .
- المبحث الثاني : قابلية الإنسان للخير والشر .
- المبحث الثالث : المؤثرات على الفطرة .

الفصل الأول : المنكرون والظروف المحيطة بهم : ويحتوي على مبحثين :

- المبحث الأول : أقسام المنكرين : ويشتمل على المطالب الآتية :
- المطلب الأول : الوثنيون العرب .
- المطلب الثاني : أهل الكتاب .
- المطلب الثالث : المنافقون .
- المبحث الثاني : الظروف المحيطة بهم : ويشتمل على المطالب الآتية :

- المطلب الأول : الظروف الدينية .
- المطلب الثاني : الظروف الاجتماعية .
- المطلب الثالث : الظروف الاقتصادية .

الفصل الثاني : دوافع الإنكار : ويحتوى على المباحث الآتية :

- المبحث الأول : دافع الكبر .
- المبحث الثاني : دافع الغرور .
- المبحث الثالث : دافع الحسد .
- المبحث الرابع : دافع الخوف .
- المبحث الخامس : دافع التقليد الأعمى .

الفصل الثالث : سبل العلاج : ويشتمل على المباحث التالية :

- المبحث الأول : السبل الحسية .
- المبحث الثاني : السبل العقلية .
- المبحث الثالث : السبل الأخلاقية .
- المبحث الرابع : السبل الاجتماعية .
- المبحث الخامس : السبل النفسية .

الخاتمة : وفيها النتائج والتوصيات .

الفهارس :

- فهرس الآيات القرآنية .
- فهرس الأحاديث النبوية .
- فهرس الأعلام .
- فهرس المراجع .
- فهرس الموضوعات .

هذا ونسأل الله العون والسداد وأن يرزقنا الإخلاص في جميع أعمالنا وأقوالنا إنه سميع مجيب وصلى الله على نبيينا محمد .

شكر وتقدير :

الشكر أولاً وأخيراً لله سبحانه وتعالى على ما أسبغ من نعم مديدة وإذ تأذن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم^(١) . ويقول الرسول (صلى الله عليه وسلم) : " أشكر الناس لله اشكرهم للناس"^(٢) . فأسأله جل وعلا أن يجعل ما بذل في هذا البحث من جهد خالصاً لوجهه الكريم، وأن يوزعنا شكر الآله دائماً وأبداً .

ثم إن الشكر بعد ذلك لوالدي الكريم الشيخ يوسف بن عيسى الملاحي على اهتمامه وكثرة سؤاله، ودعمه لي بتوفير كثير من المصادر. ثم الشكر لأستاذي الكريم والمربي الفاضل د. سيد محمد ساداتي الشنقيطي؛ الذي كان لاشرافه ومتابعته المستمرة، وملاحظاته القيمة أكبر الأثر في سير البحث بصورة منتظمة وطيبة. جزاه الله عني خير الجزاء .

والشكر كذلك للدكتور. عبدالله الزايد. مدير المعهد العالي للدعوة الإسلامية سابقاً، والشكر للدكتور صالح بن سعود آل علي عميد الكلية السابق ووكيل الجامعة حالياً لحثهما لي على طلب العلم وتشجيعهما، وكذلك الشكر للدكتور سعود بن محمد البشر. عميد الكلية السابق والذي حرص على تهيئة المناخ المناسب للاستمرار في حياة الطلب. وكذلك الشكر للدكتور زيد بن عبدالكريم الزيد عميد الكلية لرعايته لي وزملائي في الكلية .

ولا يفوتني ان أشكر اساتذتي الكرام في قسم الدعوة الذين ما فتأوا يسدون إلي النصيحة الصادقة والتوجيه السديد، والشكر أيضاً لكل من ساهم في مساعدتي على إتمام هذه الرسالة، وفي الختام اشكر جامعة الامام محمد بن سعود الإسلامية التي منحتني هذه الفرصة لمواصلة الدراسة وأسأل الله عز وجل أن يوفق العاملين فيها لما يحبه ويرضاه.

كما أشكر كل من ساهم في طباعة وتصوير وإخراج هذا البحث بهذه الصورة .
والله أسأل أن يجزي الجميع عني كل خير، وأخر دعوانا ان الحمد لله رب العالمين،
والصلاة والسلام على سيدنا محمد بن عبدالله وعلى آله وصحبه أجمعين .

(١) إبراهيم - ٧ - .

(٢) صحيح الجامع الصغير وزيادته (الفتح الكبير). محمد ناصر الدين الألباني. المكتب الإسلامي. (ط : ٣) ١٤٠٢هـ .

الفصل التمهيدي : ويحتوي على :

- المبحث الأول : كون الناس على الفطرة.
- المبحث الثاني : قابلية الإنسان للخير والشر.
- المبحث الثالث : المؤثرات على الفطرة.

المبحث الأول

كون الناس على الفطرة

ويحتوي على المطلبين الآتيين:

المطلب الأول : تعريف الفطرة .

المطلب الثاني : كون الناس على الفطرة .

المطلب الأول : تعريف الفطرة .

أولاً : في اللغة :

بالعودة إلى قواميس اللغة العربية تجد معاني عديدة لكلمة الفطرة ، يقتصر منها على ما يجمع عليه علماء اللغة أو يكادون :

فالفطرة معناها : الشق ، وقيدما بعضهم بأنه الشق الأول وجمعه: فطور بمعنى شقوق ، وجاء في التنزيل الكريم " هل ترى من فطور" بمعنى شقوق. ويدل ذلك على الابتداء والاختراع.

وقالوا : الفطرة هي الخلقة ، وكانهم هنا غايروا بين معنى الأصل "فطر" ومعنى الفطرة ، وكانهم أرادوا الخلقة الأولى لأي شيء .

وقالوا : هي الخلقة التي فطر عليها وهو في الرحم من سعادة وشقاوة ^(١) .

وزاد صاحب اللسان الأمر وضوحاً حيث قال بعد إيراده حديث الرسول صلى الله عليه وسلم الصحيح "ما من موالود إلا يولد على الفطرة" ^(٢) قال : " والمعنى أنه يولد على نوع من الجبلة والطبع المهيأ لقبول الدين .. " ^(٣) وجاء في المعجم الوسيط : "الفِطْرَةُ : الطبيعة السليمة لم تشب بعيب" ^(٤) ولعله يستخلص من التعريفات اللغوية إلى أن الفطرة هي : سلامة الإنسان من أي عيب في بداية وجوده، واستعداده لزراعة ما يلقى فيه ويبذر.

الفطرة في الاصطلاح :

تعددت أقوال العلماء بالمراد من الفطرة، وجمهورهم على أن المراد هو الإسلام

(١) انظر تاج العروس - محمد مرتضى الزبيدي - مادة (فطر) دار مكتبة الحياة - بيروت. ب : ت .

وانظر لسان العرب لابن منظور - مادة (فطر) دار لسان العرب - بيروت.، وانظر معجم مقاييس اللغة - لأبي الحسن

أحمد بن فارس - مادة (فطر) دار الفكر. وانظر المفردات في غريب القرآن - الأصفهاني - ص ٢٨٢ دار

المعرفة - بيروت. وانظر المعجم الوسيط - مجمع اللغة العربية - مادة (فطر) - المكتبة الإسلامية - إستانبول .

(٢) صحيح البخاري مع الفتح . له الجنائز . باب (إذا أسلم الصبي ومات هل يصل علىه) ج ٢ ص ٢١٩ .

(٣) لسان العرب - ابن منظور مادة (فطر) (مرجع سابق) .

(٤) المعجم الوسيط - مادة (فطر) (مرجع سابق) .

قال إبن حجر العسقلاني (رحمه الله) : " وأشهر الأقوال أن المراد بالفطرة الإسلام ، قال إبن عبد البر : وهو المعروف عند عامة السلف ، وأجمع أهل التلويل على أن المراد بقوله تعالى "فطرة الله التي فطر الناس عليها" الإسلام" (١) . وقال البخاري رحمه الله : "والفطرة : الإسلام" (٢) هكذا نص عليها .

وذكروا معنى آخر للفطرة ففي شرح النووي لحديث الرسول صلى الله عليه وسلم "ممن مولود إلا يولد على الفطرة" (٣) .

قال النووي : "والأهم أن معناه أن كل مولود يولد متهيئاً للإسلام ، وقال في موضع عن المازني "هي ما هيء له" (٤) .

أما شيخ الإسلام (ابن تيمية) فقد ذكر معنى الفطرة في الحديث السابق فقال "فطرة الله التي فطر الناس عليها وهي فطرة الإسلام" ثم عرفها مضافة فقال "وهي الفطرة التي فطرهم عليها يوم قال "ألست بربكم ؟" قالوا بلى" - ثم قال - "وهي السلامة من الاعتقادات الباطلة ، والقبول للعقائد الصحيحة" (٥) . ويلاحظ هنا أنه عرف "فطرة الإسلام" مركبة .

أما الدكتور علي جريشة حفظه الله فيقول "لسنا محتاجين إلى تعريف الفطرة إلا أن نطالب بتعريف الشمس والقمر والليل والنهار!" (٦) .

ولعله بهذا يعني الطريقة الخفية للفطرة لإدراك وجود الله كما أشار المفكر الإسلامي (محمد قطب) عن هدف الطريقة الخفية فقال "أي حديث عن هذه الطريقة الخفية لن يوضح ماهيتها وكنهها ككل شيء في هذا الكون الهائل العجيب" (٧) .

(١) فتح الباري بشرح صحيح الإمام البخاري . الحافظ أحمد بن علي ابن حجر العسقلاني . ج ٢ ص ٢٤٨ . المكتبة السلفية ب : ت .

(٢) صحيح البخاري مع الفتح - ج ٨ ص ٥١٢ .

(٣) صحيح مسلم بشرح النووي ك . القدر . باب (معنى كل مولود يولد على الفطرة ..) ج ١٦ ص ٢٠٧ .

(٤) شرح النووي على صحيح مسلم . ج ١٦ ص ٢٠٨ .

(٥) مجموع الفتاوى ، ج ٤ ص ٢٤٥ . (مرجع سابق) .

(٦) مناهج الدعوة وأساليبها - د/ علي أبو جريشة - ص ٢٨ دار الوفاء . المنصورة ط : ١ (١٤٠٧هـ) .

(٧) انظر دراسات في النفس الإنسانية - محمد قطب ص ٢١٥ . ١٩٦٧ م .

يتبين من مجموع هذه الأقوال أن السلف عرفوا الفطرة بحسب دلالة النصوص التي يشرحونها أو تمر عليهم أما حقيقة هذه الفطرة وكنهها والكيفية التي توجد بها في الإنسان، فهذا سر من أسرار الله كالحديث عن الروح والنفس ، ويؤدي الحديث عنها إلى الدخول في متاهات فكرية لاحاجة لها وإنما نقر بوجودها .

وقد أجاد الشوكاني -رحمه الله - في هذا الموقف بحيث بين أن الفطرة المقصودة في الآية هي الإسلام والتوحيد ، وقال : إن هذا هو قول المفسرين في فطرة الله ، ولكنه فرق بين الإسلام الفطري المعنى هنا والإسلام الشرعي، وقال : بأن هذا قول جمع من الصحابة، وهذا هو الحق، أضاف إن جمهور السلف على أن المراد بالفطرة هنا الإسلام، وقال آخرون هي البداءة التي ابتدأهم عليها. ثم بين أن هؤلاء أرادوا المعنى اللغوي وأهملوا الشرعي، والشرعي مقدم على اللغوي باتفاق أهل الشرع. ثم بين أن المعنى اللغوي لاختلاف فيه وإنما الاختلاف في الشرعي، ورجح أن معناه الصحيح هو الإسلام^(١) .

وصفوة القول أن الفطرة في كتاب الله وسنة رسوله تعني الإسلام أما المعاني الأخرى فهي تشير إلى مفهوم الفطرة الموصلة للحق ويبدل على هذا ما عرفها به ابن حجر حيث يقول : " المراد تمكن الناس من الهدى في أصل الجبلية، والتهيؤ لقبول الدين " (٢) .

(١) انظر فتح القدير- محمد علي الشوكاني ج ٤ ص ٢٢٤ دار الفكر (١٤٠١هـ) .

(٢) فتح الباري ج ٢ ص ٢٤٩ (مرجع سابق) .

المطلب الثاني كون الناس على الفطرة :

كما أقام الله الكون على سنة ثابتة أقام النفس البشرية كذلك على سنة تتواءم مع الفطرة، والعقل، وسن لها من الشرائع والأحكام ما قوم سبيلها في الحياة، لتسير مهتدية بهدى الله الذي أنشأها موحدة متدينة بدين الإسلام الفطري، والأدلة النقلية والعقلية في هذا لاتعد؛ فما من إنسان إلا وهو مفطور على معرفة الخالق فلو ترك وشأنه ولم تعترضه مؤثرات خارجية؛ لاستدل على الدين الصحيح بفطرته وبآيات الله الماثورة في أرجاء الكون لذلك يقول قس بن ساعدة : "... ومطر ونبات، وأحياء وأموات ، ليل داج، وسماء ذات أبراج، ونجوم تزهو، ويحار تزخر، وضوء وظلام، إلى أن قال : إن في السماء خيراً : (١) . وقال " شرق وغرب ...، ويابس ورطب، وأجاج وعذب، وشموس وأقمار، ورياح وأمطار، وأليل ونهار، وإناث وذكور ...، وآيات في إثرها آيات ...، تبا لأرباب الغفلة ليصلحن العامل عمله، وليفقدن الأمل أمله، كلابل هو إله واحد ليس بمولود ولا ولد .." (٢) وكان هذا الأعرابي يريد تحريك الفطرة التي بداخل نفوس من يخاطبهم ، وأثر عن أبي حنيفة -رحمه الله- أن قوماً من أهل الكلام أرادوا البحث معه في تقرير توضيح الربوبية فقال لهم: أخبروني عن سفينة في دجله تذهب فتمتليء من الطعام والمتاع وغيره بنفسها ، وتعود بنفسها ، فترسي بنفسها ، وتفرغ وترجع كل ذلك من غير أن يديرها أحد ؟! فقالوا : هذا محال لا يمكن أبداً ! فقال لهم: إذا كان هذا محالاً في سفينة؛ فكيف بهذا العالم كله علوه وسفله" (٣) . فهذا إيقاظ للفطرة بهذه القوة التي لاتقهر المدبرة لهذا الكون الهائل .
وفي تشبيهه شيخ الإسلام، ابن تيمية لحقيقة الفطرة روعة حيث يقول : "ومثل الفطرة

(١) السيرة النبوية - إسماعيل بن كثير- ج ١ ص ١٤٧، ١٤٨ - دار المعرفة - بيروت . (١٣٩٦ هـ) .

(٢) نفس المرجع ص ١٤٦ .

(٣) انظر شرح العقيدة الطحاوية - العلامة ابن أبي العز الحنفي - تحقيق جماعة من العلماء - ص ٨٢ ، المكتب

الإسلامي - (ط : ٤) .

مع الحق : مثل ضوء العين مع الشمس، وكل ذي عين لو ترك بغير حجاب لرأى الشمس، والاعتقادات الباطلة العارضة مثل حجاب يحول بين البصر وروية الشمس، وكذلك أيضاً كل ذي حس سليم يحب الحلو، إلا أن يعرض في الطبيعة فساد يحرفه ويجعل الحلو في فمه مرأاً^(١) وهناك شواهد تؤكد هذا المعنى وظهور الفطرة، فما هي إحدى المجلات تروي مقالة نشرت أيام العرب لشاب من جنود المظلات - يوم كانت المظلات والهبوط بها شيئاً جديداً -، يقول : إنه نشأ في بيت ليس فيه من يذكر الله، أو يصلي، ودرس في مدارس ليس فيها دروس للدين، ولا مدرس متدين، نشأ نشأة علمانية مادية؛ أي مثل نشأة الحيوانات ولكنه لما هبط أول مرة ورأى نفسه ساقطاً في الفضاء قبل أن تفتح المظلة، جعل يقول يارب، ويدعو من قلبه وهو يتعجب من أين جاء ه هذا الايمان^(٢). وملحد آخر يقول : إن المرء يؤمن إذا ظهرت نتيجة فحص البول، أنه مصاب بداء السكري يوم لم يكن قد عرف الأنسولين^(٣) وعندما سعد أحدهم في الفضاء الجوي ورأى ذلك المشهد الباهر مشهد الأرض كرة معلقة في الفضاء فتفت فطرته : "ما الذي يمسكها هكذا في الفضاء؟"^(٤) فمن صميم الفطرة أن تحس بالله على نحو من الأنحاء، ولكن لهذه الفطرة طريقة خفية في إدراك وجود الله، ولا يمكن التحدث عن تلك الطريقة الخفية لأن الحديث عنها لن يوضح ماهيتها ما دامت خفية، لكنه ككل شيء في هذا الكون الهائل العجيب، ولكن هناك وسائل مدركة توقظ الفطرة الكامنة وتوجهها إلى الله^(٥)

أمثال هذه النماذج التي ذكرت آنفاً كثيرة، فهناك وسائل وأسباب جعلت فطرتهم تتعري، وتتعرف بوجود الله سبحانه - فمقدرة الفطرة على الاهتداء لوجود الخالق كامنة في داخلها، ولكن أموراً خارجية توقظها وتحركها وتنميتها، أو على أقل تقدير تعطيتها الوحي

(١) مجموع الفتاوى ج ٤ ص ٢٤٧. (مرجع سابق).

(٢) انظر تعريف عام بدين الإسلام - علي الطنطاوي - ص ٤٨. دار الوفاء - بيروت ط: (١٢) ١٤٠٨ هـ.

(٣) نفس المرجع السابق ص ٤٩.

(٤) في ظلال القرآن - ج ٣ ص ١٤٠٦. (مرجع سابق).

(٥) انظر دراسات في النفس الإنسانية - ص ٢١١، ٢١٥، ٢١٦. (مرجع سابق).

والإرادة اللذين تتسم بهما بقية أعمال الإنسان^(١) .

وأولى هذه الوسائل هو هذا الكون الفسيح وبما فيه من آيات عظيمة بثها جل وعلا في أرجائه فجعل الإنسان مشدوهاً أمام كل آية من آياته "في كل شيء تقع عليه العين أو يدركه الحس وأياً كان مستوى الإنسان من العلم والثقافة والمدنية والرقى، فالكون يوقع على حسه توقعيات شتى تتناسب مداركه ومعلوماته .. وفي كل حالة يروعه ويهزه من الأعماق .. يروعه فيبحث عن الخالق هكذا بالفطرة"^(٢) ولذلك وردت آية الفطرة في سورة الروم بعد جوله واسعة في رحاب الكون ومشاهده وبعد استعراض شامل لمظاهر القدرة الإلهية متمثلة في نظام الأسرة وإبداع الكون واختلاف الألوان والألسن^(٣) غير ذلك من الآيات الدالة على عظمة الخالق والمؤكد وجوده واستحقاقه بلا منازع أو شريك الألوهية الخالصة له ثم قال تعالى " فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله. ذلك الدين القيم..^(٤)" هذا التوجيه لإقامة الوجه للدين القيم يجيء في مواعده وفي موضعه بعد تلك الجولات في ضمير الكون ومشاهده وفي أغوار النفس وفطرتها. يجيء في أوانه وقد تهيأت القلوب المستقيمة لاستقباله ..^(٥) .

بل إن القرآن الكريم استعمل هذه الأساليب في إيقاظ الفطرة حيث علم خالقها مكنم اليقظة فيها فقال تعالى "قل لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون * سيقولون لله قل أفلا تذكرون * قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم * سيقولون لله قل أفلا تتقون * قل من بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه إن كنتم تعلمون * سيقولون لله قل فأنى تسحرون"^(٦) .

فهم بقرارة أنفسهم يقرون بأن القوة القاهرة القادرة هي قوة الله وقدرته ولذا فإنهم

(١) المرجع السابق - ص ٢١٦ .

(٢) نفس المرجع ص ٢٢٠ .

(٣) انظر واقع المنهج القرآني - توفيق محمد سبع - ص ١٨٩ دار المختار ط: ٣ : ت .

(٤) الروم - ٣٠ - .

(٥) في ظلال القرآن - ج ٥ ص ٢٧٦٧ (مرجع سابق) .

(٦) المؤمنون (٨٤-٨٩) .

تعلموا بأن مايتخذون من دونه من آلهة إن هم إلا شفعاء كما يظنون فقال القرآن الكريم حاكياً عنهم ذلك "ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله" (١) "مانعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى" (٢).

بل إن نفراً منهم استتكروا هذه الأمور من عبادة صنم ودعاء سوى الله والذبح لغير الله وبلا ذكر اسمه وجهدوا أنفسهم بالبحث عن الحق فهامهم : ورقة بن نوفل، وعبدالله بن جحش، وعثمان بن الحويرث، وزيد بن عمرو بن نفيل، يرفضون مخالطة قوهم ومشاركتهم في تعظيم الأحجار والأوثان ويقولون "تعلموا والله ماقومكم على شيء! لقد اخطأوا دين إبراهيم ما حجر نطيف به لا يسمع ولا يبصر، ولا يضر ولا ينفع؟! يا قوم التمسوا لأنفسكم، فإنكم والله ما أنتم على شيء، فتفرقوا في البلدان يلتمسون الحنيفية دين إبراهيم" (٣).

فحينما زالت الموانع والأسباب التي حجبت الفطرة توجهوا إلى خالقهم، ومما يدل على اهتداء الفطرة إلى بارئها كذلك إذا سلمت من المؤثرات قصة أمية بن أبي الصلت حيث كان مستقيماً أول أمره يبحث عن دين الحق فلما تبين الحق وظهر محمد صلى الله عليه وسلم، ويعت بالرسالة، كفر به حسداً له (٤).

فالفطرة إذا سلمت من هذه الدوافع كالحسد والتقليد، وغيرها، اهتدت إلى فاطرها جل وعلا، بل جاء في صحيح البخاري، أن زيد بن عمرو بن نفيل كان يرفض الأكل من ذبائح الكفار ويقول "ولا أكل إلا ما ذكر اسم الله عليه ويقول : الشاة خلقها الله وأنزل لها من السماء الماء وأنبت لها من الأرض، ثم تذبحونها على غير اسم الله" (٥).

(١) يونس (١٨).

(٢) الزمر (٢).

(٣) السيرة النبوية - ابن هشام - ج ١ ص ٢٠٤، ٢٠٥ (مرجع سابق).

(٤) انظر الوفا بأحوال المصطفى / ابن الجوزي / ج ١ ص ٩٤ - ٩٨ المؤسسة السعودية - الرياض. ب : ت .

وانظر السيرة النبوية / لابن كثير / ج ١ ص ١٢٢ (مرجع سابق). وانظر تفسير البغوي / ج ٢ ص ٢٠٢ دار طيبة . ١٤٠٩ هـ .

(٥) صحيح البخاري مع الفتح ج ٧ ص ١٤٢ (مرجع سابق).

وهذا واضح كل الوضوح في قول الرسول صلى الله عليه وسلم في الحديث القدسي "وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم وأنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم" (١) . قال النووي : "أي مسلمين وقيل : مستقيمين منييين لقبول الهداية .." (٢) "فالفطرة السليمة إذا لم يحصل لها ما يفسدها كانت مقرة بالصانع عابدة له" (٣) فأخبر الله أنه فطر عباده على إقامة الوجه حنيفاً وهو عبادة الله وحده لا شريك له فهذه من الحركة الفطرية الطبيعية المستقيمة "المعتدلة للقلب" (٤) . بل الجميع مقرون بالصانع بفطرتهم وهم خاضعون مستسلمون قانتون مضطرون له جل ، علا . وقد بينت السنة النبوية أحد الأسباب التي تبين توحيد الفطرة في الإنسان . عن عمران بن حصين قال : "قال النبي صلى الله عليه وسلم لأبي : يا حصين كم تعبد اليوم إلهاً ؟ قال أبي : سبعة ، ستة في الأرض وواحد في السماء قال : فأيهم تعد لرغبتك برهبتك ؟ قال : الذي في السماء .. الحديث" (٥) "فأيهم تخصه وتلجأ إليه إذا نابك نائبة" (٦) ولا دليل أعظم من كتاب الله الكريم، فيقول القرآن الكريم مثبتاً هذه الحقيقة "وإذا غشيهم موج كالأظلل دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم إلى البر فمنهم مقتصد وما يجحد بآياتنا إلا كل ختار كفور" (٧) .. وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم أحيط بهم دعوا الله مخلصين له الدين" (٨) ، "فقد فطر الله أنفس البشر على الشعور بسلطان غيبي فوق جميع قوى العالم" (٩) فقد أودع في نفوسهم

(١) صحيح مسلم بشرح النووي له. الجنة وصفة نعيمها وأهلها. باب (الصفة التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار) ج ١٧ ص ١٥٢ .

(٢) المرجع السابق ج ١٧ ص ١٩٧ .

(٣) شرح العقيدة الطحاوية . ص ٨٢. (مرجع سابق) .

(٤) مجموع فتاوى شيخ الإسلام - ج ١٠ ص ١٤٦. (مرجع سابق) .

(٥) جامع الترمذي مع تحفة الاحوذى ج ٩ ص ٤٥٤-٤٥٥ .

(٦) نفس المرجع السابق ج ٩ ص ٤٥٥ .

(٧) لقمان (٣٢) .

(٨) يونس (٢٢) .

(٩) تفسير المنار - ج ٩ ص ٣٤. (مرجع سابق) .

الإيمان به ومعرفة يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : " مامن مولود إلا يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء" ^(١) وفي رواية أخرى "ليس من مولود إلا على هذه الفطرة حتى يعبر عنه لسانه" ^(٢) .. فالمراد تمكن الناس من الهدى في أصل الجبلة والتهيؤ لقبول الدين فلو ترك المرء عليها لاستمر على لزومها ولم يفارقها إلى غيرها؛ لأن حسن هذا الدين ثابت في النفوس؛ وإنما يعدل عنه لآفة من الآفات البشرية كالنقليد" ^(٣).

إذا تبين مما سبق أن الله سبحانه وتعالى غرس هذه الفطرة في نفوس خلقه فكانت هذه الفطرة بمثابة عقد جرى بين الله والإنسان حتى يؤمن بالله ولا يشرك به ففي الحديث القدسي : "يقول الله تبارك وتعالى لأهون أهل النار عذاباً : لو كانت لك الدنيا وما فيها أكننت مفتدياً بها فيقول نعم فيقول قد أردت منك أهون من هذا وأنت في صلب آدم أن لا تشرك .." ^(٤) . وقد جاء تأكيد هذا في كتاب الله الكريم ومن أصدق من الله قيلاً وكفانا به دليلاً صادقاً لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه فقال جل وعلا: "وإذا أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين" ^(٥) يقول ابن كثير - رحمه الله - عن حقيقة هذا العهد الذي جرى بين الله وعباده: يخبر تعالى أنه استخرج ذرية بني آدم من أصلابهم شاهدين على أنفسهم أن الله ربهم ومليكهم وأنه لا إله إلا هو، كما أنه تعالى فطرهم على ذلك، وجبلهم عليه" ^(٦) . وقال ابن الجوزي: "وجماعة أهل العلم على ما شرحنا من أنه

(١) صحيح البخاري / كتاب الجنائز / باب (إذا أسلم الصبي ومات هل يصلى عليه) ج ٤ ص ١١٨، ١١٩. دار التراث العربي - بيروت .

(٢) صحيح مسلم ومعه شرح النووي . ك/القدر . باب (معنى كل مولود يولد على هذه الفطرة ...) ج ١٦ ص ٢١٠ .

(٣) فتح الباري - ج ٣ ص ٢٤٩ (مرجع سابق) .

(٤) صحيح مسلم بشرح النووي . ك/صفة القيامة والجنة والنار . باب (طلب الكافر الغداء بملء الأرض ذهباً) ج ١٧ ص ١٤٧ .

(٥) الأعراف (١٧٢) .

(٦) تفسير القرآن العظيم - ص ٢٦١ ج ٢ . (مرجع سابق) .

استنطق الذر وركب فيهم عقلاً وأفهاماً عرفوا بها ما عرض عليهم^(١) .
ومن تلك الأدلة الواضحة يتبين بما لا يدع مجالاً للشك أن الإنسان فطر حنيفاً سالماً
من الاعتقادات الفاسدة حيث زرعت فيه هذه الفطرة وتعمقت جذورها في كيانه ، فما
أجاب ربه بقوله بلى إلا وهو موقن السؤال " والله تعالى لا يخاطب إلا من يفهم عنه
ولا يجيب إلا من فهم السؤال فأجابتهم إياه بقولهم دليل على أنهم قد فهموا عن الله وعقلوا
عنه استشهاداً إياهم أأست بربيكم ؟ فأجابوه من بعد عقل منهم للمخاطبة ، وفهم لها بأن
قالوا : بلى ، فأقروا له بالربوبية^(٢) .

ولكن هذه الفطرة السليمة تحتاج إلى رعاية وتوجيه فهي بذرة طيبة ذات أصل ثابت
يقول الغزالي مشيراً إلى الحاجة إلى هذه الرعاية : " ثم لما كان الإيمان بالله مركزاً في
النفوس بالفطرة انقسم الناس إلى من أعرض فنسي ، وهم الكفار ، وإلى من أجال
خاطره وتذكر فكان كمن حمل شهادة فنسيها بغفلة ثم تذكرها .."^(٣) "واذكروا نعمة الله
عليكم وميثاقه الذي واثقكم به"^(٤) فكما أن البذر يستطيع بقوته أن ينمو ويصبح شجرة ،
فكذلك الفطرة تنمو وتورق وتثمر ، ولذلك بعث الله رسله وأنزل كتبه لتأخذ بيد هذه الفطرة
القدسية حتى تؤتي أكلها بإذن ربها فتستقيم على أمره وتجتنب نهيه وبذلك يزدهر فيها
نور البصيرة وتتفتح بها الحياة ، كما أن الزرع إذا أخرج شطأه فإنه يحتاج إلى الوقاية
من الحشرات بحيث لو امتصت الحشرات عرقه فلا يمكن أن ينمو الزرع وتثمر الشجرة^(٥)
" والفطرة قد جبلت على حب ما تزاه حسناً واجتناب غيره وعلى حب الكمال وكراهة النقص
ولكنهم يخطئون في تحديد هذه العاني ويحتاجون إلى بيانها بوحى من الله تعالى وهو عهد
الله المفصل الذي يرسل به رسله لمساعدة الفطرة على تزكية النفس وإزالة ما يطرأ عليها

(١) زاد المسير في علم التفسير - ابن الجوزي - ج ٣ ص ٢٨٦ ط : ٤ المكتب الإسلامي .

(٢) الروح - ابن قيم الجوزية - ص ٢١٤-٢١٥ . دار المدني بجدة .

(٣) إحياء علوم الدين - أبو حامد الغزالي + ج ١ ص ٩٠ . دار القلم - بيروت . (ط : ١) ب : ت .

(٤) المائدة - ٧ - .

(٥) انظر عصر الإلحاد - خلفيته التاريخية وبيداتة نهايته . محمد تقي الأمين ، ص ٧٤ . ترجمة د. مقتدي حسن

ياسين ، دار الصحوة للنشر والتوزيع ، بدون رقم وتاريخ للطبعة .

من الفساد والجهل وسوء الاختيار - (١) .

قد يسأل سائل هنا إذا كانت الفطرة خلقت سليمة فكيف حدث الشرفيها ؟ أو كيف اختلف الناس في اختيار معبوداتهم ومعتقداتهم وكثير منهم ضل ؟. الجواب : نعم أوجد الله الفطرة سليمة ولا مجال للشك في هذا؛ لأنه من بيان الله جل وعلا، أما موضوع اختيار الإنسان لسبل شتى ضل فيها عن الطريق الصحيح فذاك موضوع المبحث التالي :-

(١) تفسير المنار - ج ٩ ص ٢٤. (مرجع سابق) .

**المبحث الثاني
ويتضمن التالي**

**المطلب الأول : قابلية الإنسان للخير والشر .
المطلب الثاني : هل القضاء والقدر عذر لأهل الشر ؟**

المطلب الأول :

قابلية الإنسان للخير والشر

الخير والشر طريقان متباينان شاعت القدرة الإلهية فتح مجال الاختيار البشري لأحدهما "ونفس وماسواها فألهمها فجورها وتقواها" (١) "وهديناه النجدين" (٢) قال عدد من الصحابة هما الخير والشر (٣) . وقال تعالى "إنا هديناك السبيل إما شاكراً وإما كفوراً" (٤) .
نصوص قرآنية تبين وتؤكد هذه الحقيقة .

لذا يتبادر إلى ذهن المرء سؤال عن ماهية هذين النجدين ماهما ؟ وأيها الأصل ؟
وأيهما الطاريء ؟

لقد تضاربت الآراء قديماً وحديثاً حول أجوبة محددة عن الأسئلة لاختلاف المعارف، واختلاف طبائع البشر، وقصورهم عن معرفة كل ما قدره المولى وأبدعه من خلق واتصف به من حكمة (٥) .

وبالعودة إلى مصادر اللغة العربية لمعرفة كنه هذين النجدين، تجد أنها تدل على أن الخير هو ما يرغب فيه كل إنسان من الأشياء النافعة والفاضلة من كل شيء، وما يتحقق له من لذة ونفع وسعادة ، أما الشر فإنه يدل على السوء والفساد والذي يرغب عنه الكل (٦) .
وتبين من المعاني اللغوية أن كل مرغوب ومحبوب لدى الإنسان يطلق عليه الخير وكل مبعوض وقبيح يطلق عليه الشر.

إذاً فما المعيار والمقياس الذي يحكم به ؟ فما كل ما يظن الإنسان أنه خير يكون

(١) الشمس - ٧، ٨ - .

(٢) البلد - ٨ - .

(٣) انظر تفسير القرآن العظيم - ابن كثير - ج ٤ ص ٨١٠ (مرجع سابق) .

(٤) الإنسان - ٣ - .

(٥) انظر الإسلام كما ينبغي أن نعرفه / د. محمد شامة . ص ٤٩ مكتبة وهبة - ط: ١ وانظر دراسات في النفس الإنسانية - ص ٣٢٧. (مرجع سابق) .

(٦) انظر لسان العرب - مادة خير وشر . وانظر المفردات في غريب القرآن - مادة: خير وشر . وانظر المعجم الوسيط مادة خار ومادة شر. (مراجع سابقة) .

كذلك، بل قد يكون وبالاً عليه وشرأ. فالمال مثلاً قد يكون خيراً لزيد وشرأ لعمرو ، ولذلك وصفه الله تعالى بالأميرين فقال في موضع " إن ترك خيراً " وقال في موضع آخر " يحسبون أننا نمدهم به من مال وبين نساوع لهم في الخيرات " (١) إذاً يحتاج الأمر إلى معيار ثابت يحكم به على كل منهما ليظهر بوضوح الخير فلا يختلف على خيريته اثتان وكذا الشر ، والمعنى هنا المصدر الذي ينير السبيل فيقول : هذا خير فامتلكوه وأحبوه وهذا شر فاحذروه وأبغضوه.

" وهذا المعيار الواحد للخير والشر ، وهو صحيح منذ الأزل، وهو الذي ينبغي أن يسري على جميع البشر ، ولا يرتبط بعصر معين ولا بموقع جغرافي ، ولا يخضع للتقاليد الاجتماعية المعروفة ، ولا يتأثر بالأعراف القانونية الموضوعية ، وذلك هو ما حدده الله ، وأنزله على أنبيائه ورسله ، فلو آمن الناس بإله واحد كما أمرتهم الرسل ، وصدقوا ما جاء به الوحي ، واتبعوا ما أنزل على الرسل لأصبح حكمهم على الأشياء بالخيرية وعدم الخيرية واحداً ، ولصارت نظرتهم في تقويم السلوك البشري متطابقة " (٢).

إذاً فالمقياس الثابت والحق المبين الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه هو هدي الله - الصراط المستقيم - الذي باتباعه يكون الإنسان خيراً مهتدياً بتوفيق مولاه جل وعلا، وبالإعراض عنه يكون شريراً بخذلان الله جل وعلا له .

ومن ثم فالإنسان يختار بحكم أهليته لأحدهما في نطاق مشيئة الله فهل من غواية في هذا ؟ لعله يحسن في هذا المقام العودة إلى أصل خلقة الإنسان وكيف سواء ربه من عنصرين متنافرين ثم وفق بينهما في شخصية هذا الإنسان ، يقول تعالى وبدأ خلق الإنسان من طين ثم جعل نسله من سلاله من ماء مهين * ثم سواء ونفخ فيه من روحه وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلاً ما تشكرون " (٣).

فالإنسان إذاً قبضة من طين الأرض؛ ونفخة من روح الله؛ قبضة من طين الأرض

(١) انظر المفردات في غريب القرآن - ص ١٦٠. (مرجع سابق) .

(٢) انظر الإسلام كما ينبغي أن نعرفه - ص ٤٩ (مرجع سابق) .

(٣) السجدة - (٧-٩) .

تتمثل في حقيقة الجسد، بعضلاته ووشائجه وأعضائه وأحشائه، والعلم يقول إن جسم الإنسان مكون من ذات العناصر التي يتكون منها طين الأرض، وتتمثل كذلك في مطالب الجسد وألوان نشاطه ، فالعلم يقول إن الجوع والعطش أمران يرجعان إلى التركيب الجسدي للإنسان، وكذلك النشاط الجنسي، والشهوات كلها هي نشاط جسماني أو نشاط قائم على قاعدة جسمية^(١). وفي مراحل تطور خلق الإنسان يحدثنا القرآن الكريم عن ذلك فيقول " ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين * ثم جعلناه نطفة في قرار مكين * ثم خلقنا النطفةعلقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا مضغة عظماً فكسونا العظام لحماً ثم أنشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين *"^(٢). وهي حقيقة تتأزر النصوص القرآنية الكثيرة على بيانها .

وفي معاني هذه المراحل تجد مثلاً : الماء المهين والطين اللزب واللحم ، والدم الجامد الغليظ^(٣) .

وهذه المعاني تدل على ضعف الإنسان ومهاتته ومدى الخطورة المترتبة على تأثر الإنسان بهذا الأصل، ولهذا كرمه مولاه جبل وعلا فنفخ فيه من روحه ثم سواه ونفخ فيه من روحه "^(٤) " وكان الإنسان قبضة من طين الأرض لا إرادة له، ولا توجه، ولا مهمة محدودة، ثم نفخ الله فيها من روحه ليعطيها من مظاهر قدرته سبحانه وتعالى ما تقدر على قبضة الطين ويكفي لمهمة الخلافة المنوطة به "^(٥) وبهذه الطبيعة المزوجة التي ركبت فيه كان قادراً على السمو بروحه إلى الملكوت أو على الهبوط إلى الحضيض، ولهذا تجد الإنسان ينفرد بمساويء ومحاسن يتصف بها لأنه مخلوق مسئول ففي آيات الكتاب الكريم وصف له وهو في الذروة من الكمال المقنور له بما استعد له من

(١) انظر دراسات في النفس الإنسانية - ص ٤٢ . ٤٤ . (مرجع سابق) .

(٢) المؤمنون - (١٢ - ١٤) .

(٣) انظر تفسير القرآن العظيم - ج ٢ ص ٢٨٥ . ٢٨٦ (مرجع سابق)، وانظر فتح الباري - ج ١١ ص ٤٨٢ (مرجع سابق) .

(٤) السجدة - ٨ - .

(٥) دراسات في النفس الإنسانية - ص ١٦٥ (مرجع سابق) وانظر بين الإنسان الطبيعي والإنسان الصناعي -

ص ١٦ . (مرجعان سابقان) .

التكليف ووصف له وهو في الدرك الأسفل من الحطة التي يتجه إليها بهذا الاستعداد^(١) .
«إن الله خلق الإنسان على هذه الصورة لأنه سبحانه يريد على هذه الصورة !
وجعل الخير بالنسبة للوجود الإنساني أن يعمل الإنسان بكيانه المجتمع المترابط لا بأحد
عنصريه دون الآخر ولا بالعنصرين المنفصلين كل يسير باتجاه»^(٢) .
وعلى هذا فإن الإنسان يتكوينه المزوج فيه خصائص كريمة تدفعه إلى فوق فإذا
كانت هذه الخصائص أشد قوة ذهبت بالإنسان صعوداً إلى آفاق الحق والخير والجمال ،
وإن كانت مساوية لغريماتها ذهب السالب في الموجب وبقي المرء موضعاً ، وإن كانت
أضعف منها أخذ إلى الأرض واتبع هواه ، فلم تره إلا مبطلاً شريراً دميم الروح^(٣) .
وما هذا كذلك إلا لأن الإسلام لم يحرم عليه متاع الأرض وإنما هذب ووضع
الضوابط لذلك ، فالجسد يريد أن يأكل ويشرب ويستمتع وليس هذا حراماً في ذاته ولكن
حين لا يضبط بضوابط الشرع ويخرج عن حد الاعتدال والاتزان فإنه ينقلب إلى فاحشة
لأنه يزيد على القدر السليم المعقول الذي لا يعطب الكيان ولا يفسد الجمال الواجب في حياة
الإنسان^(٤) .

فالقيم السامية في الإنسان نشأت حينما تلبست نفخة الروح بقبضة الطين . جاء في
الحديث " إن الله تعالى خلق خلقه في ظلمة فألقى عليهم من نوره فمن أصابه من النور
يومئذ اهتدى ومن أخطأه ضل " ^(٥) .

فهذه الأسس الروحانية غيرت طبيعة الطين فزودته بالمعرفة والإدراك والإرادة
والاختيار ، ولكن حينما يحكم الجسد فإنه يطمس إشعاع الروح ويحجب المعرفة والإدراك

(١) انظر الإنسان في القرآن - عباس محمود العقاد ص ١٢ . دار النهضة - مصر . ب : ت .

(٢) دراسات في النفس الإنسانية - ص ٣٣٢ . (مرجع سابق) .

(٣) الغزو الثقافي يمتد في فراغنا - محمد الغزالي - ص ٥٤ - ٥٥ - دار الصحوة للنشر - ب : ت .

(٤) انظر دراسات في النفس الإنسانية - (مرجع سابق) ص ٣٣٢ وانظر سيكولوجية القصة في القرآن - ص ٢٧٨
(مرجع سابق) .

(٥) صحيح الجامع الصغير وزيادته (الفتح الكبير) محمد ناصر الدين الألباني حديث رقم [١٧٦٠] المكتب الإسلامي
(ط : ٣) ١٤٠٢ هـ .

وهو في كلتا حالتيه مزاج مجتمع مترابط ولكن هذا المزاج يكون محكوماً بالجسد تارة وتارة يكون محكوماً بالروح ونعبر عن ذلك بقولنا إنه يكون شريراً تارة وخيراً تارة^(١). وقد بينت نصوص من الكتاب والسنة هذه الحقيقة وأشارت إليها ففي الحديث "إن الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض ، فجاء بنو آدم على قدر الأرض ، جاء منهم الأحمر والأبيض والأسود وبين ذلك ، والسهل والحزين والخبيث والطيب وبين ذلك"^(٢). وقوله صلى الله عليه وسلم "تجبنون الناس معادن .."^(٣) . قال ابن حجر : "أي أصولاً مختلفة، والمعادن جمع معدن وهو الشيء المستقر في الأرض ، فتارة يكون نفسياً وتارة يكون خسيساً ، وكذلك الناس"^(٤) .

ويشير إلى ذلك ويؤكدده القرآن الكريم حينما وصف من ضل عن ذكر ربه - بأنه أخذ إلى الأرض فقال تعالى "ولرئسنا لرفعناه بها ولكنه أخذ إلى الأرض واتبع هواه"^(٥). "أي مال إلى زينة الحياة الدنيا وزهرتها وأقبل على لذاتها ونعيمها وغرته.."^(٦). ويقول صاحب المنار : "أي اختار لنفسه التسفل المنافي لتلك الرفعة بأن أخذ ومال إلى الأرض وزينتها وجعل كل حظه من حياته التمتع بما فيها من اللذائذ الجسدية"^(٧).

لعلنا بهذا يدرك لماذا هذا الازواج في الطبيعة الإنسانية، وعلاقته بمفهوم الخير والشر واضح^(٨). ولنا بعد ذلك أن نتساءل : أيهما الأصل ؟ وأيهما الطاريء ؟ . من البحث السابق تبين أن الإنسان ذو فطرة خيرة وهذا هو الحق الذي تقضي به نصوص الوحي كما سيأتي بيانه ، ومر أن الله سبحانه وتعالى هو الذي حدد معيار الخير

(١) انظر دراسات في النفس الإنسانية - ص ٢٢٢-٢٢٣. (مرجع سابق).

(٢) صحيح الجامع الصغير وزيادته (الفتح الكبير) . ج ٢ ص ١٠٩ . حديث رقم [١٧٥٥] (مرجع سابق) .

(٣) صحيح البخاري مع الفتح - ج ٤ ص ٢١٧. (مرجع سابق) .

(٤) فتح الباري - ج ٦ ص ٥٢٩. (مرجع سابق) .

(٥) الأعراف - ١٧٦ - .

(٦) تفسير القرآن العظيم - مرجع سابق ج ٢ ص ٤٢٠. (مرجع سابق) .

(٧) تفسير المنار ج ٩ ص ٤٠٦ (مرجع سابق) .

(٨) انظر دراسات في النفس الإنسانية - ص ٢٢٢. (مرجع سابق) .

والشر ، وحاشاه جل شأنه أن يرضى بأصل يفرسه بخلقه غير الخير، فهذا هو الذي تقتضيه رحمته وفضله وحكمته ، ولأن الحكيم لا يصنع شيئاً لغاية ما ثم يجعل طبعه غير ملائم لتلك الغاية أو غير مهياً لبأوغها ، والله خلق الإنسان لعبادته فكيف يخلق نفساً شريرة لاتناسبها العبادة^(١) .

وفي القرآن الكريم والسنة النبوية نصوص تدل بصراحة على هذا المعنى كما في قوله تعالى " فاقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله .."^(٢) .. لازم فطرتك السليمة التي فطر الله الخلق عليها .."^(٣) . وجاء في الحديث الشريف : " وإنني خلقت عبادي حنفاء كلهم وأنتهم الشياطين فاجتالهم عن دينهم "^(٤) " أي مستقيمين منيبن لقبول الهداية "^(٥) فكل ما هو خير يتقبله الإنسان بلا تكلف حيث الفطرة مجبولة عليه ، أما الشر ففيه تكلف ، يجاذب به الإنسان ما تدعوه إليه فطرته "^(٦) " فالخير صادر عن الكيان الطبيعي للإنسان .. حسب تركيبه الأول الذي خلق به باديء ذي بدء لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم " ويكون متمشياً مع الفطرة السوية التي ليس فيها اختلال ولا هي مضبوط عليها من الخارج بشيء لا يناسب طبيعتها "^(٧) .

يقول الشيخ محمد عبده " الإنسان يفعل الخير بطبعه ، وتكون فيه لذته ، ويميل إلى عبادة الله تعالى لأن شكر المنعم مغروس بفطرته ويظهر أثره في كل إنسان ، وأقله البشاشة والارتياح لمن أسدى إلى الإنسان معروفاً بالكلمة الطيبة أو العمل الطيب ولا يحتاج الإنسان إلى

(١) انظر التصور الإسلامي للإنسان - بحث كتبه د . جعفر شيخ إدريس - وهو مقدم إلى المؤتمر العالمي الأول للتعليم الإسلامي من ٦٨،٦٧ .

(٢) الروم - ٣٠ - .

(٣) تفسير القرآن العظيم - ابن كثير - ج ٢ ص ٦٨٨ . (مرجع سابق) .

(٤) صحيح مسلم بشرح النووي . ك . الجنة وصفة نعيمها . باب (الصفحات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار) .

(٥) شرح النووي على صحيح مسلم - ج ١٧ ص ١٩٧ . (مرجع سابق) .

(٦) انظر الدين ضرورة حياة الإنسان - عبدالكريم الخطيب - ص ٦٧ ط: ١ دار الأمانة للنشر . ب : ٥ .

(٧) انظر دراسات في النفس الإنسانية - ص ٢٢٨ . (مرجع سابق) .

تكلف في فعل الخير لأنه يعلم أن كل أحد يرتاح إلى فاعله وينظر إليه بعين الرضا ..^(١) .
فالإنسان بعقله لا يستحسن الأمور القبيحة وينفر منها بطبعه بل ويبغضها وإن
اقترب شيئاً منها، وهذا مشاهد وملوس فلو أن إنساناً غير إنساناً بفعل خبيث نسبه
إليه لثار وغضب، وقد يتعدى الأمر إلى الاعتداء على المعير وما هذا إلا لاعترافه الحقيقي
بقبح ما أقدم عليه .

فإن الإنسان مهما بلغت به درجة الانحراف والفساد اللذين قد يسقط فيهما فإنه
يعترف ويحب ويقدر الفضيلة في ذاتها - ولاشك أن مشهد أي سلوك هابط يثير نفورنا
حتى لو راودنا الإغراء لاقتراف نفس العمل الذي نلوم عليه غيرنا، إننا نكره في أنفسنا
عيوبنا الذاتية وإذا كنا لا نبذل من الجهد المتواصل ما يكفل تصحيحها فإننا نتلمس لأنفسنا
المعاذير لتبرئة أنفسنا منها ، فمن هو الرجل الذي يقبل أن يوصم بالكذب أو النفاق أو
الخيانه أو الغش أو بأي رذيلة أخرى^(٢) . فلو كان القبح والشر أصيلاً في طبعه لما نفر
منه وتقرز، فعادة الإنسان أن ينفر من الأمر الطارئ على فطرته لأنه يعرض للنفس
بأسباب ليس من طبيعتها ، ولأن مقتضى فطرتها ومهما كان الإنسان شريراً فإنه لا يخفى
عليه أن الشر ممقوت في نظر الناس - وصاحبه مهين عندهم^(٣) .

هذا هو مقتضى الفطرة ، ولكنها عندما تنتكس يصل الأمر إلى ما أخبر الله به عن
قوم لوط ولوطاً إذ قال لقومه أتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين * إنكم
لتأتون الرجال شهوة من دون النساء بل أنتم قوم مسرفون^(٤) أمر خطر ارتكبه
فنصحهم عنه، فاستمع إلى جوابهم وشهادة حق أنطقهم الله بها * وما كان جواب قومه إلا
أن قالوا أخرجوهم من قريبتكم إنهم أناس يتطهرون^(٥) * قال قتادة : عابوهم بغير عيب^(٦) .

(١) الدين ضرورة حياة الإنسان - ص ٦٧ (مرجع سابق) .

(٢) انظر مدخل إلى القرآن الكريم - د . محمد عبدالله براز - ص ٨٩ - دار القلم ١٤٠٤ هـ .

(٣) انظر الدين ضرورة حياة الإنسان - ص ٦٧ (مرجع سابق) .

(٤) الاعراف (٨٠ - ٨١) .

(٥) الاعراف - ٨٢ .

(٦) تفسير القرآن العظيم - ج ٢ ص ٣٦٩ (مرجع سابق) .

وقد أشار الزمخشري إلى أن هذه الدرجة التي وصل إليها قوم لوط أنها أسفل الدرجات حيث إن فاعل القبيح يفتخر به ويجاهر به، ويصف من يتكشف عنها ويتطهر بالطهارة والتزهد^(١).

وكذلك من الشواهد أن الطفل ينشأ على الصدق ويحكي الواقع كما هو ، حتى يسمع الكذب من الناس فيتعلم^(٢) ويؤكد هذا حديث الرسول صلى الله عليه وسلم " مامن مولود إلا يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه .. " ^(٣) . ففي هذا الحديث دلالة على أن الفطرة التي يولد عليها الإنسان هي السلامة من الشرور النفسية والعقدية وأنها تطراً عليه بعد ميلاده " ^(٤) يقول ابن القيم -رحمه الله- : " وإنا نعلم أنه إذا عرض على كل أحد أن يعتقد الحق ويصدق وأن يريد ما ينفعه وعرض عليه أن يعتقد الباطل ويكذب ويريد ما يضره ، مال بفطرته إلى الأول ونفر عن الثاني؛ فعلم أن فطرة الإنسان قوة تقتضي اعتقاد الحق وإرادة الخير " ^(٥) .

بل إنك تجد الكلمات المعبر بها عن الشر تدل كلها تقريباً على أن الشر ليس شيئاً أصيلاً وإنما هو انحراف عن الخير وتغيير وتبديل له ، مع أن الكلمات المعبر بها عن الخير ليس فيها ما يدل على أنه نقيض الشر وإنما في الكثير منها ما يدل على الزيادة والإثراء والمحافظة على خير أصيل^(٦).

" كما أنك ترى في الكلمات الدالة على الخير معاني الثبوت والاستقرار والأصالة والإيجابية، وأما الكلمات الدالة على الشر ففيها معاني النفي ، والتغيير والسلبية وما ذلك إلا لأن الخير هو الأساس ، وأن الشر إنما هو نفي الخير " ^(٧) .

(١) انظر الكشاف - أبي القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري - ج ٢ - ص ٩٢ ، ٩٣ - ١٣٩٢هـ .

(٢) انظر الدين ضرورة حياة الإنسان - ص ٦٧ . (مرجع سابق) .

(٣) صحيح مسلم - بشرح النووي . كتاب القدر . ج ١٦ ص ٢٠٧ باب (معنى كل مولود يولد على هذه الفطرة) .

(٤) انظر بحث التصور الإسلامي للإنسان - ص ٧١ . (مرجع سابق) .

(٥) شفاء العليل - ابن قيم الجوزية - ص ٢٠٤ . الطبعة الأولى - مكتبة الرياض الحديثة .

(٦) انظر بحث التصور الإسلامي للإنسان ص ٧٢ . (مرجع سابق) .

(٧) نفس المرجع ص ٧٢ .

يتضح من الحقائق السابقة أصالة الخير وعمق جنوره في الإنسان ، وهذا شاهد على الإنسان إذا ما تنكب سبيل الخير وسار في سبيل الشيطان ضل عن الصواب .
 ومع أصالة الخير فإن المولى جل وعلا أودع في الإنسان الطاقة الإدراكية التي يدرك بها سبيل هدايته ورشاده وسبيل ضلاله وفساده، وأنزل له الشرائع التي تنير له وتوجهه سواء السبيل^(١) .
 ويؤكد هذا قوله تعالى " فجعلناه سمياً بصيراً" فهو مزود بالآلات يختار بها الخير أو الشر؛ فهو قادر على التمييز بينهما كما أنه قادر على توجيه نفسه إلى أحدهما وأن هذه القدرة كامنة في كيانه ، وإن هذا مما يرفع مقام الإنسان حيث يجعله أهلاً لتحمل تبعه اتجاهه وتمنحه حرية الاختيار تحت مشيئة الله سبحانه وتعالى ، وهذا كذلك أدعى للتحفز واليقظ ومراقبة النفس مراقبة شديدة^(٢) ، وهذه القدرة على الاختيار قد أحاطها بجهاز قوي ومعقد تتفرع عنه كل قراراتنا، وهذا الجهاز يتألف من العقل، والحواس، والنزعات، والجاذبية الحسية، والقيم الروحية، كما يتضمن تلك الرؤية الجوانية التي هي الضمير وذلك النور الخارجي الذي هو التعليم الموحى، فكل قرار حسناً كان أو قبيحاً هو أشبه بعملية إنفاق من ذلك الكنز العظيم الذي أودعه الخالق رهن تصرفاتنا في الفريزة باطنية وخارجية^(٣) .
 " فإنها لاتعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور" ^(٤) وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير" ^(٥) .

ثم زاد فضله بإرساله الرسل مبشرين ومنذرين دالين على طريق الخير وعاقبته الحميده ، ومنذرين من طرق الشر وعاقبته الوحيمة . " ومانرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين" ^(٦) " فإما يأتينكم مني هدى فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى" ^(٧) . ومع هذا

(١) انظر الأخلاق الإسلامية وأسسها - عبد الرحمن حسن الميداني ج ١ ص ٢٠١ . (ط : ١) دار العلم - بيروت .

(٢) انظر في ظلال القرآن - ج ٦ ص ١٧ ، ١٨ ، ٢٩ ، (مرجع سابق) .

(٣) انظر دستور الأخلاق في القرآن - ص ٢١٣ . تعريب : د . عبدالصبور شاهين . مؤسسة الرسالة . (ط : ٦) .

(٤) الحج - ٤٦ - .

(٥) الملك - ١٠ - .

(٦) الأنعام - ٤٨ - .

(٧) طه - ١٢٢ - .

كله فالإسلام لم يأمر بتكاليف لا تستطيعها النفس البشرية أو تعافها ، بل إنه جاء بما يهدي الإنسان إلى فطرته السليمة ، فكل قيمة مرغوبة ، وكل تكاليفه مستطاعة محبوبة^(١) . فكل هذه الأمور من تكاليف مستطاعة ومساعدات عقلية ونقلية وأصول أخلاق؛ لحرى أن تؤدي به إلى طريق الخير .

ومادنا قد تبين لنا أصالة الخير في الإنسان وطروء الشر عليه بأسباب ومؤثرات من خارج الإنسان ومن داخله ، فإنه يحسن الحديث عن ما يؤثر على هذه الفطرة السوية وعلى جانب الخير في الإنسان ، ولكن قبل ذلك واستدراكاً لسؤال يترتب على ما سبق وهو : هل القضاء والقدر عذر لأهل الشر ؟ الجواب هو موضوع المبحث التالي :

(١) انظر الإنسان في القرآن الكريم - محمد الشيخ عايد طبعشات . ص ٦٦ . الناشر الدار الوطنية للنشر

والتوزيع - الرياض .

المطلب الثاني

هل القضاء والقدر عذر لأهل الشر ؟

تعد قضية القدر من القضايا التي أثار جدلاً بين الناس منذ أمد بعيد ، فبعض الناس يجادل فيها بعلم أو بغير علم ، وكثير من الناس يتساءل : إذا كان كل شيء مكتوباً ومقدراً فلماذا الحساب ؟ وهل تستطيع أن تفعل إلا ما يشاء الله ؟ إلى غير ذلك من الأسئلة التي تطرأ على فكر الإنسان المخلوق القاصر العاجز^(١) وصدق الله حيث يقول : " وكان لإنسان أكثر شيء جدلاً " ^(٢) .

ما القدر ؟ بالرجوع إلى كتب اللغة تجد أنه يدل على : القضاء الموفق ، وهو ما يقدره الله عز وجل من القضاء . ويحكم به من الأمور .

ويقول الراغب : والقدرة إذا وصف بها الله تعالى فهي نفي العجز عنه، وتدل كذلك على تسوية الشيء بلا زيادة ولا نقصان، والقدرة مقدار الشيء وحالاته المقدرة له وفي التنزيل " إنا كل شيء خلقناه بقدر " ويدل كذلك على القوة على الشيء والتمكن منه ^(٣) .

وفي الاصطلاح الشرعي تجدد العلماء ذكروا أنه : حكم الله . وقالوا : القضاء : هو الحكم الكلي الإجمالي في الأزل ، والقدر جزئيات ذلك الحكم وتفصيله ^(٤) .

وقال ابن عثيمين : تقدير الله تعالى للكائنات حسبما سبق به علمه واقتضته حكمته ^(٥) . ويتوافق المعنيان بأن القدر يدل على الحكمة البالغة والقدرة التي لا يحدها ولا يعجزها شيء لله العلي القدير ، فالإيمان بالقدر ركن من أركان الإيمان بالله لا يتم الإيمان إلا به ، والأدلة الدالة على ذلك ظاهرة في الكتاب والسنة يقول تعالى " وخلق كل

(١) انظر القضاء والقدر - الشيخ الشعراوي - ص ٦ - مؤسسة أخبار اليوم . ب : ت .

(٢) سورة الكهف - ٥٤ - .

(٣) انظر لسان العرب - مادة: قَدَرَ . وانظر المفردات في غريب القرآن - ص ٢٩٤ (مرجمان سابقان) .

(٤) انظر فتح الباري - ج ١١ ص ٤٧٧ . (مرجع سابق) .

(٥) مسائل في العقيدة - محمد بن صالح بن عثيمين ص ٢٧ . دارعالم الكتب . الرياض .

شيء فقدره تقديراً^(١) وقال " إنا كل شيء خلقناه بقدر"^(٢) وقال " سبح اسم ربك الأعلى الذي خلق فسوى والذي قدر فهدى"^(٣) .

يقول ابن كثير : " أي قدر قادراً وهدي الخلاق إليه ، ولهذا يستدل بهذه الآية الكريمة أئمة السنة على إثبات قدر الله السابق لخلقه وهو علم الأشياء قبل كونها وكتابتها لها قبل برئها^(٤) . ومن السنة قوله صلى الله عليه وسلم . "وتؤمن بالقدر خيره وشره"^(٥) بل إن العبد لا يبلغ حقيقة الإيمان إلا بالرضا بالقدر فعنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : " إن لكل شيء حقيقة ، وما بلغ عبد حقيقة الإيمان حتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه ، وما أخطاه لم يكن ليصيبه"^(٦) .

فهذا من كمال نعم الله على خلقه التي لاتعد ولا تحصى ، فالإيمان بالقدر والرضا بما يقسم المولى مما يبعث الطمأنينة في النفس المؤمنة ، ويزيد في تعلقها بالأعمال الصالحة والاستزادة منها ، ولعله من اللائق أن يعرض مفهوم القدر عند سلفنا الصالح وشيء من حقائقه التي عرفوها وفهموها من قول الله ورسوله صلى الله عليه وسلم .

يقول الإمام القرطبي : " الذي عليه أهل السنة أن الله قدر الأشياء أي علم مقاديرها وأحوالها وأزمانها قبل إيجادها ، ثم أوجد منها ما سبق في علمه أنه يوجد على نحو ما سبق في علمه فلا يحدث حدث في العالم العلوي والسفلي إلا وهو صادر عن علمه تعالى وقدرته وإرادته دون خلقه ، وأن الخلق ليس لهم فيها إلا نوع اكتساب ومحاولة ونسبة وإضافة وإنما ذلك كله حصل لهم بتيسير الله تعالى وبقدرته وتوفيقه وإلهامه سبحانه لا إله

(١) الفرقان - ٢ - .

(٢) القمر - ٤٩ - .

(٣) الأعلى (١ - ٢ - ٣) .

(٤) تفسير القرآن العظيم - ج ٤ ص ٤١٦ (مرجع سابق) .

(٥) صحيح مسلم . ك الإيمان . باب (الإيمان والإسلام والاحسان ووجوب الإيمان بأخبار قدر الله تعالى وبيان الدليل على التبدي من لا يؤمن بالقدر ؟ وإغلاظ القول في حقه) ج ١ ص ٢٧ . نشر وتوزيع رئاسة إدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد ، المملكة العربية السعودية .

(٦) صحيح الجامع الصغير وزيادته " الفتح الكبير" - محمد ناصر الدين الألباني / ج ٢ ص ٢٢٧ . (مرجع سابق) .

إلا هو ولا خالق غيره ، كما نص عليه القرآن والسنة ^(١) وجاء في الذكر الحكيم " ألم تعلم أن الله يعلم ما في السماء والأرض إن ذلك في كتاب إن ذلك على الله يسير " ^(٢) ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير لكيلا تأسوا على مافاتكم ولاتفرحوا بما آتاكم والله لا يحب كل مختال فخور " ^(٣) ومن هنا يوقن المؤمن بأن العلم الإلهي سابق في كل ما يصيب الناس من خير وشر وكل ما يقع في الأرض من نعمة أو نقمة . فكل ذلك قد سبق تقديره من العزيز العليم لامحيد للإنسان عنه ولا مهرب منه ، ولا يستطيع أن يبذل أو يغير فيه " ^(٤) .

ويقول شيخ الإسلام (ابن تيمية) " وعلى العبد أن يعلم أن علم الله وقدرته وحكمته ورحمته في غاية الكمال الذي لا يتصور زيادة عليها . وقد يعلم بعض العباد حكمة وقد يخفى عليهم ما يخفى " ^(٥) بل إن العمل الجاد والسعي الحثيث لنيل رضا الله جل وعلا من أهم ثمرات الإيمان بالقدر ، وهذا ما فهمه الصحب الكرام رضوان الله عليهم حينما أجاب المصطفى صلى الله عليه وسلم من سأله في القدر فيما أنه قد كتب كل شيء فلم العمل إذا ؟ فأجاب صلى الله عليه وسلم : " اعملوا فكل ميسر لما خلق له ، ثم قرأ " فأما من أعطى واتقى " الآية ^(٦) فقال القوم بعضهم لبعض : فالجد إذا " ^(٧) لم يتكاسلوا ويتقاعسوا عن العمل الصالح بل كان هذا باعثاً لهم ومنشطاً لهممهم ليزدادوا إيماناً وتصديقاً بربهم .

وسلف الأمة متفقون أيضاً على أن العباد مأمورون بما أمرهم الله به منهيون عما نهاهم الله عنه ، ومتفقون أيضاً على الإيمان بوعده ووعيده الذي نطق به الكتاب والسنة.

(١) الجامع لأحكام القرآن - القرطبي - ج ١٧ ص ١٤٧ .

(٢) سورة الحج - ٧٠ - .

(٣) الحديد ٢٢ - ٢٣ .

(٤) الإيمان في القرآن - د. مصطفى عبدالواحد - ص ٢٠٩ ، دار الصحوة للنشر . ط ١ .

(٥) مجموع الفتاوى . ج ٨ ص ٥١٣ . (مرجع سابق) .

(٦) صحيح البخاري . ك القدر . باب (وكان أبر الله قدرأ مقدوراً) / ج ٨ ص ١٥٤ . (مرجع سابق) .

(٧) فتح الباري - ج ١١ ص ٤٩٧ . (مرجع سابق) .

ومتفقون أن لاحجة لأحد على الله في واجب تركه ولا محرم فعله بل لله الحجة البالغة على عباده حيث بعث برسله مبشرين ومنذرين وبث آياته في أرجاء الكون الدالة على وجوده جل شأنه .

فمتى بدأت شبهة القدر ؟ ، ومتى خرجت لنا فرقتا القدرية والجبرية * اللتين ضلنا الطريق بإعمال العقول القاصرة في الأمور الغيبية التي هي من اختصاص الله جل شأنه ؟ ، وهل هم أول من قال بهذه الشبهة ؟ .

هذه الضلالة قد قالها المشركون في عصر النبوة حيث حكاها القرآن الكريم "سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا .." (١) وقال : "وقال الذين أشركوا لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء نحن ولا آباؤنا ولا حرماننا من دونه من شيء" (٢) . وقال تعالى : "وقالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم" (٣) . واضح من هذه الآيات الكريمات أنهم أرادوا جعل القدر عنراً لهم في عدم إيمانهم وسلوكهم سبيل الخير .

ولتفاهة هذا العذر وعدم استناده إلى علم بين، فقد جاء الرد الإلهي حكيماً " قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا إن تتبعون إلا الظن وإن أنتم إلا تخرصون * قل فله الحجة البالغة فلو شاء لهداكم أجمعين" (٤) . ومعناه "هل عندكم من علم من قبل الله تعالى فتبينوه حتى تقوم به الحجة" (٥) لأن هذا سر من أسراره جل شأنه فهاتوا كتاباً من لدنه جل شأنه بذلك .

(١) الأنعام (١٤٨) .

(٢) النحل - ٣٥ - .

(٣) الزخرف - ٢٠ - * القدرية ١ - بدعتهم في القدر هي أنهم يرون أن العبد قادر خالق لأعمالها خيراً وشرها ومستحق على ما يقع ثواباً وعقاباً في دار الآخرة . أما الجبرية : فبدعتهم هي : نفي الفعل حقيقة عن العبد وإضافته إلى الله تعالى *

* انظر الملل والنحل - محمد عبدالكريم الشهرستاني ج ١ ص ٨٥ .

(٤) الأنعام - ١٤٨ - ١٤٩ - .

(٥) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز - عبدالحق بن غالب بن عطية الأندلسي - ج ٥ ص ١٧٥ ، تحقيق المجلس العلمي بالمغرب / وزارة الأوقاف .

وفي قوله تعالى "إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظنَّ"^(١) قال صاحب المنار - رحمه الله - "أي لستم على شيء ما من العلم بل ما تتبعون في بقائكم على ما أنتم عليه من عقيدة وقول في الدين وعمل به إلا الظن وهو في اللغة ما ليس من مدركات الحس ولا ضروريات العقل"^(٢) بل فسر ابن كثير رحمه الله الظن هنا بأنه الاعتقاد الفاسد^(٣) بل لو كان لهم حجة في القدر ما أذاقهم الله بأسه ودمر عليهم"^(٤) حيث قال تعالى في الآية نفسها: "حتى ذاقوا بأسنا .. فجدل هؤلاء باطل إذ كانوا يحتجون بالقدر ويزعمون أنه لو شاء الله ما أشركوا ويغفلون عن أن اختيارهم وعملهم هو الذي أوردتهم هذا المصير وأدى بهم إلى هذا الهلاك"^(٥) وصدق الله حيث يقول: "إن الله لا يظلم الناس شيئاً ولكن الناس أنفسهم يظلمون"^(٦).

ويعد أن دحض تعالى حججهم بين حجته تعالى عليهم" فله الحجة البالغة" يقول ابن القيم "ثم أخبر سبحانه أن له الحجة عليهم من جهتين إحداهما ماركب فيهم من العقول التي يفرقون بها بين الحسن والقبيح والباطل ، والأسماع والأبصار التي هي آلة إدراك الحق ، والتي تفرق بينه وبين الباطل ، والثانية : إرساله رسله وإنزال كتبه وتمكينهم من الإيمان والإسلام ولم يؤاخذهم بأحد الأمرين بل بمجموعهما لكمال عدله وقطعاً لعذرهم من جميع الوجوه ولذلك سمي حجته عليهم بالغة أي بلغت غاية البيان وأقصاه بحيث لم يبق معها مقال لقائل ولا عذر لمعتذر ، ومن اعتذر إليه سبحانه بعذر صحيح قبله ثم ختم الآية بقوله "فلو شاء لهداكم أجمعين"^(٧).

-
- (١) الأنعام - ١٤٨ - .
(٢) تفسير المنار/ ج ٨ ص ١٧٧ . (مرجع سابق).
(٣) تفسير القرآن العظيم - ج ٢ ص ٢٩٩ (مرجع سابق) .
(٤) انظر نفس المرجع السابق ج ٢ ص ٢٩٩ .
(٥) انظر الإيمان في القرآن ، ص ٢١٥ (مرجع سابق) .
(٦) يونس - ٤٤ - .
(٧) شفاه العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل - ابن القيم - ص ١٣٦ ط : ١ مكتبة الرياض الحديثة . ١٣٢٣ هـ .

وفي رد قوي يقول شيخ الإسلام (ابن تيمية) عن هؤلاء: "وهؤلاء لا يحتجون بالقدر إلا إذا كانوا متبعين لأهوائهم بغير علم ولا يتردون حججهم ، فإن القدر لو كان عذراً للخلق للزم أن لا يلام أحد ولا يذم ولا يعاقب في الدنيا ولا في الآخرة ، ولا يقتص من ظالم أصلاً ، بل يمكن الناس أن يفعلوا ما يشتهون مطلقاً ومعلوم أن هذا لا يتصور أن تقوم عليه مصلحة أحد لافي الدنيا ولا في الآخرة بل هو موجب الفساد العام وصاحب هذا لا يكون إلا ظالماً متناقضاً فإذا آذاه غيره أو ظلمه طلب معاقبته جزاءه ولم يعذره في القدر وإذا كان هو الظالم احتج لنفسه في القدر ، فلا يحتج أحد بالقدر إلا لاتباع هواه بغير علم" (١) كما ذكر ذلك تعالى "إن تتبعون إلا الظن وإن أنتم إلا تخرصون" (٢). بل إن موقف الصحابة من هذه الشبهة لخير دليل على قوة إيمانهم وحسن فهمهم لأمور دينهم وحرصهم على الاتباع وحذرهم من الابتداع وعدم تخبیطهم الفكري بما لافائدة منه، وهم خير القرون بشهادة الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم وهو دليل على مبلغ إيمانهم وتصديقهم لما قاله الله ورسوله صلى الله عليه وسلم فهم حينما تعرض عليهم هذه المسألة لا يتغافلون عن قوله صلى الله عليه وسلم: "وإذا ذكر القدر فأمسكوا" (٣) فجعلوا هذه النصيحة الغالية في سويداء قلوبهم ولم يخوضوا بما لا يفيدهم في دنياهم وأخرتهم ، ولخطورة الخوض في مثل هذا ما هو صحابي يسأل أخاه عن هذه المسألة فيقول المسئول رضي الله عنهما " ففرزت من ذلك فرعاً شديداً (يعني من السؤال عن القدر) - وقلت كل شيء خلق الله وملك يده فلا يسأل عما يفعل وهم يسألون . فقال الصحابي السائل: يرحمك الله إنني لم أورد بما سألتك إلا لأحرز عقلك أن رجلين من مزينة أتيا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالا : يا رسول الله أرأيت ما يعمل الناس اليوم ويكذبون فيه أشياء قضى عليهم ومضى فيهم من قدر قد سبق أو فيما ينقلون به مما أتاهم به نبيهم وثبتت الحجة عليهم . فقال : لا بل شيء قضى عليهم ومضى فيهم وتصديق ذلك في كتاب الله عز وجل :- " ونفس

(١) مجموع الفتاوى - ج ٨ ص ٤٥٤ ، ٤٥٥ (مرجع سابق) .

(٢) الأنعام (١٤٨) .

(٣) صحيح الجامع الصغير وزيادته (الفتح الكبير) ج ١ ص ٢٠٩ . (مرجع سابق) .

وماسواها فآلهمها فجورها وتقواها" (١) .

الشاهد هنا أن الصحابي الكريم اقشعر جلده وتغيرت حاله حين عرض هذا السؤال فيما أتى النهي عن الخوض فيه ، بل قد تبرأ الصحابة من أهل هذه الشبهة فحينما ذكر لابن عمر رضي الله عنهما عن صنف من الناس أحدثوا أقوالاً وأنكروا القدر قال "فإذا لقيت أولئك فأخبرهم أنني بريء منهم وأنهم براء مني والذي يحلف به عبدالله بن عمر لو أن لأحدهم مثل أحد ذهباً فأنفقه ما قبل الله منه حتى يؤمن بالقدر .." (٢) واستدل النووي على كفر هؤلاء فقال : "قوله ما قبل الله منه ظاهر في التكفير فإن إحياء الأعمال إنما بالكفر" (٣) .

وحول حديث الرسول صلى الله عليه وسلم السابق الذي فيه قوله " اعملوا فكل ميسر .." (٤) قال الطيبي : الجواب من الأسلوب الحكيم منعهم من ترك العمل وأمرهم بالتزام ما يجب على العبد من العبودية ، وزجرهم عن التصرف في الأمور المغيبة فلا يجعلوا العبادة وتركها سبباً مستقلاً لدخول الجنة والنار بل لا بد من عفو الله وفضله ورحمته (٥) . وزاد الأمر وضوحاً وإقناعاً لمن يخالجه شيء في نفسه قول الخطابي حيث قال : "هذا الحديث إذا تأملته وجدت فيه الشفاء مما يتخالج في الضمير من أمر القدر، وذلك أن القائل : "أفلا نتكل وندع العمل" لم يدع شيئاً مما يدخل في أبواب المطالبات والأسئلة إلا وقد طالب به وسأل عنه، فأعلمه رسول الله صلى الله عليه وسلم أن القياس في هذا الباب متروك والمطالبة بساقطة وأنه لا يشبه الأمور التي عقلت معانيها وجرت معاملة البشر فيما بينهم عليها ، بل طوى الله علم الغيب عن خلقه وحجبهم عن دركه كما أخفى عنهم أمر الساعة" (٦) ، ففرق بين المؤمنين المصدقين بما جاء من عند الله ورسوله

(١) صحيح مسلم - كتاب القدر باب (كيفية خلق الأدمي في بطن أمه وكتابة رزقه وأجله وعمله وشقاوته وسعادته) ٤ ص

٤١. ٤٢ / مرجع سابق .

(٢) صحيح مسلم / كتاب الإيمان باب (بيان الإيمان والاسلام والاحسان ...) ج ١ ص ٢٧. (مرجع سابق) .

(٣) شرح النووي على صحيح مسلم ج ١ ص ١٥٦ (مرجع سابق) .

(٤) صحيح البخاري مع الفتح ك القدر (باب : وكان أمر الله قدرأ مقدوراً) ج ١١ ص ٤٩٤ .

(٥) انظر فتح الباري ج ١١ ص ٤٩٧ . (مرجع سابق) . وانظر الفتاوى ج ٨ ص ٧٠ - ٧١ .

(٦) المرجع السابق ج ١١ ص ٤٩٨ .

صلى الله عليه وسلم وبين هؤلاء المبتدعين يقول ابن حجر : "وجه الانفصال عن شبهة القدرية أن الله أمرنا بالعمل فوجب علينا الامتثال وغيب عنا المقادير لقيام الحجة ونصب الأعمال للامتحان، فمن عدل عنه ضل لأن القدر سر من أسرار الله لا يطلع عليه إلا هو"^(١). ولأن الحديث في فروع القدر وجزئياته من فضول الكلام ولا يراد منها البحث عن الحق ، فإن السلف قطعوا الخوض فيه ، وأدبوا من أراد أن يتحدث فيه أو في المتشابه في كتاب الله .

فهذا عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- يخطب الناس فيقول " إن الله تعالى يضل من يشاء . فقال القس : الله تعالى أعدل أن يضل أحداً . فبلغ ذلك عمر فبعث إليه : بل إن الله يضلك ولولا عهدك لضربت عنقك"^(٢). ولولا أن ما أقدم عليه هذا الرجل أمر عظيم يوجب ضرب العنق عند عمر لما غضب عمر -رضي الله عنه- هذا الغضب وذكر أنه رفع إليه سارق واستحق القطع فأمر بقطع يده . فقال : مهلاً يا أمير المؤمنين فإنما سرقت بقدر الله . فقال عمر : ونحن إنما نقطع بقدر الله"^(٣) .

فعمر -رضي الله عنه- يرى بنور الله ، وهو يعرف عن أمثال هؤلاء أنهم لا يريدون البحث عن الحق وإلا لو سمعهم ماوسع صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم. وجاءه كذلك -رضي الله عنه- رجل يسأل عن آيات في كتاب الله فأجابه ثم أمر به فضرب ثم " حرم على الناس مجالسته . فأتى الرجل إلى أبي موسى فحلف له بالأيمان المغلظة ما يجد في نفسه مما كان شيئاً..."^(٤) .

الشاهد أنه تاب بسبب تأذيب عمر له ، فهذه الشرائع من الناس لا ينقصها معرفة الحق ، وإنما هي شبه تراكمت في أفكارهم ، فأحبوا أن يبتثروا وينشروا هذه السموم ، فعالجها الفاروق بهذا الأسلوب الذي يناسب حالتهم .

ومن تبع هؤلاء من الفرق الضالة على هذا المنوال ، ولو وجدوا مثل هذا العلاج

(١) انظر المرجع نفسه - ج ١١ ص ٤٩٨ .

(٢) تاريخ عمر بن الخطاب - ابن الجوزي - ص ٢٢٠-٢٢١ ، مكتبة المؤيد " الطائف . تحقيق : أحمد شوحان .

(٣) مسائل في العقيدة - محمد بن صالح العثيمين - ص ٣٩ . (مرجع سابق) .

(٤) تاريخ عمر بن الخطاب - ص ١٤٧ - ١٤٨ . (مرجع سابق) .

لركسوا وعابوا عما هم فيه من ضلال ، ولكنهم وجدوا من يقلدهم ويرفع من شأنهم ويخالطهم ، فضلاً عن حرص النفس الأمارة على حب الشهرة والفرد ، وهذا يؤدي إلى التهلكة .

وأصل هذه الشبهة قياس خاطيء ، وأول من عمل بالقياس بعقله القاصر هو إبليس - لعنه الله - أبو الشياطين، وهؤلاء تبعوه ولم يتبعوا أباهم آدم - عليه السلام - فإن آدم لما أذنب تاب فاجتباه ربه وهداه ، وإبليس أصر واحتج فلعنه الله وأقصاه ، فمن تاب كان آدمياً ، ومن أصر واحتج بالقدر كان إبليسياً ، فالسعداء يتبعون أباهم ، والأشقياء يتبعون عدوهم إبليس ^(١) بل من حكمة الله جل شأنه أن جعل هذه الفرق الضالة أحزاباً متفرقة ومتناحرة ، لم يتفقوا في هذه البدع التي ابتدعوها ، وذلك مصداقاً لقوله تعالى "فإن أمنوا بمثل ما أمنتم به فقد اهتوا وإن تولوا فإنما هم في شقاق .." ^(٢) .

أما السلف الصالح فقد وجدنا " أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قد اختلفوا في الأحكام ولم يتفرقوا ولا صاروا شيعاً ، لأنهم لم يفارقوا الدين وإنما اختلفوا فيما أذن لهم من اجتهاد في الرأي والاستنباط من الكتاب والسنة مما لم يجدوا فيه نصاً " ^(٣) .
إن العلاج الناجع والبلسم الشافي في اتباع كتاب الله وسنة رسول الله ، والحذر من مواطن الردى بأشكالها وألوانها وتجنب أهل السوء والبدع .
فديننا كامل بأمر الله وتبليغ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فالاتباع الاتباع يا أمة محمد والحذر كل الحذر من الابتداع ، وقانا الله السوء ودرويه .

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام - ج ٨ ص ٢٤٣ . (مرجع سابق) .

(٢) البقرة - ١٣٧ - .

(٣) الاعتصام - أبو إسحاق إبراهيم الشاطبي . ج ١ ص ٢٣١ - دار المعرفة - بيروت ١٤٠٦ هـ .

المبحث الثالث

المؤثرات على الفطرة

ويشتمل على تمهيد وثلاثة مطالب هي :

المطلب الأول : الشيطان

المطلب الثاني : البيئة

المطلب الثالث : هوى النفس

التمهيد

تبين مما سبق أن الإنسان نو فطرة خيرة، وأن الشر أمر طارئ عليه ، ومجاف لفطرته ، وتبين أن النفوس مفضولة على الإقرار بالله تصديقاً به ودينياً له ، ولكن يعرض لها ما يفسدها من الشبهات، والشهوات، التي تصدها عن الحق^(١) .

وكما تفتك أسراب الديدان، وأنواع الآفات بأشجار القطن والفاكهة، هجمت على خطيرة على الفطرة البشرية، فعوجت سيرها ومسخت ما برأها الله عليه^(٢) . "وقد صدق عليهم إبليس ظنّه فاتبعوه إلا فريقاً من المؤمنين"^(٣) . بل إن هذه الفطرة الكريمة يصيبها من الدمار ما يصيب الحقول الغناء إذا هجمت عليها قوافل الجراد^(٤) "فالكفر لا يولد مع الانسان إنما هو أمر عارض ناشيء عن غلبة هوى ، أو وسوسة شيطان ، أو تأثير قرين سوء"^(٥) .

فما هي حقيقة هذه المؤثرات ؟ وكيف تؤثر على الفطرة ؟

من ثانياً كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، يمكن الإجابة عن هذين السؤالين من خلال الحديث عن ثلاث مؤثرات هي : الشيطان الرجيم ، والبيئة ، وهوى النفس . وقد خصص لكل منها مطلب، وهي كالتالي .

(١) انظر مجموع الفتاوى - ج ٥ ص ٥٢٨. (مرجع سابق) .

وانظر بحث : التصور الإسلامي للإنسان . (مرجع سابق) . ص ٧٤ .

(٢) انظر ، مع الله - دراسات في الدعوة والدعاة - محمد الغزالي ص ٩١ . دار إحياء التراث العربي . ط : ٥ (١٤٠١هـ .

(٣) سبأ - ٢٠ - .

(٤) انظر مع الله - دراسات في الدعوة والدعاة ص ٩٢ . (مرجع السابق) .

(٥) انظر صفوة الآثار والمفاهيم : الشيخ البوسري . ج ٢ ص ٢٣٦ مكتبة الرشد . ط : ٢ . ب : ت .

المطلب الأول : الشيطان

ما الشيطان ؟

الشيطان في لغة العرب من شطن إذا بعد ، فهو بعيد بطبعه عن طباع البشر، ويعيد بفسقه عن كل خير ، بل إن كل خلق نميم يصدر عن الإنسان شيطان^(١) . قال ابن منظور " تشيطن فلان إذا فعل فعل الشياطين " وهذا مشهور حتى على السنة العوام حيث يصفون من يشاهدونه يتصرف تصرفاً شاذاً شيطاناً . وزاد المعجم الوسيط تعريفاً أشار فيه إلى المعنى الغيبي للشيطان فقال " روح شرير مفو"^(٢) .

أما في الاصطلاح فالأمر لا يختلف كثيراً، عدا أن بعضهم يشير إلى أن المقصود به إبليس ولا يمنع أن يكون المراد به جنس الشيطان^(٣) .

يقول القرطبي : "إن كل عات متمرّد من الجن والإنس والنواب شيطان"^(٤) وبه قال ابن كثير^(٥) وابن حجر^(٦) ، وهذا التعريف هو الموافق لما عرف عن الشيطان بتنوع أساليبه وجنوده وطرقه فهناك شياطين الإنس ويدل على هذا قوله تعالى "وإذا خلوا إلى شياطينهم"^(٧) قال ابن عباس : هم رؤساء الكفر^(٨) وقال تعالى "شياطين الإنس والجن يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً"^(٩) .

وعن ماورد نصاً بوصف بعض النواب بالشيطنة فقد قال صلى الله عليه وسلم "إن

(١) انظر المفردات في غريب القرآن - مادة شطن ، وانظر لسان العرب - مادة شطن . وانظر تفسير القرآن العظيم - ج ١ ص ٢٦ . (مراجع سابقة) .

(٢) انظر لسان العرب - مادة شطن ص ٤٨٢ .

(٣) المعجم الوسيط . مادة شطن (مراجع سابق) .

(٤) انظر فتح الباري - ج ٢ ص ٨٥ . (مراجع سابق) .

(٥) الجامع لأحكام القرآن - ج ١ ص ٩٠ . (مراجع سابق) .

(٦) انظر تفسير القرآن العظيم - ج ١ ص ٢٦ . (مراجع سابق) .

(٧) انظر فتح الباري ج ٢ ص ٨٥ (مراجع سابق) .

(٨) البقرة - ١٤ - .

(٩) الجامع لأحكام القرآن - ج ١ ص ٢٠٧ . (مراجع سابق) .

(١٠) الأنعام - ١٢ .

الإبل خلقت من الشياطين" (١) وغير ذلك من الدواب .

وعند قوله تعالى " فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم" (٢) قال الشيخ الدوسري " ولم يقل استعذ من إبليس لكثرة الشياطين وأنواعهم الذين يصدون عن سبيل الله" (٣) .

بل أمرنا أن نستعيز من شياطين الإنس والجن، حيث قال تعالى " من الجنة والناس" (٤) وزاد الأمر وضوحاً فقال " وليعلم أن الشيطان ليس مقصوداً بمعناه على إبليس وذريته بل هو اسم جنس لكل متمرّد عاتٍ ولكل من تعاون مع إبليس وكان من جنوده في الإغواء، وتحبيذ المنكر والفحشاء، والصد عن سبيل الله ، والدعوة إلى طريق الباطل بأي أسلوب وتحت أي شعار أو مذهب" (٥) . فيتضح مما سبق أن الشياطين أنواع وبركات بأجناسهم وقدرتهم ومعارفهم بحسب ما أعطى الله كلاً منهم من مزايا وخصائص .

تبين لنا من معاني الشيطان أن كل من سعى في إضلال بني آدم عن طريق الحق فهو شيطان، فأما إن كان إنساناً " فشياطين الإنس أمرهم معروف لنا في هذه الأرض ونماذجهم ، ونماذج عدائهم لكل نبي وللحق الذي معه وللمؤمنين به معروفة يملك أن يراها الناس في كل زمان" (٦) .

أما إن كان من شياطين الجن فلاشك أنه يرد على ذهن الإنسان تساؤلات حول أصل هذه المخلوقات وحقائقها . بسئل شيخ الإسلام (ابن تيمية) عن حقيقة الشياطين ومن هم ؟ فأجاب " بأن الشياطين هم مرّدة الإنس والجن وجميع الجن ولد إبليس والله أعلم" (٧) . وقال ابن حجر " وإذا ثبت وجودهم فقد اختلف في أصلهم فقيل إن أصلهم ولد إبليس ، فمن كان منهم كافراً سمي شيطاناً" (٨) .

(١) صحيح الجامع الصغير - ج ١ ص ٥٢ (مرجع سابق) .

(٢) النحل - ٩٨ - .

(٣) صفوة الآثار والمفاهيم في تفسير القرآن العظيم - ج ١ ص ٢٨ (مرجع سابق) .

(٤) الناس - ٦ - .

(٥) المرجع السابق - ج ١ ص ٢٦ .

(٦) في ظلال القرآن - ج ٣ ص ١١٨٩ (مرجع سابق) .

(٧) مجموع فتاوى شيخ الإسلام - ج ١٥ ص ٧ (مرجع سابق) .

(٨) فتح الباري - ج ٦ ص ٣٤٤ (مرجع سابق) .

وظاهر نص القرآن يؤيد هذا ويثبت أن إبليس من الجن فقد قال تعالى "إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه" ^(١) وكذلك قوله تعالى "وخلق الجن من نار" قال الحسن : الجن إبليس وهو أبو الجن ^(٢) .

ولقد اختلف السلف اختلافاً أطالوا فيه ، بشأن إبليس والجن فهل إبليس من الجن ؟ وهل الجن عالم غير عالم الملائكة ؟ وهل يتوالدون وكيف ؟ ^(٣) وغير ذلك من الاختلافات التي تطرأ على أذهان البشر ، وتدخلهم في متاهات فكرية وتخبطات جدلية لا أساس لها ، فيها هو ابن كثير -رحمه الله- بعد أن أسهب في هذه الخلافات يؤكد الحذر منها حيث يقول : " فقد روي في هذا آثار كثيرة عن السلف وغالبها من الإسرائيليات التي تنقل لينظر فيها ، والله أعلم بحال كثير منها ، ومنها ما قد يقطع بكذبه لمخالفته للحق الذي بأيدينا ، وفي القرآن غنية عن كل ما عدها من الأخبار .. " ^(٤) .

ومعروف أن هذا الخلق مخلوق من نار، وأنه زود بالقدرة على الحياة في الأرض وأنه يملك الحركة بأسرع مما يملك البشر ، وأن منه الصالحين المؤمنين ومنه الشياطين المتمردين وأنه يرى بني آدم وبني آدم لا يرونه في هيئته الأصلية، وأن منه شياطين مسيطون على بني الإنسان يفتنونهم ويضلونهم به وهم قادرون على الوسوسة لهم والإيحاء بطريقة لانعلمها ^(٥) .

ولأن القرآن أقر هذه الأمور فنحن نؤمن بها، فمما جاء في القرآن عن هذا الجنس "أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني ^(٦) فوسوس لهما الشيطان" ^(٧) " وإن الشياطين

(١) الكهف - ٥٠ - .

(٢) الجامع لأحكام القرآن - ج ١٧ ص ١٦١ (مرجع سابق) .

(٣) انظر تفسير ابن كثير . ج ٢ ص ١٤٦ .

(٤) المرجع السابق نفسه - ج ٢ ص ١٤٦ .

(٥) انظر في ظلال القرآن - ج ٢ ص ١١٨٩ (مرجع سابق) .

(٦) الكهف - ٥٠ - .

(٧) الأعراف - ٢٠ - .

ليوحون إلى أوليائهم^(١) "ومن الشياطين من يفوضون له ويعملون عملاً دون ذلك"^(٢) .
وغير ذلك مما ذكره القرآن الكريم عن هذه المخلوقات من حقائق مسلمة، أما ما هذا
ذلك من الأمور الغيبية فلا فائدة مثمرة من تتبعها خاصة أنه قد كتب الكثير عن قضية
الشیطان والجن وإبليس ، وذهبت البشرية في ذلك مذاهب شتى، وكان للتصورات الخاطئة
في هذا الشأن التأثيرات الكثيرة، إما على تفكير الناس أو على طرائق حياتهم، كما أن
النفوس قد جبلت على حب الاستطلاع ومعرفة المجهول ، وتلك طبيعة قد تدفع إلى تجاوز
الحق والخوض في المسائل استناداً إلى الأوهام والخيال أو في الأساطير مما يؤدي إلى
بلبلة الفكر واضطراب الحياة .^(٣)
ولهذا وغيره من الأسباب لا ينبغي الجزم بشيء من أمر هذه القضية إلا في حدود
النص المسلم ، والنص لا يذكر الكيفية وإنما يثبت الحادث ، فلا حاجة إلى النقل من غير
وحي الله في هذا الشأن من أخبار لا يعتمد عليها^(٤) .

(١) الأنعام - ١٢١ - .

(٢) الأنبياء - ٨٢ - .

(٣) انظر الأساس في التفسير - سعيد حوى ج ١ ص ١٢٦ دار السلام . القاهرة . (ط: ١) ١٤٠٥هـ .

وانظر وظيفة الإخبار في سورة الأنعام - د. سيد محمد الساداتي ص ٢٤٠ ط : دار عالم الكتب - الرياض . (ط: ٢) ١٤١٠هـ .

(٤) انظر في ظلال القرآن - ج ٢ ص ١٥٢١ وانظر صفوة الآثار والمفاهيم في تفسير القرآن العظيم - ج ٢ ص ٨١
(مرجمان سابقان) .

كيف يؤثر الشيطان على الفطرة ؟

كما تبين أن هذا الخبيث وأعوانه قد أعطوا قدرة على التأثير على البشر بعدة طرق، ولهم مداخل كثيرة عليه ،

وهناك إشارات واضحة من السنة النبوية تدل على تسلط هذا المخلوق الشرير على الإنسان منذ ولادته فقد جاء في الحديث "ما من بني آدم مولود إلا يمسه الشيطان حين يولد فيستهل صارخاً من مس الشيطان، غير مريم وابنها" ^(١) وهذا يبين مدى قربته وتأثيره على الفطرة التي يولد الإنسان عليها . "قال القرطبي: "هذا الطعن من الشيطان هو ابتداء التسليط" ^(٢) .

ومما يؤيد هذا ويؤكده قوله صلى الله عليه وسلم : " إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم" ^(٣) .

ويشير إلى هذا قوله تعالى "وقبضنا لهم قرناء فزينوا لهم ما بين أيديهم وما خلفهم .." ^(٤) . بل قال صلى الله عليه وسلم نصاً يدل صراحة على تأثير الشياطين على الفطرة فقد جاء في الحديث "وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم" ^(٥) .

قال النووي "أي استخفوهم فذهبوا بهم وأزالوهم عما كانوا عليه وجالوا معهم في الباطل" ^(٦) بل ورد في السنة أن عبادة الأصنام التي توارثها العرب ممن سبقوهم كانت بتزيين هذا الخبيث، فقد ورد قول ابن عباس أنها "أسماء رجال صالحين من قوم نوح

(١) صحيح البخاري مع الفتح ك/أحاديث الأنبياء . باب قول الله تعالى (واذكر في الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها مكاناً شرقياً) ج٦ ص ٤٦٩ .

(٢) فتح الباري - (مرجع سابق) ج٦ ص ٤٧٠ .

(٣) صحيح الجامع الصغير - ج١ ص ٧٥ . (مرجع سابق) .

(٤) فصلت - ٢٥ - .

(٥) صحيح مسلم بشرح النووي ك / الجنة وصفة نعيمها وأهلها . باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار . ج١٧ ص ١٩٧ .

(٦) صحيح مسلم مع شرح النووي - ج١٧ ص ١٩٧ . (مرجع سابق) .

فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون أنصاباً وسموها بأسمائهم ففعلوا فلم تعبد حتى إذا هلك أولئك وتسخ العلم عبادت^(١) قال ابن حجر " فعبدها بتدريج الشيطان لهم "^(٢) .

وقد بين الذكر الحكيم مدى تسلط الشياطين على بني آدم ويطاعتهم لهم، وتزيين القبيح وتجميله ، والإغراء بزينة المصطنعة على ارتكابه^(٣) " لآزين لهم في الأرض "^(٤) فهو يوسوس في الصدور ويفري بالعصيان ويزين الكفر ويصد عن استماع الدعوة " ولاضلنهم ولأمنينهم ولأمرنهم فليبينكن أذان الأنعام ولأمرنهم فليغيرن خلق الله "^(٥) وعداوة الشيطان قديمة قدم الإنسان ، بدأت منذ خلق الله آدم -عليه السلام- ، وأمر ملائكته بالسجود وستستمر إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها :- " وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس قال أعسى لمن خلقت طيناً * قال أرأيتك هذا الذي كرمت علي لئن أخرتن إلى يوم القيامة لأحتكّن ذريته إلا قليلاً * قال اذهب فمن تبعك منهم فإن جهنم جزاؤكم جزاءً موفوراً * واستفز من استطعت منهم بصوتك وأجلب عليهم بخيلك ورجلك وشاركهم في الأموال والأولاد وعدهم وما يعدهم الشيطان إلا غروراً "^(٦) .

منطق حاقد ، وعدو لدود، يريد احتناك ذرية آدم، وفسر السلف الاحتناك بأنه الاستيلاء والاحتواء والإضلال وكلها تؤدي إلى معنى واحد^(٧) يقول ابن عمر : " إن إبليس موثق في الأرض السفلى فإذا تحرك فإن كل شرفي الأرض بين اثنين فصاعداً من تحركه "^(٨) . وقال القرطبي عن الإحتناك : " لأسوقنهم حيث شئت وأقودنهم حيث

(١) صحيح البخاري مع الفتح . له / التفسير . باب (ودأ ولاسواعاً ولايفوث ويعوق) ج ٨ ص ٦٦٧ .

(٢) فتح الباري - ج ٨ ص ٦٦٨ . (مرجع سابق) .

(٣) انظر في ظلال القرآن - ج ٤ ص ٢١٤١ . (مرجع سابق) .

(٤) المجر - ٢٩ - .

(٥) النساء - ١١٩ - .

(٦) الإسراء - ٦١ - ٦٤ - .

(٧) انظر تفسير القرآن العظيم - ج ٢ ص ٨٢ . (مرجع سابق) .

(٨) الجامع لأحكام القرآن - ج ٢ ص ٢٠٩ . (مرجع سابق) .

أردت^(١) "ولفظة صوتك في الآية قال القرطبي فيها : كل داع يدعو إلى معصية الله تعالى"^(٢) .

فلاشك أن من هذه صفته وهذه قدرته على بني آدم أنه العدو الأول للفطرة "ولهذا كان البلاء من الشيطان لا من مجرد النفس فإن الشيطان يزين لها السيئات ويأمرها بها ويذكر لها ما فيها من المحاسن كما فعل الخبيث مع آدم وحواء : " فقال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى "^(٣) . فكل شر وفسوق ، وبداية فكرة ظالمة أو كافرة ، وبداية السير في طريق كل شهوة خاسرة ، وتزيين الحياة الدنيا واعتبارها غاية عليا كل هذا وغيره يزينه الشيطان لعنه الله^(٤) " إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون"^(٥) . "وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون"^(٦) .

بل إن هذا الخبيث حلف إنه سيكون حاجزاً بينهم وبين السير في الصراط المستقيم وهو امتداد الفطرة " فيما أغويتني لأقعدن لهم صراطك المستقيم "^(٧) أي طريق الحق وسبيل النجاة"^(٨) .

ومع هذا فهو يعد ويمني الإنسان بما لا يفيد له ليزيحه من طريق السعادة الحقيقية "يعدهم ويمنيهم وما يعدهم الشيطان إلا غروراً"^(٩) يقول الشهيد (إن شاء الله) سيد قطب "إنها حالة استهواء معينة هي التي تتحرف بالفطرة البشرية عن الإيمان والتوحيد إلى الكفر

(١) نفس المرجع السابق - ج ١٠ ص ٢٨٧ .

(٢) نفس المرجع السابق - ج ١٠ ص ٢٨٨ .

(٣) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ج ٣ ص (مرجع سابق) .

(٤) انظر الأساس في التفسير - ج ٦ ص ٣١٩٧ (مرجع سابق) .

(٥) المائدة - ٩١ - .

(٦) النمل - ٢٤ - .

(٧) الاعراف - ١٦ - .

(٨) تفسير القرآن العظيم ج ٢ ص ٢٢٧ (مرجع سابق) .

(٩) النساء - ١٢٠ - .

والشرك، ولولا هذا الاستهواء لمضت الفطرة في طريقها وكان الإيمان هو هادي
الفطرة وحاديها^(١) .

وهل ينكر نولب شيطنة وسائل الإعلام في عصرنا وإغواها للناس بطرق شتى تزوّن
الباطل وتبجح الحق وتعرف الفطرة ، فأطفال المسلمين يعيشون اليوم تناقضاً وازدواجية في
تفكيرهم فهم يتلقفون من والديهم تعاليم الدين ومبادئه ، ويشاهدونهم يصلون، ثم ماذا
يشاهدون في (الذياع المرئي)^(٢) في أفلام الكرتون وغيرها. إنها حرب على جميع ما تلقفه
فكره من تعاليم حميدة.

أليس هذا انحرافاً بالفطرة وإخلالاً لها ولو على المدى البعيد. يقول أحد المختصين
الإعلاميين - وهم أدرى بما تخفيه هذه الوسائل من خبث وتخطيط سيء يؤدي والعياذ
بالله إلى معصية الله - : "لقد أحكم الإعلام الشيطاني قبضته على الناس اليوم، فاستولى
على أفئدتهم قبل أسماعهم وأبصارهم ، ولم يعد لهم متسع من الوقت يلتقطون فيه
أنفاسهم ، فأنساهم - باستحوازه عليهم - ذكر الله وحرمة من مصادر النور والهداية ،
وتحديات هذا الاستغراق للناس مثار اهتمام دارسي الإعلام إشفاقاً على الإنسانية ،
وفزعاً من آثار هذا الإعلام الشيطاني على الأصالة الفكرية والثقافة الإنسانية"^(٣) .

ويقول : "استحدثت وسائل الاتصال العصرية فنوناً شيطانية لإثارة الجماهير،
كالإعلانات الرتيبة، والدعايات الصاخبة، والموسيقى المجموعة، وأفلام الجنس والعنف،
 وغيرها فدفعت الناس إلى اختيار الضلالة على الهدى بما تقوم به من تحسين وتزيين
أفقدم القدرة على التمييز"^(٤) "ومن يعيش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً فهو له قرين *
وإنهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنفسهم مهتدون * - (٥) .

(١) في ظلال القرآن - ج ٢ ص ٧٦١. (مراجع سابق) .

(٢) سمعت من الشيخ علي الطنطاوي عبر برنامجه في الإذاعة أعني هذا الاسم .

(٣) وتلطف الإخبار في سورة الأنعام - ص ٦٤. (مراجع سابق) .

(٤) نفس المرجع السابق ص ٦٥ .

(٥) الزخرف (٣٦ ، ٣٧) .

وغير وسائل الإعلام كثير كالرياضة والسياسة ، واستغلالهما في إضلال الناس، ولهذا استغل اليهود هذه الوسائل لخدمة مآربهم الشيطانية لإفساد الناس ليكونوا تبعاً لهم ومن أراد أن يطلع على ذلك فليرجع إلى بروتوكولات حكماء (سفهاء) صهيون وخاصة البرتوكول الثاني عشر والثالث عشر^(١) . وصدق مالك بن دينار (رحمه الله) حيث يقول :
"إن شيطان الإنس أشد علي من شيطان الجن وذلك أنني إذا تعوذت بالله ذهب عني شيطان الجن، وشيطان الإنس يبجيتني فيجرني إلى المعاصي عياناً"^(٢) .

والمعركة بين الإنسان والشيطان لاتزال مستمرة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها حيث أن الله - جل وعلا - لحكمة يعلمها أخره إلى يوم القيامة " قال رب فأنظرنني إلى يوم يبعثون * قال فإنك من المنظرين * إلى يوم الوقت المعلوم"^(٣) .

فهو مستمر بالتفنن والاختراع في إيجاد المغريات والملهيات وزرعها في طريق البشر ليقعوا في أحابيله ومكائده ومكره ، وهذا ابتلاء يقع به كثير من الناس إلا من رحم ربي "لاحتنكن ذريته إلا قليلاً"^(٤) - "إن عبادي ليس لك عليهم سلطان"^(٥) . بل إن هذا الخبيث لا يكل ولا يتعب من الحركة الدائبة والحرص القوي لإغواء بني آدم بل وتتعاون على ذلك " شياطين الإنس والجن يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً"^(٦) بل ويكل وقاحة وفجور يعاهد الله بأن يضل العباد " إن الشيطان قال وعزتك يارب لا أبرح أغوي عبادك مادامت أرواحهم في أجسادهم"^(٧) .

(١) بروتوكولات حكماء صهيون - الاتحاد الإسلامي العالمي للمنظمات الطلابية (ط : ١) .

والغريب على أن ما نشر من مخططات اليهود السافرة في هذا الكتاب فإتاك ترى العالم يسير في فلهم . ووفق ما يرسمون .

(٢) الجامع لأحكام القرآن - ج ٧ ص ٦٨ . (مرجع سابق) .

(٣) الحجر - ٣٦ ، ٣٧ ، ٢٨ - .

(٤) الإسراء - ٦٢ - .

(٥) الإسراء - ٦٥ - .

(٦) الأنعام - ١٢ - .

(٧) قطعة من حديث في صحيح الجامع الصغير - ج ٢ ص ٧٢ حديث رقم (١٦٤٦) . (مرجع سابق) .

يظهر جلياً مما سبق أن الشياطين مسلطة على الإنسان بالتفجير والإغواء وتزين له الباطل في صورة الحق ، وتريه الشر في أفق الخير وهو بطبعه مهياً لقبول هذه الخدع كما يخدع الصبي عن اللبن بأصبعه يمتصه بفمه ، أو بالهددة والغناء حتى ينام على جوع^(١). فلا شك أن هذا الشيطان مؤثر خطير على الفطرة وهذا ما تأكد بعد الرجوع إلى كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم فيما سبق أعاننا الله من شروره .

(١) انظر الشيطان والإنسان - عبدالكريم الخطيب - دار الفكر العربي ١٩٧٩م .

المطلب الثاني البيئة الفاسدة

معنى البيئة :

البيئة في قواميس اللغة العربية تدل على : المنزل ، وزاد بعضهم وقال منزل القوم ، وتدل على المدينة ،^(١) وكأنهم يعنون مكان التجمع واختلاط الخلق بعضهم ببعض يدل على هذا قول صاحب اللسان : " وأبأت الإبل مباءة: أنخت بعضها إلى بعض"^(٢) .

وجاء في المعجم الوسيط زيادة تفيد في هذا المقام حيث زاد فيه : إن البيئة بمعنى : " الحال ويقال بيئة طبيعية وبيئة اجتماعية ، وبيئة سياسية"^(٣) .

وعند علماء الاجتماع لا يختلف الأمر كثيراً وإنما كأنهم فصلوا ذلك فيقولون عن البيئة هي:العوامل التي يتعامل معها الفرد ، وهذا يشمل جميع المواقف أو المثيرات التي يستجيب لها الإنسان.

وزاد بعضهم بأن البيئة تعني جميع ما يحيط بالفرد من مواقف مادية أو بشرية أو معنوية^(٤) " فالبيئة ليست هي المكان وحده ، وإنما هي المكان والإنسان والأفكار والعادات ، هذه كلها في مجموعها تكون البيئة"^(٥) .

يخلص من هذا إلى أن البيئة في هذا البحث تعني جميع ما أثر في الفرد وتسبب في تغيير سلوكه وصرفه إلى طريق يختلف عن الطريق الذي وجد عليه .

(١) انظر لسان العرب - مادة : (بوأ). (مرجع سابق) .

(٢) المرجع السابق - مادة : بوأ .

(٣) المعجم الوسيط - مادة (باء). (مرجع سابق) .

(٤) انظر السلوك الإنساني ، تحليل وقياس المتغيرات - د. سعد عبدالرحمن - ص ٤٦٥ مكتبة الفلاح ب : ت .

وانظر السلوك الإنساني - د. انتصار يونس ص ٦ - مكتبة دار المعارف ١٩٨٦ م .

(٥) المجتمع الرياني . محمد إبراهيم شقرة . ص ٦٩ . المكتبة الإسلامية . عمان - الأردن ط:٢ (١٤١٠هـ) .

اثر البيئة في الفطرة :

الإنسان كائن اجتماعي بطبعه وأشار القرآن الحكيم إلى هذه الحقيقة " وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا " (١) " فهو يبدأ بمركب مزبوج من أمه وأبيه وهو سلالة انحدرت من مزبوجات "يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وهو وارث للدافع الاجتماعي الموجود في أجداده منذ أسكن الله آدم وزوجه الجنة وجعل بين النوعين مشاعر المودة والرحمة" (٢) فالأسرة هي أول بيئة تتلقى الإنسان منذ ولادته ، ولذا فهي تعتبر أهم وأول وسيط في عملية التطبيع ، وتؤكد جميع الدراسات أهمية تأثير التفاعلات الأسرية في شخصية الطفل (٣) .

ويؤكد هذا ويوضحه قول الرسول صلى الله عليه وسلم " ما من مولود إلا يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء " (٤) ويقل أبوهريرة -رضي الله عنه- بعد هذا الحديث قرأناً ليكون أدل وأبلغ لتأكيد ذلك فيقول : "اقرأوا إن شئتم: "فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله .. الآية" (٥) . فهذا الطفل حينما يوجد في هذه الحياة يجد نفسه بين أبويه يرعيانه ويشكلانه كما يريدان كالصلصال ، فيدريانه على عاداتهما وتقاليدهما ويمنعانه من مخالفتها في كثير من شؤون الحياة ، يقول ابن حجر في أثناء شرحه للحديث السابق: " فمن تغير كان بسبب أبويه إما بتعليمهما إياه أو بترغيبهما فيه " (٦) .

فكثير من أنماط سلوكنا في علاقاتنا، وفي كثير من شؤون حياتنا نتلقاها من الأسرة المتمثلة بالأبوين " ولاريب أننا إذا استثنينا بعض العوامل الوراثية الطبيعية وجدنا أن

(١) العجرات - ١٢ - .

(٢) غزوفي الصميم - عبدالرحمن حسن حبيكة الميداني - ص ١٥٤ - دار القلم - بيروت . ط : ٢ (١٤٠٢هـ) .

(٣) انظر السلوك الإنساني . ص ٦٢ : (مرجع سابق) .

(٤) صحيح مسلم - بشرح النووي . ك/ الدر . باب (كل مولود يولد على الفطرة) . ج ١٦ ص ٢٠٧ .

(٥) نفس المرجع السابق - والمدرک نفسه ج ١٦ ص ٢٠٧ - ٢٠٩ .

(٦) فتح الباري - ج ٣ ص ٢٥٠ . (مرجع سابق) .

الموجه الحقيقي لكل فرد إنما هو البيئة الأولى التي احتضنته صغيراً^(١) .
فها نحن نقرأ في السيرة أن الرسول صلى الله عليه وسلم حينما عرض الإسلام على علي رضي الله عنه يرد قائلاً " هذا أمر لم أسمع به قبل اليوم فلست بقاض أمراً حتى أحدث به أبا طالب"^(٢) .

فهل هناك أثر أكبر من تغيير الدين الحنيف ؟ ذلك الذي يولد عليه كل إنسان كما هو أنفأ في حديث الرسول صلى الله عليه وسلم . أو محاولة التأثير ولو بعد الكبر لعل الابن يتراجع عن دين الحق كما حدث مع سعد بن أبي وقاص - رضي الله عنه - ، فقد "حلفت أم سعد أن لا تكلمه أبداً حتى يكفر بدينه ولا تاكل ولا تشرب قالت : زعمت أن الله وهلك بوالديك وأنا أمك وأنا أمرك بهذا . قال : مكنت ثلاثاً حتى غشي عليها من الجهد"^(٣) .
والبيئة كلمة تتسع دائرتها ولا تقتصر على الأسرة فقط فكل العوامل التي يصطلم بها الفرد في أثناء ممارسته لحياته فهي من البيئة " وبناء على ذلك فالحياة والبيئة في الحقيقة أمران متلازمان " "إن بيئتنا هي المكان الذي نتخذ منه موطناً ومعاشاً بكل ماتحملة هذه العبارة من معنى"^(٤) .

ولكل عامل في البيئة أثره وهي تتفاوت في التأثير من عامل لآخر، ولعل العامل الاجتماعي له الأثر الأول خارج الأسرة حيث طبع في الإنسان حب التقليد ومحاكاة الآخرين والتفاعل مع مجتمعه من أقارب وأصحاب وغيرهم ويمكن إيراد مثالين واقعيين يبينان مدى خطورة هذا العامل :

حينما حضرت أبا طالب الوفاة دخل عليه النبي صلى الله عليه وسلم وعنده أبو جهل فقال : أي عم قل لا إله إلا الله كلمة أحاج لك بها عند الله فقال أبو جهل وعبدالله بن أبي

(١) التبشير والاستعمار في البلاد العربية - د. مصطفى الخالدي . د. عمر فروخ - ص ٦٥ . منشورات المكتبة المصرية - بيروت .

(٢) السيرة النبوية - للإمام إسماعيل بن كثير - ج ١ ص ٤٢٨ - دار المعرفة بيروت ١٣٩٦ هـ .

(٣) صحيح مسلم بشرح النووي ك/ فضائل الصحابة . باب (فضائل سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه) ج ١٥ ص ١٨٥ .

(٤) انظر المجتمع - ر. م. ماكيفر - شارلز - بيدج - ترجمة د. علي أحمد عيسى ص ١٥٢ . الناشر . مكتبة النهضة المصرية - ط ٢ - ١٩٧٤ م .

أمية : يا أبا طالب ترغب عن ملة عبدالمطلب ؟ فلم يزالا يكلمانه حتى قال آخر شيء كلمهم به : على ملة عبدالمطلب " (١) فانظر مدى هذا التأثير ، فلم يتركاه حتى نطق بكلمة الكفر .

وهذا عتبة بن ربيعة أحد كبراء قريش يتأثر ويكاد يسلم بعد استماعه إلى الرسول صلى الله عليه وسلم وهو يتلو عليه القرآن رداً على مطالبته له بالعدول عن دعوته فيقول أبو جهل " والله يامعشر قريش ما نرى عتبة إلا صبياً إلى محمد وأعجبه طعامه وما ذاك إلا من حاجة أصابته، انطلقوا بنا إليه فأتوه " (٢) فيأتونه ويحدثه بما يمس كبريائه ويثير حفيظته فيقول له " والله يا عتبة ما جئنا إلا أنك صبوت إلى محمد وأعجبك أمره ، فإن كان بك حاجة جمعنا لك من أموالنا ما يغنيك عن طعام محمد " (٣) أنت رديء النفس تذهب إلى محمد من أجل طعامه ؟ انظر إلى هذه الوسوسة الشيطانية التي أثرت على عتبة حتى غضب وأقسم بالله لا يكلم محمداً أبداً " (٤) .

والشواهد على هذا كثيرة بل إن المجتمع القرشي أنوا من أسلم وهددوا من لم يسلم بالعذاب إن أسلم " ثم إن قريشاً تذامروا بينهم على من في القبائل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الذين أسلموا معه ، فوثبت كل قبيلة على من فيها من المسلمين يعذبونهم ويفتنونهم عن دينهم " (٥) بل إن أبا جهل " إن سمع برجل قد أسلم له شرف ومنعة أنبه وخرأه وقال : تركت دين أبيك وهو خير منك ، لنسفهن حلمك ولنكسدن رأيك ، ولنضعن شرفك ، وإن كان تاجراً قال : والله لنكسدن تجارتك ، ولنهلكن مالك ، وإن كان ضعيفاً ضربه وأغرى به - لعنه الله وقبحه - " (٦) .

بل بلغ الأمر أنهم يعذبون الرجل حتى يعطيهم ماسألوه من الفتنة حتى يقولوا له

(١) صحيح البخاري مع الفتح ك/التفسير باب (إنك لاتهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء) ج ٨ ص ٥٠٦ .

(٢) السيرة النبوية - لابن كثير - ج ١ ص ٥٠٢ . (مرجع سابق) .

(٣) نفس المرجع السابق - ج ١ ص ٥٠٢ .

(٤) نفس المرجع السابق - ج ١ ص ٥٠٢ .

(٥) البداية والنهاية - لابن كثير - ج ٢ ص ٤٩ . مكتبة المعارف - بيروت ط: ١ .

(٦) نفس المرجع السابق - ج ٢ ص ٥٩ .

اللات والعزى إلهان من دون الله فيقول نعم افتداء منهم بما يبلغون من جهدهم^(١) وهي مثل هذا أنزل الله تعالى " من كفر بالله من بعد إيمانه إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان"^(٢) .

بل وصل الأمر إلى أن يفر المؤمن من بيئته ويدع وطنه وأهله وماله لئلا يفتن ويتروك دينه فكانت الهجرة الأولى والثانية إلى الحبشة ، والهجرة بعد ذلك إلى المدينة ، ومن بين المهاجرين الرسول صلى الله عليه وسلم منتقلاً إلى البيئـة الأصلح حالاً تاركاً موطنه الأصلي مكة وهي أحب البقاع إليه لمن فيها . وقبله هاجر نبي الله لوط عليه السلام " وقال إنني مهاجر إلى ربي"^(٣) . فلماذا هاجر لوط ؟ .

يقول سيد قطب رحمه الله - : " هاجر بعيداً عن موطن الكفر والضلال بعد أن لم يبق رجاء في أن يفيء القوم إلى الهدى والإيمان بحال"^(٤) .

فالمجتمع الفاسد أثره بعيد المدى ومخيف ، فالقرآن الكريم يقص علينا قصة ملكة سبأ ويذكر سبب ضلالها : " وصدها ما كانت تعبد من دون الله إنها كانت من قوم كافرين"^(٥) .
وصدها عن التقدم إلى الإسلام عبادة الشمس ونشوعها بين ظهرا نبي الكفرة"^(٦) .

بل إذا استشرى الظلام واستفحل أهل الضلال تنقلب المفاهيم وتختل الموازين ويصبح الطاهر النظيف شاذاً في هذا المجتمع وهذا ما أشار إليه القرآن الكريم في قصة لوط حينما هموا بطرده عن قريتهم فما السبب ؟ " فما كان جواب قومه إلا أن قالوا أخرجوا آل لوط من قريبتكم إنهم أناس يتطهرون"^(٧) يقول سيد قطب : "عجيب أن تتحرف الفطرة انحرفاً جماعياً كما حدث في قوم لوط ، بدون ضرورة دافعة إلى عكس اتجاه

(١) نفس المرجع السابق - ج ٢ ص ٥٩ .

(٢) النحل - ١٠٦ - .

(٣) العنكبوت - ٢٦ - .

(٤) في ظلال القرآن - ج ٥ ص ٢٧٧٢ . (مرجع سابق) .

(٥) النمل - ٤٣ - .

(٦) الكشاف - ج ٢ ص ١٥٠ (مرجع سابق) . وانظر في ظلال القرآن ج ٥ ص ٢٦٤٢ (مرجع سابق) .

(٧) النمل - ٥٦ - .

الفطرة المستقيمة^(١) .

وأخراج أهل الحق بدون سبب لا لأنهم يريدون الإصلاح ما استطاعوا ملموس ومشاهد في القديم والحديث فما هو ورقة منذ عرف أن محمداً صلى الله عليه وسلم يخبره أن قومه مخرجوه : "يا ليتني أكون حياً إذ يخرجك قومك"^(٢) . فهذه سنة من سنن الحياة ، فالعداوة بين الحق والباطل مستمرة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، ويؤكد القرآن الكريم هذه الحقيقة فما هم قوم شعيب يقولون " لنخرجك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا "^(٣) " وقال الذين كفروا لرسولهم لنخرجنكم من أرضنا"^(٤) .

ولو تتبعنا ماجاء في ذلك لطال المقام ، وإنما المراد أن يتبين مدى خطورة البيئة، حيث يصل الأمر إلى إبعاد المصلحين بل وحماية المفسدين ، ولذا ترى كثيراً من الحكومات الضالة تحمي مشايخ الطرق والفرق الضالة ، بل وتعينها وتدعمها بالمال والرجال إذا احتاجت إلى ذلك ، وهذا معروف في أثناء إقامة الحفلات البدعية التي ما أنزل الله بها من سلطان ، أما السائرون على الحق والمستقيمون على الصراط السوي فهم محاربون مبغضون وتطلق عليهم أقبح الألفاظ والألقاب ترى لماذا؟

الجواب باختصار شديد لأنهم لا يداهنون في حق الله ولا يخشون فيه لومة لائم .

وماحدث ويحدث في تغريب شباب الإسلام إلى البيئات الفاسدة لعمرا لله إنه من الأسباب الرئيسة في ضلال وضياع كثير من الشباب " فالجيل الذي تلقى ثقافته في عواصم أوربا أو في بعض الكليات العصرية في تركيا ، قد نشأ على الاستهانة بقيمة الدين واليأس من مستقبله ، وكراهة رجاله واحتقارهم ، وعلى تقديس الحضارة الغربية"^(٥) . ولزيادة إيضاح خطورة استغلال التربية في البيئة الفاسدة فإنه يذكر أن مصطفى كمال

(١) في خلال القرآن - ج ٥ ص ٢٦٤٧ . (مرجع سابق) .

(٢) صحيح البخاري مع الفتح ج ١ ص ٢٢ .

(٣) الاعراف - ٨٨ - .

(٤) إبراهيم - ١٢ - .

(٥) الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية في الأقطار الإسلامية. أبو الحسن الندوي. دار العلم.

الكويت (ط : ٤) .

اتاتورك " التحق بمدرسة ابتدائية تسير على النهج الأوربي الحديث " (١) .
ولهذا استفل المنصرون البيئة التعليمية وكانت أهم التوصيات التي تتمخض عنها
مؤتمراتهم هي توسيع نطاق التعليم (٢) .

يقول أحد المنصرين : " يجب أن نشجع إنشاء المدارس على الخط الغربي العلماني لأن
كثيراً من المسلمين قد تززع اعتقادهم بالإسلام والقرآن حينما درسوا الكتب المدرسية
الغربية وتعلموا اللغات الأجنبية " (٣) ويقول كبيرهم زويمر : مادام المسلمون ينفرون من
المدارس المسيحية فلا بد أن ننشيء لهم المدارس العلمانية ونسهل التحاقهم بها، هذه
المدارس التي تساعدنا على القضاء على الروح الإسلامية ، عند الطلاب " (٤) .

ولهذا تجدهم يستغلون عوامل البيئة ولايزالون " وقد عرف شياطين الإفساد في
الأرض ما للبيئة من تأثيرات قوية في صناعة الإنسان فكراً ونفسياً وسلوكياً - فوجهوا
عناية فائقة لاستثمار البيئات الصغرى والكبرى في تحقيق أهدافهم الرامية إلى صناعة
أجيال الشعوب الإسلامية - التي يغزونها - صناعة على مايريدون " (٥) .

وتنوعت أدواتهم في إفساد البيئة فاستغلوا البيئة التعليمية والبيئة الثقافية عموماً
وغيرها كإنشاء المدارس والجامعات ، ودور السينما ، ونوادي القمار ، و دور اللهو والرقص
والمجون، وإفساد البيئات الإسلامية في الأسواق والمحلات التجارية والحدائق والمنتزهات ،
بل حتى المستشفيات استغلوها في مآربهم الشيطانية (٦) فهي ميدان خصب جداً .

ولكن ليهناً زويمر وزملاؤه فقد أراحهم بعض المسلمين من مشقة العناء وأرسلوا
أولادهم بطوعهم واختيارهم إلى بلاد الغرب حيث التأثير الفعال والنويان السريع في تلكم

(١) نفس المرجع السابق - ص ٥١ .

(٢) قادة الغرب يقولون : دمروا الإسلام أبيبوا أمهه - جلال العالم ص ٥٢ . ٥٤ - ط : ٢ .

(٣) انظر الفارة على العالم الإسلامي ص ٥٢ . ل. شاتيه - ترجمة محب الدين الخطيب ومساعد الياباني - مكتبة أسامة
بن زيد - بيروت .

(٤) نفس المرجع السابق ص ٥٤ .

(٥) غزو في الصميم - ص ١٥٧ . (مرجع سابق) .

(٦) انظر المرجع السابق ص ١٥٧ - ١٥٨ . وانظر التبشير والاستعمار - ص ٦٠ - ٦١ (مرجع سابق) .

المجتمعات فحسبنا الله ونعم الوكيل .

وكذلك فالبيئة السياسية لها الأثر الكبير والفعال على المجتمعات فما هو أتاتورك - لعنه الله - يفعل ما لم يفعله أعداء الإسلام أنفسهم ويغير مجتمعا كاملا ويشكله كما يريد^(١) وكذا فعل غيره من رؤساء الحكومات الفاسدة في العالم الإسلامي في عصونا الحاضر .

ولخطورة البيئة وأثرها فإنها إذا استفحل أمرها لاينفع معها علاج فإنها تحتاج إلى تغيير كامل، واقتلاعها من جذورها؛ ولهذا تجد نبي الله نوحاً عليه السلام يدعو الله أن ينزل البيئة الفاسدة التي تتمثل بناس قومه فيقول " وقال نوح رب لاتذر على الأرض من الكافرين دياراً * إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلبثوا إلا فاجراً كفاراً"^(٢) يقول ابن كثير : "أي إنك إن أبقيت منهم أحداً أضلوا عبادك أي الذين تخلفهم بعدهم"^(٣) .

ويزيد ابن عاشور الأمر وضوحاً وتفصيلاً فيقول " فهو تخصيص للظالمين من قومه بسؤال استئصالهم بعد أن شملهم وغيرهم بعموم قوله " لاتذر على الأرض من الكافرين دياراً " حرصاً على سلامة المجتمع الإنساني من شوائب المفاسد وتطهيره من العناصر الخبيثة"^(٤) . ولذلك فإن الله يمقت الأرض بما عليها إذا عم الفساد وأصبحت البيئة فاسدة كلها، ففي الحديث القدسي "إن الله نظر إلى أهل الأرض عريهم وعجمهم فمقتهم ، إلا بقايا من أهل الكتاب"^(٥) .

ولعل هذا غاية العقاب حيث يمقت الله أهل الأرض بسبب عصيانهم وكفرهم .

ومما سبق ظهر أن البيئة أحد المؤثرات الرئيسية في انحراف الفطرة السوية السليمة، وهو مايراد إثباته .

(١) انظر الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكره الغربية - ص ٥٥ إلى ص ٦٢ . (مرجع سابق) .

(٢) نوح - ٢٦ - ٢٧ .

(٣) تفسير القرآن العظيم - ج ٤ ص ٦٦٨ . (مرجع سابق) .

(٤) التحرير والتنوير - محمد الطاهر بن عاشور - ج ٢٩ ص ٢١٥ . الدار التونسية للنشر . ١٩٨٤ م .

(٥) صحيح مسلم بشرح النووي ك/ الجنة وصفة نعيمها وأهلها . باب(الصفات التي يعرف بها أهل الدنيا أهل الجنة وأهل النار) ج ١٧ ص ١٩٧ .

المطلب الثالث

هوئ النفس

بالعودة إلى معاجم اللغة نجد أن اللغويين يتفقون على أن المقصود بالهوى المعنى في هذا الموضوع هو : هوئ النفس ، فيقولون : والهوى مقصور هوئ النفس ، وهوى النفس إرادتها^(١) .

ويزيد المعجم الوسيط : " هو النفس المائلة إلى الشهوة"^(٢) و زاد الراغب الأمر وضوحاً حينما قال : الهوى ميل النفس إلى الشهوة ، ويقال ذلك للنفس المائلة إلى الشهوة وقيل سمي بذلك " لأنه يهوي بصاحبه في الدنيا إلى كل داهيه وفي الآخرة إلى الهاوية"^(٣) . ويؤكد هذا القرآن الكريم بقوله تعالى " ونهى النفس عن الهوى"^(٤) .

وفي الاصطلاح لاتجد اختلافاً يذكر وإنما يزيدون في معنى هوئ النفس فنجدهم يقولون " الهوى : ميلان النفس إلى ما تستلذه من الشهوات من غير داعية الشرع"^(٥) . ويزيد ابن عاشور في مفهومه قائلاً " ميل النفس إلى ماتحبه أو تحب أن تفعل فون أن يقتضيه العقل السليم الحكيم ، ولذلك يختلفون الناس في الهوى ولايختلفون في الحق، وقد يحب المرء الحق والصواب"^(٦) إلى أن قال " فالمراد بالهوى إذا اطلق أنه الهوى المجرد عن الدليل"^(٧) .

فلا خلاف بين التعريفين ، فمما سبق يكون مفهوم هوئ النفس هو : انقياد الإنسان

(١) أنظر لسان العرب - مادة : هوا (مرجع سابق) ، وانظر المعجم الوسيط - مادة : هوى (مرجع سابق) . وانظر

القاموس المحيط - الفيروز أبادي - مادة هوى - مؤسسة الرسالة - (ط : ١) .

(٢) انظر المعجم الوسيط . مادة : هوى .

(٣) المفردات في غريب القرآن - مادة : هوى - ص ٥٤٨ . (مرجع سابق) .

(٤) التازعات - ٤٠ - .

(٥) التعريفات - علي بن محمد بن علي الجرجاني - ص ٣١٤ عالم الكتب (ط : ١) ١٤٠٧ هـ .

(٦) التحرير والتنوير . ج ٢٧ ص ٩٣ . (مرجع سابق) .

(٧) المرجع السابق نفسه ج ٢٧ ص ٩٣ .

خلف هوى نفسه الذي يجنبه الحكمة وحسن التدبير في جميع ما يعرض له من شأن ، وإذا جاء في الذكر الحكيم : "قالوا ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوماً ضالين" (١) قال القرطبي : "غلبت علينا لذاتنا وأهواؤنا، فسمى اللذات والأهواء شقوة لأنهما يؤديان إليها" (٢) .

كيف يؤثر هوى النفس على الفطرة ؟

"الإنسان حين لا يهتدي بسنن الله ، ولا يهتدي بالعلم والهدى الذي جاء من عند الله يميل به هواء ، لأنه فقد الميزان ، فصار سهلاً عليه أن يميل مع هواء حيث لا يخشى سنة ولا علماً ، فكيف يخشاهما وهو لم يشعر بقوانينهما في الحياة وأسلوب كشفهما للباطل ، فلذا نجد أن ضيق نظره والمحبودية في إدراكه يسهلان عليه اتباع الظنون وماتهواه نفسه دون أن يخشى نكراً" (٣) ودل على ذلك قوله تعالى "إن يتبعون إلا الظن وماتهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى" (٤) والمراد بما تهوى الأنفس .. مالا باعث عليه إلا الميل الشهواني دون الأدلة ، فإن كان الشيء المحبوب قد دلت الأدلة على حقيقته فلا يزيد حبه إلا قبولاً ، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : "ورجلان تحابيا في الله اجتمعا عليه وافترقا عليه ورجل معلق قلبه بالمساجد" (٥) .

فاتباع الهوى يؤدي بصاحبه إلى الانحراف عن الحق ويصدده عنه ، فعند قوله تعالى "فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله" (٦) يقول صاحب المنار : "فهذا نص في أن اتباع الهوى سبب للضلال عن سبيل الله" (٧) .

(١) المؤمنون - ١٠٦ - .

(٢) الجامع لأحكام القرآن . ج ١٢ ص ١٥٣ . (مرجع سابق) .

(٣) حتى يغيروا ما بأنفسهم . جودت سعيد . ص ١٤٨ . دار الكتب المصرية . ط : ٢ . ١٣٩٧ هـ .

(٤) النجم - ٢٣ - .

(٥) التحرير والتنوير . ج ٢٧ ص ١١٠ (مرجع سابق) والحديث رواه البخاري في ك/ الأذان باب (من جلس في المسجد ينتظر الصلاة وفضل المساجد) صحيح البخاري مع الفتح . ج ٢ ص ١٤٢ .

(٦) ص - ٢٦ - .

(٧) تفسير المنار - ج ٩ ص ٦٣٥ . (مرجع سابق) .

وتجد رأي السلف الصالح في أن الهوى وأضراره وأخطاره كثيرة ، ولذا حذر القرآن في كثير من المواضع منه، بل ولا يذكره إلا مذموماً، ولذلك قال ابن عباس - رضي الله عنه - : "ما ذكر الله عز وجل الهوى في موضع من كتابه إلا ذمّه"^(١)، ويقول ابن الجوزي "أعلم أن مطلق الهوى يدعو إلى اللذة الحاضرة من غير فكر في عاقبة ، ويحث على نيل الشهوات عاجلاً وإن كانت سبباً للألم والأذى"^(٢) .

ولهذا مدح الله جل ذكره مخالفة الهوى : "ونهى النفس عن الهوى"^(٣) بل ونتيجة هذه المخالفة هي غاية السعادة : فإن الجنة هي المأوى^(٤) قال أحد السلف : "ترك الهوى مفتاح الجنة"^(٥) واستدل بالآيتين السابقتين .

ولذا فإن الهوى عدو للحق إذا أذعن الإنسان له، وهذا ما أوضحه ابن مسعود - رضي الله عنه - حيث قال " أنتم في زمان يقود الحق الهوى وسيأتي زمان يقود الهوى الحق"^(٦) .

فالذي يتمكن منه الهوى ويخالف دلالة القرآن ، وداعي الخير، لن تراه إلا في تعذر ووقوع يكبه على وجهه^(٧) ، فالهوى إذا استشرى أمره ينقص النور الذي في القلب هل ويطمسه، فيكون صاحبه أسيراً لهواه ، فيصده عن الحق مهما كانت أدلته وبراهينه ومن ذلك تخوف أمير المؤمنين علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - فقال : "إن أخوف ما أخاف عليكم اثنان : طول الأمل ، واتباع الهوى فأما طول الأمل فينسي الآخرة وأما اتباع الهوى فيصده عن الحق"^(٨) . وأكد القرآن الكريم هذا حيث حكى القرآن الكريم

(١) ذم الهوى . ابن الجوزي . ص ١٢ . ط : ١ بدون تاريخ .

(٢) نفس المرجع السابق . ص ١٢-١٣ .

(٣) النازعات - ٤٠ - .

(٤) النازعات - ٤١ - .

(٥) الجامع لأحكام القرآن . ج ١٠ ص ٢٠٦ .

(٦) نفس المرجع السابق . ج ١٠ ص ٢٠٦ .

(٧) انظر العوائق . محمد الراشد . ص ٦٠-٦١ . (ط : ١٠) . مؤسسة الرسالة .

(٨) الزهد للإمام أحمد بن حنبل . ص ١٦٢-١٦٣ . دار الكتب العلمية . بيروت . (ط : ١) ١٤٠٢ هـ .

ذلك : " وامل عليهم نبأ الذي أتيناہ آیاتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين *
ولوشننا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض وأتبع هواہ ... " (١) .

وكمثل للانحراف عن سواء الفطرة ونقض لعهد الله المأخوذ عليها ونكوص عن آيات
الله بعد رؤيتها والعلم بها، ضرب الله هذا المثل وبين سبب انسلخه من آيات الله وأن ذلك
هو الهوى (٢) واختلف المفسرون بشخصية المقصود بهذه الآيات السابقة، ولكنهم اتفقوا أنه
كان على علم وفضل والعياذ بالله - (٣) .

ولهذا قال ابن القيم فيما تضمنته هذه الآية من ذم هذا الرجل أنه ضل بعد العلم ،
واختار الكفر على الإيمان عمداً لاجهلاً ، وأنه رغب عن هداه وأتبع هواہ ، وأنه شبهه
بالكلب الذي هو من أخس الحيوانات همة، وأسقطها نفساً، وأبخلها وأشدّها كلباً، ولهذا
سمي كلباً (٤) .

وأطال في هذا - رحمه الله - مبيناً مدى خطورة اتباع الهوى وخسة صاحبه
وضعف نفسه. بل وجعل الهوى عدواً للعقل (٥) ولذا عدّ الرسول - صلى الله عليه وسلم -
مخالفة الهوى جهاداً فقال : "أفضل الجهاد أن يجاهد الرجل نفسه وهواہ" (٦) . ووصف
الرسول - صلى الله عليه وسلم - جهاد الهوى بأنه أفضل الجهاد لم يأت جزافاً ولا من
فراغ وإنما لأن الهوى "هو الدافع القوي لكل طغيان وكل تجاوز، وكل معصية، وهو أساس
البلوى، وينبوع الشر وقل أن يؤتى الإنسان إلا من قبل الهوى" (٧) فهو أعظم مشكلة تواجه
الإنسان في حياته حيث إذا غلب الهوى جنح العقل وأظلم القلب ، فلا يسمع الإنسان كلمة

(١) الأعراف - ١٧٥ - ١٧٦ - .

(٢) انظر في ظلال القرآن - ج ٣ ص ١٢٩٦هـ. (مرجع سابق) .

(٣) انظر زاد المسير في علم التفسیر - ج ٢ ص ١٧٦ (مرجع سابق) . وانظر الفوائد - ابن قيم الجوزية -
ص ١٠٠ - ١٠١ . المكتبة القيمة - (ط : ١) .

(٤) المرجع نفسه ص ٥٨ .

(٥) نفس المرجع السابق ص ٥٨ .

(٦) صحيح الجامع الصغير وزيادته - ج ١ ص ٣٦١ . حديث رقم [١١١٠] (مرجع سابق) .

(٧) في ظلال القرآن - ج ٦ ص ٣٨١٩ . (مرجع سابق) .

الحق، ولا يرى إلا الأباطيل والشبهات، وتقوده كما يقاد الأعمى^(١) : لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها"^(٢) . قال النسفي في هذه الآية : "قال أدمي روحاني شهواني، سماوي أرضي، فإن غلب روحه هواه فاق ملائكة السموات، وإن غلب هواه روحه فاقته بهائم الأرض"^(٣) . بل يستحق المتبع لهواه ما وصفه المولى جل وعلا بأنه أضل الضالين^(٤) ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله"^(٥) . قال صاحب فتح القدير: "بل هو الفرد الكامل في الضلال"^(٦) ونص القرآن بأن عدم اتباع الحق والاستجابة لداعي الحق والتكذيب، ناشيء من تأثير الهوى: "فإن لم يستجيبوا لك فأعلم أنما يتبعون أهواءهم"^(٧) . "وكذبوا واتبعوا أهواءهم وكل أمر مستقر"^(٨) يقول سيد قطب - رحمه الله - : "إن الحق في هذا القرآن لبين، وإن حجة هذا الدين لواضحة، فما يتخلف عنه أحد يعلمه إلا أن يكون الهوى هو الذي يصدّه"^(٩) .

فهذه النصوص تدل دلالة واضحة على ما يحدثه هوى النفس من تأثير على الفطرة، ومن أسباب مرض الفطرة اتباع الهوى والتقليد الأعمى^(١٠) وتأكيداً لهذا قال القرطبي - رحمه الله - : إن من أسباب انحراف الإنس هو اتباع الهوى^(١١) .
وفي القرآن الكريم كما مرّ بيان لمدى خطورة هذا الداء الفاسد، فيشير إلى أن صاحبه لا يكتفي بضلاله بل يسعى لإضلال غيره فيحذر الله نبيه موسى - عليه السلام - قائلاً له "فلا يصدتك عنها من لا يؤمن بها واتبع هواه فتردى"^(١٢) أي لا يصرفك عن الإيمان

(١) انظر - الذين ينكرون القنوة - د. حسن الشرقاوي - ص ٢٢ مؤسسة شباب الجامعة ١٩٨٤ م .

(٢) الاعراف - ١٧٩ - .

(٣) الأساس في التفسير - ج ٤ ص ٢٠٦٦ (مرجع سابق) .

(٤) القصص - ٥٠ - .

(٥) فتح القدير - ج ٤ ص ١٧٨ (مرجع سابق) .

(٦) القصص - ٥٠ - .

(٧) القمر - ٣ - .

(٨) في ظلال القرآن - ج ٥ ص (مرجع سابق) .

(٩) أعلام التربية في تاريخ الإسلام - ابن تيمية - عبدالرحمن النحلوي - ص ٦٧ دار الفكر ط: ١ .

(١٠) انظر الجامع لأحكام القرآن - ج ١٢ ص ١٤١ (مرجع سابق) .

بها والتصديق بها^(١) . فالهوى مبني على الجهل والظن وعدم الاستناد إلى الأدلة والبراهين المؤيدة من قبل الله - عز وجل - وعدم تقدير العواقب، ولهذا نجد القرآن يؤكد ذلك في عدة مواضع "وإن كثيراً ليضلون بأهوائهم بغير علم"^(٢) "أفمن كان على بينة من ربه كمن زين له سوء عمله واتبعوا أهواءهم"^(٣) "ولاتبع أهواء الذين لا يعلمون"^(٤) وغير ذلك من الآيات^(٥) . ولخطورة الهوى وغلبته وأن حامله موضع شك وريبه ومحل تكذيب نفاه - جل وعلا - عن رسوله صلى الله عليه وسلم "وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى"^(٦) . من كل ذلك يظهر بوضوح كيف يؤثر الهوى على الفطرة، وإلى أي مدى يبلغ هذا التأثير.

(١) نفس المرجع ج ١١ ص ١٨٥ .

(٢) الانعام ١١٩ .

(٣) محمد - ١٤ - .

(٤) الجاثية - ١٨ - .

(٥) انظر الآيات: البقرة ١٢٠ - ١٤٥ - الروم ٢٩ .

(٦) النجم - ٢ - ٤ - .

الفصل الأول

المنكرون والظروف المحيطة بهم

وفيه توطئة وبحثان

المبحث الأول : أقسام المنكرين

المطلب الثاني : الظروف المحيطة بهم

المنكرون والظروف المحيطة بهم

توطئة

إذا أردت أن تصف شخصاً أو تجري دراسة حول شخصية ما فلا بد أن تتعرف على أمور ترتبط بها بطريق أو بآخر، كأصله وجميع الظروف المحيطة به، من دينية، واجتماعية، وسياسية، لأن هذه الظروف إذا كانت سيئة، أو أن أحدها كذلك، فإنها تبقى بصمات واضحة على الإنسان، وقد تؤثر على سلوكه، فعلى سبيل المثال ما حدث ليهي إسرائيل زمن فرعون، يقول تعالى "وإذ نجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب يذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم"^(١).

بل وتجد أمماً إثرها أمم تعتذر لعدم إيمانها بتأثير الكبرياء "وبرزوا لله جميعاً فقال الضعفاء للذين استكبروا إنا كنا لكم تبعاً"^(٢) فهذا يدل دلالة واضحة على أهمية معرفة هذه الظروف التي تؤثر على الإنسان، ولعله من هذا المنطلق تجد كثيراً من الكتب التي تعنى بأمور الدعوة تحت على معرفة أحوال المدعو^(٣) والذين يدرسون أحوال الأمم تجدهم يبدأون ذلك بدراسة مستفيضة عن أحوالهم وعروقهم وظروفهم البيئية بعناية فائقة^(٤).

ويستأنس في هذا المقام بما تقصه كتب السيرة من معرفة الرسول صلى الله عليه وسلم بأنساب القبائل^(٥)، وكذلك أمره حسان بن ثابت أن يستعين بأبي بكر -رضي الله عنهما- لمعرفة القوية بأنساب قريش ليكون هجاءه مؤثراً "لاتعجل فإن أبا بكر أعلم قريش

(١) البقرة - ٤٩ - .

(٢) إبراهيم - ٢١ - .

(٣) انظر الدعوة إلى الله : الرسالة - الوسيلة - الهدف . د. توفيق الواعي ص ٢٤٦ . مكتبة الفلاح . (ط : ١) . وانظر

محاضرات ألقى على السنة التمهيدية للماجستير قسم الدعوة ١٤٠٨ هـ . د. سيد محمد الساداتي - غير منشورة .

وانظر فقه الدعوة والإعلام - عمارة نجيب . ص ٢١-٢٢ - مكتبة المعارف - الرياض .

(٤) انظر حضارة العرب . غوستاف لويون . ص ٥٧ ، ٥٩ وما بعدهما . عيسى البابي الحلبي وشركاه .

(٥) انظر السيرة لابن مشام . ج ٢ ص ٥١ (مرجع سابق) .

بأنسابها^(١) وقلما تجد مؤلفاً عن شخصية ما إلا ونرى المؤلف يتطرق إلى الأحوال السائدة في عصره والظروف المحيطة به .

بل وتجد علماء النفس إذا أرادوا أن يجروا فحوصاتهم على مرضاهم، يستفسرون منهم عن أمور كثيرة في حياتهم الخاصة والعامة وطبيعة الحياة التي يعيشونها، وفي ضوء إجاباتهم يحاولون تحديد العلة. وحرص المعنيون بالاتصال الإعلامي على معرفة جميع مايتعلق بالمستقبل من أحوال وظروف، بل تعدى ذلك إلى التطلع العميق ليحققوا بذلك معرفة مايشغل بال الجمهور، كل بحسب سنه وطباعه وميوله ورغباته، إلى غير ذلك ممايساعدهم على تقديم أفضل المضامين عبر وسائل الإعلام المختلفة^(٢) ومع هذا الجهد الكبير فإن الهدف أو الأهداف التي يراد تحقيقها من وراء ذلك أهداف وضيفة هابطة تهبط بالإنسان ولاترفعه، وتشوش على فكره وتحرفه عن صراط الله المستقيم^(٣) . فكيف بمن كان هدفه تعبيد الناس لرب الناس .

ومن هنا يخلص إلى أهمية البدء بهذه الدراسة عن تحديد المنكرين؛ ومعرفة الظروف المحيطة بهم، والتي قد تكون سبباً رئيساً فيما نتج من فساد في تصورهم للحق الذي جاءهم به محمد -صلى الله عليه وسلم- ، وموقفهم الراض له بل المعادي له في أحيان كثيرة .

(١) صحيح مسلم بشرح النووي . ك/ فضائل الصحابة . باب (فضائل حساب بن ثابت) ج ١٦ ص ٤٩ .

(٢) انظر وظيفة الإخبار في سورة الأنعام - ص ٤٨٦ (مرجع سابق)

وانظر الإعلام الإسلامي والعلاقات الإنسانية - النظرية والتطبيق - ص ٨٥ ومابعدها . وهو عبارة عن مجموعة أبحاث قدمت لمؤتمر عالمي أقامته الندوة العالمية للشباب الإسلامي .

وانظر الإعلام والاتصال بال جماهير والرأي العام - د. سمير محمد حسين . ص ١٢٧ - ١٥٢ . عالم الكتب . القاهرة (ط : ١) ١٩٨٤ م .

(٣) انظر وظيفة الإخبار في سورة الأنعام - ص ١٤٧ ، ١٤٨ . (مرجع سابق) .

المبحث الأول

أقسام المنكرين ويحوي الآتي :

التمهيد والمطالب التالية :

المطلب الأول : الوثنيون.

المطلب الثاني : أهل الكتاب .

المطلب الثالث : المنافقون.

تَمْهيد :

في عهد الرسالة المحمدية لعله من التكلف بمكان أن يتخبط الباحثون في تقسيم الفئات التي عاصرت زمن الرسالة المحمدية وقد توفر هذا في كتاب الله - جل ثناؤه - ففي صدر سورة البقرة قسم سبحانه وتعالى - الناس إلى ثلاث فئات هي بحسب وصف كتاب الله لها مؤمنون، كافرون، منافقون^(١) .

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله - ولما كانت البقرة سنام القرآن ويقال : إنها أول سورة نزلت بالمدينة ، فقد افتتحها الله بأربع آيات في صفة المؤمنين، وأيتين في صفة الكافرين ويضع عشرة آية في صفة المنافقين، فإنه منذ هاجر النبي صلى الله عليه وسلم صار الناس ثلاثة أصناف : إما مؤمن، وإما كافر مظهر للكفر، وإما منافق^(٢) وأكثر علماء الشرع يوافقون ابن تيمية في ذلك^(٣) . وأشار الزمخشري إلى أنهم فريقان أو قسمان : مؤمنون، وكافرون وجعل المنافقين فرعاً من الكافرين^(٤) وأشار ابن الجوزي وصاحب المنار إلى فرع رابع أو قسم يتفرع من القسم الأول وهم المؤمنون حيث اختلف المفسرون في قوله تعالى "والذين يؤمنون بما أنزل إليك"^(٥) فاختلفوا في من نزلت هل هم أهل الكتاب؟ أو مؤمنو العرب؟^(٦) وتجد صاحب المنار يقسم المؤمنين إلى قسمين والكافرين إلى قسمين في موضع آخر^(٧) .

ولأن طبيعة هذا البحث لا تتعرض للمؤمنين فإنه يناسب أن يقسم المنكرون (موضوع

(١) انظر سورة البقرة الآيات من (١) إلى (٢٠) .

(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام . ج ٧ ص (٢٠٠ - ٢٠١) (مرجع سابق) .

(٣) انظر الجامع لأحكام القرآن . ج ١ ص ١٩٢ (مرجع سابق) ، وانظر تفسير القرآن العظيم . ج ١ ص ٧٢ (مرجع سابق) .

(٤) انظر الكشاف . ج ١ ص ١٦٧ ، ١٦٨ (مرجع سابق) .

(٥) البقرة - ٤ - .

(٦) انظر زاد المسير في علم التفسير . ج ١ ص ٢٦ (مرجع سابق) .

(٧) انظر تفسير المنار . ج ١ ص ١٤٨ (مرجع سابق) .

الدراسة) إلى ثلاثة أقسام، ورتبوا بحسب مصادمتهم ومواجهتهم للرسالة وبحسب كثرتهم
فيصبح التقسيم كالآتي : كافر وثني، وكتابي، ومناقق .

المطلب الأول الوثنيون العرب

ما العرب ؟ وما أصلهم ؟ وما أقسامهم ؟

يقولون : العرب : هم . "جيل من الناس معروف، خلاف العجم، والعربي الفصح يعني : بيّن العروبة"^(١) .

ويزيد الألويسي الأمر إيضاحاً فيقول : "العرب جيل من الناس لم يزالوا موسومين بين الأمم بالبيان في الكلام والفصاحة في النطق والذلاقة في اللسان، ولذلك سموا بهذا الاسم فإنه مشتق من الإبانة"^(٢) .

أما صاحب اللسان فيذكر سببين آخرين قد يكون أحدهما سبباً في تسمية العرب بذلك فيقول "اختلف الناس في العرب، لم سموا عرباً ؟ فقال بعضهم : أول من أنطق الله لسانه بلغة العرب يعرب بن قحطان، وهو أبو اليمن كلهم ... وقيل إن أولاد إسماعيل - عليه السلام - نشأوا بقرية وهي من تهامة، فنسبوا إلى بلدهم"^(٣) وصاحب القاموس يذكر الرأي الثاني، وفرّق بين عُرَبٍ وأعراب فالأول جعله لسكان الأمصار والثاني لسكان البادية"^(٤) .

أصل العرب :

يشير المؤرخون إلى أن العرب أمة قديمة"^(٥) ولقد وجد أصل هذه الأمة في التاريخ

(١) انظر المفردات في غريب القرآن - ص ٢٢٨ مادة : عرب . (مرجع سابق) .

وانظر لسان العرب - مادة : عرب (مرجع سابق)، وانظر الجامع لأحكام القرآن - ج ٨ ص ٢٢٢ . (مرجع سابق) .

(٢) بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب - محمود شكري الألويسي - ج ١ ص ٨ عباس الياز . مكة المكرمة .

(٣) لسان العرب - مرجع سابق - مادة : عرب .

(٤) انظر القاموس المحيط - الفيروز آبادي - مادة : عرب . مؤسسة الرسالة . ط ١ : (١٤٠٦هـ) .

(٥) انظر بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب - ج ١ ص ٨ . (مرجع سابق) .

منذ القدم، وهي قد تكونت خلال حقبة وفتراته وقد أقامت جماعات منها حضارات مزدهرة^(١).

والجنس الذي يسكن شبه الجزيرة يسمى (الجنس العربي) وهو أحد الأجناس السامية ولكنه أكثرها محافظة على خصائص الساميين^(٢).

ويقول ابن هشام "فالعرب كلها من ولد إسماعيل وقحطان، وبعض أهل اليمن يقول: قحطان من ولد إسماعيل: إسماعيل أبو العرب كلها".

وعند ذكر نوح أشار الطبري -رحمه الله- إلى أن نريته هم الباقون اليوم^(٣) واستدل بقول الله تعالى: "وجعلنا نريته هم الباقين"^(٤) قال ابن كثير عن قتادة: "وجعلنا نريتهم هم الباقين"^(٥) ويؤكد هذا ماجاء في الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى "وجعلنا نريته هم الباقين" قال حام وسام ويافت^(٦) ويزيد الأمر وضوحاً في حديث آخر حيث يقول صلى الله عليه وسلم: "سام أبو العرب، وحام أبو الحبش، ويافت أبو الروم"^(٧).

ولعل أصل العرب إلى نوح ثبت ولذا نقل أما ماعداً ذلك فإن المؤرخين ينقلون من الإسرائيليات والأخبار التي لا يعتمد عليها.

(١) انظر تاريخ العرب والإسلام - منذما قبل المبعث وحتى سقوط بغداد - د سهيل زكار - ص ١٦ . دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع .

(٢) السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة - د. محمد محمد أبوشهبة - ج ١ ص ٤٥ دار العلم - دمشق . ط : ١ . ١٤٠٩هـ .

(٣) انظر تاريخ الطبري - تاريخ الأمم والملوك - أبو جعفر محمد بن جرير الطبري - ج ١ ص ٢٠١ . دار سوريدان - بيروت . ب : ت .

(٤) الصافات - ٧٧ - .

(٥) تفسير القرآن العظيم - ج ٤ ص ١٩ . (مرجع سابق) .

(٦) جامع الترمذي مع تحفة الأهودي - ج ٩ ص ٩٧ ، ٩٨ . (مرجع سابق) .

(٧) نفس المرجع السابق، ج ٩ ص ٩٨ .

اقسام العرب :

وقسم المؤرخون العرب إلى قسمين كبيرين هما :

- ١ - العرب البائدة : وهم العرب الذين هلكوا ولم يبق منهم أحد كعاد وشمود وطسم وجديس والعمالقة وجرهم الأولى وهذه بادت قبل الإسلام.
- ٢ - العرب الباقية : وقسم هؤلاء أيضاً إلى قسمين كبيرين هما :

١- عرب الشمال : وهم العرب المستعربة من ذرية إسماعيل بن إبراهيم عليه السلام وعرفوا بالعدنانيين^(١) ولذلك أشار ابن حزم حينما ذكر النسب الشريف حتى وصل إلى عدنان فقال : "هنا انتهى النسب الصحيح الذي لاشك فيه. وعدنان بلاشك من ولد إسماعيل الذبيح رسول الله ابن إبراهيم خليل الله ورسوله"^(٢) .

وفي البخاري قول أبي هريرة بعد ذكر الرسول صلى الله عليه وسلم لقصة إبراهيم عليه السلام - مع سارة وهاجر - فقال أبوهريرة " تلك أمكم يا بني ماء السماء"^(٣) .

٢ - عرب الجنوب : وهم العرب العاربة - وقد عرفوا بالقحطانيين، ومن أشهر فروعهم : حمير وكهلان ، ومنهم اللخميون، والغساسنة، والأوس والخزرج، وقضاعة، وكلب، وكنده^(٤) .

(١) انظر تاريخ الدعوة الإسلامية في زمن الرسول صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين - د. جميل المصري ص ٢٠ ط ١ . مكتبة الدار بالمدينة المنورة .

(٢) جوامع السيرة النبوية - ابن حزم الأندلسي - ص ٤ . دار الجيل - بيروت - لبنان ط ٢ .

(٣) صحيح البخاري مع فتح الباري ك/النكاح . باب (اتخاذ السراري ومن أعتق جارية ثم تزوجها) ج ٩ ص ١٢٦ .

(٤) انظر تاريخ الدعوة الإسلامية في زمن الرسول صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين . ص ٢٠ (مرجع سابق) .

المطلب الثاني : أهل الكتاب

أهل : الأهل أهل الرجل وأهل الدار ويقول ابن سيده^(١) : أهل الرجل عشيرته ونور قرياه والجمع أهلون^(٢) ، وأهل المذهب من يدين به^(٣) .
الكتاب : الكتاب معروف ، والجمع كُتُبٌ وكُتُبٌ ، والكتاب اسم لما كتب مجموعاً ، والكتاب مصدر^(٤) ثم سمي المكتوب فيه كتاباً^(٥) . ويزيد الراغب ذلك إيضاحاً فيقول ضم الحروف بعضها إلى بعض بالخط، وقد يقال ذلك للمضموم بعضها إلى بعض باللفظ، فالأصل في الكتابة النظم بالخط لكن يستعار كل واحد للأخر ولهذا سمي كلام الله وإن لم يكتب كتاباً كقوله "الم ذلك الكتاب"^(٦) .

وفي الاصطلاح تجد الشهرستاني يعرف أهل الكتاب فيقول: الخارجون عن الملة الحنيفية، والشريعة الإسلامية ممن يقول بشريعة وأحكام ، وحدود وأعلام^(٧) .
ثم تجده يقسمهم إلى قسمين : أهل كتاب محقق كالنوراة والإنجيل، ومن له شبهة كتاب مثل المجوس والمناوية^(٨) .

ويعرف أحد الباحثين أهل الكتاب بالآتي : تطلق على كل من تدين باليهودية أو النصرانية، ولو لم يك من أصل بني إسرائيل الذين أنزلت على رسلهم التوراة والإنجيل^(٩) .

(١) انظر لسان العرب - (مرجع سابق) . مادة : أهل .

(٢) لسان العرب - (مرجع سابق) . مادة : أهل .

(٣) انظر المرجع السابق . مادة : أهل .

(٤) نفسه - مادة كتب .

(٥) انظر المفردات في غريب القرآن - (مرجع سابق) . مادة : كتب .

(٦) نفس المرجع . مادة : كتب ص ٤٢٢ .

(٧) الملل والنحل، (مرجع سابق) ج ١ ص ٢٠٨ .

(٨) انظر نفس المرجع السابق ج ١ ص ٢٠٨ .

(٩) منهج الرسول صلى الله عليه وسلم في دعوة أهل الكتاب - محمد ولد سيدي ولد هبيب . ص ١٨ - رسالة نكتوراه

غير مطبوعة .

١ - التعريف باليهود :

أمة اليهود أمة مشهورة، ولها في التاريخ ذكر طويل ولكنه تاريخ سيء بما اقترفته أيديهم من معاص كبيرة، ولدت لديهم عللاً مزمنة، وتسببت في غضب المولى جل وعلا عليهم، فلعنهم وجعل منهم القرود الخنازير، وقصة لعنة الله لهم وغضبه عليهم واردة في مواضع شتى من القرآن الكريم^(١) "قل هل أنبتكم بشر من ذلك مثوبة عند الله من لعنه الله وغضبه عليه وجعل منهم القرود والخنازير وعبد الطاغوت أولئك شر مكاناً وأضل عن سواء السبيل"^(٢).

لقد تحدث القرآن الكريم كثيراً عن بني إسرائيل وعن طباعهم، وأنبيائهم، وتاريخهم ، فقد حفلت السور المدنية بكثير من التفصيلات التي تكشف عن حقيقة اليهود وكفرهم بالله وقتلهم الأنبياء وإغراقهم الشديد في ماديات الحياة^(٣) . فلم يسجل التاريخ قضية من قبل تجمعت فيها إنكار الحق ، وقتل أنبياء الله وإفساد في الأرض كما سجل عن هذه الأمة اليهودية . فمن هم اليهود ؟ ومتى بدأوا حياتهم ؟

فما اليهود ؟

بالعودة إلى قواميس اللغة لا تكاد تجد اختلافاً يذكر حول مسماهم وسبب التسمية فهم يقولون : بأن اسمهم مشتق من هاوا أي تابوا ورجعوا إلى الحق "إنا هدنا إليك"^(٤) وزاد الراغب " وكان اسم مدح ثم صار بعد نسخ شريعتهم لازماً لهم"^(٥) ويذكرون أن

(١) انظر في ظلال القرآن - ج ٢ ص ٩٢٦ . (مرجع سابق) .

(٢) المائدة - ٦٠ - .

(٣) أخلاق اليهود وأثرها في حياتهم المعاصرة - وفا صادق ص ٧ مقدمة . دار الفرقان ط : ١ .

(٤) انظر لسان العرب - مادة : هود (مرجع سابق)، وانظر المفردات في غريب القرآن - ص ٤٧٥ . (مرجع سابق) .

(٥) المرجع السابق ص ٤٧٥ .

أصلهم سامي، وأنهم سموا بذلك باسم يهوذا أحد أبناء يعقوب^(١) .
ولعل ما ذكره الراغب -رحمه الله- هو المناسب، لأن اليهود لا يستحقون هذا اللقب
لجرائمهم وتصرفاتهم، ويؤيد هذا السبب في تسمية اليهود بالتوية ابن مسعود -رضي الله
عنه- حيث يقول " إن اليهود سموا بذلك لقول موسى "إنا هدنا إليك"^(٢) .
وتجد في القرآن أنه قد اشتهر لهم اسم آخر هو (بنوإسرائيل) " يقول ابن الجوزي
في تفسيره : "إسرائيل : هو : يعقوب وهو اسم أعجمي وقال به ابن عباس ومعناه:
عبدالله"^(٣) .

ويفصل أحد الباحثين في ذلك فيقول : إن اليهود يطلق عليهم اسمان "الأول
بنوإسرائيل . أي أنهم هم الذين ينتسبون من حيث النسب التاريخي إلى دين يعقوب -عليه
السلام -، منهم ذريته الذين جعل الله فيهم النبوة فترة من الزمن ثم انتزعها
منهم، والثاني : اليهود : وهو الاسم الذي عرفوا به فيما بعد ، والذي انتشر بين
الأمم ، وإن كانوا يفضلون الاسم الأول ، لأنه يربطهم بجدهم إسرائيل -عليه
السلام -"^(٤) .

وسموا عبرانيين ، أي من عبور إبراهيم -صلى الله عليه وسلم- جدهم الأعلى
الفرات^(٥) .
أما ابن عاشور -رحمه الله- فله رأي آخر، إذ يرى أن القرآن إذا خاطبهم قائلاً :
يا بني إسرائيل "أنه خطاب لذرية يعقوب، وفي ذريته انحصر سائر الأمة اليهودية، وهذا
اسم قبيلتهم ، أما اليهود فهو اسم النحلة أو الديانة"^(٦) .

(١) انظر المعجم الوسيط . مادة : هاد . (مرجع سابق) .

(٢) انظر زاد المسير في علم التفسير : ج ١ ص ٩١ . (مرجع سابق) .

(٣) المرجع السابق ج ١ ص ٧٢ .

(٤) الشخصية اليهودية من خلال القرآن - د. صلاح الخالدي . ص ١٩ . دار القلم - دمشق ط : ١ (١٤٠٧هـ) .

(٥) انظر / اليهود في القرآن . عفيف عبدالفتاح طبارة . ص ١٥ . دار العلم للملايين - بيروت ط : ٥ (١٩٧٧م) .

(٦) انظر التحرير والتنوير . ج ١ ص ٤٤٩ . (مرجع سابق) .

تاريخ اليهود:

ومن إشارة ابن عاشور ينطلق الحديث إلى تاريخ بني إسرائيل : فإسرائيل هو يعقوب كما مر ، وهو أصل بني إسرائيل والدهم الذي عنه تفرعوا^(١).

كان ليعقوب اثنا عشر ولداً منهم يوسف - عليه السلام - ، ويدل على ذلك ماقاله يوسف لأبيه : "يا أبت إنني رأيت أحد عشر كوكباً والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين"^(٢) .

وقد جاء ذكرهم في القرآن إجمالاً حيث يقول تعالى "قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط"^(٣) .

ويؤيد ذلك ويتحديد عددهم قوله تعالى : "وقطعناهم اثنتي عشرة أسباطاً أمماً"^(٤) . وإلى هؤلاء يرجع نسب جميع بني إسرائيل^(٥) .

وفي قصة يوسف - عليه السلام - يتضح أنهم استقروا في مصر وقال "ادخلوا مصر إن شاء الله آمين"^(٦) .

وسلط الله عليهم بذنوبهم أعتى فراعنة مصر يسومهم سوء العذاب : "وإذ نجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب يذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم"^(٧) .

"وعلى يد موسى - عليه السلام - خرج بنو إسرائيل من هذا العذاب الأليم الذي أخذهم به فراعنة مصر فعبر بهم موسى البحر إلى سيناء"^(٨) : "وجاوزنا ببني إسرائيل

(١) انظر الشخصية اليهودية من خلال القرآن - ص ٥٩ . (مرجع سابق) .

(٢) يوسف - ٤ - .

(٣) البقرة - ١٣٦ - .

(٤) الأعراف - ١٦٠ - .

(٥) التحرير والتوير - ج ١ ص ٤٥١ . (مرجع سابق) .

(٦) يوسف - ٩٩ - .

(٧) البقرة - ٤٩ - .

(٨) اليهود في القرآن - عبدالكريم الخطيب . ص ١٢ - دار الشروق ط : ١ .

البحر فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم^(١) : ثم سار بهم موسى - عليه السلام - إلى الأرض المقدسة وأمرهم بأن يدخلوا فرفضوا ذلك وقالوا لعنهم الله^(٢) "فأذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون"^(٣) فعاقبهم الله بالتيه بالأرض أربعين سنة^(٤) : "قال فإنها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون في الأرض فلا تأس على القوم الفاسقين"^(٥) فلما انقضت المدة خرج بهم يوشع بن نون - عليه السلام - ، أو بمن بقي منهم ، وبسائر بني إسرائيل من الجيل الثاني فدخلوا الأرض المقدسة^(٦) .

وبعد أن غزباختنصر تلك البلاد وغيرها تفرق بنو إسرائيل بعد ذلك، فنزل بعضهم أرض الحجاز ببيثرب ووادي القرى وغيرها^(٧) وقد اشتهر من قبائلهم في الحجاز : بنو قينقاع، وبنو النضير، وبنو قريظة، وبنو بهدل، وبنو ماسلة^(٨) .

وذكرت عدة أسباب لانتشار وانتقال اليهود إلى الحجاز ولكنها لا يمكن التعويل عليها علمياً، ويذكرون أنهم انتشروا أيضاً باليمن وهذا ليس مجال البحث، فإن البحث يستعرض فقط الفئات التي احتك بها الإسلام زمن الرسالة المحمدية^(٩) .

(١) الأعراف - ١٣٨ - .

(٢) انظر الجامع لأحكام القرآن - ج ٦/٣ ص ١٢٦ . (مرجع سابق) .

(٣) المائدة - ٢٤ - .

(٤) انظر المرجع السابق . ج ٦/٣ ص ١٢٦ .

(٥) المائدة - ٢٦ - .

(٦) انظر تفسير ابن كثير - ج ٢ ص ٦٤ . (مرجع سابق) .

(٧) انظر تاريخ الطبري . ج ١ ص ٥٣٩ (مرجع سابق) . وانظر البداية والنهاية - ابن كثير ج ٢ ص ٣٩ . مكتبة المعارف - بيروت . ط : ٢ (١٩٧٧م) .

(٨) انظر الكامل في التاريخ . ج ١ ص ٤٠١ . (مرجع سابق) . وانظر (بنو إسرائيل في القرآن والسنة) . د . محمد سيد طنطاوي . ص ٥٧ - الزهراء للإعلام العربي .

(٩) انظر / عفيف عبدالفتاح طيارة . اليهود في القرآن . ص ١٧ (مرجع سابق) .

٢ - التعريف بالنصارى :

النصارى ينسبون إلى "ناصر" وهي قرية بالشام ، كان يسكنها عيسى عليه السلام، ونسبوا إليها، وبهذا قال بن عباس وقتادة ^(١) .

ويسميهـم البعض بالمسيحيين، ويرى د. سيد الشنقيطي ^(٢) أنهم لا يستحقون هذا اللقب، لأن المسيح بريء من جميع ما أحدثه بعده من تغيير في الدين الذي جاء به من الله جل جلاله.

والأولى في رأيه أن ينسبون إلى قريتهم التي فيها نشأوا وعرفوا كسائر الناس كما سماهم الله في كتابه الكريم وقد أطلق عليهم القرآن الكريم : نصارى، وأهل الكتاب وأهل الانجيل. ولعله يسند قوله ما جاء في القرآن "الذين قالوا إنا نصارى" ^(٣) أشار بعض المفسرين أنه فيها دليلاً على أنهم أطلقوها على أنفسهم ولم يسمهم بها تعالى ^(٤) .

وفي معرض تقريره يقول بن عاشور : " فالنصارى صفة عرف بها المسيح - عليه السلام - في كتب اليهود لأنه ظهر بدعوة الرسالة من بلد النصاره في فلسطين، فلذلك كان معنى النسبة إليه النسبة إلى طريقته وشرعه ، فكل من حاد عن شرعه لم يكن حقيقاً بالنسبة إليه إلا بدعوى كاذبة فلذلك قال " قالوا إنا نصارى " ^(٥) .

(١) انظر الجامع لأحكام القرآن ج ١/١ ص ٤٢٤ . (مرجع سابق) .

(٢) د . سيد محمد ساداتي الشنقيطي (في حوار علمي مع فضيلته)

(٣) المائدة - ٨٢ - .

(٤) انظر الجامع لأحكام القرآن ج ٦/٢ ص ١١٧ . (مرجع سابق) .

(٥) التحرير والتنوير ج ٦ ص ١٤٦ . (مرجع سابق) .

وهناك من قالوا في سبب تسميتهم نصارى رأياً آخر، حيث يرون أنه دليل عليهم ،
وتذكراً لهم بأصل من أصول دينهم وهو نصرته ما يأمر الله به، ونصرة لنبيه عيسى
- عليه السلام -^(١). ويستدلون بقوله تعالى : "قال عيسى بن مريم للحواريين من أنصاري
إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله"^(٢) .

وأما عن أماكن انتشارهم فيقول ابن القيم - رحمه الله - : "وأما النصارى فكانوا
طبق الأرض : فكانت الشام كلها نصارى، وأرض المغرب كان الغالب عليها النصارى،
وكذلك أرض مصر والحبشة، والنوبة، والجزيرة، والموصل، وأرض نجران وغيرها من
البلاد"^(٣) .

وحول مدى احتكاكهم بالرسالة المحمدية يلحظ الأستاذ محمد عزة دروزة ملاحظة
جديرة بالانتباه، وهي أن دائرة الاتصال في المدينة واحتكاكهم بالرسالة المحمدية كانت
أوسع من مكة، كما إن بعضهم وقف موقفاً طيباً، والبعض الآخر وهم الأكثر جاداً وكابراً
وأعرض، ثم أن المؤثرات التي يخضع لها النصارى الذين لقبهم النبي - صلى الله عليه
وسلم - بتنوع، فالذين لقبهم في مكة أكثر تجرداً عن الهوى والرغبات المادية، وأكثر
أستعداداً للاستجابة للدعوة^(٤) .

(١) انظر التحرير والتنوير . ج٦ ص١٤٦ . وانظر الجامع لأحكام القرآن . ج١/١ ص ٤٢٤ . (مرجع سابق) وانظر المحرر
الوجيز . ج ١ ص ٢٤٥ (مرجع سابق) .

(٢) الصف - ١٤ - .

(٣) هداية الصياري في أجوبة اليهود والنصارى . ص ١١ (مرجع سابق) .

(٤) انظر سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم صور مقتبسة من القرآن الكريم . ج ٢ ص ٢١٢ . (مرجع سابق) كأنه يشير
هنا إلى ما صدر من ورقة بن نوفل من فرحته بما جاءت به خديجة رضي الله عنها عن خير نزول الوحي على الرسول
صلى الله عليه وسلم وتمنيه بأن يفوز بنصرته واتباعه .

وهذا دليل على مبلغ أثر الدعوة الفردية ، وكذلك على مدى تأثير الأتباع وأثر حب الرئاسة كما حصل لهرقل بعد
نخول الايمان في قلبه .

المطلب الثالث : التعريف بالمنافقين : التعريف بهم :

النفاق تسمية إسلامية حيث إنها لم تستعمل في الجاهلية بهذا الاسم ولم يعرفه العرب بالمعنى المخصوص به^(١) .

فما النفاق في اللغة والاصطلاح ؟

في معنى النفاق الذي بصده البحث تجد كتب اللغة تذكر معنيين :

الأول : سمي المنافق بذلك من النفق وهو السرب في الأرض مشتق إلى موضع آخر .
الثاني : سمي بذلك من دخول اليربوع نافقاً ، ومعنى ذلك : " موضع يرققه اليربوع من جحره فإذا أتى من قبل القاصعاء ضرب النافقاء برأسه فخرج"^{(٢) (٣)} .

وأهل اللغة يؤيدون المعنى الثاني^(٤) حيث يقول صاحب اللسان: " وهو مأخوذ من النافقاء لامن النفق وهو السرب الذي يستتر فيه لستره كفره"^(٥) .

بل ذكروا المعنى الاصطلاحي حيث يقول صاحب القاموس المحيط "ونافق في الدين : ستر كفره وأظهر إيمانه"^(٦) وذكر ذلك أيضاً صاحب اللسان^(٧) .

وسبحان الله ما أقرب هذا التعريف من المنافقين السابقين واللاحقين، فهم ينتحلون نحلاً شتى، ويدعون انهم مسلمون، ويسعون بكل شر لأذية المسلمين، وتشكيكهم في دينهم، ويدعون كذلك انهم ما فعلوا ويحرصون بشتى المعاذير .

(١) انظر لسان العرب. مادة : نفق. (مرجع سابق) .

(٢) لسان العرب (مرجع سابق) .

(٣) انظر المعجم الوسيط - مادة نفق (مرجع سابق)- وانظر القاموس المحيط مادة : نفق . وانظر لسان العرب مادة : نفق .

(٤) انظر مقاييس اللغة - ابل فارس - مادة نفق - وانظر تاج العروس مادة : نفق . انظر لسان العرب - مادة نفق .

(٥) لسان العرب . مادة : نفق (مرجع سابق) .

(٦) القاموس المحيط . مادة : نفق (مرجع سابق) .

(٧) انظر لسان العرب. مادة نفق (مرجع سابق) .

النفاق في الاصطلاح :

يوافق علماء الشريعة أهل اللغة في معنى النفاق ولكنهم يزيدون عليهم بذكر أنواع النفاق ودرجاته فتجد ابن حجر- رحمه الله- يقول: "والنفاق لغة : مخالفة الباطن للظاهر، فإن كان في اعتقاد الإيمان فهو نفاق الكفر وإلا فهو نفاق العمل، ويدخل فيه الفعل والترك وتتفاوت مراتبه"^(١). وعند تفسير صدر سورة البقرة وتقسيم الله تعالى الناس إلى أصناف ثلاثة منهم المنافقون تجد ابن كثير يذكر تعريف المنافق بقوله: "إظهار الخير وإسرار الشر، وهو أنواع : اعتقادي وهو الذي يخلد صاحبه في النار، وعملي وهو من أكبر الذنوب"^(٢). أما القرطبي - رحمه الله - فذكر معنى النفاق نصاً ما ذكره أهل اللغة^(٣) ثم قال : "وكذلك المنافق ظاهره إيمان وباطنه كفر"^(٤) ولعلمهم متفقون، بيد أن الأخيرين أشارا إلى حسن الظاهر وسوء الباطن في المنافق.

وقد نقل ابن كثير مفهوماً للنفاق لابن جريح حيث يقول: "المنافق يخالف قوله فعله ، وسره علانيته، ومدخله مخرجه، ومشهده مغيبه"^(٥).

ولعله يستخلص من الأقوال تطابق التعريفين اللغوي والاصطلاحي وإن تضمن الاصطلاح بيان نوعي النفاق :نفاق الكفر وهو الذي وجد على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم^(٦) ويسميه الترمذي -رحمه الله -نفاق تكذيب^(٧).

ونفاق في العمل ونسبته نفاق معصية حيث وصفه ابن كثير رحمه الله بقوله نفاق " عملي وهو من أكبر الذنوب"^(٨).

(١) فتح الباري . ج ١ ص ٨٩ (مرجع سابق) .

(٢) تفسير القرآن العظيم . ج ١ ص ٧٣ (مرجع سابق) .

(٣) الجامع لأحكام القرآن . ج ١ ص ١٩٥ (مرجع سابق) .

(٤) المرجع السابق ج ١ ص ١٩٥ .

(٥) تفسير القرآن العظيم . ج ١ ص ٧٣ (مرجع سابق) .

(٦) انظر سنن الترمذي مع تحفة الأحوذى . ج ٧ ص ٢٨٦ . (مرجع سابق) .

(٧) انظر المرجع السابق - ج ٧ ص ٢٨٦ .

(٨) تفسير القرآن العظيم . ج ١ ص ٧٢ (مرجع سابق) .

ومن الأدلة التي تثبت ذلك قول الله تعالى في نفاق الكفر وجزائه عند الله تعالى : "إن الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعاً" ..^(١) وقوله تعالى : "ليعذب الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات"^(٢) وفي القرآن كثير من الآيات في ذلك .
وفي نفاق العمل يكفي ما جاء في البخاري عن النبي صلى الله عليه وسلم : "أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها : إذا أؤتمن خان، وإذا حدث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر"^(٣) قال ابن حجر : "إن المراد بالنفاق نفاق العمل"^(٤) .

(١) النساء - ١٤٠ - .

(٢) الأحزاب - ٧٣ - .

(٣) صحيح البخاري - كتاب الإيمان - (باب علامة المنافق) . ج ١ ص ١٥ .

(٤) فتح الباري . ج ١ ص ٩٠ (مرجع سابق) .

بداية ظهور النفاق :

يكاد يتفق أكثر المفسرين والمؤرخين بأن مكة لم يك بها نفاق^(١) بل كان خلافه، فمن الناس من كان يظهر الكفر مستكراً وهو في الباطن مؤمن^(٢) . وبهذا قال شيخ الإسلام ابن تيمية^(٣) . ثم بعد ذلك يختلفون فيهم هل هم من أهل الكتاب، أو من العرب، أو منهما معاً؟^(٤) .

ذكر في البخاري أنه بعد غزوة بدر وقتل بعض صناديد مكة قال ابن أبي بن سلول ومن معه من المشركين وعبيدة الأوثان : " هذا أمر قد توجه فبايعوا الرسول صلى الله عليه وسلم على الإسلام فأسلموا"^(٥) . ويزيد ابن كثير الأمر تفصيلاً فيقول: "فأظهر الدخول في الإسلام ودخل معه طوائف ممن هم على طريقتهم ونحلته وآخرون من أهل الكتاب ثم وجد النفاق في أهل المدينة ومن هؤلاء الأعراب"^(٦) .

ويرى أبوشهبة أن النفاق لا يكون في العرب الخالص وإنما هذا بتأثير اليهود^(٧) وهذا يدفعه القرآن الكريم حيث ذكر أن من الأعراب الذين هم من سكان البادية منافقين : "الأعراب أشد كفراً ونفاقاً"^(٨) .

وفي هذا الزمان المتأخر من العرب منافقون لم يرو اليهود . ولم يخالطوهم هذا في نفاق الكفر فضلاً عن نفاق التكذيب وما أكثره والله المستعان .

(١) انظر السيرة النبوية - أبو الحسن الندوي - ص ٢٠٢ - دار الشروق ط : ٨ وانظر تفسير ابن كثير . ج ١ ص ٧٤ (مرجع سابق) .

(٢) تفسير ابن كثير . ج ١ ص ٧٤ (مرجع سابق) .

(٣) وانظر مجموع الفتاوى . ج ٧ ص ٢٠١ (مرجع سابق) .

(٤) انظر تفسير ابن كثير . ج ١ ص ٧٤ (مرجع سابق) .

(٥) انظر صحيح البخاري مع الفتح ك/التفسير . (باب ، ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيراً) ج ٨ ص ٢٣١ .

(٦) تفسير ابن كثير . ج ١ ص ٧٤ (مرجع سابق) وانظر سيرة ابن كثير . ج ٢ ص ٥٤٦ (مرجع سابق) .

(٧) انظر السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة . د. محمد محمد أبوشهبة . ج ٢ ص ٤٢ - دار القلم دمشق ط : ١ .

(٨) التوبة - ٩٧ - .

حقيقة النفاق :

وقد أجاد وأفاد الشيخ الدوسري في بيان خطورة هذا الصنف من الناس على الإسلام والمسلمين في كل زمان ومكان، ثم قال "وهم في الحقيقة مطايا اليهود في كل زمان ومكان منذ ظهورهم على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى يومنا هذا، وحتى يرث الله الأرض ومن عليها، فاليهود هم شياطينهم، وهم الذين يوجهون رؤساعهم بأنواع الفتنة التي تتناسب مع أوضاع كل مجتمع مسلم في كل عصر ومصر"^(١).

وأشار إلى هذا سيد قطب - رحمه الله -، بل وزاد في حقيقة المنافقين بأنهم من علية القوم"^(٢)، وعند قوله تعالى: "وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون"^(٣) يقول سيد قطب - رحمه الله - : "وهم غالباً اليهود الذين كانوا يجدون في هؤلاء المنافقين أداة لتمزيق الصف الإسلامي وتفتيته"^(٤).

ويؤكد ابن هشام ذلك في سيرته مبيناً ارتباط اليهود بالمنافقين، فيقول في حديثه عن اليهود: "فانضاف إليهم رجال من الأوس والخزرج ممن كان على جاهليته، فكانوا أهل نفاق على دين آبائهم من الشرك والتكذيب بالبعث. إلا أن الإسلام قهرهم بظهوره واجتماع قومهم عليه، فظهروا بالإسلام واتخذوه جنة من القتل، وكفروا في السر، وكان هواهم مع اليهود لتكذيبهم النبي صلى الله عليه وسلم وجحودهم بنبوته صلى الله عليه وسلم"^(٥).

ويرى الأستاذ عبدالرحمن الميداني أن المنافقين صنيعة اليهود ليجعلوهم جيشاً داخلياً معادياً للإسلام والمسلمين، ويغزوهم بعوامل النفاق لينخذلوا عن الرسول صلى الله عليه وسلم وقت الأزمات"^(٦).

(١) صفوة الآثار والمفاهيم من تفسير القرآن العظيم . ج٢ ص ١٦ (مرجع سابق) .

(٢) انظر في ظلال القرآن. ج ١ ص ٤٢ .

(٣) البقرة - ١٤ - .

(٤) في ظلال القرآن . ج ١ ص ٤٥ (مرجع سابق) .

(٥) السيرة النبوية - لابن هشام . ج ٢ ص ١١٥ (مرجع سابق) .

(٦) انظر مكاييد يهودية عبر التاريخ . عبدالرحمن حسن حبنكة الميداني ص ٩٣ ، ٩٤ . دار القلم - دمشق - ط : ٢ .

ويستقيم المقال في حقيقة علاقة اليهود مع المنافقين عند قوله تعالى : " ألم تر إلى الذين نافقوا يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب لئن أخرجتم لنخرجن معكم ^(١) . يقول الشيخ ابن عاشور : وفي وصف إخوانهم بـ "الذين كفروا " إيماء إلى أن جانب الأخوة بينهم هو الكفر ^(٢) .

وينتقل صاحب المنار نقلة أخرى مبيناً زمن ظهور هؤلاء المنافقين، وهل هو في زمان معين ؟ .

ففي أثناء حديثه في تفسير آيات سورة البقرة التي تتحدث عن المنافقين يقول : "وهي فرقة من الناس توجد في كل آن وفي كل عصر، وليست الآيات كما قيل في أولئك نفر من المنافقين الذين كانوا في عصر التنزيل، ولذلك قال تعالى في بيان حالهم : "ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين" ولم يقل عنهم، إنهم يقولون مع ذلك : "وآمنا بك يا محمد" وما كان القرآن ليعتني بأولئك نفر الذين لم يلبثوا أن انقرضوا كل هذه العناية، ويطلق في بيان حالهم أكثر مما أطال في الأصناف الثلاثة الذين هم سائر الناس" ^(٣) ثم يقول : "وهم مع ذلك عبرة عامة شاملة لمن مضى ولن يجيء من هذا الصنف إلى يوم القيامة" ^(٤) . وأثر عن سلمان الفارسي - رضي الله عنه - ما يؤيد بذلك فعند قوله تعالى : "يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون" ^(٥) . يقول : "لم يجيء هؤلاء بعد" ومعنى قوله "لم ينقرضوا بل هم يجيئون في كل زمان" ^(٦) .

ويرى الزمخشري أنهم جنس من المشركين الذين أشار إليهم القرآن قبلهم وإنما

(١) الحشر - ١١ - .

(٢) التحرير والتنوير . ج ٢٨ ص ٩٩ (مرجع سابق) .

(٣) تفسير القرآن الحكيم المشهور بتفسير المنار . ج ١ ص ١٤٨ ، ١٤٩ (مرجع سابق) .

(٤) نفس المرجع السابق - ج ١ ص ١٤٩ .

(٥) البقرة - ٩ ، ١٠ .

(٦) المحرر الوجيز . ج ١ ص ١١٨ (مرجع سابق) .

صيرهم فريقين أنهم زادوا على المشركين وعلى الكفر الذي جمع بينهم الخديعة والاستهزاء وغيرهما^(١) .
ويؤكد ابن كثير ما سبق بقوله في بداية تفسيره لآيات النفاق في البقرة: "ولما كان أمرهم يشتبه على كثير من الناس أطنب في ذكرهم بصفات متعددة كل منها نفاق، كما أنزل سورة براءة فيهم، وسورة المنافقين فيهم، وذكرهم في سورة النور، وغيرها من السور، تعريفاً لأحوالهم لتجتنب ويجتنب من تلبس بها أيضاً"^(٢) .

وحركة النفاق "أخطر حركة على الإسلام فهو جاسوسية تعايش المسلمين في المساجد، وفي الحروب، وفي الأسواق وفي دور العلم، وفي المنازل"^(٣) . وهم على مبلغ خطورتهم فإنهم أقل الاقسام عدداً، بل لم يظهروا إلا بعد أن اشتدت شوكة الإسلام، وامتد انتشاره في أنحاء الجزيرة، ويدل على ذلك أن ذكرهم يختفي طويلاً في أثناء السرد التاريخي للوقائع والتطورات المطردة في أمة الإسلام في العهد النبوي بخلاف الوثنيين وأهل الكتاب، ثم تجد ذكرهم بحادثة ما كما حصل في أحد وانسحاب ابن أبي يمن معه وكانوا ثلث الجيش وكان عدد جيش المسلمين وقتها ألف رجل، وتتكرر القصة في غزوة تبوك ولم يذكر لعددهم هنا رقماً أو نسبة وإنما إنسحب ابن أبي يمن معه من المنافقين وكانهم طائفة غرر بهم هذا المنافق، وصددهم عن الحق، ثم بعد ذلك، تأتي أخبار عنهم في قصص متفرقة وأشخاص منفردين يذكرون أحياناً بأسمائهم يشنون عن جماعة المسلمين كما حدث من الجد بن قيس في بيعة الرضوان، وكما حدث من أحدهم أثناء غزوة تبوك ومحاولته بذر بذور الشك في مصداقية نبوة الرسول صلى الله عليه وسلم.^(٤) ويؤكد قلتهم أن الرسول صلى الله عليه وسلم "أسر إلى حذيفة أسماء المنافقين"^(٥) .

فبيان الرسول صلى الله عليه وسلم لأسمائهم وحفظ حذيفة رضي الله عنه لتلك

(١) انظر الكشف ج ١ ص ١٦٨ (مرجع سابق) .

(٢) انظر تفسير القرآن العظيم ج ١ ص ٧٣ (مرجع سابق) .

(٣) الدعوة الإسلامية في عهدها المدني - د. رؤوف شلبي - ص ٢٢٦ . دار القلم - الكويت - ط : ١

(٤) انظر الكامل في التاريخ . ج ٢ . ص (١٠٤ ، ١٠٥ ، ١٩٠ ، ١٩١ ، ١٩٢) (مرجع سابق) .

(٥) سير أعلام النبلاء - الذهبي - ج ٢ ص ٣٦٤ . مؤسسة الرسالة (ط : ٢) ١٤٠٥ هـ .

الأسماء، وفي إجابته لسؤال عمر رضي الله عنه حين سأل حذيفة وناشده: "أ أنا من المنافقين؟" فقال: لا، ولا أزكي أحداً بعدك" ^(١) فهذا يشير إلى قتلهم .

وفي بعض الأخبار التي ترد عنهم ما ينص على قتلهم كقوله صلى الله عليه وسلم: "في أمتي اثنا عشر منافقاً لا يدخلون الجنة ولا يجدون ريحها حتى يلج الجمل في سم الخياط" ^(٢). وفي خبر آخر قال صلى الله عليه وسلم: "من يصعد الثنية، ثنية المرار، فإنه يحط عنه ما حط عن بني إسرائيل" قال: فكان أول من صعدها خيلنا، خيل بني الخزرج. ثم تنام الناس. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم "وكلكم مغفور له، إلا صاحب الجمل الأحمر" ^(٣). وسأل حذيفة رضي الله عنه عن عدد أصحاب العقبة فأجاب السائل: "كنا نخبر أنهم أربعة عشر، فإن كنت منهم فقد كان القوم خمسة عشر وأشهد بالله أن اثني عشر منهم حرب لله ولرسوله في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد" ^(٤) .

وعند قوله تعالى: "فقاتلوا أئمة الكفر إنهم لا أيمان لهم" ^(٥) يقول حذيفة -رضي الله عنه: "مابقي من أصحاب هذه الآية إلا ثلاثة، ولامن المنافقين إلا أربعة" ^(٦) .

وأشار ابن عاشور رحمه الله إلى قتلهم حيث يقول "وقد توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وفي المدينة بقية من المنافقين، وكان عمر رضي الله عنه في خلافته يتوسمهم" ^(٧) .

وقد عد ابن عطية - رحمه الله - الذين بنوا مسجد الضرار من المنافقين وذكرهم بأسمائهم وهم اثنا عشر رجلاً ^(٨) .

-
- (١) المرجع السابق ص ٢٦٤ .
- (٢) صحيح مسلم - كتاب صفات المنافقين وأحكامهم ج ٤ ص ١٤٢ .
- (٣) نفس المرجع والمدرك نفسه ج ٤ ص ١٤٥ .
- (٤) نفس المرجع والمدرك نفسه ج ٤ ص ١٤٤ .
- (٥) التوبة - ١٢ - .
- (٦) صحيح البخاري مع الفتح ج ٨ ص ٢٢٢ .
- (٧) التحرير والتنوير . ج ١٠ ص ٢٥٢ (مرجع سابق) .
- (٨) انظر المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز . ج ٨ ص ٢٧١ ، ٢٧٢ (مرجع سابق) . وانظر التحرير والتنوير ج ١١ ص ٢٩ (مرجع سابق) وانظر الكامل ج ٢ ص ١٩٢ (مرجع سابق) .

والأستاذ محمد عزة دروزة يؤكد قلة المنافقين ويبين أدلة ذلك حيث يرى إن الآيات الواردة في حق المنافقين ومرضى القلوب، تلهم روحاً أو مضموناً، أو روحاً ومضموناً في أن واحد. أن حركة النفاق إنما قام بها وتولى كبرها أفراد من البارزين في قومهم من الذين توهموا فيها ضرراً وخطراً على مركزهم ومصالحهم، فبدأوا في مناوأتها وحقدوا عليها لذلك،^(١) تم بين حقيقة ما عليه السواد منهم فقال: "وأنه إذا كان اندمج فيها أناس من طبقة السواد أو العامة، فإنهم لم يكونوا كثيرين، وإنما انساقوا معها بتأثير أولئك من ناحية زعامتهم وعصبية الأرحام التي تربط بينهم، أو من ناحية الإغراء والمنفعة"^(٢) ثم يتابع ذلك ليبين أنه لامصلحة لعامة الناس في مناوأة الدعوة وغالب قومهم قد آمنوا بها وصدقوا^(٣) ويشير إلى ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية حينما تحدث عن الذين اتبعوا ابن أبي وعادوا يوم أحد فيقول "وهؤلاء لم يكونوا قبل ذلك كلهم منافقين في الباطن إذ لم يك لهم داع إلى النفاق"^(٤).

يتضح مما سبق أن المنافقين أقل الأقسام عدداً. ويفيد كذلك ما ذكر عنهم، وعن مبلغ خطورتهم، بأن هذا الصنف من البشر لهم نفسيات معقدة ومتعقنة، يتولد منها أدواء وعلل خطيرة وكثيرة، تحتاج إلى وقفات وعلاج.

وتبرز في أفراد هذه الفئة دوافع يفوقون غيرهم فيها، لما تأصل في نفوسهم من نوازع الشر التي أصلت علاقتهم باليهود: "وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون"^(٥)، نقل بن كثير عن ابن عباس رضي الله عنهما في "شياطينهم" أن اليهود هم الذين يأمرونهم بالتكذيب وخلاف ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم^(٦).

بل وتجد هذه العلل بعد أن ربطتهم مع اليهود أهلتهم - والعيان بالله- للإعراض عن الحق ودواعيه.

(١) انظر سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم صور مقتبسة من القرآن الكريم . ج ٢ ص ٧٩ . ٨٠ (مرجع سابق) .

(٢) نفس المرجع السابق - ج ٢ ص ٧٩ . ٨٠ .

(٣) انظر نفس المرجع السابق ج ٢ ص ٧٩ .

(٤) مجموع الفتاوى . ج ٢ ص ٢٨٠ . (مرجع سابق) .

(٥) البقرة - ١٤ - .

(٦) تفسير القرآن العظيم . ج ١ ص ٧٩ (مرجع سابق) .

المبحث الثاني

الظروف المحيطة بالمنكرين

ويشتمل على المطالب الآتية :

المطلب الأول : الظروف الدينية

المطلب الثاني : الظروف الاجتماعية

المطلب الثالث : الظروف الاقتصادية

المطلب الأول : الظروف الدينية عند المنكرين

ويشتمل على الآتي :

نمهيذ ومسائل هي :

المسألة الأولى : تعريف الدين

المسألة الثانية : الظروف الدينية عند الوثنيين العرب

المسألة الثالثة : الظروف الدينية عند أهل الكتاب

المسألة الرابعة : الظروف الدينية عند المختلف فيهم

التمهيد :

لايكاد يوجد مجتمع إنساني بلا دين وإن تفاوتت المجتمعات بحقيقة تدينها ، ومقدار تفكيرها في اختيار نوع الدين ، حيث اختلف الناس اختلافاً كبيراً في تحديد معبوداتهم ، وكلما تنكبوا الصراط المستقيم وبعثوا عن هدي الله ازدانوا تخبطاً وضلالاً في تحديد معبوداتهم " ومن يشرك بالله فقد ضلّ ضلالاً بعيداً" (١) .

"والحقيقة التي أجمع عليها مؤرخو الأديان أنه ليست هناك أية جماعة إنسانية ظهرت دون أن تفكر بالفريزة في الدين" (٢) .

وأى إنسان لابد أن يفكر بحقيقة هذا الوجود، وتطراً على ذهنه تساؤلات عن حقيقة وجوده ومصيره، ووجود هذا العالم، وخالفهما ! ؟ (٣) . إلى آخر هذه التساؤلات التي تطرحها الفطرة باحثة عن أجوبه صحيحة، وعن هذه الأسئلة يقول أحد الفلاسفة : "لا توجد أمة ولاشعب ولامجتمع إلا وضع لها حلولاً جيدة أو رديئة، مقبولة أو سخيفة، ثابتة أو متحولة" (٤) . وإن الحقيقة التي أجمع عليها مؤرخو الأديان أنه ليست هناك جماعة إنسانية أو أمة كبيرة ظهرت وعاشت ثم مضت دون أن تفكر في مبدأ الإنسان ومصيره وفي تعليل ظواهر الكون وأحداثه إلا وضعت آراءً معينة أياً كان قدرها وسموها أو إسفافها (٥) .
وإنه من الممكن أن ينمحي كل شيء في حياة الإنسان مهما أحبه، ولكن يستحيل أن ينمحي التدين، بل سيبقى حجة على المذاهب المادية (٦) .

(١) النساء - ١١٦ - .

(٢) الجاهلية قديماً وحديثاً - أحمد أمين عبدالغفار ص ٤٨ ، شركة الشماع للنشر - الكويت .

(٣) انظر الدين (بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان) د. محمد عبدالله . درار ص ٨٢ . دار القلم - الكويت

(ط : ٢) ١٣٩٠هـ .

(٤) المرجع السابق ص ٨٢ .

(٥) انظر المرجع نفسه ٣٨ ، ٣٩ .

(٦) انظر الإسلام - مقاصده خصائصه - د. محمد عقله ص ١٣٨ . مكتبة الرسالة الحديثه ط : ١ .

المسألة الأولى : تعريف الدين :

فما الدين ؟

ينبغي قبل الشروع في تقصي هذه الحالة التعرف على معنى كلمة الدين :
كلمة الدين في اللغة تعني أموراً كثيرة منها :

الاستعلاء، والسلطان والحكم والحساب والطاعة والجزاء^(١) وغير ذلك. ويلاحظ أن هناك تبايناً شاسعاً في مدلولات تلك الاستعمالات وفروقاً واضحة، ولعل الراغب الأصفهاني - رحمه الله - حاول أن يضبط ذلك فقال : "والدين يقال للطاعة والجزاء، واستعير للشريعة، والدين كالملة، لكنه يقال اعتباراً بالطاعة والانقياد للشريعة "إن الدين عند الله الإسلام"^(٢) وأكمل مابدأه الراغب الدكتور دراز - رحمه الله - حيث استوقفته هذه الاختلافات والفروق بين المعاني اللغوية التي تدل عليها كلمة الدين، ثم تجده يستخلص بعد وقفة متأملة فاحصة^(٣) مفهوماً يربط بين هذه المعاني موفقاً بين افتراقها فيقول "إن كلمة الدين عند العرب تشير إلى علاقة بين طرفين يعظم أحدهما الآخر ويخضع له"^(٤) ثم يشرح ذلك فيقول "فإذا وصف بها الطرف الأول كانت خضوعاً وانقياداً وإذا وصف بها الطرف الثاني كانت أمراً وسلطاناً، وحكماً وإلزاماً، وإذا نظر بها إلى الرباط الجامع بين الطرفين كانت هي الدستور المنظم لتلك العلاقة أو المظهر الذي يعبر عنها"^(٥).

(١) انظر لسان العرب . مادة : دين (مرجع سابق). وانظر القاموس المحيط . مادة : الدين (مرجع سابق) .

(٢) المفردات في غريب القرآن . ص ١٧٥ (مرجع سابق) .

(٣) انظر الدين . دراز . ص ٣٠ (مرجع سابق) .

(٤) نفس المرجع ص ٣١ .

(٥) نفسه ص ٣١ .

الدين في الاصطلاح :

في البخاري: "الدين الجزاء في الخير والشر : كما تدين تدان"^(١) وقال مجاهد :
"بالدين بالحساب"^(٢) وفي أثناء شرحه لهذا يقول ابن حجر: "والدين معان أخرى منها :
"السعادة، والعمل، والحكم، والسياسة"^(٣) وغير ذلك. وعند المفسرين على سبيل المثال
تجدهم كذلك يذكرون "الجزاء والحساب"^(٤) .
وينتقل ابن الجوزي رحمه الله نقلة أبعد من ذلك فيذكر تعريفاً للزجاج حيث يقول :
"اسم لجميع ماتعبد الله به خلقه وأمرهم بالإقامة عليه، وأن يكون عادتهم، وبه يجزيهم"^(٥) .
وذكر تعريفاً آخر ينسبه لأحد شيوخه فقال : "هو ما التزمه العبد لله عز وجل"^(٦) . ويعرفه
شيخ الإسلام فيقول : "هو العبادة والطاعة والذل ونحو ذلك، فيقال : دنته فدان أي ذلته
فذل"^(٧) . ولتشابه هذه التعريفات وتداخل ألفاظها يوضح لنا ابن عاشور المراد به فيقول
"والدين : حقيقته في الأصل الجزاء، ثم صار حقيقة عرفية"^(٨) . ويشرح ذلك ويعرف الدين
فيقول "مجموع عقائد وأعمال يلقتها رسول من عند الله ويعد العاملين بها بالنعيم،
والمعرضين بالعقاب، ثم أطلق على ما يشبه ذلك مما يضعه بعض زعماء الناس من تلقاء
عقله فتلتزمه طائفة من الناس"^(٩) .
وعرف سيد قطب - رحمه الله - الدين فقال : "النظام الذي قرره الله للحياة البشرية

(١) صحيح البخاري مع الفتح - ك/ التفسير (باب ما جاء في فاتحة الكتاب) ج ٨ ص ١٥٦ .

(٢) نفس المرجع ج ٨ ص ١٥٦ .

(٣) فتح الباري . ج ٨ ص ١٥٦ (مرجع سابق) .

(٤) زاد المسير في علم التفسير . ج ١ ص ١٣ (مرجع سابق) . وانظر تفسير القرآن العظيم مرجع سابق ج ١ ص ٤٠ .

(٥) زاد المسير في علم التفسير . ج ١ ص ٣٦٢ - ٣٦٣ .

(٦) نفس المرجع ج ١ ص ٣٦٢ .

(٧) مجموع الفتاوى . ج ٥ ص ٢٢٨ (مرجع سابق) .

(٨) التحرير والتوير . ج ٢ ص ١٨٨ (مرجع سابق) .

(٩) نفس المرجع ج ٢ ص ١٨٨ .

بجملتها، والمنهج الذي يسير عليه نشاط الحياة برمتها^(١) ويعرف الدين مركباً فيقول: "دين الله هو: نظامه وشرعه وفق النصوص القرآنية الصريحة"^(٢).

ويقول ابن عاشور "وقد عرف العلماء الدين الصحيح بأنه وضع إلهي سائق لذوي العقول، باختيارهم المحمود إلى الخير باطناً أو ظاهراً"^(٣).

وعرفه صاحب المنار فقال: "مجموع التكاليف التي يدين بها العباد لله، فيكون بمعنى الملة والشرع"^(٤). ويشرح ذلك فيقول: "ما يكلف الله به العباد ويسمى شرعاً باعتبار وصفه وبيانه، ويسمى ديناً باعتبار الخضوع وطاعة الشارع به، ويسمى ملة باعتبار جملة التكاليف"^(٥).

ويلاحظ من هذا التعريف وتعريف سيد قطب - رحمه الله - السابق أن الدين لا يقتصر على فرائض وشعائر تؤدي وإنما الدين أسلوب حياة متكامل في جميع حركات وسكنات الإنسان المسلم.

ويما أنه يشار بهذه التعريفات إلى الدين الحق، فلقد أكدت السنة النبوية على تعريف الدين، وذلك في الحديث الطويل المشهور الذي جاء فيه جبريل عليه السلام يسأل الرسول صلى الله عليه وسلم عن الإسلام بمراتبه، فبعد أن أجابه قال الرسول صلى الله عليه وسلم: "جاء جبريل يعلمكم دينكم، فجعل ذلك لله ديناً"^(٦) وينقل ابن حجر - رحمه الله - في أثناء شرحه لهذا الحديث - قول أحد السلف: "بل ذاك تفصيل لجملة كلها شيء واحد وجماعها الدين، ولهذا قال صلى الله عليه وسلم أتاكم يعلمكم دينكم"^(٧).

(١) في ظلال القرآن - مرجع سابق ج ١ ص ٥٦١ .

(٢) نفس المرجع - ج ٤ ص ٢٠٢١ .

(٣) التحرير والتنوير . ج ٣ ص ١٨٩ (مرجع سابق) .

(٤) تفسير المنار . ج ٣ ص ٢٥٧ (مرجع سابق) .

(٥) نفس المرجع ج ٣ ص ٢٥ .

(٦) صحيح البخاري مع الفتح . باب (سؤال جبريل النبي - صلى الله عليه وسلم - عن الإيمان، والاسلام، والاحسان،

وعلم الساعة) ج ١ ص ١١٤ .

(٧) فتح الباري . ج ١ ص ١١٥ .

المسألة الثانية : الظروف الدينية عند الوثنيين العرب

كان العرب على دين أبيهم إبراهيم - عليه السلام - واستمروا على ذلك رداً من الزمن حتى ظهر منهم رجل مطاع فتحولوا عن ذلك^(١) يقول الرسول صلى الله عليه وسلم مشيراً إلى أصالة الحنيفية عند العرب "رأيت عمرو بن لحي الخزاعي يجر قصبه في النار، وكان أول من سب السوانب"^(٢) وأورد ابن حجر في أثناء تعليقه على ذلك حديثاً ينص صراحة على تغيير العرب للحنيفية جاء فيه : "أول من غير دين إبراهيم عمرو بن لحي"^(٣). ولذلك تجد ابن الكلبي يحاول أن يبين بالتدرج كيف انتقل العرب إلى عبادة الأصنام ومتى كان ذلك ؟ فقد ذكر العرب من عهد إسماعيل، ثم كيف تفرقوا بسبب الحروب والخلافات، وكأنه يشير بذلك إلى ارتباطهم بالحنيفية^(٤). ثم ذكر سبب بداية الوثنية لدى العرب وأنها بسبب تعظيمهم للحرم وتعلقهم به ، فلا يظعن ظاعن إلا حمل معه حجراً من الحرم تبركاً وتيمناً، ثم يذكر أنهم مع ذلك يعظمون الكعبة ومكة ويحجون ويعتصمون على إرث إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام^(٥). إلى أن قال : "ثم سلخ ذلك بهم إلى أن عبدوا ما استحبووا، ونسوا ما كانوا عليه، واستبدلوا بدين إبراهيم وإسماعيل غيره فعبدوا الأوثان، وصاروا إلى ما كانت عليه الأمم من قبلهم"^(٦). ولكن حتى في حجهم الذي توارثوه واعتادوا عليه كانوا يشركون مع الله فقد روى مسلم عن ابن عباس -رضي الله عنهما - قال : "كان المشركون يقولون : لبيك لا شريك لك قال : فيقول رسول الله صلى الله عليه وسلم ويلكم "قد قد" فيقولون إلا شريكاً هو لك تملكه وما ملك، ويقولون هذا وهم يطوفون

(١) انظر العقيدة في الله - د. عمر الأشقر - ص ٢٦٢ . مكتبة الإصلاح - (ط : ١) .

(٢) صحيح البخاري ج ٤ ص ٢ كتاب المناقب باب (قصته خزاعة) .

(٣) فتح الباري . ج ٦ ص ٥٤٩ (مرجع سابق) .

(٤) انظر الأصنام أبو المنذر هشام بن محمد بن السائب الكلبي تحقيق أحمد زكي . الدار القومية للطباعة والنشر .

القاهرة . ب : ت .

(٥) انظر المرجع نفسه ص ٦ .

(٦) نفسه ص ٦ .

بالبيت^(١) وهذا قوله تعالى : "وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون"^(٢). ثم انحدر بهم الأمر فدلّفوا في الوثنية بمعبودات كثيرة تنبث في الكواكب وظواهر الطبيعة^(٣). وفي أسماء قبائلهم ما يدل على مدى تعلقهم بغير الله من حيوانات وغيرها من مثل كلب، وثور، وثعلب، وأمّونا بقوى خفية كثيرة في بعض النباتات والجمادات والحيوانات والطيور. وتلك واضحة من عدة وجوه : تسميهم بأسماء حيوانات مثل : بنوأسد، وبنوفهد، وغيرهم، وطيور مثل : عقاب، وحيوانات مائية مثل : قريش، ونباتات مثل : حنظلة . وكانوا يعتقدون كذلك أنه ينقذ أهله عند وقوع الخطر. وكانوا يتجنبون قتل الحيوانات اعتقاداً بأنه يقتل جزاءً به. إلى غير ذلك من الاعتقادات التي تنم عن مبلغ جهلهم وتعلقهم بالطبيعة التي عاشوا فيها وما تحيط بهم من كائنات.^(٤) بل ولّفوا في عبادة المحسوسات حتى عبدوا الأحجار فقد جاء في البخاري عن أبي رجاء العطاردي : "كنا نعبد الحجر، فإذا وجدنا حجراً هو أخير منه ألقيناه وأخذنا الآخر، فإذا لم نجد حجراً جمعنا جثوة من تراب، ثم جئنا بالشاة فحلبناه عليه ثم طفنا به"^(٥).

ومن كثرة أصنامهم التي عبدوها ألف مؤرخ من المتقدمين كتاباً أسماه : "الأصنام"^(٦). وبالتدرج أصبحت قوى الطبيعة العليا ألهة فأما السفلى فأحالوها إلى الجن والشياطين ثم تكاملت بعد ذلك صورة الألوهية كما يتخيلها، مع بقاء ارتباطه بالمحسوسات

(١) صحيح مسلم بشرح النووي ك / الحج . باب (التلبية وصفقتها ووقتها) ج ٨ ص ٩٠ .

(٢) يوسف ١٠٦ .

* الطوطم : تطلق على كل أصل حيواني أو نباتي تتخذه عشيرة ما رمزاً لها ولقباً لجميع أفرادها، وتعتقد أنها تؤلف معه وحدة اجتماعية، وتنزله وتنزل الأمور التي ترمز إليه منزلة التقديس "من ك / الإنسان في ظل الأديان - د عمارة نجيب ص ١١١، ١١٢ .

(٣) انظر مكة في عصر ما قبل الإسلام / أحمد أبو الفضل عوض الله / ص ٦٧ مطبوعات. دار الملك عبدالعزيز (ط : ٢) وانظر تاريخ الأدب العربي - العصر الجاهلي - د. شوقي ضيف ص ٨٩ دار المعارف، مصر (ط : ٧) ب : ت .

(٤) انظر مكة في عصر ما قبل الإسلام ص ٦٧ .

(٥) وانظر صحيح البخاري / مع الفتح ج ٧ ص ٩٠ .

(٦) انظر الجزيرة قبل البعثة - مصطفى هاشم الشوريجي ص ١٤٩ (ط : ١) ١٤٠٨ هـ .

في الطبيعة^(١) .

ولكثرة أوثانهم وأصنامهم بين ابن الكلبي فرقاً بينهما فقال : "إذا كان معمولاً من خشب أو من ذهب أو من فضة على صورة إنسان، فهو صنم، وإذا كان من حجارة، فهو وثن"^(٢) .
وذكر أصحاب السير والمؤرخون قصصاً في كيفية حصول عمرو بن لحي على هذه الأصنام التي جلبها وعبدت من دون الله : "أن عمرو بن لحي خرج من مكة إلى الشام في بعض أموره، فلما قدم ماب من أرض البلقاء، وبها يومئذ العماليق، وهم ولد عملاق "رأهم يعبدون الأصنام. فقال لهم : ما هذه الأصنام التي أراكم تعبدون؟ قالوا له : هذه أصنام نعبدها، فنستمطرها فتمطرنا ونستنصرها فتنصرنا، فقال لهم : أفلا تعطونني منها صنماً، فأسير به إلى أرض العرب فيعبده؟ فأعطوه صنماً يقال له : هبل فقدم به مكة فنصبه وأمر الناس بعبادته وتعظيمه"^(٣) . وأي جهل أشد ممن يُعطى إلهه؟. ومن الأصنام المشهورة ما ذكره الله تعالى في كتابه "وداً وسواعاً ويعوق ونسراً"^(٤) . وقد أتخذ العرب هذه الأصنام آلهة لهم فوزعوها بين قبائلهم"^(٥) . ومنها مائة ذكرها القرآن الكريم : "ومائة الثالثة الأخرى"^(٦) وكانت الأوس والخزرج تخص مائة بالزيارة والهدايا"^(٧) .
وكانت لقريش وبني كنانة : العزى بنخلة"^(٨) وغير ذلك كثير. وكانت العرب قد اتخذت مع الكعبة طواغيت، وهي بيوت تعظمها كتعظيم الكعبة، لها سدنة وحجاب، وتهدي لها كما تهدي للكعبة، وتطوف بها كطوافها، وتنحر عندها"^(٩) .

(١) انظر المرجع نفسه ص ١٤٩ .

(٢) انظر الأصنام ص ٥٣ (مرجع سابق) .

(٣) السيرة لابن هشام ج ١ ص ٧٢ (مرجع سابق) .

(٤) سورة نوح - ٢٣ - .

(٥) انظر الأصنام ص ٩ ، ١٠ ، ١١ (مرجع سابق) .

(٦) سورة النجم - ٢٠ - .

(٧) انظر الأصنام ص ٢٧ (مرجع سابق) .

(٨) السيرة لابن هشام. ج ١ ص ٧٨ (مرجع سابق) .

(٩) نفس المرجع السابق - ج ١ ص ٧٨ .

وفي حقيقة عبادتهم لهذه الآلهة المزعومة ومبلغ ارتباطهم بها وعظم جهلهم تعرض شواهد تجلي مواقفهم منها. يذكر الدارمي شاهداً على ذلك على لسان من عاين ذلك حيث يقول : "إن أهله بعثوا معه بقدر فيه زبد ولبن إلى آلهتهم، قال : فمنعني أن أكل الزبد لمخافتها، قال : فجاء كلب فاكل الزبد وشرب اللبن ثم بال على الصنم وهو إساف ونائله"^(١). لقد لقنهم درساً لو وجد قلوباً واعية !! .

بل وأعجب من ذلك من يصنع ربه بيده فإذا جاع أكله فقد ورد أن بني حنيفة اتخنوا في الجاهلية إلهاً فعبدوه دهرأ طويلاً ثم أصابهم مجاعة فأكلوه .^(٢) وفي ذلك يقول أحد الشعراء :

أكلت حنيفة ربها زمن التقم والمجاعة.^(٣) .

ولذلك يقول ابن الكلبي : "واستهترت العرب في عبادة الأصنام فمنهم من اتخذ بيتاً، ومنهم من اتخذ صنماً، ومن لم يقدر عليه ولا على بناء البيت، نصب حجراً أمام الحرم، وأمام غيره مما استحسنته ثم طاف به كطوافه بالبيت، وسموها الأنصاب"^(٤).

ثم قال : "فكان الرجل إذا سافر فنزل منزلاً أخذ أربعة أحجار، فنظر إلى أحسنها فاتخذها رباً، وجعل ثلاث أثافي لقدره، وإذا ارتحل تركه، فإذا نزل منزلاً آخر فعل مثل ذلك"^(٥) .

ومن شواهد جهلهم كذلك أن بعضهم يجعلون من أنعامهم لصنمهم نصيباً والله تعالى نصيباً آخر بزعمهم فما دخل في حق الله من حق صنمهم ردوه عليه، وما دخل في حق الصنم من حق الله الذي سموه له تركوه له^(٦) وفي ذلك يقول تعالى : "وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً فقالوا هذا لله بزعمهم. وهذا لشركائنا فما كان لشركائهم

(١) سنن الدارمي - باب (ما كان عليه الناس قبل مبعث الرسول صلى الله عليه وسلم من الجهل والفضلالة) ج ١ ص ٤ دار الكتب العلمية - بيروت .

(٢) المعارف - أبو محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة الدينوري . ص ٣٢٩ . دار الكتب العلمية . بيروت (ط : ١) .

(٣) الأصنام . ص ٣٣ (مرجع سابق) .

(٤) نفس المرجع ص ٣٣ . وانظر سنن الدارمي . ج ١ ص ٤ (مرجع سابق) .

(٥) نفس المرجع ص ٣٤ .

(٦) انظر المرجع السابق ص ٤٢ .

فلا يصل إلى الله وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم ساء ما يحكمون" (١) .
والذين نزلت فيهم هذه الآية بطن من خولان يقال لهم الأنوم وفيهم نزلت (٢) . وكانوا
يعبدون الكواكب ولذلك جاء في الذكر الحكيم : "لاتسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله
الذي خلقهن" (٣) وهل يفعل هذا ويعتقده عاقل ؟ فذلك فعل يعكس منتهى السفاهة والحمق،
وهو من جملة الرذائل في المعتقدات التي تفشت في مجتمعهم تزييناً من الكهنة وأعوانهم من
الجن وصدوراً عن أهواء نفسية وخرافات وثنية لاتمت إلى العقل بصلة ولا إلى هداية
الشرع بأدنى وشيجة" (٤) .

ومما يدل على عدم قناعتهم وعلى استهتارهم بما يعبدون من دون الله يحكي الكلبى
قصة فحواها أن امرأ القيس (الشاعر) مر بذي الخلصة وهو يريد الثار لأبيه فاستقسم
عنده ثلاث مرات فخرج الناهي في كل مرة فكسر القداح وضرب بها وجه الصنم (٥) .
وقال : "عضضت بأير أبيك لو كان أبوك قتل ما عوقنتي ثم غزا وظفر" (٦) .

وهذه نتيجة طبيعية لمن تنكب الصراط ويعد عن هدي ربه فحقيقة عبادة هؤلاء إنما
هي ضرب من العبث كما جاء بياناً من الله جل جلاله : "وذر الذين اتخذوا دينهم لعباً ولهواً
وغرتهم الحياة الدنيا" (٧) .

ولاختلاف العرب في اعتقاداتهم يقول الشهرستاني : "ومن العرب من كان يميل إلى
اليهودية، ومنهم من كان يميل إلى النصرانية ومنهم من كان يصبو إلى الصابئة ويعتقد في
الأنواء اعتقاد المنجمين في السيارات حتى لا يتحرك ولا يسكن ولا يسافر ولا يقيم إلا بنوء من
الأنواء. ويقول : مطرنا بنوء كذا، ومنهم من كان يصبو إلى الملائكة فيعبدهم، بل كانوا

(١) الأنعام - ١٣٦ - .

(٢) انظر الأصنام ص ٤٤ (مرجع سابق) .

(٣) فصلت - ٣٧ - .

(٤) انظر وظيفة الأخيار في سورة الأنعام ص ٤٤١ ، ٤٤٢ (مرجع سابق) .

(٥) انظر الأصنام . ص ٤٧ (مرجع سابق) .

(٦) نفس المرجع السابق ص ٤٧ .

(٧) وظيفة الأخيار في سورة الأنعام . ص ٤٤٠ (مرجع سابق) .

يعبدون الجن، ويعتقدون فيهم أنهم بنات الله، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً^(١) .
وغير ذلك كثير من خرافاتهم فيما يعتقدونه مما ولد لديهم أمراضاً تأصلت وتحولت
من عادات إلى عبادات لا يقبلون بديلاً عنها .
ومثل هذه الانحرافات تحدث حجباً بينهم وبين الوصول إلى الحق الواحد الأحد
- جل جلاله - وتوحيده في العبادة لما يحملونه تجاه هذا الأصل من فكر معتل مريض^(٢) .

(١) الملل والنحل. ج ٢ ص ٢٣٨ (مرجع سابق) .

(٢) انظر وظيفة الأخبار في سورة الأنعام . ص ٤١٢ (مرجع سابق) .

التمهيد :

من الحقائق التي بينها القرآن الكريم أن الدعوة الالهية - وإن كثر رسلها وانبيائها - هي واحدة في أصولها وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون^(١) ولقد بعثنا في كل أمة رسول أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين^(٢) ولذا يقول الرسول صلى الله عليه وسلم "والأنبياء أولاد علات أمهاتهم شتى ودينهم واحد"^(٣) .

وفي القرآن الكريم "إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان وآتينا داود زبوراً * ورسلاً قد قصصناهم عليك من قبل ورسلاً لم نقصصهم عليك وكلم الله موسى تكليماً"^(٤) .

وأهل الكتاب وهذا الاسم الذي اشتهروا به، هم من ضمن هؤلاء الذين بعث فيهم أنبياء ورسلاً، ولكن العبرة بالنتيجة فيمن استقام على الطريق ونال موعود ربه، وفيمن خالف وتكذب صراط الله فنال وعيد ربه من عذاب شديد، فماذا فعل أهل الكتاب في دين الله الذي جاءت به رسالهم ؟ ! .

ويدخل في أهل الكتاب : قسمان هما :

(١) الأنبياء - ٢٥ - .

(٢) النحل - ٣٦ - .

(٣) صحيح البخاري مع الفتح - كتاب أحاديث الأنبياء ، باب قول الله تعالى " واذكر في الكتاب مريم إذ انتبذت أهلها مكاناً شرقياً" ج ٦ ص ٤٧٨ .

(٤) النساء - ١٦٣ ، ١٦٤ - .

المسألة الثالثة

الظروف الدينية عند أهل الكتاب ونحوي الآتي :

زمهيد وقسمين هما:

القسم الأول : الظروف الدينية عند اليهود

القسم الثاني : الظروف الدينية عند النصاري

القسم الأول : اليهود :

تحدث القرآن الكريم عن عقيدة بني إسرائيل فبين أنها جاءت من عند الله صافية سليمة من الشوائب، وكذلك أثنى على رسل وأنبياء بني إسرائيل وبين أن اختيارهم جرى حسب سنة الله في اختيار الرسل "الله أعلم حيث يجعل رسالته"^(١). يصطفي من الملائكة رسلاً ومن الناس"^(٢).

وأما كتابهم الذي اشتهروا به ، وأنزله الله على يدي رسوله وكليمه موسى -عليه السلام - فهو "التوراة"^(٣) وكانت كما قال تعالى : "ثم آتينا موسى الكتاب تماماً على الذي أحسن وتفصيلاً لكل شيء"^(٤) ولقد آتينا موسى وهارون الفرقان وضياءً وذكرًا للمتقين"^(٥). "إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والريانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء"^(٦).

"والتوراة هو أول كتاب نزل من السماء، أعني أن ما كان ينزل على إبراهيم وغيره من الأنبياء - عليهم السلام -، ما كان يسمى كتاباً بل صحفاً"^(٧).

ويفصل الشهرستاني ما تشتمل عليه التوراة فيقول : وتشتمل التوراة على أسفار خمسة، فيذكر مبتدأ الخلق في السفر الأول ثم يذكر الأحكام والحدود، والأحوال والقصص، والمواعظ والأذكار في سفر سفر"^(٨).

وخاض الناس في حقيقة معتقد اليهود، وما ابتدعوه واخترعوه ونسبوه إلى الله ظلماً

(١) الأنعام - ١٢٤ - .

(٢) الحج - ٧٥ - .

(٣) انظر البداية والنهاية، ج ٢/١ ص ١٤٧ (مرجع سابق).

(٤) الأنعام - ١٥٤ - .

(٥) الأنبياء - ٤٨ - .

(٦) المائدة - ٤٤ - .

(٧) المل والنحل، ج ١ ص ٢١٠، ٢١١ (مرجع سابق).

(٨) المرجع السابق - ج ١ ص ٢١١ .

وعدواناً وكل هذا لايهم، مادام ظهر من كتاب الله برهان بحقيقة ما عليه القوم .
وقد مر في هذا البحث أنهم كانوا في الأصل على حق، ثم ما لبثوا بعد برهة من
الزمان أن غيروا وحرفوا وبدلوا وأولوا في كتاب الله ^(١) فغير الله عليهم وأنزلهم المنزلة التي
يستحقونها من الذل والمهانة * ولقد اختلف أهل العلم بحقيقة تأويلهم هل هو في المعنى أو
باللفظ ^(٢) . وهذا أيضاً لا فائدة من الخوض فيه مادام المولى أكد أنهم دنسوا ما كرمهم
الله به من كتاب وحرفوا ما جاء فيه، ومن الأدلة على ذلك قوله تعالى : "وإن منهم لفريقاً
يلوون ألسنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب ويقولون هو من عند الله
وما هو من عند الله ويقولون على الل الكذب وهم يعلمون" ^(٣) ويخبر تعالى عن اليهود
- عليهم لعائن الله - أن منهم فريقاً يحرفون الكلم عن مواضعه، ويبدلون كلام الله ويزيلون
عن المراد به ليوهموا الجهلاء أنه في كتاب الله كذلك، وينسبونه إلى الله وهو كذب على الله،
وهم يعلمون من أنفسهم أنهم قد كذبوا وافتروا في ذلك كله، ولهذا قال الله تعالى : "ويقولون
على الله الكذب وهم يعلمون" ^(٤) .

ويقول تعالى عنهم : "قويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله
ليشتروا به ثمناً قليلاً فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون" ^(٥) ويقول تعالى : "أفتطمعون أن
يؤمنوا لكم وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون" ^(٦) . فهذه
نصوص صريحة، تدل دلالة واضحة على موقفهم من كلام الله المنزل عليهم .
فهل اكتفوا بذلك ؟ بل والأدهى من ذلك أنهم استبدلوا بعبودية الله عبودية العجل : "ولقد

(١) انظر البداية والنهاية. مرجع سابق ج ١ / ٢ ص ١٤٧ .

(٢) نفس المرجع السابق ج ٢/١ ص ١٤٨ .

(٣) آل عمران - ٧٨ - .

(٤) تفسير ابن كثير. مرجع سابق ج ١ ص ٥٦٣ .

(٥) البقرة - ٧٩ - .

(٦) البقرة - ٧٥ - .

* "فبدل الذين ظلموا قولاً غير الذي قيل لهم فاتزلنا على الذين ظلموا رجلاً من السماء بما كانوا يفسقون"
البقرة - ٥٩ - .

جاكم موسى بالبينات ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون" (١) . فبعد الدلائل الواضحات، والآيات العظيمة على أنه لا إله إلا الله وأن موسى رسول الله، والآيات البينات هي : الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم والعصا واليد وغير ذلك، وبعد ذلك كله تتخون معه إلهاً آخر !!

فهذا انحراف بالعقيدة واضح جرهم إلى انحرافات أخرى : "وقالت اليهود عزير ابن الله" (٢) وتجروا على الله : "إنه الله فقير ونحن أغنياء" (٣) وانحراف في أصل ثان وهو اليوم الآخر : "وقالوا لن تمسنا النار إلا أياماً معدودة" (٤) .

وموقفهم من الرسل والرسالات "ولقد آتينا موسى الكتاب وقفينا من بعده بالرسل، وآتينا عيسى بن مريم البينات وأيدناه بروح القدس، أفكلما جاكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ففريقاً كذبتم وفريقاً تقتلون" (٥) . فموقفهم من الرسالة التكذيب ومن الرسل جزاء سنمار القتل .

يتبين من النصوص السابقة ضلالهم في الأصول الأساسية للدين وهي الإيمان بالله - وقد شهد القرآن بأنهم فقدوه بهدم ركنه العظيم وهو التوحيد - (٦) - وكذلك اليوم الآخر والرسالة .

والتفصيل فيما عليه القوم من تخبط وضلال في دينهم الذي شرعوه بحسب ما تهوى أنفسهم، لا ينتهي عند حد، وليس محله هنا .

ويالسذاجة وبلاهة من يظن خيراً في إخوة القردة والخنازير، ويأنه يمكن التعايش معهم بسلام واطمئنان، عتوا وتجبروا على الله سبحانه، وقتلوا وأزهقوا نفوس أنبياء ورسل

(١) البقرة - ٩٢ - .

(٢) التوبة - ٣٠ - .

(٣) آل عمران - ١٨١ - .

(٤) البقرة - ٨٠ - .

(٥) البقرة - ٨٧ - .

(٦) انظر موقف القرآن من خصومه كما تصوره سورة التوبة. د. عمر عبدالرحمن. ج ٢ ص ٢٩٠ (رسالة دكتوراه

غير مطبوعة) .

الله بلا حق بل بكل وقاحة واستهتار .

فمن باب أولى أن يسوموا من يذل لهم من سائر الناس، سوء العذاب، فهل يرعوي ويستيقظ المسلمون من رقتهم قبل أن يصبحوا حميراً لليهود؟ أبعده بيان الله يحتاج أحداً إلى بيان، لعمر كإنهم في سكرتهم يعمهون .

وذهب بعد ذلك المعنيون بالديانات والفرق والنحل يقسمون اليهود أقساماً كثيرة^(١) وهذا من فضول الكلام، ومادام الانحراف أصاب الأصل فعبدوا من دون الله طواغيت وألهة شتى، فلا داعي للخوض في أقسام هؤلاء المردة إلا في حدود ما أخبر به الرسول صلى الله عليه وسلم حيث يقول : "افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة .."^(٢) .

(١) انظر على سبيل المثال المل والنحل . ٢١٤ - ٢١٩ . (مرجع سابق) .

(٢) صحيح الجامع الصغير . مرجع سابق . ج ١ ص ٢٥٨ . حديث رقم [١٠٩٤] .

القسم الثاني : النصارى

حقيقة معتقدتهم :

القول فيهم كالقول في اليهود من جهة سلامة أصل دينهم الذي جاء به عيسى - عليه السلام - من ربه "وقفينا على آثارهم بعيسى بن مريم مصداقاً لما بين يديه من التوراة، وأتيناها الإنجيل فيه هدى ونور ومصداقاً لما بين يديه من التوراة وهدى وموعظة للمتقين" * وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون" (١) وأيد الله رسوله الكريم بآيات بينات، تناسب حالة من أرسل لهم : "وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير بإذني فتنفخ فيها فتكون طيراً بإذني وتبرىء الأكمه والأبرص بإذني وإذ تخرج الموتى بإذني" (٢). وحرى بهذه الآيات البينات أن تكون سبباً في نجاتهم وإيمانهم بالله، ولكن من أراد الله فتنته فلا راد له * ، فاتخذوا عيسى وأمه إلهين، ويقرر القرآن هذه الحالة فسؤاله لعيسى - عليه السلام - هل أقر بذلك وهو أعلم، ولكن ليكون وقعها - على من ألقى السمع وهو شهيد - أقوى أثراً وأدعى للإجابة "وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم أنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله قال سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق إن كنت قلته فقد علمته تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك إنك أنت علام الغيوب" * ما قلت لهم إلا ما أمرتني به أن أعبدوا الله ربي وربكم وكنتم عليهم شهيدياً ما دمت فيهم فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شيء شهيد" (٣) . إن حقيقة رسالة عيسى - عليه السلام -، هي توحيد الله تعالى، وهذا أصل انحرف عنه النصارى وحادوا فحكم جل وعلا بكفرهم لذلك: "لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم" (٤) . "لقد كفر الذين

(١) المائدة - ٤٦ ، ٤٧ .

(٢) المائدة - ١١٠ - وانظر آل عمران - ٤٩ - .

* "ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئاً" المائدة - ٤٨ - .

(٣) المائدة - ١١٦ ، ١١٧ - .

(٤) المائدة - ٧٢ - .

قالوا إن الله ثالث ثلاثة ومامن إله إلا إله واحد^(١). وفي اليوم الآخر كذلك نجدهم يتألمون على الله. وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى^(٢). وغلو في عيسى - عليه السلام - يا أهل الكتاب لاتفلوا في دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق إنما المسيح عيسى بن مريم رسول الله وكلمته القاها إلى مريم وروح منه^(٣) ففرق بين اليهود والنصارى "اليهود مقصرون عن الحق والنصارى غالون فيه"^(٤).

والنتيجة المتوقعة لهذه الأفعال: "ومن الذين قالوا إنا نصارى أخذنا ميثاقهم فنسوا حظاً مما ذكروا به فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة وسوف ينبئهم الله بما كانوا يصنعون"^(٥). فالنتيجة أن الله أورثهم العداوة وسلط بعضهم على بعض وافترقوا فرقاً كثيرة.

وقد كانت هذه الآيه وماتزال تقريراً مطلقاً عن انحراف النصارى عن بعض عهود الله ووصاياهم، فأدى بهم الانحراف إلى الشقاق والتنازع والعداء والبغضاء^(٦).
فافترقوا فرقاً كثيرة ذكر الرسول صلى الله عليه وسلم عددها "وتفرقت النصارى على اثنتين وسبعين فرقة"^(٧).

(١) المائدة - ٧٣ - .

(٢) البقرة - ١١١ - .

(٣) النساء - ١٧١ - .

(٤) اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم - شيخ الإسلام ابن تيمية / تحقيق ناصر العقل ج ١ ص ٦٧.

(ط : ١) - ١٤٠٤ هـ شركة العبيكان للطباعة والنشر .

(٥) المائدة - ١٤ - .

(٦) سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم صور مقتبسة من القرآن الكريم. ج ٢ ص ٢١٣. (مرجع سابق) .

(٧) صحيح الجامع الصغير. ج ١ ص ٢٥٨ حديث رقم [١٠٩٤]. (مرجع سابق) .

المسألة الرابعة

الظروف الدينية عند المختلف فيهم

وتشتمل على قسمين :

القسم الأول : الظروف الدينية عند المجوس

القسم الثاني : الظروف الدينية عند الصابئة

القسم الأول : المجوس

يقول صاحب اللسان : "المجوسية : نحلة، والمجوسي منسوب إليها، والجمع المجوس" (١).
وفي القاموس المحيط "رجل صغير الأذنين، وضع ديناً ودعا إليه، معرب : ميخ كوش. رجل
مجوسي" (٢).
وفي الاصطلاح : يقول عنهم القرطبي : "هم عبدة النيران القائلون أن للعالم
أصلين : نوراً وظلمة" (٣).
وهل لهم كتاب أم لا ؟ اختلف العلماء في ذلك (٤) ومدار خلافهم من أجل حل
ذبايحهم، ونكاح نسائهم. وهل يعاملون معاملة أهل الكتاب أم لا ؟ (٥).
لقد نقل القرطبي الإجماع على عدم جواز أكل ذبايحهم ونكاح نسائهم، حيث
يقول : وأما المجوس مجتمعون إلا من شذ منهم - على أن ذبايحهم لا تؤكل ولا يتزوج منهم
لأنهم ليسوا أهل كتاب على المشهور عند العلماء" (٦). ولأنه صلى الله عليه وسلم أخذ الجزية
من مجوس هجر (٧). ولذلك وغيره من الأدلة يرى ابن قدامة أنه لاخلاف بين أهل العلم في
أخذ الجزية منهم لأن لهم شبهة كتاب (٨).
ولذلك قسم الشهرستاني المخالفين للحنيفية ممن يقول بشريعة وأحكام قسمين : أهل
كتاب محقق ، وقسماً لهم شبهة كتاب (٩).

(١) لسان العرب - مادة : مجس (مرجع سابق) .

(٢) القاموس المحيط - . مادة : مجس (مرجع سابق) .

(٣) الجامع لأحكام القرآن - ج ١٢ ص ٢٢ (مرجع سابق) .

(٤) المرجع السابق . ج ٦ ص ٧٧ .

(٥) المغني - أبي محمد عبدالله أحمد بن محمد بن قدامة . ج ٦ ص ٥٩١ . مكتبة الرياض الحديثة .

(٦) وانظر فتح الباري - ج ٦ ص ٢٥٩ ، ٢٦٠ ، ٢٦١ (مرجع سابق) .

(٧) الجامع لأحكام القرآن - ج ٦ ص ٧٧ (مرجع سابق) .

(٨) المغني . ج ٨ ص ٢٦٢ ، ٢٦٣ (مرجع سابق) .

(٩) انظر الملل والنحل . مرجع سابق . ج ٢ ص ٢٠٨ .

ثم أوضح لنا مايراد بهذه الشبهة فقال : فإن الصحف التي أنزلت على إبراهيم - عليه السلام - قد رفعت إلى السماء لأحداث أحدثها المجوس^(١) .
والمجوس ينتشرون في بلاد فارس^(٢) . وهم من أخصب الأمم ديناً ومذهباً^(٣) . ولذلك يقول القرطبي في سبب تسميتهم "المجوس في الأصل النجوس لتدينهم باستعمال النجاسات"^(٤) .

(١) نفس المرجع السابق ج ٢ ص ٢٠٨ .

(٢) أحكام غير المسلمين في الجرائم والعقوبات في النولة الإسلامية . عبدالله صالح الحديثي ص ١٦٦ ، رسالة ماجستير غير مطبوعة . مقدمه للمعهد العالي للقضاء .

(٣) المرجع السابق نفسه ص ١٥ .

(٤) الجامع لأحكام القرآن . ج ١٢ ص ٢٢ (مرجع سابق) .

حقيقة معتقدتهم :

الذي اشتهر وتناقلته الأخبار أنهم عبدة النار^(١) وعبادتهم للنار بزعمهم أنها مظهر اله الخير وهو النور^(٢) .

وحول بداية اعتقادهم بهذه النيران يذكر المسعودي قصة شبيهة بقصة عمرو بن لحي ونقله الأصنام إلى قريش والعرب، وخالصة قوله أن أحد ملوك الفرس وجد قوماً يعبدون النار، فسأل عن ذلك، فذكروا له كلاماً اجتذبه إليها، منها أنها واسطة بين الله وخلقه، وغير ذلك من الخزعبلات والترهات بزعمهم، فأمر بحمل جزء منها إلى خراسان، فاتخذ لها بيتاً، ثم انتشرت بعد ذلك بيوت النار^(٣) ثم أسهب بتعداد بيوت النار^(٤) .

وينتقل الشهرستاني إلى مفهوم آخر للمجوسية، فيقول : "المجوسية يقال لها الدين الأكبر والملة العظمى"^(٥) ، ويشرح حقيقة مذهبهم فيقول : "إن التثنية اختصت بالمجوس حتى أثبتوا أصلين اثنين مدبرين قديمين، يقتسمان الخير والشر، والنفع والضرر والصلاح والفساد، يسمون أحدهما : النور والآخر الظلمة"^(٦) .

ثم بين خلاصة مذهبهم، ومداره فقال: "ومسائل المجوس كلها تدور على قاعدتين اثنتين : إحداهما : بيان سبب امتزاج النور بالظلمة . والثانية: بيان سبب خلاص النور من الظلمة ، وجعلوا الامتزاج مبدأ والخلاص معاداً"^(٧) . ويقسمهم الشهرستاني إلى ثلاث فرق^(٨) .

ويلاحظ أن الشهرستاني لم يتطرق إلى عبادة النار وكأنها ليست بشيء في المجوسية

(١) انظر الجامع لأحكام القرآن . ج ١٢ ص ٢٢ (مرجع سابق) .

(٢) انظر التحرير والتنوير . ج ١١ ص ٢٢٤ (مرجع سابق) .

(٣) انظر مروج الذهب ومعادن الجوهر . على بن الحسين بن علي المسعودي ج ٢ ص ٢٥١ - المكتبة الإسلامية -

بيروت . ب : ت .

(٤) نفس المرجع السابق ج ٢ ص ٢٥٢ - ٢٥٨ .

(٥) الملل والنحل . ج ٢ ص ٢٢٠ (مرجع سابق) .

(٦) نفس المرجع ج ٢ ص ٢٢٠ .

(٧) المرجع نفسه ج ٢ ص ٢٢٢ .

(٨) انظر المرجع نفسه . ج ٢ ص ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٦ (مرجع سابق) .

على اشتهار ذلك، ولكن عند حديثه عن فرقة الزرادشتية ذكر اسم فرقة يقال السيسائية بين أن رئيسها كان (ترمزيًا) في الأصل يعبد النيران^(١) .

ويُنقَل عن علي -رضي الله - عنه أنه قال فيهم : كان المجوس أهل كتاب يقرؤونه وعلم يدرسونه فشرب أميرهم الخمر فوقع على أخته، فلما أصبح دعا أهل الطمع فأعطاهم وقال : إن آدم ينكح أولاده بناته، فأطاعوه، وقتل من خالفه فأسرى على كتابهم وعلى مافي قلوبهم منه، فلم يبق عندهم منه شيء^(٢) .

والأصح أنهم أهل أوثان في معتقدهم، ويدل على هذا ما جاء في الصحيح في تفسير قوله تعالى : "لم غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيفلبون"^(٣) . قال ابن عباس "غَلِبَتْ وَغَلِبَتْ . قال : كان المشركون يحبون أن يظهر أهل فارس على الروم، لأنهم وإياهم أهل أوثان، وكان المسلمون يحبون أن يظهر الروم على فارس لأنهم أهل لكتاب، فذكروه لأبي بكر، فذكره أبو بكر لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : أما إنهم سيفلبون"^(٤) . فالشاهد شهادة الصحابة رضي الله عنهم بأنهم أهل أوثان ثم إقرار الرسول صلى الله عليه وسلم لهم بذلك ولم ينكره عليهم .

وزيادة القول فيهم : أنهم في المعاملات الحربية وأمر الجزية يعاملون معاملة أهل الكتاب لثبوت ذلك عنه صلى الله عليه وسلم ، أما في معتقدهم فهم وثنيون يدرجون مع أهل الأوثان .

(١) انظر الملل والنحل - المرجع السابق ج ٢ ص ٢٢٨ .

(٢) فتح الباري ج ٦ ص ٢٦١ . (مرجع سابق) .

(٣) الروم - ١ - ٢٠ - ٣ .

(٤) صحيح سنن الترمذي . (أبواب تفسير القرآن) . سورة الروم (٣١) ج ٣ ص ٨٧ - ٨٨

وانظر المسند . ج ٤ ص ١٦٨ . حديث رقم [٢٤٩٥] .

القسم الثاني : الصابئة

في اللغة : "صبأ" : خرج من دين إلى دين آخر"^(١) . وورد في السنة على هذا المعنى كثير من الأخبار فمنها ماورد في البخاري : "لما أسلم عمر اجتمع الناس عند داره، وقالو : صبأ عمر"^(٢) .

وفي موضع آخر جاء في البخاري "صبأ" : خرج من دين إلى"^(٣) وكان البخاري أورد هذه الجزئية بعد حديث طويل وردت فيه لفظة الصابيء، فأراد أن يبين أن الصابيء فيه غير الصابيء المقصود بالطائفة المذكورة^(٤) ومع أن أهل اللغة أوردوا معاني أخرى خاض فيها علماء الشرع^(٥) ليس المجال مجال تفصيلها.

أما في الاصطلاح : فقد اختلف علماء السلف رحمهم الله فيهم اختلافاً كبيراً^(٦) فقال في ذلك ابن القيم - رحمه الله - : "وقد اختلف الناس فيهم اختلافاً كثيراً، وأشكل أمرهم على الأئمة لعدم الإحاطة بمذهبهم ودينهم"^(٧) وحصر ابن الجوزي الأقوال فيهم في سبعة^(٨) فمنهم من قال أنهم فرقة من النصارى وآخرون جعلوهم بينهم وبين المجوس ، ومنهم من جعلهم بين اليهود والنصارى، ومنهم من يرى أنهم يعبدون الملائكة، ومنهم من يرى أنهم موجودون. يقولون : لا إله إلا الله^(٩) ولكن شيخ الإسلام ابن تيمية ذكر أنهم قسمان : صابئة مشركة، وصابئة حنفاء^(١٠) .

(١) القاموس المحيط . مادة : صبأ (مرجع سابق) .

(٢) صحيح البخاري مع الفتح . ك . مناقب الأنصار (باب إسلام عمر بن الخطاب) ج ٧ ص ١٧٧ .

(٣) صحيح البخاري مع الفتح . ج ١ ص ٤٤٨ .

(٤) انظر فتح الباري ج ١ ص ٤٤٨ .

(٥) انظر لسان العرب . مادة : صبأ . (مرجع سابق) .

(٦) انظر تفسير بن كثير . ج ١ ص ٤٥٤ (مرجع سابق) .

(٧) أحكام أهل الذمة - بن القيم - ج ١ ص ٩٢ . دار العلم للملايين (ط : ٢) .

(٨) انظر زاد المسير في علم التفسير . ج ١ ص ٩١ ، ٩٢ (مرجع سابق) .

(٩) انظر المرجع السابق ج ١ ص ٩٢ .

(١٠) انظر الفتاوى . ج ٥ ص ٥٤٨ (مرجع سابق) .

ويقول في موضع آخر : " فكانت الصابئة إلا قليلاً منهم إذ ذاك على الشرك، وعلماؤهم هم الفلاسفة ، وإن كان الصابيء قد لا يكون مشركاً بل مؤمناً بالله واليوم الآخر، كما قال الله تعالى : "إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون والنصارى من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون" . ولكن كثيراً منهم أو أكثرهم كانوا كفاراً أو مشركين كما أن كثيراً من اليهود والنصارى بدلوا وحرفوا وصاروا كفاراً أو مشركين، فأولئك الصابئون الذين كانوا إذ ذاك كانوا كفاراً أو مشركين وكانوا يعبدون الكواكب ويبنون لها الهياكل ^(١) .

ويرى ابن القيم رأي شيخه بأن الصابئة فرقة كاليهود والنصارى فمنهم الشقي ومنهم السعيد، وهم نوعان : حنفاء، ومشركون ^(٢) وجاء في البخاري : "وقال أبو العالية : الصابئون فرقة من أهل الكتاب يقرؤون الزبور ^(٣) .

وكما أشار شيخ الإسلام إلى أن علماءهم هم الفلاسفة لذلك عددهم الشهرستاني مع أصحاب الروحانيات والتعصب للروحانيين ^(٤) . ومنهم من قال : إنهم سموا بذلك نسبة إلى صابيء بن متوشلخ عم نوح - عليه السلام - ^(٥) .

وعن أماكن وجودهم يقول شيخ الإسلام : " وهذا دين كان كثير من أهل الأرض عليه بالشام والجزيرة والعراق وغير ذلك " ^(٦) .

(١) الفتاوى . ج ٥ ص ٢١ (مرجع سابق) .

(٢) انظر أحكام أهل الذمة . ج ١ ص ٩٤ (مرجع سابق) .

(٣) صحيح البخاري مع الفتح ج ١ ص ٤٤٨ .

(٤) انظر الملل والنحل . ج ٢ ص ٥ (مرجع سابق) .

(٥) انظر فتح الباري ج ٥ ص ٤٥٤ (مرجع سابق) .

(٦) الفتاوى . ج ٥ ص ٥٤٩ (مرجع سابق) .

شيخ الإسلام (ابن تيمية) يلخص الأحوال الدينية :

ويلخص شيخ الإسلام ابن تيمية أحوال الناس الدينية آنذاك فيقول : والناس إذ ذاك أحد رجلين : إما كتابي معتصم بكتاب، إما مبدل، وإما مبدل منسوخ ودين دارس، بعضه مجهول، وبعضه متروك

وإما أمي من عربي وعجمي، مقبل على عبادة ما استحسنته وظن أنه ينفعه : من نجم، أو وثن، أو قبر، أو تمثال، أو غير ذلك .

والناس في جاهليه جهلاء، من مقالات يظنونها علماً وهي جهل وأعمال يحسبوننها صلاحاً وهي فساد. وغاية البارع منهم علماً وعملاً، أن يحصل قليلاً من العلم الموروث عن الأنبياء المتقدمين، قد اشتبه عليهم حقه بباطلة^(١) .

فرحمه الله قد شمل أحوال القوم بكلام موجز غير مغل، فيه فمن كانت هذه معتقداتهم وأفكارهم عن الألوهيه وتصوراتهم لها فسهل على الشياطين أن تستزلهم ، وعلى المؤثرات أن تتلاعب بهم .

وفق أحوالهم الدينية ينتقل الكلام إلى أحوالهم الإجتماعية ، لتكون الدليل القريب على أثر عقائدهم في جميع شئون حياتهم.

(١) اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم . شيخ الإسلام ابن تيمية. ج ١٠ ص ٦٣ . تحقيق / د. ناصر

بن عبدالكريم العقل . ط : ١ (١٤٠٤هـ) لم تذكر دار النشر .

المطلب الثاني

الظروف الاجتماعية عند المنكرين ويحتوي على الآتي :
توطئة

المسألة الأولى : الظروف الاجتماعية عند الوثنيين العرب.

المسألة الثانية : الظروف الاجتماعية عند اليهود.

المسألة الثالثة : الظروف الاجتماعية عند الفرس والروم.

توطئة

مر في المطب السابق الظروف الدينية للناس أثناء البعثة المحمدية، وتبين أن المناخ الفكري آنذاك لا يساعد على استقامة ضمير ولاصلاح حياة^(١) .

ومن البدهي أن تتخيل حينئذ موازين الحياة في جوانبها المختلفة وتمثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض مالها من قرار^(٢) . جاء في التفسير أن الكلمة الخبيثة هي الشرك والشجرة الخبيثة هي المشرك اجتثت من فوق الأرض مالها من قرار أي ليس للمشرك أصل يعمل عليه^(٣) .

ولأنه لا بد من جهة تضع له الميزان، ومنها ينهل جميع أسس حياته فيفلق في الأولى وينجو في الأخرى^(٤) .

وإن الاعتقاد بالأكوهية الواحدة قاعدة لمنهج حياة متكامل ولذلك فإن الرسول صلى الله عليه وسلم وبحسب ما أمر به، لم يجعل منطلق دعوته إصلاحات اجتماعية أو مالية، مع إمكانية ذلك، وحاجة المجتمع آنذاك لمن يقدم لهم ذلك^(٥) ، بل دعا إلى توحيد الله سبحانه وتعالى، ومثله أخواه شعيب ولوط - عليهما السلام - ، فالمشكلة الاقتصادية والظلم فيها متفش في قوم شعيب - عليه السلام - ، والمشكلة الأخلاقية منتشرة في قوم لوط - عليه السلام - فكلاهما يدعو قومه إلى توحيد الله - سبحانه وتعالى - أولاً "يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره"^(٦) .

"وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون"^(٧) . ويعد

(١) انظر وظيفة الأخبار في سورة الأنعام . ص ٦٣ ، ٦٤ (مرجع سابق) .

(٢) إبراهيم - ٢٦ - .

(٣) انظر الجامع لأحكام القرآن . ج ٩ ص ٣٦٢ (مرجع سابق) .

(٤) انظر وظيفة الأخبار في سورة الأنعام ص ٦٤ (مرجع سابق) .

(٥) انظر معالم في الطريق . سيد قطب . ص ٢٣-٢٥ . ط : ٤ الاتحاد الاسلامي العالمي .

وانظر واقمنا المعاصر . محمد قطب . ص ٥١ . ط : ٢ . مؤسسة المدينة للصحافة .

(٦) هود - ٨٤ - .

(٧) الانبياء - ٢٥ - .

ذلك ينتقلون إلى ماتفسى في مجتمعاتهم من أمراض^(١) فلا إله إلا الله أصل وقاعدة، منها تستمد جميع الأمور صغيرها وكبيرها "ألم تر كيف ضرب الله مثلاً كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء * تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون"^(٢) .

فسر ابن عباس الكلمة الطيبة بلا إله إلا الله^(٣) وفسروا الشجرة الطيبة بطيبة الثمرة^(٤) . ويروي كثير من المفسرين بأن النخلة هي المرادة بالتشبيه لماورد في الصحيحين^(٥) وهي أشبه شيء بالإنسان، ولأنها إذا قطع رأسها يبست وزهبت^(٦) .

فالأصل والفرع كل منهما يؤثر بالآخر لأن العقيدة أصل ، وماسواها يتفرع منها، والفرع يستمد من أصله والأصل مثبت ومقوى بفرعه، ككلمة الإيمان المذكورة في الآية السابقة، فهي كلمة التوحيد، والشجرة كلما قوي أصلها وعرق وروي قويت فروعها، وفروعها أيضاً إذا اغتذت بالمطر والريح أثر ذلك في أصلها^(٧) .

فحينما تتزعزع أصول العقيدة لأي مجتمع من المجتمعات تفقد الهدى بجميع شئونها الدينية والدنيوية وتضعف أجهزة الرقابة الفردية والجماعية ويخف النقد ويضعف صوت الحق، وتساق الشعوب إلي الهاوية وهي غافلة^(٨) ومن هنا يحاول الباحث اجراء دراسة اجتماعية واقتصادية لمجتمع ما قبل البعث.

(١) انظر الآيات ٨٤ ، ٨٥ - هود والآيات ٨٠ ، ٨١ الاعراف .

(٢) ابراهيم [٢٤ - ٢٥] .

(٣) انظر الجامع لأحكام القرآن - مرجع سابق ج ٩ ص ٣٥٩ .

(٤) انظر زاد المسير في علم التفسير - مرجع سابق ج ٤ ص ٣٥٨ .

(٥) صحيح البخاري مع الفتح ج ١ ص ١٦٥ .

(٦) انظر الجامع لأحكام القرآن ج ٩ ص ٣٦٠ .

(٧) انظر مجموع فتاوى شيخ الاسلام - ج ٧ ص ٥٤١ ، ٥٤٢ . (مرجع سابق) .

(٨) انظر النبوة وماقبلها . محمد عبدالله الشيباني . ص ١٠-١٢ ، دار عالم الكتب - الرياض .

ماذا يُعنى بالظروف الاجتماعية ؟

بالعودة إلى قواميس اللغة تجد في مادة جمع معاني كثيرة يختار منها مايناسب هذا الموضوع ومنها : مجتمع أصل الشيء أراد منشأ النسب^(١) . ومنها : النكاح^(٢) . وهذان المعنيان يشيران إلى المجتمع الأسري ومن أصوله وفروعه يتكون مجتمع كبير يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا^(٣) . وكذلك ما اجتمع للمرء من أموره^(٤) .

ويتضح من هذا أن هذا المجتمع له أمور خاصة بالأفراد وبالأسرة وبالقبيلة، ثم الأمور العامة بالعلاقات التي تنشأ بين المجتمعات وما تتعارف وتتألف وتختلف عليه .

وفيما يلي نبذة مختصرة عن أحوال أقوام عهد النبوة الاجتماعية :

(١) انظر لسان العرب . مادة جمع (مرجع سابق) .

(٢) نفس المرجع .

(٣) الحجرات - ١٣ - .

(٤) انظر لسان العرب . مادة جمع (مرجع سابق) وانظر المفردات في غريب القرآن . مادة جمع ص ٩٦

(مرجع سابق) .

المسألة الأولى : الظروف الاجتماعية عند الوثنيين العرب :

كان للعرب أوضاع وتقاليد اجتماعية، وقوانين عرفية ، فيما يتعلق بالأنساب والأحساب. وعلاقة القبيلة بالأخرى، وهذا ناتج من تعلقهم المفرط بموروثاتهم وأبائهم الأقدمين^(١)، ولهذا تجدهم يمتازون عن غيرهم بأوضاع وأمور استأثروا بها، وتوارثوها وتنافسوها من القدم كالسقاية والرفادة، وجاء ذكر ذلك في القرآن الكريم: "أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام"^(٢). ومن أسباب نزولها كما يرويه بعض المفسرين افتخار المشركين بعمارة المسجد والسقي وفك العاني^(٣).

وكان المجتمع ينقسم إلى طبقات فهناك الأسياد وهناك الموالي ، وهناك العبيد^(٤).

وينقسم بعد ذلك إلى قسمين رئيسيين هما : الزعماء، والضعفاء. ويدل على ذلك ما جاء في القرآن الكريم توجيهاً للرسول صلى الله عليه وسلم حينما طلب منه شرفاء قريش أن يبعد عنه الضعفاء ليجلسوا معه^(٥).

"واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا"^(٦). وذهبوا بعيداً بالتفاخر بالأحساب والأنساب حتى قال شاعرهم :

ملأنا البراً حتى ضاق عنا وماء البحر نملؤه سفيناً

إذا بلغ القطام لنا صبي تخر له الجبابر ساجدينا^(٧)

وكانوا إذا تفاخروا عنوا مناقبهم، ومأثر آبائهم وحسبوا فيحكم لمن زاد عدده على غيره^(٨).

(١) انظر السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة ج ١ ص ٨٦ ، (مرجع سابق) .

(٢) التوبة - ١٩ - .

(٣) انظر تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٣٢ (مرجع سابق) .

(٤) انظر تاريخ الأدب العربي (العصر الجاهلي) . ص ٦٧ . (مرجع سابق) .

(٥) انظر تفسير ابن كثير ج ٢ ص ١٣١ ، ١٣٢ (مرجع سابق) .

(٦) الكهف - ٢٨ - .

(٧) شرح المعلقات السبع . أبو عبد الله الحسين بن أحمد بن الحسين الزوزني . ص ١٢٥ . دار بيروت . بيروت . ب : ت .

(٨) فتح الباري . ج ٩ ص ١٢٥ (مرجع سابق) .

ولكثره هذه المآثر ولاختلاف مشاربها فقد ألغى الإسلام السيء منها وأبقى الصالح. فقد قال صلى الله عليه وسلم " ألا إن كل مآثرة كانت في الجاهلية فإنها تحت قدمي اليوم، إلا ما كان من سدانة البيت وسقاية الحاج" ^(١) .

وفي مسلم أنه صلى الله عليه وسلم أذن لعمه العباس أن يبني بمكة ليالي منى من أجل سقايته ^(٢) . ومن أشكال مفاخرهم مايقولونه في شعرهم فهو سجل مفاخرهم وأحسابهم وأنسابهم، وقد يرفع البيت قبيلة وقد يخفضها ولذلك ذكر : " أن المعلقة السبع كانت معلقة بالكعبة" ^(٣) .

ولارتباطهم القبلي ونخوتهم لجنسهم تولد عندهم بعض الصفات الحميدة كصفة الكرم التي تصل إلى حد الإسراف واشتهر في ذلك أمثال حاتم الطائي ^(٤) .

وكان صفوة الخلق صلى الله عليه وسلم يحمل من هذه الأخلاق الحميدة - قبل البعثة - الشيء الكثير فقد قالت خديجة رضي الله عنها له حينما أتاها مرتاعاً بداية نزول الوحي عليه :

"كلا والله ما يخزيك الله أبداً إنك لتصل الرحم وتحمل الكل ، وتكسب المحروم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق" ^(٥) .

إلى آخر تلك الصفات الحميدة التي اشتهر بعضهم بها ولكنها تعد إلى جانب الصفات السيئة التي اشتهر أكثرهم بها كقطرات في بحر لحي. فكان مثلهم في الجاهلية انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً ^(٦) . ولذلك جاء في معلقة زهير بن أبي سلمى :

ومن لم يزد عن حوضه بسلاحه يـ هدم ومن لا يظلم الناس يظلم ^(٧)

(١) المسند . ج ٧ ص ٦٢ ، ٦٣ حديث رقم [٤٩٢٦] .

(٢) انظر صحيح مسلم ومعه شرح النووي . ج ٩ ص ٦٢ - ٦٣ .

(٣) السيرة لابن كثير ج ١ ص ١٢٠ (مرجع سابق) .

(٤) انظر المرجع نفسه ج ١ ص ١٠٧ ، ١٠٨ ، ١٠٩ .

(٥) صحيح البخاري مع الفتح . ج ١ ص ٢٢ .

(٦) انظر فتح الباري . ج ٥ ص ٩٨ . (مرجع سابق) .

(٧) انظر بلوغ الأدب في معرفة أحوال العرب . ج ٢ ص ٩٨ .

ولنتصور مدى تطبيقهم لهذه المبادئ الظالمة، فما هي الحروب الطاحنة التي تستمر أزمنة تقوم من أجل أتفه الأسباب، وعلى سبيل المثال لا الحصر حرب البسوس دامت أربعين سنة من أجل ناقة قتلت، وحرب داحس والغبراء من أجل سباق بين فرسين سبق أحدهما الآخر، وغيرهما كثير نقل بأشعارهم وسجل في تواريخهم^(١).

ويصف لنا جعفر بن أبي طالب - رضي الله عنه - للنجاشي شيئاً من أحوالهم في الجاهلية فيقول: "كنا قوماً أهل جاهلية نعبد الأصنام ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، ويأكل القوي منا الضعيف"^(٢). وكانوا يقتلون أولادهم قال تعالى: "ولاتقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم"^(٣).

أما المرأة فكانت بين افراط وتفريط فمنهم من جعلها ملكة ومنهم من وأدها خشية العار^(٤) فما هي سبأ تملكهم امرأة وهي قبيلة تنحدر من أصل عربي^(٥). ثم بعد زمن ملكوا عليهم بلقيس بنت الهداد^(٦) وأكد هذا القرآن الكريم: "إني وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شيء ولها عرش عظيم"^(٧).

وفي القرآن أيضاً شهادة لسوء معاملتهم للمرأة، حيث يقول تعالى: "وإذا الموعودة سئلت بأي ذنب قتلت"^(٨). وهكذا تجد حال المرأة في الجاهلية بين ارتفاع ونزول، فهي عند البعض مكرمة لها مقام سام ومن يعتدي عليها يجد العقاب الشديد، واشتهر من ذلك

(١) انظر المعارف لابن قتيبه . ص ٣٣٣ ، ٣٣٤ (مرجع سابق) .

وانظر بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب . ج ٢ ص ٦٨ - ٧٥ (مرجع سابق) .

(٢) المسند . ج ٢ ص ١٨٤ (مرجع سابق) .

(٣) الأنعام - ١٥١ - .

(٤) انظر المرأة المسلمة المعاصرة - أعدادها ومسؤوليتها في الدعوة . د. أحمد أبابطين ص ٤ . رسالة دكتوراه غير مطبوعه . ١٤٠٩ هـ كلية الدعوة والاعلام (قسم الدعوة) .

(٥) انظر مروج الذهب و معادن الجواهر . ج ٢ ص ٧٤ (مرجع سابق) .

(٦) نفس المرجع السابق . ج ٢ ص ٧٥ .

(٧) النمل - ٢٣ - .

(٨) التكوين - ٩٠ ، ٨ - .

مصرع عمرو بن هند الملك من أجل محاولة لإهانة والدة عمرو بن كلثوم الشاعر الجاهلي^(١). ومن ذلك ما كانت تتصف به خديجة رضي الله عنها من سمعة ومكانة عالية في قريش، بل وتحتل مكانة في التجارة كبيرة، وتستأجر الرجال في خدمتها^(٢)، "وكل قومها حريص على نكاحها لو قدروا على ذلك، قد طلبوها وبذلوا لها الأموال"^(٣).

وغير ذلك مما امتازت به المرأة في الجاهلية، ولكن قابل ذلك إهانة وازدراء في حقوقها حتى عدها كثير من القبائل كسقط المتاع، وكانت تورث ولا ترث، حتى أن الابن الأكبر كان يخلف على امرأة أبيه وكانوا يسمون ذلك "الضيزن"^(٤)، وأبطل هذا الله بقوله تعالى: "ولاتنكحوا مانكح أبائكم من النساء إلا ما قد سلف إنه كان فاحشة ومقتاً وساء سبيلاً"^(٥).

إلى غير ذلك من الأمور التي كانوا ينالون بها من المرأة ومن كرامتها، كأمر الطلاق والنكاح^(٦).

ويوضح عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - حال المرأة باختصار فيقول: "والله إن كنا في الجاهلية ما نعد للنساء أمراً حتى أنزل الله فيهن ما أنزل وقسم لهن ما قسم"^(٧). ولأهمية ما نقله البخاري عن عائشة أم المؤمنين - رضي الله عنها - في أنواع النكاح في الجاهلية يُنقل باختصار وهو: النكاح في الجاهلية كان على أربعة أنحاء: أولها: نكاح كنكاح الناس اليوم، والثاني: كان الرجل يقول لامرأته: - إذا طهرت من طمئتها - : أرسلني إلى فلان فاستبضعي منه وبعزلها زوجها ولايمسها أبداً حتى يتبين حملها من ذلك الرجل،

(١) انظر المرأة المسلمة المعاصرة ص ١٧ (مرجع سابق).

(٢) انظر الوفا بأحوال المصطفى . عبدالرحمن ابن الجوزي ج ١ ص ٢٢٥ - ٢٢٧ المؤسسة السعيدية - الرياض .

(٣) المرجع نفسه ج ١ ص ٢٢٧ .

(٤) انظر السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة ج ١ ص ٨٧ . (مرجع سابق).

انظر بلوغ الأرب في أحوال العرب ج ٢ ص ٥٢ .

(٥) النساء - ٢٢ - .

(٦) انظر السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة - مرجع سابق ج ١ ص ٨٨ - ٩١ (مرجع سابق).

(٧) صحيح البخاري مع الفتح . ك. التفسير . سورة رقم (٦٦) باب (٢) ج ٨ ص ٦٥٧ .

ويفعل ذلك رغبة في نجابة الولد .

والثالث : يجتمع الرهط مابون العشرة فيدخلون على المرأة كلهم يصيبها، فإذا حملت ووضعت تدعوهم وتنسبه لأحدهم فلا يمتنع. الرابع : يجتمع الناس الكثير، فيدخلون على المرأة لاتمنع من جاعها، وهن البغايا^(١) .

ولا ينتهي جهلهم وسفههم ، وتأكيداً لحقيقة ماجاء يؤكد الله تعالى أحوال العرب السيئة وعاداتهم الجاهلية في كتابه الكريم ، فقد روى البخاري رحمه الله عن ابن عباس قوله : "إذا سرك أن تعلم جهل العرب فاقرأ ما فوق الثلاثين ومائة من سورة الأنعام : "قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفهاً بغير علم" إلى قوله : "قد ضلوا وما كانوا مهتدين"^(٢) . وأنى له أن يهتدي من عبد غير ربه، وسار حسب ما يرى بلا دليل ولا برهان وصدق الله حيث قال عنهم : "إن يتبعون إلا الظن وماتهوى الأنفس ولقد جاعهم من ربه الهدى أم للإنسان ما تمنى فله الآخرة والأولى"^(٣) وهذا غييض من فييض، وإنما أريد من ذلك من أوضاع القوم. من ذلك في معرفة الأسباب والدوافع المترسبة في مجتمعاتهم التي تمكنت منهم حتى أهلكتهم، وعن طريق الله أبعدهم .

(١) انظر صحيح البخاري مع الفتح ج ٩ ص ١٨٢ .

(٢) صحيح البخاري مع الفتح . ج ٦ ص ٥٥١ .

(٣) النجم - ٢٣ ، ٢٥ - .

المسألة الثانية :

الظروف الاجتماعية عند اليهود

تبين مما سلف أن اليهود أهل كتاب سماوي هو : التوراة، كتاب أنزله الله على كليمه موسى عليه السلام. فكان الأمر الطبيعي أن يسيروا في حياتهم سيراً حسناً مستقيماً على ضوء ما لديهم من تعاليم إلهية، ولكن انحرفوا عن الجادة فطبع الله على قلوبهم بكفرهم فبما نقضهم ميثاقهم وكفرهم بآيات الله وقتلهم الأنبياء بغير حق وقولهم قلوبنا غلف بل طبع الله عليها بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلاً^(١) .

وكذلك عذبهم بالنفي والجلد حتى انتهى ببعضهم الأمر إلى الاستقرار بيثرب حيث واجتمعت قبائلهم هناك، وفي أنحاء أخرى من الحجاز، فعاشوا بجوار العرب، وبنوا الحصون والقلاع والقرى المحصنة^(٢) فكيف كان يعيش هؤلاء اليهود ؟ .

يتضح من أخبار كثرة أطماعهم وقلاعهم أنهم منعزلون عن المجتمعات الأخرى، وهذا من عصبيتهم لجنسهم وانانيتهم .

وبخصوص علاقتهم مع بعضهم البعض، فإن المصادر لم تتحدث عن العلاقة التفصيلية للأسر اليهودية وما يتعلق بها بعد قدومها إلى يثرب، ولكنهم يستنتجون ذلك من أخبارهم التي وردت في الفترة التي سبقت الهجرة وفي أثناء الهجرة^(٣) .

وكان المفروض ان يتعايش اليهود بسلام مع بعضهم وخاصة أنهم طارئون في هذه الأرض وغريبون فيها^(٤)، ولهذا من يراهم بهذا التكتل وهذا التجمع يحسبهم متجانسين متوافقين متفاهمين، ولكن صدق الله حيث يقول : تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى^(٥) هم في داخل دائرتهم أهل شقاق ونفاق وأهل عداوة وخصام وبغضاء، لكننا نحسبهم وكأنهم

(١) النساء - ١٥٥ - .

(٢) انظر الكامل في التاريخ ج ١ ص ٤٠١ (مرجع سابق) .

(٣) انظر مكة والمدنية في الجاهلية وعهد الرسول . ص ٢٤٥ (مرجع سابق) .

(٤) انظر نفس المرجع السابق ص ٤٠١ .

(٥) الحشر - ١٤ - .

على قلب رجل واحد" (١) .

فهذه حالة أفرادهم، وهذه هي العلاقة التي بينهم كما جاء في كتاب الله الكريم بقوله تعالى : "ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم وتخرجون فريقاً منكم من ديارهم تظاهرون عليهم بالإثم والعدوان وإن يأتوكم أسارى تفادوهم وهو محرم عليكم إخراجهم أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض" (٢) فهم قبائل متناحرة، تتقاتل مع بعضها البعض، وبعد ما ذكره المفسرون في معنى هذه الآية بأنهم كانوا أعداء، حيث يشترك فريق منهم مع الأوس وفريق آخر مع الخزرج (٣) .

"ولم يكونوا متحدين في كيان سياسي وعسكري وديني ، بل كانوا فرقاً وأحزاباً ، وكانوا على خلاف ونزاع وعداء" (٤) . ولقد كان طابع الذلة والمسكنة والجبن والغربة والفرع بطبعهم جميعاً، فكانت محالفتهم مع العرب بالإضافة إلى حصونهم وقلاعهم وسلاحهم وسيلتهم إلى الاستمساك والبقاء" (٥) . فهذا يوضح علاقة القبائل اليهودية مع بعضها البعض، وهو قليل من كثير .

وأما عاداتهم وأخلاقهم الاجتماعية فلاحصر لها، وقد رسم القرآن الكريم صوراً وافية، وكماً هائلاً من ذلك، ولقد ربط بين أخلاق اليهود المعاصرين للرسول صلى الله عليه وسلم والأقدمين بحيث يصح أن نقول انها ليست خاصة في يهود دون يهود بل هي جبلة راسخة لاتكاد تنفك عنهم حتى صار كأنه سليقه مكتسبة تنتقل مع حاملات الوراثة إلى دماء الأخلاف عن الأسلاف (٦) .

ومن الآيات المبينة لذلك قوله تعالى "وإذ أخذنا ميثاق بني إسرائيل لاتبعدون إلا الله وبالوالدين إحساناً ، وذوي القربى واليتامى والمساكين وقولوا للناس حسناً وأقيموا الصلاة

(١) اليهود في القرآن . الشيخ صلاح أبو اسماعيل . ص ٧٩ . دار الصحوة للنشر : بيروت .

(٢) البقرة - ٨٥ - .

(٣) انظر الجامع لأحكام القرآن . ج ١ / ٢ ص ٢٠ (مرجع سابق) وانظر تفسير ابن كثير ص ٨ ، ٨٢ (مرجع سابق) .

(٤) اليهود في القرآن الكريم . محمد عزة دروزة . ص ٤٢ . المكتب الإسلامي ١٤٠٠هـ .

(٥) نفس المرجع السابق . ص ٤٢ .

(٦) انظر المرجع السابق ص ٤٢ .

وأتوا الزكاة ثم توليتهم إلا قليلاً منكم وأنتم معرضون" (١) .

يقول الشيخ الدوسري : "أما هذه الآية وما بعدها ففيها التذكير بأهميات الأحكام في العبادات التي هي من روافد العقيدة والإيمان، وفي المعاملات السياسية والاجتماعية مما هي من ضروريات الحضارة والاجتماع، كما فيها بيان ما عليه اليهود من غلظ القلوب وقسوتها وكثرة المراء والمشغبة" (٢) .

وماذا تنتظر ممن استبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير : "أولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة فلا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينصرون" (٣) .

"أي استحبوها على الآخرة واختاروها" (٤) فهذا معنى أن كل أمورهم تبني على المصالح الذاتية والدنيوية ولانصيب للآخرة والأعمال المسعدة فيها عندهم.

علاقتهم مع جيرانهم :

وهم أنهم عاشوا بجوار العرب، وكان لهم كيان بارز ومؤثر، بسبب ما كانوا عليه من كثرة العدد، والثروة، والمهارة الزراعية، والصناعية، والتجارية (٥) ، فكان لذلك لهم الحكم والغلبة على القبائل العربية المجاورة في بادئ الأمر (٦) .

وقد اندمجوا في الحياة العربية في الزي واللغة، فتسمت بعض قبائلهم بأسماء عربية، وكذلك بعض أشخاصهم، وزادت هذه الأواصر بالتناسب والتصاهر مع العرب (٧) .

بل ارتبطوا بمواثيق الحلف مع جيرانهم العرب وهذا زاد قدمهم رسوخاً (٨) فيتضح

(١) البقرة - ٨٢ - .

(٢) صفوة الآثار والمفاهيم من تفسير القرآن العظيم . ج ٢ ص ٢١١ ، ٢١٢ . (مرجع سابق) .

(٣) البقرة - ٨٦ - .

(٤) تفسير ابن كثير . ج ١ ص ١٨٢ . (مرجع سابق) .

(٥) السيرة النبوية - صور مقتسبه من القرآن الكريم . (مرجع سابق) ج ٢ ص ١٢٢ .

(٦) انظر الكامل في التاريخ - ج ١ ص ٤٠١ (مرجع سابق) .

(٧) انظر الرحيق المختوم . (مرجع سابق) ص ٢٠٠ .

(٨) السيرة النبوية - صور مقتسبه من القرآن الكريم . ج ٢ ص ١٢٢ (مرجع سابق) .

أنهم نوو مكانة عالية بين العرب، ولم يحظوا بهذا التمكين في المواقع الأخرى التي نزلوها، وفي ذلك يقول ابن القيم : "فأما اليهود فأكثر ما كانوا باليمن وخيبر والمدينة وما حولها. وكانوا بأطراف الشام مستذلين مع النصارى، وكان منهم بأرض فارس فرقة مستذلة مع المجوس، وكان منهم بأرض العرب فرقة، وأعز ما كانوا بالمدينة وخيبر"^(١) .

فهل رعى اليهود هذه النعمة، وعاشوا بسلام مع جيرانهم ؟ كلا فقد جبل هؤلاء على النكود والتمرد، والاستعلاء بعنصرهم والاستكبار بنوعهم .

فقد كانوا يحتقرون العرب احتقاراً بالغاً حتى كانوا يسمونهم أميين بمعنى أنهم وحوش وسذج وأراذل، متأخرون، ويرون أن أموالهم مباحة لهم ياكلونها كيف شاعوا^(٢) ويؤكد هذا قوله تعالى : "ذلك بأنهم قالوا ليس علينا في الاميين سبيل"^(٣) أي ليس علينا في أكل حقوقهم حرج"^(٤) .

وعلى هذا النمط السافل يمضون في استباحة الأعراض، والدماء، والأموال، وتقرير الفواحش، وأكل الربا والغش، والخداع، ونقض العهود والمواثيق، والغدر، والتلاعب بأغلب الأيمان، مادام الخصم أممياً غير يهودي^(٥) .

وهذا ماجلبوه لجيرانهم من الشربيدل الخير الذي أنزله الله عليهم لو استقاموا على الطريقة ولكن صدق الله حيث يقول : "والذي خبث لا يخرج إلا نكدا"^(٦) .

لهذه الأسباب وغيرها جعل العرب يعيدون حساباتهم مع هذه الجماعات المتسلقة على أكتافهم، فدبروا بالاتفاق مع أحد ملوك غسان مكيدة لليهود، وقلبوا موازين الأمور لصالحهم لتصبح لهم الزعامة في المدينة^(٧) .

(١) هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى . ص ١١ (مرجع سابق) .

(٢) انظر الرحيق المختوم ص ٢٠٠ (مرجع سابق) .

(٣) ال عمران - ٧٥ - .

(٤) التحرير والتنوير . (مرجع سابق) ج ٣ ص ٢٨٨ .

(٥) انظر معركة الوجود بين القرآن والتمود ص ٤٠ . (مرجع سابق) .

(٦) الأعراف - ٥٨ - .

(٧) انظر الكامل في التاريخ . ج ١ ص ٤٠١ ، ٤٠٢ . (مرجع سابق) .

واليهود لا يختارون في إيجاد سبل خبيثة يؤنون بها غيرهم، فبدأوا يحيكون الدسائس والمؤامرات ويلقون الشحناء والعداوة بين القبائل العربية المجاورة لهم، ويغرون بعضهم ببعض ولو بكيد خفي^(١) وعرف العرب ذلك منهم، ولشدة مكرمهم وصفوهم بالثعالب، فهذا أحد أفراد قبيلة الأوس بعد انتصارهم في يوم بعاث يصرخ قائلاً "يامعشر الأوس أحسنوا ولا تهلكوا اخوانكم فجوارهم خير من جوار الثعالب"^(٢).

حتى بعد الإسلام يستمر حقدهم على ما جمع الله به بين الأوس والخزرج من ألفة ومحبة في الله فيحاول أحد رؤوس اليهود من المنافقين هو (شاس بن قيس) أن يثير فتنة قد خدمت بإثارة النعرات القديمة وتذكيرهم بحرب يوم بعاث^(٣) ولكن سلم الله وأخزاه وكتبته .

ولذلك أجلاهم الرسول صلى الله عليه وسلم من المدينة لا لأجل أنهم يهود وإنما لأنهم أهل غدر وخيانة، وغزوة الأحزاب شاهد على ذلك^(٤). ويمضون في معاملة الآخرين معاملة سيئة ينسبونها زوراً وبهتاناً إلى أنها من صميم ما أنزل عليهم من الله - والعياذ بالله - وهي مما اختلقوه وحرفوه^(٥). وفي السيرة تقرأ شاهداً على سوء أدبهم وأخلاقهم المرذولة، حيث دخلت امرأة سوق بني قينقاع فأمروها أن تكشف عن وجهها فأبى، وربط الصائغ الخبيث طرف ثوبها فلما قامت انكشفت عورتها^(٦) فهذه وإن كانت بجانب كباثرهم صغيرة، لكنها تكشف عن معدن هؤلاء وسوء تربيتهم ثم مدى تفاهتهم وحقارتهم .

فهم فاسدون مفسدون كما أخبر الله عنهم : "كلما اوقدوا ناراً للحرب أطفأها الله ويسعون في الأرض فساداً والله لا يحب المفسدين"^(٧).

(١) انظر المرجع السابق . ج ١ ص ٤٠١ ، ٤٠٢ .

(٢) المرجع السابق . ج ١ ص ٤١٨ .

(٣) انظر سيرة ابن هشام . ج ٢ ص ١٤٦ (مرجع سابق) .

(٤) انظر اليهود في القرآن . صلاح أبو اسماعيل . ص ٤ (مرجع سابق) .

(٥) انظر معركة الوجود بين القران والتلمود . ص ٣٧ (مرجع سابق) . وانظر تفسير ابن كثير . ج ١ ص ٥٦٠ .

(مرجع سابق) .

(٦) انظر السيرة النبوية - ابن كثير . ج ٣ ص ٦ (مرجع سابق) .

(٧) المائدة - ٦٤ - .

المسألة الثالثة :

الظروف الاجتماعية عند الفرس والروم

عاصر زمن الرسالة المحمدية، الفرس، والروم، وقد دعاهم صلى الله عليه وسلم إلى الإسلام بإيفاد مبعوثين يحملان رسالتين لزعيماهما، ولذلك سيعرض لأحوالهم الاجتماعية والاقتصادية بصورة مجملة .

كانت الروم وفارس لهما السيطرة السياسية على جميع من حولهما من الشعوب والبلدان، فمرورنا عليهما يغنينا عن التفريع لما دونهما، فهما يتحملان كبر ووزد مايجري آنذاك من أحوال في الشعوب التي تدور في فلكهم .

أما الفرس فكانت الدولة الساسانية هي الإله المعبود عند عامة الناس لامحبة لها ورغبة فيما عندها، ولكن بالقهر والقسر .

ويدل على ذلك أنه كان يطلق على الملك : ملك الملوك (شاهنشاه) ^(١) . ولترويض الشعب على قبول ذلك قسم الناس إلى أربع طبقات : طبقة رجال الدين، ومنهم الحكام ثم : طبقة رجال الحرب، يليهم : طبقة الكتاب، وفي الأخير طبقة الشعب. وكل قسم من هؤلاء ينقسم إلى أقسام أخرى، ولكل امتيازاته واختصاصاته ^(٢) .

وقصة المغيرة بن شعبة حينما ذهب إلى رستم، فأراد أن يجلس بجواره فمنعوه بالقوة وأنزلوه، فاستغرب واستهجن ذلك ثم قال : وكان أحسن من الذي صنعتم أن تخبروني أن بعضكم أرباب بعض ^(٣) ، وهذا شاهد قوي لذلك .

وشاهد آخر هو قيام أحد الأكاسرة بعزل رجال بطانته الذين يخالطون المستويات الدون. ويتوارث أبناء الطبقات العالية المناصب العامة، وللإقطاعيين امتيازات على غيرهم ^(٤) وتفتشت

(١) انظر إيران في عهد الساسانيين - آرثر كريسييتسن . ص ٨٥ . ترجمة : يحيى خشاب . دار النهضة العربية : بيروت .

(٢) انظر المرجع السابق . ص ٨٥ .

(٣) تاريخ الطبري . ج ٣ ص ٥٢٢ (مرجع سابق) .

وانظر تاريخ الطبري . ج ٢ ص ٦٤ (مرجع سابق) .

(٤) انظر المرجع السابق . ص ٩٣ - ٩٦ (مرجع سابق) .

فيهم عادات قبيحة وسيئة، من اعتداء على حرمان الناس واحتقارهم، ومنها ما يحكيه الطبري في تاريخه : "أن كسرى احتقر الناس واستخف بما لا يستخف به الملك الرشيد الحازم، وبلغ من عتوه وجرأته على الله أنه أمر رجلاً كان على حرس بابه الخاص، أن يقتل كل مقيد في سجن من سجون، فأحصوا، فبلغوا ستة وثلاثين ألفاً" (١) .

ويروي الطبري أيضاً أن رستم مر بجنوده على قرى في طريقهم إلى القادسية فغصب أصحابه الناس أموالهم، ووقعوا على النساء، وشربوا الخمر" (٢) .

أما امتهانهم للمرأة واحتقارهم لها فمذكور معروف فيهم، وبخاصة عندما ابتدع مزدك بدعته بشركة الناس بالاموال والنساء (٣) ، واستهتروا بذلك حتى ذكر أن لكسرى "في قصره ثلاثة آلاف امرأة يطؤون، وألوفاً من الجواري اتخذهن للخدمة والغناء، وغير ذلك" (٤) .

وهكذا سار الملوك خلف شهواتهم الحيوانية معرضين عن كل دواعي الخير، وسار الشعب خلف هؤلاء خوفاً من سطوتهم، وركضاً وراء احتياجاتهم الضرورية في حياتهم الدنيوية .

(١) تاريخ الطبري . ج ٢ ص ٢١٦ (مرجع سابق) .

(٢) نفس المرجع . ج ٢ ص ٥٠٨ .

(٣) انظر المرجع السابق ج ٢ ص ٩٢ ، ٩٣ .

(٤) المرجع السابق . ج ٢ ص ٢١٥ ، ٢١٦ .

الظروف الاجتماعية عند الرومان :

وينتقل الحديث إلى دراسة الأحوال في المناطق التي يحكمها الروم، وهم - بشكل مجمل - لم يكونوا أحسن حالاً من سابقهم فنظام الطبقات كان متفشياً^(١). وبلغ الانحلال الاجتماعي غايته في الدولة الرومية الشرقية، وعلى كثرة مصائب الرعية ازدادت الاتاوات. وتضاعفت الضرائب حتى أصبح أهل البلاد يتذمرون من الحكومات، ويمقتونها مقتاً شديداً^(٢). وكثرت الاضطرابات حتى هلك في عام واحد ثلاثون ألف شخص^(٣).

وذابت أسس الفضيلة وانهارت دعائم الأخلاق، حتى صار الناس يفضلون العزوبة على الحياة الزوجية ليقضوا مأربهم في حرية، وكان العدل يباع ويشترى مثل السلع، وكانت الرشوة والخيانة تنالان من الأمة التشجيع^(٤).

وما هو أحد كبرائهم يصف حالهم حينما سأل هرقل - متعجباً مندهشاً من انتصار المسلمين مع قلة عددهم وضعف عدتهم - عن أسباب انهزام الروم. فقال هذا الشيخ: "من أجل أننا نشرب الخمر ونزني، ونرتكب الحرام وننقض العهد، ونغتصب ونظلم. ونأمر بالسخط وننهى عما يرضي الله ونفسد في الأرض"^(٥).

ومصر تابعة للروم هي داخلة فيه تبعاً، ولكن لأهميتها وموقعها تذكر أحوالها عند الكثيرين لوحدها. يقول غوستان لويون عن حالة مصر آنذاك: "وكانت مصر التي أكلتها الانقسامات الدينية ونهكتها مظالم الحكام تحقد أشد الحقد على ساداتها، وكانت تعد من يحررونها من أيدي قياصرة القسطنطينية منقذين"^(٦) ويعلق الندوي على مراد الرومان من

(١) انظر مصر في عصر الرومان د. أمال محمد الراوي ص ٢٤٧ (دراسة سياسية اقتصادية اجتماعية في ضوء الوثائق التاريخية). دار البيان العربي. جدة.

(٢) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين - أبو الحسن الندوي ص ٤٠ دار القلم. الكويت.

(٣) انظر المرجع السابق. ص ٤٠.

(٤) المرجع نفسه ص ٤١.

(٥) البداية والنهاية ج ٧ ص ١٥ (مرجع سابق).

(٦) حضارة العرب. غوستان لويون. ترجمة عادل زعيتير ص ٢٠٨ مطبعة عيسى الباربي الحلبي وشركاه.

مصر فيقول - وقد اتخذها الروم شاة حلويأ يريدون أن يستنزفوا مواردها، ويمتصوا دمها-^(١) .

وصفوة القول أن الرومان كانوا في نصب وشقاء، شغلهم في تحصيل لقمة العيش، فأنى لهم أن يبحثوا عن المكرمات ويفكروا بعمق وصفاء ذهن في حقيقة ما يدينون له ! ؟ .
ولتفنن الرومان في إفساد المرأة واستعمالها لمأربهم الشهوانية انتشرت المسارح الخالعة ، ومسابقات النساء العاريات وراجت مهنة المومسات^(٢) .

فهذا يا أختي المسلمة ما يرومه أعدائك من محاولاتهم إخراجك من بيت العزة والكرامة، يريدون أن تخرجي عارية فتصبحي العوية بأيديهم؛ وببيدك يدمروا شباب الاسلام ؛ فاحذري وحاذري وقاك الله أن تقعي بالفخ .

(١) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين . ص ٤٣ (مرجع سابق) .

(٢) انظر الحجاب . أبو الأعلى المودودي . ص ٢٣ . الدار السعودية . جدة . ط : ٣ : ١٤٠٦ هـ .

المطلب الثالث

الظروف الاقتصادية وتتضمن مايلي :

- ١ - الظروف الاقتصادية عند العرب
- ٢ - الظروف الاقتصادية عند اليهود
- ٣ - الظروف الاقتصادية عند الفرس والرومان

الظروف الاقتصادية عند العرب

كل أمة من الأمم تسعى في أرض الله باحثة عن رزقها الموعود فابتغوا عند الله الرزق^(١) وأنواع الرزق كثيرة، وأسبابها متفاوتة، والأعمال مختلفة، يهديهم ويدلهم عليها خالقهم فيجدون حاجتهم مما يقدره الله لهم^(٢) "والله فضل بعضكم على بعض في الرزق"^(٣).
والعرب من هذه الأمم التي قدر لها أن تعيش في جزيرتها المتوحشة لمساحة صحاريها وقلة الزراعة فيها، ولذلك ذكَّروهم القرآن الكريم بفضل الله ومنه حيث أنعم الله عليهم بحرم آمن تأتيه الأرزاق من كل مكان : "أو لم نمكن لهم حرماً آمناً يجيبى إليه ثمرات كل شيء" (٢) "أي يجمع إليه ثمرات كل أرض وبلاد"^(٤).

والعرب لظروف البيئة لم يبرعوا في الزراعة، ولم تكن مصدر رزقهم الرئيس، ولكن الله عوضهم عنها بالتجارة وبرعوا فيها ، ولذلك يذكرهم جل ذكرهم بهذه النعمة لعلهم يذكرون "إيلافهم رحلة الشتاء والصيف"^(٥) ولهذا يذكر المفسرون أنهم قبلها كانوا في جوع شديد، بل لولاها لم يكن به مقام^(٦).

ولهذا كانت التجارة "من أهم أسباب معيشتهم لاسيما سكنة الحجاز ونجد وماشابهها من الأقطار المقحطة والبلاد القليلة الخصب"^(٧).

وكان الأشراف من قريش هم أهل التجارة،^(٨) وكان الرسول صلى الله عليه وسلم

(١) العنكبوت - ١٧ - .

(٢) انظر بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب. ج ٢ ص ٢٨٥ (مرجع سابق).

(٣) النحل - ٧١ - .

(٤) الجامع لأحكام القرآن. ج ٧ / ١٢ ص ٢٠٠ (مرجع سابق).

(٥) قريش - ٢ - .

(٦) انظر فتح القدير - (مرجع سابق) - ج ٥ ص ٤٩٨ .

وانظر زاد المسير في علم التفسير - ج ٩ ص ٢٢٩ (مرجع سابق).

(٧) بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب - ج ٢ ص ٢٨٥ (مرجع سابق).

(٨) أنظر السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة. ج ١ ص ٩٩ (مرجع سابق).

أحد الذين عملوا في التجارة حينما قاد حملة تجارية للسيدة خديجة -رضي الله عنها- قبل البعثة^(١). ولشدة ولعهم بها زاد تعلقهم بالمال واستعروا حتى كانوا يتفاخرون بذلك^(٢) ولهذا فإن من الأسباب التي دفعتهم إلى الصلوة وجدد الحق الذي جاء به - محمد صلى الله عليه وسلم - : "وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم"^(٣). يقولون لو كان ما جاء به محمد - صلى الله عليه وسلم - صحيحاً لنزل على أحد الكبراء^(٤).

أما البدو فكان اعتماد حياتهم على تربية الأنعام والانتجاع بها مساقط الغيث ومواطن الكلاء^(٥) وجاءت شواهد على ذلك في القرآن الكريم "على ما رزقهم من بهيمة الأنعام"^(٦) وفي سورة الأنعام فصل القرآن فيما يدل على مدى تعلقهم بها، وخرافاتهم فيها؛ فكانوا يأكلون لحومها، ويستفيدون من جلودها، وكان ثراؤهم بحسب ما يملكون من رؤوس هذه الأنعام^(٧). وهي قوله تعالى «وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام ...» حتى قوله «... سيجزيهم وصفهم إنه حكيم عليم»^(٨).

التعامل بالربا

وقد مر في هذا البحث بأن الله أنعم على العرب بتسهيل أمور تجارتهم في حلهم وترحالهم، وهياً لهم جهات مختلفة بحسب ما يناسب مناخ بيئتهم، الشتاء في الجنوب حيث الدفء، والصيف في الشمال : حيث المناخ البارد، فهل شكروا المنعم على ذلك ؟، لا بل بدلوا نعمة الله كفوفاً ؛ وأحلوا

(١) انظر الوفا في أحوال المصطفى . ج ١ ص ٢٣٥ . (مرجع سابق) .

(٢) انظر بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب . ج ٣ ص ٢٨٥ (مرجع سابق) .

(٣) الزخرف - ٢١ - .

(٤) انظر الجامع لأحكام القرآن . ج ١٦ ص ٨٢ (مرجع سابق) .

(٥) السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة . ج ١ ص ٩٠٨ (مرجع سابق) .

(٦) الحج - ٢٨ - .

(٧) انظر السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة ج ١ ص ٩٨ .

(٨) الأنعام الآيات ١٣٦ - ١٣٩ .

قومهم مصائب وآفات المال بوعلى رأس ذلك مرض الربا .

تفشى مرض الربا وانتشر بين العرب، ويشهد كتاب الله بذلك، حيث يقول تعالى : "يا أيها الذين آمنوا لاتاكلوا الربا أضعافاً مضاعفة .." (١) ينهى تعالى المؤمنين عن تعاطي الربا كما كان العرب في الجاهلية يقولون : "إذا حل أجل الدين إما أن تقضي وإما تربي، فإن قضاءه، وإلا زاد في المدة، وزاد الآخر في القدر، وهكذا كل عام فربما تضاعف القليل حتى يصير كثيراً مضاعفاً (٢) .

وكانت لهم معاملات كثيرة في البيوع منها ما أقره الإسلام ومنها ما عدله وهذبه (٣) .

وهذا الظلم في شؤون الاقتصاد مما يقرب موازين الأشياء بوضع القيم الإنسانية موضعاً نازلاً وتفضيل القيم المادية عليها، بل يمس بناء الجماعة مساً عنيفاً يخلخله، بحيث يجعل هوة كبيرة بين طبقات المجتمع، فيتحكم فئام من الناس برقاب عباد الله يزلونهم ويسومونهم سوء العذاب (٤) .

ولرواج التجارة وتوسعهم في شؤونها كانت لهم أسواق يجتمعون فيها شهور السنة وينتقلون من بعضها إلى بعض ويمر بها سائر العرب (٥) . ومن أشهرها عكاظ، ومجنة، وذبي المجاز، ودومة الجندل (٦) . وكانت فرصة ليعرضوا فيها مآثرهم ومفاخرهم فيتنافسوا في ذلك (٧) .

تلك هي أهم الجوانب في حياتهم الاقتصادية ولأن الرسالة المحمدية عالمية، ولكونه

(١) آل عمران - ١٢٠ - .

(٢) تفسير ابن كثير . ج ١ ص ٦٠٤ (مرجع سابق) .

(٣) انظر السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة . ج ١ ص ١٠٠ (مرجع سابق) .

(٤) انظر دراسات إسلامية في العلاقات الاجتماعية والنولية . د. محمد بن عبدالله براز ص ١٦٧، ١٦٨ . دار القلم الكويت ١٤٠٠هـ .

(٥) بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب . ج ١ ص ٢٦٤ (مرجع سابق) .

(٦) انظر المرجع السابق ج ١ ص ٢٦٤ - ٢٧٠ .

وانظر السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة . ج ١ ص ١٠٠ (مرجع سابق) .

(٧) انظر بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب ج ١ ص ٢٦٤ .

صلى الله عليه وسلم أرسل رسله بدعوات مباركة لمن حوله من الأتوام كاليهود والفرس،
والروم، وأهل مصر، لابد من تناول ظروفهم الاقتصادية أيضاً. فإلى ذلك :

الظروف الاقتصادية عند اليهود

حبا الله جماعات اليهود، بنعم مديدة عديدة، ولكنها كفرت وماشكرت، وعلى رسل الله والحق الذي جاءت به تكبرت، ففريقاً قتلت، وفريقاً كذبت .

ومن هذه النعم التي لاتحصى نعمة المال من ذهب وفضة ، وهي نعمة قديمة ، يشهد القرآن بذلك "والذين يكنزون الذهب والفضة"^(١) .

وكذلك بعد أن فتح الله خيبر وجد الرسول صلى الله عليه وسلم كنزاً عند رأس من رؤوسهم^(٢) . ولكثرة الذهب لديهم وبراعتهم فيه استثمروا ذلك، فكانوا يجيدون صياغته، فبعد إجلاء بني قينقاع يقول الطبري : "لم تكن لهم أرضون إنما كانوا صاغة، فأخذ منهم رسول الله صلى الله عليه وسلم سلاحاً كثيراً وآله صياغتهم"^(٣) . بل واشتهروا بذلك عند من هم حولهم من الناس فكان أعيان مكة يستعيرون الحلبي من اليهود في أيام أعراسهم^(٤) . ولكثرة غناهم يقول القرآن واعدأ المؤمنين بغنائم خيبر : "وعدكم الله مغانم كثيره تأخذونها"^(٥) . يذكر بعض المفسرين أنها مغانم خيبر^(٦) . ويؤكد هذا ماغنموه في خيبر من أموال كثيرة وثمار وأسلحة لاتحصى^(٧) .

بل ويذكر القرآن استغلالهم - والعياذ بالله - للدين لجمع الأموال من العامة ويتولى كبر هذه الجريمة أحبارهم ويرتشون في الأحكام"^(٨) . "إن كثيراً من الأحبار والرهبان

(١) التوبة - ٣٤ - ذكر بعض المفسرين أنها نزلت في أهل الكتاب أنظر الجامع لأحكام القرآن . ج ٤ / ٨ ص ١٢٣ (مرجع سابق) .

(٢) أنظر السيرة النبوية ابن كثير ج ٣ ص ٣٧٤ .

(٣) تاريخ الطبري . ج ٢ ص ٤٨١ (مرجع سابق) .

(٤) انظر السيرة الحلبية . ج ٢ ص ٧٤٦ .

(٥) الفتح - ٢٠ - .

(٦) انظر الجامع لأحكام القرآن . مرجع سابق ج ٨ / ١٦ ص ٢٧٨ .

(٧) انظر السيرة الحلبية . ج ٢ ص ٧٤٢ . (مرجع سابق) وانظر السيرة لابن كثير . ج ٣ ص ٢٧٦ . (مرجع سابق) .

(٨) انظر الجامع لأحكام القرآن . ج ١٢٢ ، ١٢٣ (مرجع سابق) .

ليأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله^(١) .
بل وأنكى من ذلك أنهم : يحرفون كلام الله من أجل المصالح والمكاسب المادية
الحقيرة^(٢) "فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمناً
قليلاً، فويل لهم مما كتبت بأيديهم وويل لهم مما يكسبون"^(٣) .
ولولعهم ولولوغهم في حب المال أحدثوا طرقاً كثيرة لجلبه وإن كانت غير مشروعة،
ولذا انتشر بينهم مرض الربا بل برعوا في تفنن سبله وأبوابه، وهم أساتذة هذا المرض
الفتاك، ويؤكد هذه الحقيقة كتاب الله الكريم فقد جاء عن ذلك : "وأخذهم الربا وقد نهوا عنه
وأكلهم أموال الناس بالباطل"^(٤) يقول ابن كثير رحمه الله : "أي أن الله قد نهاهم عن الربا
فتناولوه وأخذوه واحتالوا عليه بأنواع من الحيل وصنوف من الشبه وأكلوا أموال الناس
بالباطل"^(٥) ولهم نصيب لا بأس به في الصناعات اليدوية، على رأسها صناعة الأسلحة، التي أكلوا
منها، ففي قصة بين قينقاع حينما أجلاهم الرسول صلى الله عليه وسلم وجد المسلمون سلاحاً كثيراً^(٦) . وعند
فتح حصون خيبر وجدوا ذلك أيضاً ومن آلات الحرب التي وجدوها : دبابات، ومنجنيقاً، وبروعاً^(٧) .
وفي هذا إشارة إلى حرصهم على الدمار وقتل النفوس وإثارة الحروب بين الناس،
ولذا كانوا يمدون الفريقين الأوس والخزرج في الجاهلية بالأسلحة ليفني بعضهم بعضاً،
وما أشبه الليلة بالبارحة، وكان التاريخ يكرر نفسه، فتجار الأسلحة في هذا الزمان هم من
اليهود ومن عداهم فأذئاب لهم، وما الحربان العالميتان إلا نتاج من مؤامراتهم وتدبيرهم^(٨) .

(١) التوبة - ٣٤ - .

(٢) انظر فتح القدير . ج ١ ص ١٠٥ (مرجع سابق) .

(٣) البقرة - ٧٩ - .

(٤) النساء - ١٦٦ - .

(٥) تفسير ابن كثير . ج ص ٨٨٩ ، ٨٩٠ (مرجع سابق) .

(٦) انظر تاريخ الطبري . ج ص ٤٨١ (مرجع سابق) .

(٧) انظر السيرة الحلبية . ج ٢ ص ٧٤٢ . (المرجع السابق) .

(٨) انظر الأئمة اليهودية في معاقل الإسلام - عبدالله التل ص ٩ وص ٣١ المكتب الإسلامي (بيروت - دمشق) (وفي هذا
الكتاب من الأدلة الدامغة على أسنة اليهود أنفسهم وألسنة قادة كثير من الدول التي يسيطر فيها اليهود وعلاقتهم
بجميع الثورات التي قامت في العالم وأنهم المستفيدون الأول من ورائها فانظره) .

وقد كانوا يحرضون الكفار على المسلمين، ويكيدون للمؤمنين دائماً ويكل السبل واستمع الى مايقوله أحد هذه الأفاعي إلى مثيله "جئتك بقريش على قادتها وسادتها، بمجتمع الأسيال من رومة، وبغطفان على قادتها وسادتها حتى أنزلتهم بذنب نقي إلى جانب أحد، قد عاهدوني وعاهدوني على ألا يبرحوا حتى نستأصل محمداً ومن معه ^(١) وصدق الله حيث يقول : " كلما أوقدوا ناراً للحرب أطفاها الله ويسعون في الأرض فساداً والله لا يحب المفسدين" ^(٢) .

وزيادة على ذلك كانوا أهل زراعة، برعوا فيها، واستثمروها أوفر استثمار. ويدل على ذلك أن الرسول صلى الله عليه وسلم وصحبه الكرام رضوان الله عليهم حينما صبحوا أهل خيبر "خرجت اليهود بمساحيهم ومكاتهم" ^(٣) . وهذا يدل على تمكنهم من الزراعة، وكانهم جميعاً مزارعون. ولذلك قال أهل خيبر للرسول (صلى الله عليه وسلم) بعد أن نزلوا على حكم الله ورسوله "نحن أعلم بها منكم وأمر لها" ^(٤) .

وفي البخاري : أعطى النبي خيبر لليهود أن يعملوها ويزرعوها ولهم شطر ما يخرج منها ^(٥) . ومن خيرات هذه الزراعة ينتج التمر الكثير والطيب، ولذلك تقول أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها حينما فتحت جبير "الآن نشبع من التمر" ^(٦) يقول ابن حجر : "أي لكثرة ما فيها من النخيل" ^(٧) .

وصفوة القول أن اليهود يسر الله لهم سبل العيش الوفير ومنحهم القدرة على كسب المال من مصادره المعروفة : (الزراعة، والصناعة، والتجارة) .

(١) السيرة لابن كثير . ج ٢ ص ١٩٨ . (مرجع سابق) القائل هو يحيى بن أخطب لكعب بن أسد القرظي .

(٢) المائة - ٦٤ - .

(٣) صحيح البخاري مع الفتح ج ٧ ص ٤٦٧ .

(٤) السيرة لابن كثير ج ٢ ص ٣٧٥ .

(٥) صحيح البخاري مع الفتح ج ٧ ص ٤٩٦ .

(٦) نفس المرجع السابق ج ٧ ص ٤٩٥ .

(٧) فتح الباري . (مرجع سابق) ج ٧ ص ٤٩٥ .

الظروف الاقتصادية عند الفرس والروم

سبقت الإشارة في المبحث السابق إلى عيشة الضنك والضييق والشدة، التي يعيشها الشعب في ظل هاتين الحكومتين، وهذا مرتبط بذلك حيث يمكن تناول الظروف الاقتصادية هنا .

كان المجوس في فارس يعتمدون في اقتصادهم على كدح شعوبهم بالدرجة الأولى، ولذا قننوا الضرائب على عامة الناس، أما الطبقات العليا فلم يكن عليها ضرائب، وكذلك دخل الجمارك فإنه مورد من موارد الدخل^(١) .

ويعتمدون أيضاً على التجارة البحرية وغيرها من أنواع التجارة المتبادلة بينهم وبين بعض الدول المجاورة والمنافسة لهم كالروم والصين^(٢) .

والزراعة مورد هام كذلك تجلب لهم ربحاً كبيراً ولكنهم أسرفوا في أذية المزارعين ، فكان الملوك يقاسمون المزارعين محصولاتهم على نسب تتراوح بين السدس والثث^(٣) ولم يكن لتبذيرهم وإسرافهم حد، بل تجاوزوا كل الحدود واستهتروا في صرف الأموال، لم يردهم في ذلك وازع من دين، ولارحمة بإنسان، فالكبراء يعيشون في رفاهية ورغد عيش وماسواهم لا يستحق سوى الجوع والذل والمهانة . ومن الشواهد على ذلك ماورد في قصص التاريخ أيام الفتوحات الإسلامية من مبالغة في لباس القادة ومكان إقامتهم حتى في الحروب . ومن تلك القصص ماشاهده رسول جيش المسلمين إلى الفرس قبل حرب القادسية حينما أدخل على القائد فإذا البسط قد وضعت له، والنمارق وسرير الذهب، وألبس زينته من الأنماط والوسائد المنسوجة بالذهب^(٤) فهذا قائد، وفي مقام حرب يعمل له ذلك، فما

(١) انظر الطريق إلى المدائن . أحمد عادل كمال . ص ١٢٣ .

(٢) انظر إيران في عهد الساسانيين . ص ١١١ (مرجع سابق) .

وانظر قادة فتح فارس . محمود شيت خطاب ص ٢٥ ، ٢٦ دار الفكر (ط : ٢) .

(٣) انظر الطريق إلى المدائن . ص ١٢٣ (مرجع سابق) .

(٤) انظر تاريخ الطبري . ج ٢ ص ٥١٩ (مرجع سابق) .

بالك في محل إقامته الدائمة، كيف يكون؟ وكيف تكون حال الأكاسرة وهم أعلى منه؟
ويذكر الطبري - رحمه الله - أن رجلاً من المسلمين قتل رستمًا فيصيبه الماء، ولم
يظفر بقلنسوته التي يقدر ثمنها بمائة ألف^(١). ويأخذ أحد المسلمين علم الفرس، وكانت
قيمتها ألف ومائتي ألف^(٢) ويوزل هذا الاستغراب والاندھاش من هذا الترف والبذخ إذا
تذكرنا أن موارد البلاد كلها حكر على هؤلاء الملوك وحواشيهم^(٣). ولشربهم وحرصهم
على جمع الأموال، ومبلغ طمعهم يذكر التاريخ أن أحد الأكاسرة: قد طغى لكثرة ما قد
جمع من الأموال، وأنواع الجواهر والأمتعة^(٤). وشربه شرها فاسداً، وحسد الناس على
ما في أيديهم من الأموال، وكلف عجباً من العلوج جباية الأموال، فسام الناس سوء
العذاب، وظلمهم، واعتدى عليهم وغصبهم أموالهم، وضيق عليهم المعاش^(٥).
ووالآن ينتقل الحديث إلى الروم في الشمال، فهم لم يكونوا أحسن حالاً من
سابقهم، فقد اعتمدوا على الضرائب وأثقلوا بها كواهل الشعب المقلوب على أمره،
وتتضاعف هذه الضريبة كلما احتاجت الحكومة إلى الأموال^(٦).
ففي الشام كان يقضي على الشعب الشامي أن يؤدي الجزية، وعشر غلاته. إتاوة
من المال، ورسماً على كل رأس، وللشعب الروماني موارد مهمة من الجمارك والمناجم
والضرائب والحقول الصالحة للزراعة^(٧) وكل هذا يسلب ويؤخذ من الشعب، ومع ذلك
يباعون كما يباع الرقيق^(٨).

(١) نفس المرجع السابق . ج ٢ ص ٣٣٥ .

(٢) نفس المرجع ج ٢ ص ٣٣٦ ، ٣٣٥ .

(٣) انظر السيرة النبوية . أبو الحسن الندوي . دار الشروق ط : ٨ .

(٤) تاريخ الطبري . ج ٢ ص ٢١٥ (مرجع سابق) .

(٥) نفس المرجع السابق ج ٢ ص ٢١٥ .

(٦) انظر اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها . أنوار جيسبون ص ٢٩٨ . دار الكتاب العربي .

ترجمة : لويس إسكندر .

(٧) انظر خطط الشام . محمد كرد علي ج ١ ص ٦٥ . دار العلم للملايين . بيروت ١٣٨٩ هـ .

(٨) نفس المرجع السابق . ج ١ ص ٦٥ .

يتضح مما سبق أن الزراعة واستخراج المعادن كانا مصدرين من مصادر الدخل، ومع ذلك يصر الحكام على قهر الشعوب واستدراهم مما في أيديهم قسراً ويطرق شتى . فكما كان ملوك فارس يسومون الناس سوء العذاب كان حكم الرومان في بلاد الشام حكماً متطاولاً، فرض فيه الحكام على أهل الشام كثيراً من الضرائب والمكوس وشرعوا يأخذون ما بأيدي الناس ظلماً وعدواناً ليوفروا مطالب الترف الذي انغمسوا فيه، وصار الضعيف لقمة سائغة للقوي، حتى استولى الذعر على الناس وانتابهم الخوف، وحل بهم الفقر، فصاروا عبيداً يوجهون حيث يريد الحكام^(١) . ولا أدل على ذلك من أن المزارعين كانوا يتنازلون عن أراضيهم للكبراء بطواعيتهم بل ويرجون منهم أن يأخذوها حيث لافائدة تجنى من ورائها وليحتموا بحماية الكبير الذي يتنازلون له عن ممتلكاتهم^(٢) . هكذا كان الناس يعيشون في ظل أرباب السلطان والجاه. حقوق تنتهب وأموال تغتصب وويل لمن يفضب، بل عليه أن يقدم فروض الولاء والطاعة بلا سؤال ولادليل ولابرهان، ولسان حال هؤلاء الطغاة هو ما قاله فرعون لمن تبعه من قومه فأهلكهم : "ما أريكم إلا ما أرى وما أهديكم إلا سبيل الرشاد"^(٣) .

(١) تاريخ فتوح الشام محمد بن عبدالله الأزدي. تحقيق : عبدالمنعم عامر . من المقدمة. مؤسسة سجل العرب. ب : ت .

(٢) انظر مصر من الإسكندر الأكبر إلى الفتح العربي . د . مصطفى العبادي . من مكتبة الانجلو المصرية .

القاهرة ب : ت

(٣) غافر - ٢٩ - .

الفصل الثاني

دوافع الإنكار ويحتوي على :

توطئة والمباحث التالية

دافع الكبر	:	المبحث الأول
دافع الغرور	:	المبحث الثاني
دافع الحسد	:	المبحث الثالث
دافع الخوف	:	المبحث الرابع
دافع التقليد الأعمى	:	المبحث الخامس

التوطئة

وتشتمل على : مسألتين هما :
المسألة الأولى : تعريف " دوافع الإنكار "
المسألة الثانية : حصر دوافع الإنكار

المسألة الأولى : تعريف " دوافع الإنكار "

أولاً : تعريف الدافع :

بالعودة إلى قواميس اللغة العربية في مادة "دفع" يجد المطلع معاني كثيرة متغايرة ومتشابهة.

ومن هنا على سبيل المثال : المحاماة والانتصار، ودفع اللبن، والتسوية، والمماطلة، ودفع الشر، والولوع والانهماك بالأمر، إلى غير ذلك من المعاني^(١)

ولعل الناظر في المعاني السابقة يلحظ بعدها عن المعنى الذي هو لب هذا البحث.

وبعد التمهيد وتكرار المطالعة للمعاني اللغوية في مظانها وقع الاختيار على المعاني التالية لقربها من المعنى الذي تجري الدراسة تحته وهي :

يقال : طريق يدفع إلى مكان كذا : ينتهي إليه، ودوافع هذا البحث توصل إلى نهاية.

ودفعه إلى كذا : اضطره، وفي الحقيقة أن دوافع الإنكار اضطرت أصحابها إلى اختيار سبل الشر عياداً بالله.

ودفع عن الموضع : رحل عنه، وعلاقة هذا بموضوع البحث واضحة حيث إن دوافع

الإنكار نقلت أصحابها من النور إلى الظلمات^(٢). وجاء في لسان العرب :

الدوافع أسافل الميث، حيث تدفع في الأودية، أسفل كل ميثاء دافعه. وقال الأصمعي:

الدوافع مدافع الماء إلى الميث، والميث تدفع إلى الوادي الأعظم، والدافعة : التلعة من مسایل الماء تدفع إلى تلعة أخرى^(٣).

وهذا الاستعمال الحسي في أصل اللفظ للكلمة قد يخرج عنه إلى المعاني

كما هنا مجازاً.

(١) انظر لسان العرب. مادة : دفع . وانظر المعجم الوسيط . مادة : دفع، وانظر القاموس المحيط. مادة : دفعه. وانظر

تاج العروس. فصل الدال من باب العين . مادة : دفع . (وهي مراجع سابقة).

(٢) انظر لسان العرب. مادة : دفع . وانظر المعجم الوسيط . مادة : دفع، وانظر القاموس المحيط. مادة : دفعه. وانظر

تاج العروس. فصل الدال من باب العين. مادة : دفع .

(٣) انظر لسان العرب. (مراجع سابق) مادة : دفع .

ومن المعاني اللغوية أيضاً أن الدافع : التنحية والإزالة بقوة^(١)، ودوافع هذا البحث قد نقلت أقواماً وهبهم الله نعمة الإدراك والمعرفة، بل وأرسل رسله وأنزل كتبه عوناً لهم على الهداية ومع ذلك تنكبوا الصراط.

ثانياً : تعريف الإنكار :

للإنكار في كتب اللغة معانٍ كثيرة، ولكنها متوافقة بمعنى أنها تؤدي إلى معنى واحد.

فتجد من المعاني : الجحود، والمحاربة، نقيض المعرفة،^(٢) وفي القاموس المحيط :
"التنكر : التغير عن حال تسرك إلى حال تكرهها"^(٣).

والإنكار : ضد العرفان، يقول الراغب : "يقال : أنكرت كذا ونكرت وأصله يرد على القلب ما لا يتصوره، وذلك ضرب من الجهل، وعلى ذلك قوله تعالى "يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها"^(٤).

وعلماء الشريعة لا يبعدون بالمعنى، فهم يوافقون اللغويين فتجد الإنكار بمعنى الجحود^(٥)

وصفوة القول : إن معنى كلمة الدافع في اللغة مفرداً قد لا يكون واضحاً لدى كثير من الناس، ولكن إذا عرفت مركبة مع الإنكار قد يزول الغموض وهذا يفيد من حيث أنه يمكن القول كذلك : دوافع الإجابة، كما يقال : دوافع الإنكار. وفي محاولة استخلاص تعريف مركب يوافق موضوع هذا البحث أقول : إن دوافع الإنكار هي : "ما يضطر الإنسان إلى جحود الحق ورده ومحاربتة".

(١) انظر المرجع السابق نفسه. مادة : دفع.

(٢) انظر لسان العرب. (مرجع سابق) مادة : نكر.

(٣) القاموس المحيط. (مرجع سابق) مادة : نكر.

(٤) المفردات في غريب القرآن. (مرجع سابق) مادة : نكر.

(٥) انظر زاد المسير في علم التفسير. (مرجع سابق) ج ٥ ص ٢٥٦.

الدافع في الدراسات النفسية والاجتماعية :

في الدراسات النفسية والاجتماعية تعريفات ومفاهيم عديدة للدافع، ومنها أنه: "حالة داخلية تنتج عن حاجة ما، وتعمل هذه الحالة على تنشيط أو استثارة السلوك الموجه عادة نحو تحقيق الحاجة المنشطة"^(١).

وهو "قوى موروثة لاعقلانية، تجبر السلوك على اتجاه معين"^(٢)

أو "هو المنبه الذي يحفز الكائن الحي على السلوك والحركة لنيل أهدافه وغاياته"^(٣). وجاء في أحد قواميس علم الاجتماع "الدافع : باعث على الفعل (السلوك) بطريقة معينة"^(٤) ويستطرد بأنه "الدافع الأكثر توجيهاً نحو الهدف من الباعث أو الحاجة"^(٥).

ويزيد الأمر بسطاً الدكتور مصطفى فهمي فيقول "نستخدم كلمة دافع في الحياة الجارية بمعان أشمل وأوسع من معناها السيكلوجي الخاص، فتشمل بذلك الحاجات والحوافز والمثيرات والبواعث والعادات والأهداف والإنفعالات... الخ"^(٦) ثم يقول : "إن المدلول الحرفي لكلمة (دافع) يتضمن كل ما سبق من حيث إنه يتضمن معنى التحريك أو الدفع"^(٧) هذا من ناحية المدلول العام، أما من ناحية المعنى السيكلوجي الخاص فهي، تستعمل للدلالة على فكرة تستخدم لتوضح بأن سلوك الكائن الحي يتوقف في تغييره على تعرضه لعمليات معينة"^(٨).

وخلاصة القول : إن المعنى العام لما ذكر هو المراد في هذا المقام وليس المعنى النفسي.

(١) مدخل علم النفس. لنوال. وآخرون. ص ٤٣١-٤٣٢. ترجمة : د. سيد الطواب و د. نجيب خزام. دار المريخ. الرياض. ط ٢.

(٢) المرجع السابق نفسه ص ٤٣١.

(٣) معجم علم الاجتماع. البروفسور/ وينكن ميشيل. ترجمة : د. إحسان محمد الحسن ص ٢١٠. منشورات وزارة الثقافة والإعلام-العراق. دار الرشيد للنشر.

(٤) قاموس علم الاجتماع. حرره وراجعته : د. محمد عاطف غيث ص ٢٩٥. الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٩م.

(٥) نفس المرجع السابق ص ٢٩٥.

(٦) الدوافع النفسية. د. مصطفى فهمي. ص ٣٩. مكتبة مصر. القاهرة.

(٧) المرجع السابق نفسه ص ١٣٩.

(٨) انظر المرجع السابق. ص ٣٩.

وهناك ألفاظ متشابهة وتتداخل مع معنى الدافع، وقد مرت إشارة إلى هذا، منها والدوافع في واقع الأمر مصطلح عام وشامل، فتحتوي اللغة على ألفاظ أخرى، قد تحمل معنى الدافع من بين هذه المصطلحات : الباعث، والحافز، والحاجة، وبعض هذه الألفاظ يكاد يكون مرادفاً للآخر^(١) .

بل يتعدى ذلك لديهم بحيث يصبح الانفعال في بعض الحالات دافعاً قوياً يحرك الإنسان ويدفعه إلى القيام بسلوك معين^(٢)

ولعل منشأ هذا الإشكال أن هذه الحالات-مع العواطف ومصطلحات أخرى-يجمعها أن مصدرها من الوجدان.^(٣)

وهل هذا وحده هو الإشكال لدى هؤلاء ؟

يرى د. محمد عبدالله عفيفي-أثناء محاولته تحديد مفهوم للبواعث والغايات الأخلاقية-أن هناك صعوبة في التفريق بين هذه الأمور^(٤)، إلى أن قال : ونرى في الحقيقة أنه طالما أننا نتحدث عن الدوافع، والبواعث والغايات الخلقية، فالفصل التام بينهما يبدو أمراً عسيراً، إذ هما في الغالب متداخلان، وذلك لارتباطهما بالجوانب النفسية والشعورية والعقلية للإنسان، ومن ثم تجد كلاً من علماء الأخلاق، وعلماء النفس، وعلماء الاجتماع، يقرون بصعوبة الفصل التام بين هذه الجوانب^(٥) .

وصفوة القول : إن المفهوم الذي يجمع بين الدوافع في هذا البحث والدوافع لدى علماء النفس في التعريفات هو : ما هية التحريك والدفع^(٦) .

(١) علم النفس المعاصر. د. محمد محمود محمد. ص ١٢٤. دار الشروق.

(٢) انظر الدوافع النفسية. (مرجع سابق) ص ٩٤.

(٣) استفتت أصل هذه المعلومة من د. صالح اللحيدان عضو قسم علم النفس بكلية العلوم الاجتماعية - بالرياض - جامعة الإمام في زيارة علمية له بمكتبه. يوم الاثنين الموافق ١٩/١٢/١٤١١هـ.

(٤) انظر النظرية الخلقية عند ابن تيمية. د. محمد عبدالله عفيفي. ص ٣٢٣. مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية. ط ١: (١٤٠٨ هـ).

(٥) نفس المرجع السابق. ص ٣٢٣.

(٦) يشير الباحث بهذا إلى أنه لا يعتمد على الدراسات النفسية ولكنه يستعين بها في بحثه عن الدوافع .

المسألة الثانية :

كيف يمكن حصر دوافع الإنكار ؟

هذا الإنسان مخلوق عجيب بما وهبه الله من نعم ظاهرة وباطنة، وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة^(١) وهو عجيب بما أن أمد الله عليه من فروق في الخلق والخلق والتي نتج عنها اختلاف البشر في استقبال الدعوات الحقّة، فمنهم المسارع لها ولنصرتها، ومنهم الجاحد المناوئ لها بكل ما أوتي من جهد، فهذا يقبل إليها مستبشراً ومبشراً، وذاك يدبر نافراً ومنفراً، ترى لماذا ؟ ما السر في ذلك ؟

يقرر د. سيد محمد الشنقيطي أن السبب الحقيقي لذلك في الحقيقة هو من مكونات النفوس التي لا يعلمها إلا خالق النفوس جل وعلا، وما عدا ذلك ما هو إلا ظن وتخمين يحتاج إلى برهان من الله^(٢).

فهل يعني هذا الكف عن البحث عن الأسباب التي دفعت المنكرين لاجود الدعوة ؟ لا يقصد د. سيد هذا المعنى بلاشك، وهو يجيب عن السؤال الذي لزم من كلامه هذا فيقول : "ماتكُنُ الصدور مما لا يعلمه إلا الله سبحانه وتعالى، وقد مدح الله نفسه بعلمه له" وإن ربك ليعلم ما تُكِنُّ صدورهم وما يعلنون" يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور" ولا منافاة بين هذه الحقيقة وما قد تظهره أعراض جسدية أو تصرفات سلوكية إذ لا يعدو العلم بها أن يكون ضرباً من التخمين أو التقدير. ولا سبيل للقطع والجزم إلا من طريق الوحي، ولهذا جاءت أحكام الإسلام مبنية على الظاهر"^(٣)

فزيدة مراده الاستناد إلى دليل من الدليل "الا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير"^(٤) أنتم أعلم أم الله"^(٥) ومستنده قول الله تعالى : "قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين"^(٦) هل عندكم من علم

(١) لقمان - ٢٠ - .

(٢) انظر وظيفة الإخبار في سورة الأنعام. ص ٢٤٩. (مرجع سابق).

(٣) المرجع السابق. ص ٢٦٠ .

(٤) الملك - ١٤ -

(٥) البقرة - ١٤٠ - .

(٦) البقرة - ١١١ - .

فتخرجه لنا^(١)

فالإنسان قاصر، وما يأتي منه قاصر وناقص، وما يصل إليه أياً كانت الأدوات المتاحة له فهو حقائق غير نهائية ولا قاطعة، وهي مفيدة بحدود تجاربه وظروف هذه التجارب وأدواتها^(٢) ويقول سيد قطب -رحمه الله : "وهذا لا يعني أن لا تنتفع بما يكشفه العلم من نظريات وحقائق عن الكون والحياة والإنسان في فهم القرآن. كلا؛ إن هذا ليس هو الذي عنينا، ولقد قال سبحانه سنريهم آياتنا في الآفاق. وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق" ومن مقتضى هذه الإشارة أن نظل نتدبر كل ما يكشف العلم في الإنسان، وفي الأنفس من آيات الله. وأن نوسع بما يكشفه مدى المدلولات القرآنية في تصورنا^(٣).

لذا يجب دراسة الإنسان دراسة شاملة تسبق كل بحث في الإنسان، وهذه الدراسة الشاملة لن تعوق الدراسة التفصيلية، ولن تفسد حريتها في التقصي والبحث، بل إنها في الواقع ستثير لها الطريق خاصة إذا كانت فيما يتعلق بنفس هذا الإنسان التي هي ميدان الدعوة الأول، والله هو القادر تعالى وحده على أن يحدثنا بأمر الغيب الذي لم يشهده أحد من بني الإنسان^(٤)

ولا أحد أولى من الانسان بهذا الاهتمام، وهو مناط التكليف الإلهي والخلافة في الأرض "إني جاعل في الأرض خليفة"^(٥).

ومن أهم الموضوعات التي يجب أن تعرف وتراعى حقائقها، موضوع محركات السلوك ودوافعه ومعرفة الحوافز، وذلك أن سلوك الإنسان سلوك غرضي تحركه دوافع، ويحقق غرضاً أو أغراضاً له^(٦) فلا بد من بذل الجهد المخلص الدؤوب لتهديب هذه الدوافع وتطويعها لتصل إلى الغاية التي خلقها الله من أجلها.

(١) الأنعام - ١٤٨ - .

(٢) في ظلال القرآن. ج ١ ص ١٨٢ .

(٣) المرجع السابق نفسه. ج ١ ص ١٨٢ .

(٤) انظر دراسات في النفس الإنسانية. ص ٢٧، ٢٩. (مرجع سابق).

(٥) البقرة - ٣٠ - .

(٦) انظر مدخل إلى التربية في ضوء الإسلام. عبدالرحمن الباني. ص ٤٢. المكتب الإسلامي ط: ٢ .

ولعل فيما مضى مفتاحاً يفتح طريقاً يسلكه الباحثون للغوص في حقيقة هذا الإنسان مستنيرين ومهتدين بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، ولكن كيف يبحث عن ذلك في القرآن الكريم ؟

يقول صاحب المنار : "أجمل القرآن الكلام عن الأمم وعن السنن الإلهية وعن آياته في السموات والأرض، وفي الآفاق والأنفس، وهو إجماله صادر عن أحاط بكل شيء علماً، وأمرنا بالنظر والتفكير والسير في الأرض لفهم إجمال بالتفصيل الذي يزيدنا إرتقاءً وكماً، ولو اكتفينا من علم الكون بنظرة في ظاهره لكنا كمن يعتبر الكتاب - بلون جلده، لا بما حواه من علم وحكمة" (١)

إذن على الإنسان أن يشمر عن ساعد الجد والنشاط، ويغوص في كتاب الله بنظرة فاحصة ثاقبة ليستفيد من دلالة فلا يقف عند اللفظ دون الغوص وراء المعنى، فكيف تحدث القرآن عن الإنسان ؟

"إن مادة القرآن التي يعمل فيها هي الإنسان ذاته : تصوره، واعتقاده، ومشاعره، ومفهوماته، وسلوكه، وأعماله، وروابطه، وعلاقاته" (٢) فالقرآن حينما يتحدث عن الإنسان يذكره في غاية الحمد وفي غاية الذم، وقد يكون هذا في آية واحدة (٣)، والله الذي خلق البشر أوجد بينهم فوارق في أمور عديدة منها الأخلاق ونزعاتها وأصولها. يقول تعالى : "في أي صورة ماشاء ركبك". يذكر ابن الجوزي من الأقوال في تفسير هذه الآية : "إن شاء في صورة إنسان بأفعال الخير. وإن شاء في صورة حمار بالبلادة والبله، وإن شاء في صورة كلب بالبخل، أو خنزير بالشرة، ذكره الثعلبي" (٤)

ويقول سيد قطب : "إن الفوارق أصيلة، في طبيعة الكون وفي طبيعة النفس، واختلاف طباع الناس، واختلاف استقبالهم لدعوة الله، أصيلة أصالة الفوارق الكونية في البصر

(١) تفسير المنار - (مرجع سابق) ج ١ ص (٢٢).

(٢) في ظلال القرآن. مرجع سابق ج ١ ص ١٨١.

(٣) انظر الإنسان في القرآن. عباس محمود العقاد. ص ١٠ دار النهضة مصر - القاهرة . ب : ت .

(٤) زاد المسير في علم التفسير. (مرجع سابق) ج ٩ ص ٤٨ بدون رقم للطبعة، وتاريخ.

والعمى، والظل والحرور، والظلمات والنور، والحياة والموت، ووراء ذلك كله تقدير الله وحكمته وقدرته على ما يشاء^(١) يؤكد هذا ماجاء في الحديث عنه صلى الله عليه وسلم "إن الله تعالى خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض، فجاء بنو آدم على قدر الأرض، جاء منهم الأحمر، والأبيض، والأسود، وبين ذلك، والسهل، والحزن، والخبيث، والطيب، وبين ذلك"^(٢) وهم لطبيعتهم هذه يختلفون في موقفهم من دعوة الحق وسبل الخير ومن الشر ودروبه.

وموقف الناس من دعوة الإسلام زمن الرسالة المحمدية برهان واضح على ذلك، فهذا أبو بكر رضى الله عنه يقبل الدعوة بلا تردد وبلا روية وإعاده نظر، وهذا أبوجهل لعنه الله يجحد، ويعادي، ويصد عن سبيل الله، بل انظر موقف النجاشي رحمه الله، وموقف كسرى الأحمق، وهناك موقف من نوع آخر موقف هرقل والمقوقس^(٣)، ألا يدعو هذا إلى التعجب؟ ألا يدل على مبلغ اختلاف طباع الناس؟ وصدق الله حيث يقول: "إن سعيكم لشتى"، يقول القرطبي "وقيل: أي لمختلف الأخلاق" فمنكم راحم وقاس، حليم وطائش، جواد وبخيل، وشبه ذلك"^(٤).

"إن سعيكم لشتى مختلف في حقيقته، مختلف في بواعثه، مختلف في اتجاهه، في نتائجه، والناس في هذه الأرض تختلف طبائعهم وتختلف مشاربيهم، وتختلف تصوراتهم، وتختلف اهتماماتهم، حتى لكان كل واحد منهم عالم خاص يعيش في كوكب خاص"^(٥).

وفي السنة المشرفة قصة زيارة إبراهيم عليه السلام لزوجتي ابنه إسماعيل (عليه السلام)، فيسألها عن عيشهم وهيئتهم، فتجيبه الأولى قائلة: "نحن بشر، نحن بضيق وشدة، فشكت إليه". وتجيبه الثانية: "نحن بخير وسعة وأثنت على الله"^(٦).

سبحان الخلاق العليم! سؤال واحد، وحال واحدة، والأجوبة متفاوتة لأنها صادرة من

(١) في ظلال القرآن. مرجع سابق. ج ٥ ص ٢٩٤٠.

(٢) صحيح الجامع الصغير. مرجع سابق. ج ٢ ص ١٠٩ الحديث رقم (١٧٥٥).

(٣) انظر سيرة بن كثير. مرجع سابق. ج ١ ص ٤٢٢. وانظر البداية، والنهاية ج ٢ ص ٥٩.

(٤) الجامع لأحكام القرآن. مرجع سابق. ج ٢٠/١٠ ص ٨٢.

(٥) في ظلال القرآن. مرجع سابق. ج ٦ ص ٣٩٢٢.

(٦) انظر صحيح البخاري مع الفتح. ك/الأنبياء. باب (يزقون: النسلان في المشي) ج ٦ ص ٣٩٧.

خلقين متغايرين، فالخلقُ يختلف في أصله، ولذا يقول صلى الله عليه وسلم، مؤكداً هذه الحقيقة : تجدون الناس معادن، خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا،^(١) يقول ابن حجر رحمه الله : "أي أصولاً مختلفة، والمعادن جمع معدن وهو الشيء المستقر في الأرض، فتارة يكون نفيساً، وتارة يكون خسيساً، وكذلك الناس"^(٢)، ويؤكد القرآن الكريم هذه الحقيقة حيث يشير في غير موضع إلى وجود الفروق بين الناس في استعداداتهم، وقدراتهم البدنية، والنفسية، والعقلية^(٣)، ومن ذلك قوله تعالى : وهو الذي جعلكم خلانف الأرض، ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم في ما آتاكم^(٤) يقول ابن كثير : "أي فاوت بينكم في الأرزاق والأخلاق، والمحاسن والمسائى، والمناظر والأشكال، والألوان، وله الحكمة في ذلك"^(٥) .

وبعد أن اتضحت هذه الحقيقة وهي وجود هذه الفروق الخلقية بين الناس ويرد هنا سؤال : هل هذه الدوافع غريزية أم مكتسبة؟ وهو سؤال قديم جديد، ذكر ذلك القاضي عياض وابن حجر^(٦) ، حيث يرى بعضهم أن هذه الدوافع جبلية في العبد^(٧)، ويستدلون بأدلة منها قول عمر رضي الله عنه :- "إن الشجاعة والجبن غرائز تكون في الرجال"^(٨) .

ويقرر ابن حجر بذلك أن منها ما هو جبلي ومنها ما هو مكتسب^(٩) ويستدل بحديث أشج عبد القيس. قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم : إن فيك خلقين يحبهما الله : الحلم والأناة. قال : يارسول الله أنا أتخلق بهما أم الله جبلني عليهما؟ قال : بل الله جبلك

(١) صحيح البخاري مع الفتح. ك المناقب. باب (قوله تعالى : يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ...) ج ٦ ص ٥٢٥ .

(٢) فتح الباري، مرجع سابق ج ٦ ص ٥٢٩ .

(٣) انظر القرآن وعلم النفس. د. محمد عثمان نجاتي. ص ٢٢٢. دار الشروق. (ط : ٤) ١٤٠٩ هـ.

(٤) الأنعام - ١٦٥ - .

(٥) تفسير ابن كثير. ج ٢ ص ٣٢٠. (مرجع سابق) .

(٦) انظر الشفا بتعريف حقوق المصطفى. القاضي عياض بن موسى اليعصبى. ص ٧٧. مكتبة دار التراث

القاهرة ب : ت .

(٧) انظر الشفا بتعريف حقوق المصطفى. ص ٧٧. وانظر فتح الباري ج ١٠ ص ٤٥٩، وانظر شرح النووي على صحيح

مسلم. ج ١٦ ص ١٧٧. (وفي مراجع سابقة) .

(٨) تاريخ عمر. ص ٢٢١ (مرجع سابق).

(٩) انظر فتح الباري. ج ١٠ ص ٤٥٩ .

عليهما . قال : الحمد لله الذي جبلني على خلقين يحبهما الله ورسوله^(١) فيقول ابن حجر : "فترديد السؤال وتقريره عليه . يشعر بأن في الخلق ما هو جبلي، وما هو مكتسب"،^(٢) ويستثني القاضي عياض من ذلك الأنبياء عليهم السلام، حيث يرى أنهم يطبعون على الأخلاق الحميدة في أصل جبلتهم.^(٣) أما غيرهم فيرى أنه يطبع على بعضها دون جميعها، ويولد عليها فيسهل عليه اكتساب تمامها عناية من الله، كما يشاهد من خلقه بعض من السمات والشهامة، أو صدق اللسان، والسماحة، وكما نجد بعضهم على ضدها، والناس يتعاونون في اكتساب تكميلها، وتحصيل معدومها بالرياضة والمجاهدة،^(٤) ويستدل على صحة قوله بحديث الرسول صلى الله عليه وسلم : "كل الخلال يطبع عليها المؤمن إلا الخيانة والكذب"^(٥)، وكذلك بقوله عمر التي مرت أنفأ، والتحقيق في ذلك أن حال الإنسان مركب من أصول الدوافع المحمودة، ومن أصول الدوافع المذمومة، فإن مال إلى الأولى فهو من السعداء، وإن مال إلى الثانية فهو من الأشقياء.^(٦) ودور الاكتساب وأثره يبدأ بسن مبكرة، ويضعف ويشتد بحسب أهمية الدافع لدى الفرد . وتوفر دواعيه لديه، ويبرز هنا أثر الوراثة والتربية والبيئة بأقسامها الداخلية والخارجية (الطبيعية، والاجتماعية، والنفسية) سلباً وإيجاباً^(٧).

(١) صحيح سنن أبي داود . الألباني . حديث رقم (٤٣٥٤) ج ٢ ص ٩٨١ .

(٢) فتح الباري . ج ١٠ ص ٤٥٩ .

(٣) انظر الشفا بتعريف حقوق المصطفى . ص ٧٧ (مرجع سابق) . وانظر إحياء علوم الدين ج ٢ ص .

(٤) انظر الشفا بتعريف حقوق المصطفى . مرجع سابق . ص ٧٧-٧٨ .

(٥) مشكاة المصابيح . محمد عبدالله الخطيب التبريزي - تحقيق الألباني . ج ٢ ص ١٣٦٤ . المكتب الإسلامي بيروت ط : ٣ ، ١٤٠٥ هـ .

(٦) انظر شرح الشفا شمائل صاحب الاصطفاء (صلى الله عليه وسلم) . الإمام / نور الدين القاري . ج ١ ص ٥٤٦ . تحقيق / حسنين مخلوف . مطبعة المدني . القاهرة .

(٧) انظر الحديث النبوي وعلم النفس . د . محمد عثمان نجاتي . ١٠٢-١٠٣ . دار الشروق . ط : ١ (١٤٠٩ هـ) . وانظر مقدمة ابن خلدون . عبدالرحمن بن محمد بن خلدون . ص ٨٢ . المقدمة الثالثة . مكتبة لبنان ط ٤ . ١٩٩٠ . وانظر الفراسة . للإمام فخر الدين الرازي . ص ٨٩-٩٠ . تحقيق مصطفى عاشور مكتبة القرآن . وانظر مقدمة في فلسفة التربية الاسلامية . د . حسن إبراهيم عبدالعال ص ٢٨٢ عالم الكتب . الرياض ١٤٠٥ هـ بدون رقم للطبعة .

ويتبين من ذلك بوضوح انه يصعب حصر الدوافع بشقيها (الخير والشرير)، ومدار هذا البحث ومحوره هو ما كان من هذه الدوافع ذا نزعة عملية نحو الشر.

فما أصل ومنشأ الدوافع ذات النزعة العملية نحو الشر ؟

يرجع العلماء هذه الأخلاق السافلة إلى أصول يكادون يتفقون عليها. ^(١) فعلى سبيل التمثيل: يرى ابن القيم -رحمه الله - أن منشأها أربعة أركان هي : الجهل، والظلم، والشهوة، والغضب ^(٢)، ثم يحيط هذه الأصول بخلقين رئيسيين هما : إفراط النفس في الضعف، وإفراطها في القوة. ^(٣) ويرى بعد ذلك أنه يتولد من اختلال التوازن في ضبط هذين الأصلين أخلاق متباينة ^(٤) ويستطرد قائلاً : "فالأخلاق الذميمة : يولد بعضها بعضاً، كما أن الأخلاق الحميدة يولد بعضها بعضاً" ^(٥).

وبعد معرفة أصول هذه الدوافع ذات النزعة العملية نحو الشر ينتقل الحديث إلى لب هذا البحث والحديث عن كل دافع بحدده وبالتفصيل : -

(١) انظر فتح الباري. ج ١٠ ص ٤٥٧ (مرجع سابق). وانظر الحسنه والسيئة. شيخ الإسلام ابن تيمية. ص ٥٧-٥٩. دار

الكتب العلمية. بيروت. ب : ت . وانظر تهذيب الأخلاق في التربية ابن مسكويه. ص ٢٥. دار الكتب العلمية. بيروت. (ط
١) : ١٤٠٥ هـ ، وانظر إحياء علوم الدين. ج ٢ ص ٥٢. (مرجع سابق).

(٢) انظر تهذيب مدارج السالكين. ابن قيم الجوزية. تهذيب : عبد المنعم صالح العزي. ص ٤١٦. دار المطبوعات الحديثة.
جدة. ب : ت.

(٣) انظر المرجع السابق نفسه ص ٤١٦. وانظر الشفاء بتعريف أحوال المصطفى. ص ٧٤. (مرجع سابق).

(٤) انظر المرجع السابق نفسه. ص ٤١٧.

(٥) انظر نفسه ص ٤١٧.

المبحث الأول : دافع الكبر ويتضمن الآتي :

المطلب الأول :	تعريف الكبر
المطلب الثاني :	حقيقة الكبر
المطلب الثالث :	مكان الكبر
المطلب الرابع :	أعراض الكبر ومظاهره
المطلب الخامس :	أسباب الكبر
المطلب السادس :	نواعي التكبر
المطلب السابع :	أقسام التكبر
المطلب الثامن :	أقسام المتكبرين
المطلب التاسع :	آثار الكبر
المطلب العاشر :	نهاية الكبر

المطلب الأول

تعريف الكبر

أولاً : في اللغة : أسهب أهل اللغة في تعريف الكبر.

فمن معاني مادة كبر في اللغة أن الكبر : نقيض الصغر ويدل على العظمة، والملك، والرفعة، والشرف، والتجبر، وما اعتبر فيه المنزلة، والإثم الكبير، والجبل العظيم^(١)، وزادوا المعنى وضوحاً وعمقاً في دافع الكبر، فاقتبسوا من القرآن معاني أخرى منها :

ما ذكره ابن منظور بقوله : "واستكبار الكفار : أن لا يقولوا لا إله الا الله"^(٢)، وهذا من قوله تعالى : "إنهم كانوا إذا قيل لهم لا إله إلا الله يستكبرون"^(٣).

وهذا لعمر الله عمدة هذا البحث ومحوره، فهذا المخلوق الضعيف يأبى أن يذعن ويستسلم لأمر مولاه الكبير المتعال.

ويذكر تعريفاً آخر مهماً في هذا المقام فيقول "الاستكبار : الامتناع عن قبول الحق معاندة وتكبراً"^(٤).

ثانياً : الكبر في الاصطلاح :

عُرف الرسول (صلى الله عليه وسلم) الكبر فقال : "الكبر : بطر الحق وغمط الناس"^(٥)، وهذا التعريف هو محور وعمدة تعاريف العلماء من سلف وخلف^(٦).

فيصفه القرطبي بقوله هو "الاستعظام"^(٧). وهناك محاولات متفرقة لاستخلاص

(١) انظر لسان العرب. مادة : كبر، وانظر المعجم الوسيط. مادة : كبر، وانظر القاموس المحيط. مادة : كبر، (وهي مراجع سابقة).

(٢) لسان العرب. مادة : كبر. (مرجع سابق).

(٣) الصافات - ٢٥.

(٤) لسان العرب. مادة : كبر. (مرجع سابق).

(٥) صحيح مسلم بشرح النووي. ج ٢ ص ٨٩، ك/ الإيمان. باب : تحريم الكبر وبيانه.

(٦) على سبيل المثال انظر :

فتاوى شيخ الإسلام. ج ٧ ص ٦٢، و١١، وانظر الجامع لأحكام القرآن. ج ١/١ ص ٢٩٦. وانظر فتح القدير. ج ١ ص ٦٦.

(٧) الجامع لأحكام القرآن. ج ١/١ ص ٢٩٦. (مرجع سابق).

مفهوم للكبر، ومرد ذلك كله إلى الحديث الشريف السابق.

فيعرفه ابن عاشور فيقول : "العظمة وإظهار التفوق على الناس"^(١)، ويقول سليم الهلالي : "هو رؤية النفس على الحق والخلق"^(٢)

ويعرفه علماء الأخلاق، فيشيرون إلى الجانب النفسي وعلاقة الكبر به، فيقول الغزالي : "هو الخلق الذي في النفس، وهو الاسترواح والركون إلى رؤية النفس فوق المتكبر عليه"^(٣)، وهنا يشير إلى الجانب الثاني من تعريف الرسول (صلى الله عليه وسلم) غمط الناس، ويتبعه الجاحظ فيقول : "هو استعظام الإنسان نفسه، واستحسان ما فيه من الفضائل والاستهانة بالناس. واستصغارهم، والترفع على من يجب التواضع له"^(٤)، وهو مفهوم للكبر وليس تعريفاً، فقد تضمن إشارة إلى أسباب الكبر ومظاهره، وحقيقته.

وصفوة القول : إن جميع هذه التعاريف عالية على تعريف الرسول صلى الله عليه وسلم، الذي حوى بشمول معنى الكبر على وجازته.

(١) التحرير والتنوير. ج ١١ ص ٢٥٢. (مرجع سابق).

(٢) التواضع في ضوء القرآن والسنة الصحيحة. سليم الهلالي. ص ٣٥. دار ابن القيم، ط: ١ - ١٤١٠هـ.

(٣) إحياء علوم الدين. ج ٣ ص ٣٢١ (مرجع سابق).

(٤) تهذيب الأخلاق. أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ. قرأه وعلق عليه/أبو حذيفة وإبراهيم بن محمد. دار الصحابة للتراث. (ط: ١) ١٤١٠هـ.

المطلب الثاني : حقيقة الكبر :

يرى الغزالي أن الكبر قسمان : ظاهر وباطن، فالباطن ما كان في النفس، والظاهر هو الأعمال التي تصدر عن الجوارح، ولذا يرى أن اسم الكبر أحق به الخلق الباطن^(١) بل يلفت الانتباه (رحمه الله) إلى الفرق اللفظي بينهما حيث يرى أنه إذا تعدى النفس إلى الجوارح يطلق عليه تكبر، وإذا لم يظهر يطلق عليه كبر^(٢). ولا ين عاشور لطيفة لغوية أخرى في شأن الكبر حيث يقول : "التزايد في الكبر لأن السين والتاء فيه للمبالغة لا للطلب، ومن لطائف اللغة العربية أن مادة الاتصاف بالكبر لم يجر منها الا بصيغة الاستفعال أو التفعّل إشارة إلى أن صاحب صفة الكبر لا يكون إلا متطلباً الكبر أو متكلفاً بكبير وما هو بكبير حقاً،"^(٣) ولذلك يقول الراغب : "التكبر على وجهين، أحدهما : أن تكون الأفعال الحسنة كثيرة في الحقيقة وزائدة على محاسن غيره، وعلى هذا وصف الله تعالى بالتكبر. قال : "العزیز الجبار المتكبر"، والثاني : أن يكون متكلفاً لذلك متشعباً، وذلك في وصف عامة الناس"^(٤). وفي هذا إشارة إلى المتكبر عليهم، ويفصل الغزالي ذلك حيث يؤكد أن الكبر يستدعي متكبراً عليه، فلا يكفي أن يستعظم الإنسان نفسه ليكون متكبراً إلا أن يكون مع غيره ويرى نفسه فوقه بصفات الكمال^(٥).

وهذا مستنبط من حديث الرسول (صلى الله عليه وسلم) سالف الذكر حيث جاء فيه "وغمط الناس" ومعناها "احتقارهم وإزدرائهم"^(٦).

وفي الحديث حقيقة لا ينبغي أن تغيب عن الأذهان لأهميتها وهي أنه (صلى الله عليه وسلم) بين أن من رد الحق ودفعه وجحده يعد متكبراً وإن لم يغمط الناس، وكذلك من غمط الناس ولم يرد الحق فهو أقل شأنًا، وفي هذا إشارة إلى أن بين المسلمين متكبرين. ولذا

(١) انظر إحياء علوم الدين. ج ٢ ص ٢٢١ (مرجع سابق).

(٢) انظر المرجع السابق نفسه ج ٣ ص ٣٢١.

(٣) التحرير والتنوير. ج ١ ص ٤٢٥.

(٤) المفردات في غريب القرآن. ص ٤٢٢. (مرجع سابق).

(٥) انظر إحياء علوم الدين. ج ٢ ص ٣٢١.

(٦) مجموع الفتاوى. ج ٧ ص ١١.

يعدّه ابن القيم من الكبائر^(١) .

ويشير ابن عاشور إلى أن الكبر خلق طارئ^(٢)، وكأنه يعني أنه ليس جبلياً مركوزاً في الإنسان، حيث لا يتصور عاقل أن الإنسان يولد متكبراً، ولكنه يكتسبه وفي سن مبكرة جداً، وهذا شاهد وملموس^(٣)، وأشار له الغزالي رحمه الله^(٤) .

ويؤكد هذا أيضاً ماجاء في حديث الرسول (صلى الله عليه وسلم) "الفخر والخيلاء في أصحاب الإبل، والسكينة والوقار في أهل الغنم"^(٥)، ففيه إشارة إلى أن الإبل تؤثر على الإنسان بمخالطته إياها وتعيده بأخلاقها فكيف بمن يأكل من لحومها^(٦)؟ ويرى شيخ الإسلام أنها تؤثر في الإنسان إذا أكل من لحومها^(٧) .

وفي ذلك دلالة واضحة على أن الكبر مكتسب وليس بغريزي في الإنسان.

ويرى د. جعفر شيخ إدريس أن الكبر هو الدافع الرئيس، وغيره تابع له أو فرع منه،^(٨) ولعل مرد ذلك إلى أن الكبر كان أول معصية أرتكبت^(٩)، وهذا واضح في قصة إبليس "إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين"^(١٠)، ويقول سعيد حوي: "ومن عبرها أن الكبر بداية الخطأ"^(١١)، ويستدل على ذلك بقول الرسول (صلى الله عليه وسلم): "لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر"^(١٢) ويقول الغزالي معلقاً على هذا الحديث: "وإنما صار

(١) تهذيب مدارج السالكين. ص ٨٦. (مرجع سابق).

(٢) انظر التحرير والتنوير. ج ١ ص ٤٢٤-٤٢٦ .

(٣) يحكي أحد طلبة العلم، أن عنده ابناً له لا يتجاوز الرابعة، ومع ذلك يترفع أن يلعب مع أترابه.

(٤) انظر إحياء علوم الدين. ج ٣ ص ٥٤ .

(٥) صحيح الجامع الصغير. ج ٤ ص ١٠٦ حديث رقم (٤١٥٧).

(٦) استفدت من شريط مسجل ومنشور بعنوان "تلكم السكينة" سلمان بن فهد العودة.

(٧) انظر مجموع الفتاوى. ج ٢٠ ص ٥٢٢ .

(٨) استفدت ذلك أثناء محاضراته في السنة التمهيدية للماجستير عام ١٤٠٨ هـ .

(٩) انظر المحرر الوجيز. ج ١ ص ١٨٠. (مرجع سابق) .

(١٠) البقرة - ٢٤ - .

(١١) الأساس في التفسير. ج ١ ص ٢١. (مرجع سابق) .

(١٢) صحيح مسلم بشرح النووي. ك/الإيمان. باب (تحريم الكبر وبيانته) ج ٢ ص ٩٠ .

حجاباً دون الجنة لأنه يحول بين العبد وبين أخلاق المؤمنين كلها، وتلك الأخلاق هي أبواب الجنة، والكبر يغلّق تلك الأبواب كلها^(١) .

وفي قصة إبليس بيان لحقيقة الكبر المراد هنا، وهو أكبر مما يتبادر لأذهان كثير من الناس، بأنه يقتصر على التجلّم، والتزين بالثياب، وهذا لأنه يظهر بصور كثيرة. وخشية من الوقوع في بحرّه تجد صحابياً يسأل الرسول (صلى الله عليه وسلم) - بعد أن حذرهم خطورة الكبر وأنه سبب مباشر لدخول النار - قائلاً : إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسناً ونعله حسناً^(٢) يخشى أن يكون هذا داخلاً في الكبر .

وفي هذا بيان أن الكبر المقصود هنا أكبر من ذلك، فهو التكبر على الحق الذي بعث الله به الرسل وأنزل به الكتب.

وصفوة القول في هذه الجزئية : أن الكبر دافع مكتسب، ويعين على اكتسابه ظروف بيئية ونفسية، ومنشؤه نفسي فإذا أظهرت آثاره وتعدت إلى الغير أصبح تكبراً، فهو حينئذٍ نفسي اجتماعي .

(١) إحياء علوم الدين . ج ٣ ص ٣٢١ . (مرجع سابق) .

(٢) صحيح مسلم بشرح النووي . ك/الإيمان، باب (تحريم الكبر وبيان) ج ١ ص ٨٩ .

المطلب الثالث : مكان الكبر

مكان الكبر :

بتصريح الغزالي والجاحظ بأن الكبر داء نفسي يختصران المسافة في الخوض في جوانب أخرى.

فهو دافع نفسي بنص القرآن الكريم : "لقد استكبروا في أنفسهم وعتوا عتواً كبيراً"،^(١) فما النفس ؟ خاض الأولون والآخرين في كنه النفس، وأصلها إلى غير ذلك من الأسئلة التي تطرأ على فكر البشر فما وصلوا لنتيجة. فكل ما وصلوا إليه ما هو إلا وصف لها دون تحديد نهائي لماهيتها^(٢)

وما في القرآن يغني عن الخوض فيما لا طائل تحته، فالقرآن حينما يتحدث عن النفس يفيدنا بأنها هي التي تؤمن وما كان لنفس أن تؤمن إلا بإذن الله،^(٣) وهي التي تدافع عن الإنسان وتجادل عند الحساب "يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها وتوفى كل نفس ما عملت وهم لا يظلمون"،^(٤) بل هي مناط التكليف، ومنها تصدر نزعات الخير والشر : "ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها"^(٥) .

وصفوة القول : إن دافع الكبر مكانه النفس،^(٦) فإذا تغلغل فيها وتمكن منها أشربه قلبه فأورده-والعياز بالله - المهالك، يقول تعالى : " كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار"^(٧) .

(١) الفرقان - ٢١- .

(٢) انظر نصوص قرآنية في النفس الإنسانية. د. عز الدين إسماعيل. ص ١٤٩-١٥٠ دار النهضة العربية. بدون تاريخ ورقم للطبعة. وانظر مقدمة في فلسفة التربية الإسلامية (التربية والطبيعة الإنسانية) د. حسن إبراهيم عبدالعال. ص ٢٢٨-٢٤١. دار عالم الكتب. ط : ١ .

(٣) يونس - ١٠٠- .

(٤) النحل - ١١١- .

(٥) الشمس - ٧ - ٨- .

(٦) انظر الفوائد. ابن قيم الجوزية. ص ٧٤ .

وانظر أسرار مجاهدة النفس. الإمام/ أبي عبدالله محمد بن علي بن الحسن الحكيم الترمذي . دراسة وتحقيق إبراهيم الجمل. الناشر دار المشرق العربي، القاهرة . ١٤٠٩هـ .

(٧) غافر - ٣٥- .

المطلب الرابع : أعراض الكبر ومظاهره

في القرآن والسنة إشارة إلى بعض الأنماط السلوكية التي تفضح هؤلاء المتكبرين، وتدل على انحراف بواعث هذا المرض وغاياته. وتشير إلى نتائج السلبية التي تنجم عنه مبينة أضراره الخلقية على مستوى الفرد والجماعة .

فيرى المطلع على أحوال هؤلاء أن التكبر يظهر على شمائلهم، كصعر في الوجه، وهذا ما حذر لقمان ابنه منه : "ولا تصعر خدك للناس" ^(١) "أي لا تتكبر فتحقر عباد الله، وتعرض عنهم بوجهك إذا كلموك" ^(٢) ويزيد المتكبر هذا الإعراض والصدود بثني رقبته احتقاراً لمن يمر عليهم ^(٣)، وهكذا كان حال صنائيد قريش إذا مروا بالضعفاء من المسلمين، ^(٤) ويشهد بذلك كتاب الله : "ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولاهدى ولاكتاب منير ثاني عطفه ليضل عن سبيل الله له في الدنيا خزي ونذيقه يوم القيامة عذاب الحريق" ^(٥)، فيلوي رقبته استكباراً وإعراضاً من العظمة ^(٦)

بل إن مشيته تفضح كبره وعلوه : "ولا تمش في الأرض مرحاً" ^(٧) "أي خيلاً متكبراً جباراً عنيداً" ^(٨) .
ويأبى الكبر على هؤلاء إلا أن يظهره في نبرات أصواتهم، وفي اختيارهم لأساليب المخاطبة، ولذا يهزأ منهم القرآن الكريم مشبهاً حالهم بصوت الحمير ^(٩) "واقصد في مشيك واغضض من صوتك إن أنكر الأصوات لصوت الحمير" ، فالعرب في جاهليتهم كانوا يفخرون بجهارة الصوت، فمن كان منهم أشد صوتاً كان أعز، ومن كان أخفض كان أذل ^(١٠) .

(١) لقمان - ١٨ - .

(٢) تفسير ابن كثير . ج ٣ . ص ٧١٠ .

(٣) انظر في ظلال القرآن . ج ٤ ص (مرجع سابق) .

(٤) انظر التحرير والتنوير . ج ص (مرجع سابق) .

(٥) الحج - ٩ - .

(٦) انظر تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٣٣٤ وانظر فتح الباري ج ٨ - ٨ - ص (مرجعان سابقان) .

(٧) لقمان - ١٨ - .

(٨) تفسير ابن كثير . ج ٢ ص ٧١٠ . (مرجع سابق) .

(٩) لقمان - ١٩ - .

(١٠) الجامع لأحكام القرآن . ج ١٤/٧ ص ٧٢ (مرجع سابق) .

ولذلك حذر الرسول (صلى الله عليه وسلم) وغلظ من التكلف في الكلام فقال : **وَإِنْ**
من أبغضكم إليّ وأبعدكم مني يوم القيامة : الثرثارون والمتشدقون، والمتفيهقون، قالوا :
يارسول الله قد علمنا الثرثارين ، والمتشدقين، فما المتفيهقون؟ قال : المتكبرون^(١) .

وجاء في شرح صاحب التحفة للحديث في معنى الثرثرة والتشديق والتفيهق، والتي
تدل معانيها على إكثار الكلام، والتكلف، والتوسع في الحديث، من غير احتياط ويعد عن
الحق^(٢) وهذا من الكبر والرعونة^(٣) .

ويستمر المتكبرون متفنين في أنواع كبرهم، فيتكبرون بلباسهم ونوعه، وهذا واضح
في قوله (صلى الله عليه وسلم) : **بينما رجل يمشي في حلة تعجبه نفسه**^(٤) بل وأسلوب
حركته في لبسه، فيقول (صلى الله عليه وسلم) : لا ينظر الله يوم القيامة إلى من جر إزاره
بطراً^(٥)، يقول ابن حجر : **وَأَنَّ البطر والتبختر مذموم ولو لمن شمر ثوبه**^(٦) ولذا يرى
الغزالي أن اللباس يظهر به التكبر والتواضع^(٧)، وفي هذا الزمان توسع الناس وتفننوا في
ذلك، فتراه يلبس لباساً لكل مناسبة، ولكل وقت، بل تجد أحدهم يلبس ساعة يد يتعدى ثمنها
خمسين ألف ريال، ويتباهى بذلك، ومن إخوانه المسلمين من لا يجد لقمة عيش تسد رمقه،
بل ويزدري من لا ينافسونه في هذا الشأن.

ولذا أثر عن عمر رضي الله عنه تواضعه في لباسه، فقد كان فيها المرقع^(٨) لاعتنا ذلة
ومهانة، ولكنه ترفع بحب الله وطاعته عن الاشتغال بسفاسف الأمور وصغائرها.
ومظاهر الكبر وعلاماته لاتقف عند هذا الحد، بل إن هذا النقص الذي تمكن من

(١) صحيح سنن الترمذي، أبواب البر والصلة، باب (ما جاء في معالي الأخلاق) ج ١ ص ١٩٦ - ١٩٧ .

(٢) انظر تحفة الأحوذى، ج ٦ ص ١٦١ . (مرجع سابق).

(٣) انظر المرجع السابق نفسه ج ٦ ص ١٦١ .

(٤) صحيح البخاري مع الفتح، ك اللباس باب (من جر ثوبه من الخلاء) ج ١٠ ص ٢٥٨ .

(٥) صحيح البخاري مع الفتح، ك اللباس، باب (من جر ثوبه من الخلاء) ج ١٠ ص ٢٥٨ .

(٦) فتح الباري، ج ١٠ ص ٢٥٩ .

(٧) انظر إحياء علوم الدين، ج ٣ ص ٣٢٢ .

(٨) انظر تاريخ عمر، ص ١٧١ . (مرجع سابق).

نواتهم أفرز عادات سيئة يختالون بها على المجتمع الذي يعيشون في كنفه وهى كثيرة منها :

أنك تجد هذا المريض يصطحب معه جماعة لخدمته والمشي بين يديه^(١)، وما هذا إلا بغية أن يرى مكانه، فيتساعل الناس من هذا ؟ ومن يكون ؟ فيكسب احتقار العارفين، وحقد وحسد القاصرين؛ ولذا حذر السلف من مغبة اتخاذ مثل هذه العادة ولاسيما فيمن هم محل القدوة، من أهل العلم والدعاة، فهذا عمر رضي الله عنه يعلو ألباً (رضي الله عنه) بالدرة حينما رأى ناساً حوله، ويقول : "إنها مذلة للتابع وفتنة للمتبوع"^(٢)

وكأنها عدوى تنتقل عبر الزمن من المتكبرين المتقدمين إلى المتأخرين، فيشاهد كبار هذا الزمان والمواكب من أمامهم ومن خلفهم، ويقف فوق رؤوسهم إذا جلسوا وكأنهم لم يسمعوا إلى قول الرسول (صلى الله عليه وسلم) : "من أحب أن يتمثل له الرجال قياماً فليتبوأ مقعده من النار"^(٣) .

ويرون أن لهم الصدارة في المجالس، ويرون أن لهم الحق في الزيارة على غيرهم، ولا يختلطون بعامة الناس،^(٤) وهو سلوك مغاير لما كان عليه (صلى الله عليه وسلم)، فقد جاء في وصف خلق الرسول (صلى الله عليه وسلم) أنه إذا انتهى إلى قوم جلس إلى حيث ينتهي به المجلس، ويأمر بذلك^(٥) وقالت السيدة عائشة رضي الله عنها (لمن سألها عن فعله في بيته-: "كان بشراً من البشر يفلي ثوبه، ويحلب شاته، ويخدم نفسه"^(٦) "وكان يجلس على الأرض. ويأكل على الأرض، ويجيب دعوة المملوك على خبز الشعير"^(٧) ووصفوه فقالوا : "كان يأتي ضعفاء المسلمين، ويوزورهم، ويعود مرضاهم ويشهد جنازتهم"^(٨) ويقول

(١) انظر إحياء علوم الدين. ج ٢ ص (مرجع سابق) .

(٢) تفسير ابن كثير. ج ٢ ص ٧١٤. (مرجع سابق).

(٣) صحيح الجامع الصغير. ج ٥ ص ٢٢٧. حديث رقم (٥٨٢٣).

(٤) انظر إحياء علوم الدين. ج ٢ ص.

(٥) الشمائل المحمدية «الترمذي» ص ١٦٠ دار الحديث للطباعة والنشر والتوزيع. تعليق عزت عبيد الدعاس .

(٦) الشمائل المحمدية. الشيخ محمد ناصر الدين الألباني. ص ١٨٠ حديث رقم (٢٩٢) .

(٧) صحيح الجامع الصغير. ج ٤ ص ٢٥٧. حديث رقم (٤٧٩١) (مرجع سابق).

(٨) صحيح الجامع الصغير. ج ٤ ص ٢٥١. حديث رقم (٤٧٥٣).

(صلى الله عليه وسلم) مبيناً حدود التواضع : " ما استكبر من أكل مع خادمه، وركب الحمار بالأسواق، واعتقل الشاة فحلبها"^(١) "وكان لا يأنف ولا يستكبر أن يمشي مع الأرملة، والمسكين، والعبد حتى يقضي له حاجته"^(٢) .

وما هذه إلا صور قليلة من حياة المتواضعة (صلى الله عليه وسلم)، فهل تعجب هذه الأحوال المتكبرين ؟ .

وللداعي أن يتصور مدى نفور الناس منه لو صدرت مظاهر الكبر والمتكبرين منه - وهو الكنف الرحيم والمرجع الدائم لهم، فهم ينتظرونه بفارغ الصبر ليأتسوا بلقاه. وكل لديه حاجة يريد عرضها عليه.

وخلاصة القول : إنه يتجلى بوضوح أعراض هذا الدافع سواء في ذات المتكبر أو في أثره في مجتمعه، وكأن المطلع على ذلك أن سيصيح لتوه : نعم أعرف هذا الصنف من الخلق إنه فلان، وإنه للمعني الموصوف بهذه الكلمات .

ولعله من المناسب التعرف على الأسباب التي أحدثت هذا الدافع وأصلته في نفس الإنسان حتى تغلغل في أعماقها .

(١) سلسلة الأحاديث الصحيحة. محمد ناصر الدين الألباني. ج ٥ ص ٢٥٢، مكتبة المعارف الرياض. ط : ١ - ١٤١٢هـ.
حديث رقم [٢٢١٨] .

(٢) صحيح الجامع الصغير. ج ٤ ص ٢٧٥. حديث رقم (٤٨٨١).

المطلب الخامس : أسباب الكبر

الأسباب كثيرة لو ذكر جميع ما حرك الكبر أو دعاه، ولكن إذا أعيدت هذه الأسباب إلى أصولها تكون خمسة :

الأول : الجهل :

الجهل نقيض العلم^(١) وهو دركات، وظلمات بعضها فوق بعض، ويرى السف أن كل من يعصي الله فهو جاهل^(٢)، ويسأل الحسن البصري (رحمه الله) عمن عصوا وهم يعلمون، فقال : فليخرجوا منها فإنها جهالة^(٣)، وفي قوله تعالى : "أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلاً"^(٤)، يقول ابن القيم : "فلا يقتصر سبحانه على تشبيه الجاهل بالأنعام حتى جعلهم أضل سبيلاً منهم"^(٥)، ويقرر رحمه الله أن العلم حياة ونور، والجهل موت وظلمة، والشر كله سببه عدم الحياة^(٦)، ثم يعد رحمه الله عدداً من أمراض القلوب ومن بينها الكبر، ويقرر أنها كلها متولدة من الجهل^(٧)، وفي موضع آخر يقول : "وهذه الآفات تنشأ من الجهل بعبودية القلب وترك القيام بها"^(٨)، فكيف لا يكون جاهلاً من تكبر على قبول الحق الذي جاء من الله تعالى، فهذا غاية الجهل وأكبره. فهو أثر لجهل الإنسان قدر نفسه وظنه أنها على مرتبة عالية من غير أن يكون كذلك. ولذا يقول شيخ الإسلام "فأصل ما يوقع الناس في السيئات : الجهل وعدم العلم

(١) انظر لسان العرب. مادة : جهل.

(٢) انظر الحسنة والسنة. شيخ الإسلام ابن تيمية ص ٦٠ دار الكتب العلمية - بيروت ب : ت .

(٣) نفس المرجع السابق. ص ٦١.

(٤) الفرقان - ٤٤ - .

(٥) انظر مفتاح دار السعادة. ج ١ ص ٥٣.

(٦) انظر المرجع السابق نفسه. ج ١ ص ١١١.

(٧) انظر المرجع نفسه ١٩٠ ص ١١١.

(٨) تهذيب مدارج السالكين. ج ١ ص ٨٦ (مرجع سابق) .

بكونها تضرهم ضرراً راجحاً، أو ظن أنها تنفعهم نفعاً راجحاً^(١) .

ويعد بيان القرآن لحال المخالفين من المتكبرين وذكر ضدهم من المتواضعين من الملائكة المقربين يقول تعالى : "أم اتخذوا من بونه آلهة قل هاتوا برهانكم هذا ذكر من معي وذكر من قبلي بل أكثرهم لا يعلمون الحق فهم معرضون"^(٢)، يقول الرازي : "إن وقوعهم في هذا المذهب الباطل ليس لأجل دليل ساقهم إليه، بل ذلك لأن عندهم ما هو أصل الشر والفساد كله؛ وهو عدم العلم، ثم ترتب على عدم العلم الإعراض عن استماع الحق وطلبه"^(٣) .

الثاني : العجب :

وهو خاص في المتكبر، من جهة استعظامه نفسه، ورؤيته قدرها فوق الغير، فهذا له موجب واحد وهو العجب، فإنه إذا أعجب بعلمه، وعمله، أو بشيء من أسبابه استعظم وتكبر، وجد الحق^(٤) . يقول علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) : "الإعجاب ضد الصواب، وآفة الأبواب"^(٥)، ويؤكد ذلك قوله (صلى الله عليه وسلم) : "ثلاث مهلكات : شح مطاع، وهوى متبع وإعجاب المرء بنفسه"^(٦) .

فاليهود مثلاً معجبون بعلمهم وثرانهم متكبرون بذلك^(٧) . فالعجب يخلق بنفس الإنسان حتى يتحول إلى كبر ظاهر.

(١) الحسنه والسينة. ص ٦٠ (مرجع سابق).

(٢) الأنبياء -٢٤-.

(٣) التفسير الكبير. ج ٢٢/١١ ص ١٥٨ . (مرجع سابق).

(٤) انظر إحياء علوم الدين ج ٢ ص ٣٢٩-٣٣٠ (مرجع سابق).

(٥) أدب الدنيا والدين. أبي الحسن الحسن علي بن حبيب البصري المارودي. ص ٢٨٦، دار الريان للتراث. الدار المصرية اللبنانية. (ط : ١) ١٤٠٨هـ.

(٦) صحيح الجامع الصغير. ج ٢ ص ٦٧. حديث رقم (٣٠٤١). (مرجع سابق).

(٧) انظر محمد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) (منهج ورسالة، بحث وتحقيق)، محمد الصادق إبراهيم عرجون. ج ٢ ص ١٦٨. دار القلم. دمشق ط : ١ - ١٤٠٥هـ.

الثالث : الرغبة بعدم الخضوع لأحد^(١)

وهو متولد من سابقه، فمن أعجب بما وهبه الله له من علم أو مال أو غيره، ولم يرع حق الله في ذلك، فإنه يتمرد على الحق، ويتكبر عليه.

وتبلغ هذه الرغبة في أقصى مداها إلى التمرد على طاعة الله، ومع هذه الرغبة الحمقاء يأتي الشعور النفسي الجاهل باستغناء المستكبر بذاته، ومتى عظم هذا الشعور واستولى على جوانب النفس تولد عنه في سلوك المتكبر الطغيان.^(٢) ويدل على ذلك قوله تعالى : "كلا إن الإنسان ليطغى * أن رآه استغنى"^(٣)، وقد ذهب الرازي في تفسير هذه الآيات إلى القول : أنه أبا جهل ازداد طغياناً وتعزراً بماله ورياسته في مكة^(٤)، ويؤكد بأن الطغيان هو التكبر والتمرد^(٥)، فأعجابه بنفسه وبما أنعم عليه جعله يتصور أن لا أحد يستحق المتابعة بالرياسة وحتى بالرأي إلا هو، فأنى يخضع للحق أو لداعي الحق.

الرابع : الحقد :

وهو إمساك العداوة في القلب والتربص لفرصتها^(٦)، وهذه العداوة لا حد لها في قلب الحاقد إلا إفناء المحقود عليه والغاؤه من الوجود^(٧)، فأبو جهل يقول لحظة مماته أخبروا محمداً أنني أموت وما أحد أبغض إليّ منه^(٨) وصناديد قريش مع بعد العهد والمسافات بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم يقولون لخبيب بن عدي بعد أن رفعوه على

(١) انظر الأخلاق الإسلامية وأسسها عبدالرحمن حسن حبنكة الميداني ج ١ ص ٦٦٠ . دار القلم -

دمشق - بيروت . ط : ١٣٩١ هـ .

(٢) المرجع السابق نفسه . ج ١ ص ١٦٨ .

(٣) العلق - ٧، ٦ .

(٤) انظر التفسير الكبير . الإمام/الفخر الرازي . ج ٢٢/١٦ . ص ١٨ ب : ت . ط : ٢ دار إحياء التراث العربي، بيروت.

(٥) المرجع السابق نفسه . ج ٢٢/١٦ . ص ١٨ .

(٦) انظر لسان العرب . مادة . حقد (مرجع سابق).

(٧) انظر الأخلاق الإسلامية وأسسها . ج ١ ص ٢٢٢ . (مرجع سابق) .

(٨) السيرة لابن كثير . ج ٣ ص ١٢١ .

سببان يتعلقان بالتكبر عليه^(١) .

ولا يفوت على الذهن مما قاله الغزالي إلى العلاقة الوطيدة بين هذين الداعين وبين دافع الكبر. فالحسد قد يدعو إلى جحد الحق، وعدم قبول النصيحة وتعلم العلم تكبراً على المحسود، فهذا أبو جهل وقريش كلها يقرون للرسول (صلى الله عليه وسلم) بالصدق والأمانة^(٢) ولكنهم حسدوا بني هاشم أن تكون فيهم النبوة^(٣) فهم يعرضون عن الحق وداعيه مع علمهم بأنه يستحق المتابعة والإجابة بفضل ما يحمله من خير وفضيلة، ولكن الحسد يدفعهم بأن يعاملوه بأخلاق المتكبرين، وإن كان الحاسد في باطنه ليس يرى نفسه فوقه^(٤) .

واليهود حسدوا العرب أن تكون فيهم النبوة، فتكبروا عليهم وأنفوا من قبول الحق منهم مع علمهم بصدق رسالة محمد صلى الله عليه وسلم ، ويؤكد الفخر الرازي علاقة الكبر بالحسد وأنه مسبب له فيقول : "والمرسل إليهم يتأذون أيضاً من المرسل بسبب الحسد، وصيرورته مكلفاً بالخدمة، وبذل النفس والمال بعد أن كان رئيساً مخدوماً"^(٥) .
ويلاحظ مما سبق أن الحسد سبب مباشر لحدوث الكبر ثم التكبر على دعاة الحق، ومن تكبر عليهم فقد تكبر على الحق الذي معهم .

(١) انظر المرجع نفسه ج ٢ ص ٢٢٠ .

(٢) انظر صحيح البخاري مع الفتح. ج ٨ ص ٧٢٧ (مرجع سابق).

(٣) انظر السيرة لابن هشام. ج ١ ص ٢٧٦ .

(٤) انظر إحياء علوم الدين. ج ٢ ص ٢٢٠ . (مرجع سابق).

(٥) التفسير الكبير. ج ٢٤/١٢ ص ٦٦ (مرجع سابق).

المطلب السادس : دواعي التكبر :

مر فيما سبق أنه لا يتكبر إلا من استعظم نفسه، ولا يستعظمها إلا وهو معتقد لها صفة من صفات الكمال^(١) .

وعلة ذلك أن الدواعي إذا توفرت لدى الإنسان الكفور يرى نفسه غير محتاج لغيره، وأن غيره محتاج إليه، ولا يزال ذلك التوهم يربو في نفسه حتى يصير خلقاً، حيث لا وازع يزع من دين أو تفكير سليم فيتكبر على الناس بشعوره بأنه لا يخاف من بأسهم، لانتفاء دواعي التكبر فيهم وتوفرها فيه.^(٢)

ومع توفر دواعي التكبر، فإنهم مخطئون، لأن واهبهم ذلك هو الله، ولكنهم لم يعرفوا حقيقتهم، ولم يتصرفوا في نطاق هذه الحقيقة ولذا فهم مصدر تعب وقلق حيث كانوا^(٣) .

ولكن الأقبح من هؤلاء هو من انتفت دواعي الكبر فيه، ومع ذلك يتكبر فجاء الذم والوعيد الشديد، وفي ذلك يقول الرسول (صلى الله عليه وسلم) : "ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة، ولا يزيكهم ولا ينظر إليهم، ولهم عذاب أليم، : شيخ زان، وملك كذاب، وعائل مستكبر"^(٤)، فهذا التزم هذا الدافع المذكور مع بعده منه، وعدم ضرورته إليه وانتفاء دواعيه^(٥) ويستنتج من ذلك أن هناك دواعي تزيد من استعار هذا الدافع، فيذهب بصاحبه عند طروء أي نعمة عليه مهما صغرت، ولذا يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : "بينما رجل يمشي في حلة تعجبه نفسه، مرجل جمته، إذ خسف الله به، فهو يتجلجل إلى يوم القيامة"^(٦) .
فالدواعي كثيرة فهذا يتبخر في حلته فكيف بمن ملك البلاد، وذلت له الرقاب، وبمن ملك الأموال الطائلة، إلى غير ذلك .

(١) انظر إحياء علوم الدين ج ٣ ص ٣٢٤ (مرجع سابق) .

(٢) انظر التحرير والتنوير. ج ٣٠ ص ٤٤٤ - ٤٤٥ (مرجع سابق) .

(٣) انظر قذائف الحق. محمد الغزالي. ص ١٤٧. منشورات المكتبة العصرية. بيروت. ب : ت .

(٤) صحيح مسلم بشرح النووي. ك/الإيمان. باب (غلظ تحريم إسبال الإزار والمن بالعطية. وتنفيق السلعة بالطف وبيان الثلاثة الذين لا يكلمهم الله يوم القيامة)، ج ٢ ص ١١٥ .

(٥) شرح النووي على صحيح مسلم. ج ٢ ص ١١٧ .

(٦) صحيح البخاري مع الفتح. ك/اللباس. باب (من جر ثوبه من الخيلاء)، ج ١ ص ٢٥٨ .

والناس يتفاوتون في نظرتهم وتقديرهم للأشياء، فيتكبر كلٌ بحسب ما أُعطي من
نعمة، وبحسب مبلغ الكبر فيه.
وصفوة القول في ذلك: إن نواعي الكبر كثيرة، فمهما وجد من إنسان متكبر بنعمة
ما صغيرة أو كبيرة، فالنعمة تلك داعٍ مساعد على التكبر،
ولكن هناك نواعي رئيسية تُعَوِّفُ على تكبر من تهيأت لهم، وهذا لا يمنع من وجود
نواعٍ أخرى هي أقل شأنًا. وجل هذه الأمور خارجية وهيئها الله لبعض الناس، وكان الأولى
أن يشكروا المنعم على ذلك، ولكنهم - عياذاً بالله - كفروا وما شكروا.
وهذه الدواعي هي :

١ - التعصب للمعتقد :

ينتحل كثير من الناس معتقدات باطلة، أو أصلها صحيح ثم حُرِّفَتْ، ثم يتوارثون تعاليمها
كابراً عن كابر بلا تمحيص وبحث دقيق عن صحة ذلك من خطئه.
فتجد من يعبد الحيوان كالهندوس، ومع ذلك يرون أنهم على صواب وغيرهم على
باطل. فهذا أحد رموز الفكر لديهم يتبجح بقوله : أنه يفضل أمه البقره على أمه الحقيقية^(١)،
ويستدل على ذلك بادعائه أن أمه البقرة تهبه الحليب ولا تأخذ مقابل ذلك إلا قليلاً أما أمه
الحقيقة فإنها ترضعه سنتين وتمنعه طوال العمر ، إلى أن قال : إن ملايين الهنود يتجهون
للبقرة بالعبادة والإجلال، وأنا أعد نفسي واحداً من هؤلاء الملايين^(٢). الشاهد أن هذه
النحل مع مرور الزمن تصور هؤلاء البداء أنها صحيحة، أو على الأقل بسطائهم وعامتهم،
فعندما يصادفه قول يرن بفكره أن معتقده باطل ويعجز إثبات عكس ذلك، يتحول إلى مكابر
معاند .

وما أدل على ذلك من موقف اليهود والنصارى من رسالة محمد صلى الله عليه وسلم
فهم معتقدون صحة الرسالة ويجدونها عندهم في كتبهم، ولكن أنى لهم ترك معتقداتهم

(١) انظر الرسل والرسالات. د. عمر سليمان الأشقر. ص ٢٧. مكتبة الفلاح. ط: ٣ - ١٤٠٥ هـ.

(٢) انظر المرجع السابق نفسه. ص ٣٧.

المحرفة، فالقرآن يقول عن اليهود : " الذين أتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم" ^(١)، ومع ذلك كان جوابهم الأخير هو "لا نكون تبعاً لغيرنا، نحن أهل الكتاب والنبوة، ونكون تبعاً لغيرنا" ^(٢).

والنصارى أشار عليهم ملكهم هرقل باتباع الرسول (صلى الله عليه وسلم)، فغضبوا وأنفوا حتى طمأنهم بقوله : "إني قلت مقالتي أنفاً أختبر بها شدتكم على دينكم فقد رأيت" ^(٣) .
فجوابه هذا وتركيزه على الدين لدلالة واضحة لتعصبهم لدينهم الذي دعاهم إلى التكبر على أصحاب الديانات الأخرى ومن بينها الدين الإسلامي الحنيف.

وهو أيضاً ما دعا قريش الى التكبر على الإسلام خشية أن يتركوا دين الآباء والأجداد، وغيرهم من الأمم كثير كلهم قالوا : "إن أنتم إلا بشر مثلنا تريدون أن تصدونا عما كان يعبد آباؤنا فاتونا بسلطان مبين" ^(٤) بل وصل الأمر بأن يهددوا بشتم الإله جل وعلا إن لم يدع محمد صلى الله عليه وسلم شتم آلهتهم حتى أمره القرآن بذلك "ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدواً بغير علم" ^(٥).

فهم قالوا : "يا محمد لتنتهين عن سب آلهتنا، أو لنهجون ربك" ^(٦)، فهذا التعصب المقيت، والذي بنوه على ظنون وأوهام بلا منطق سليم دعاهم للتكبر وعدم قبول الحق أياً ما كانت أدلته وبراهينه مادام يخالف أهواهم وما نشؤوا عليه.
ويرى المفكر الإسلامي محمد قطب "أن الفساد الأكبر في المنهج الغربي هو الاستكبار عن عبادة الله واتخاذ آلهة أخرى أنداداً لله" ^(٧) .

(١) البقرة - ١٤٦ - .

(٢) المغازي. الواقدي. تحقيق د. مارسون جونس. ج ٢ ص ٥٠٢. دار عالم الكتب. بيروت ط - ٣ - ١٤٠٤هـ .

(٣) صحيح البخاري مع الفتح ج ١ ص ٣٣.

(٤) إبراهيم - ١٠ - .

(٥) الأنعام - ١٠٨ - .

(٦) تفسير ابن كثير. ج ٢ ص ٢٦٢. (مرجع سابق).

(٧) رؤية إسلامية لأحوال العالم المعاصر. محمد قطب. ص ٢٦٢. دار الوطن للنشر. ط : ١ (١٤١١هـ).

التكبر بالعلم :

العلم الصحيح والكبر عدوان لا يجتمعان، ولكن قد يتكبر ضعاف النفوس فيستشعرون بأنفسهم جمال العلم وكماله، فيحتقرون غيرهم وينظرون لهم نظرة الدون، ويرون الحق لهم على جميع الناس^(١)، وتكبر المصيبة إذا تفتشى الكبر في علماء الحق ودعائه، فإنه ولا ريب سيكون سبباً يصد عن سبيل الله وينفرهم من الدعاة إليه. فإذا كان العلم يدعو إلى التواضع، فكيف يتكبر أهل العلم ؟ . جعل الغزالي لذلك سببين :^(٢)

الأول : أن يشتغل بالعلوم المادية، كما يحدث الآن في الغرب ومواضع أخرى في العالم، فإنهم تقدموا بالزينة الفانية، وبالعلوم الدنيوية، وقطعوا في ذلك أشواطاً كبيرة، دعاهم ذلك إلى احتقار غيرهم وغمطهم، وما أدل على ذلك من توزيع العالم إلى طبقات متفاوتة، كالعالم الأول، والنامي .. إلى غير ذلك.

وأيضاً فصورة الشرق في نظر الذهن الغربي تتجلى من خلال عاطفة متعالية ومطلقة، وتعبّر عن شعور الغرب نحو نفسه ونحو الآخرين حيث يرى نفسه حامل الحضارة والتاريخ الذي يستحق به أن يكون أعلى من الآخرين، فينسف كل حضارة وتاريخ لهم^(٣).

الثاني : أن يخوض في العلم وهو خبيث الدخلة، وريء النفس سيئ الأخلاق^(٤)، واليهود من هذا الصنف، ولذا فهم متكبرون متعززون بعلمهم^(٥) وينعتون أنفسهم بأنهم أهل علم بالاديان والشرائع^(٦)، وكانوا مرجع العرب في الجاهلية يستفسرون منهم ما جهلوه، كما حدث حينما بعثت قريش مندوبين منها ليهود يثرب يتثبتون منهم عن خبر رسول الله صلى الله عليه وسلم^(٧).

(١) انظر إحياء علوم الدين. ج ٣ ص ٢٢٤ .

(٢) انظر المرجع السابق نفسه. ج ٣ ص ٢٢٥ .

(٣) انظر في مهب المعركة. مالك بن نبي. ص ١١٦. دار الفكر. دمشق (١٤٠٥هـ).

(٤) انظر إحياء علوم الدين. ج ٣ ص ٢٢٥ (مرجع سابق)

(٥) انظر محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم. ج ٣ ص ١٦٨ (مرجع سابق).

(٦) انظر/ السيرة النبوية (النذوي) . ص ١٧٤ (مرجع سابق).

(٧) انظر السيرة النبوية لابن هشام. ج ١ ص ٢٦٥ - ٢٦٦ .

فالأولى بمن سلك طريق علم بأن يدلّه على سبيل الهدى، ولكن من انحرف عن العلم الإلهي ضل الطريق، فتكبروا وتجبروا بعلم لم ينفعهم بأجلتهم.

التكبر بالحسب والنسب^(١) :

جميع الناس تشرف بالنسبة الطيبة إلى آدم وحواء سواء، وإنما يتفاضلون بالأمور الدينية^(٢)، ولهذا قال تعالى : "يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا"^(٣) أي ليحصل التعارف بينكم كل يرجع إلى قبيلته"^(٤).

ولكن أصنافاً من الناس حرفت هذه الغاية النبيلة، فجعلوا ذلك من أغراض التفاخر والتعالي الزائف، وهي علة باقية آثارها، ويدل على هذا قوله (صلى الله عليه وسلم) : "أربع في أمتي من أمر الجاهلية لا يتركونهن (ذكر منهن) : الفخر بالأحساب، والظعن في الأنساب"^(٥).

وكان للعرب مزيد اهتمام في علم الأنساب لأنه سبب هام عندهم في التناصر والألفة، وكانوا يروونه ويحفظونه أبناءهم^(٦)، بل كان ميداناً واسعاً يتبارى فيه الشعراء، ويشمخ به بعضهم على بعض^(٧)، بل بالغوا وشطحوا حتى قال شاعرهم :

ملأنا البرّ حتى ضاق عنا وماء البحر نملؤه سفينا

إذا بلغ الفطام لنا صبي تخر له الجبابر ساجدينا^(٨)

(١) لهما معاني كثيرة، وخلاصة مفهومهما أن الحسب : الشرف في الفعل، وما يعده الإنسان من مفاخر آبائه. النسب : عدد الأباء والأمهات.

(٢) انظر تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٢٢٢. (مرجع سابق).

(٣) الحجرات - ١٢ - .

(٤) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٢٢٢.

(٥) صحيح مسلم ومعه شرح النووي. ك الجنائز. باب (تحريم النياحة) ج ٦٠ ص ٢٣٥ .

(٦) انظر / د. حسين الحاج حسن. حضارة العرب في عصر الجاهلية. ص ١٥ (مرجع سابق)، وانظر السيد أحمد أبو الفضل عوض الله. مكة في عصر ما قبل الإسلام. ص ١٨٥ (مرجع سابق).

(٧) انظر أ. د. محمد رواسي قلعه جي. دراسة تحليلية لشخصية الرسول (محمد صلى الله عليه وسلم) من خلال سيرته الشريفة ص ٢٧ (مرجع سابق) .

(٨) انظر بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب. ج ٢ ص ٣٦٥. (مرجع سابق).

فصبي من صبيان قبيلته يستحق ذلك، فما بالك برحالاتها وشيوخها وفرسانها. ولا يتسود عند بعض القبائل إلا من كان ذا نسب^(١)، ولذا تجد الملائمة غالباً من ذوي النسب العريق. ولذا يذكر المفسرون أن الرهط التسعة من قوم صالح هم من أبناء الأشراف^(٢) وأشقاهم قاتل الناقة كان شريفاً في قومه نسيباً رئيساً^(٣).

فاستمرؤوا ذلك حتى جعلوا لهم منتديات، وأيام معينات، للمفاخرات والمناظرات، حتى اشتهرت وأصبحت علماً في تاريخهم^(٤)، فعصبية النسب كانت عماد النظام الاجتماعي قبل الإسلام.

وتغلغل الداء واستمر حتى ظهرت آثاره مع الإسلام، وبدل على ذلك أنه يوم فتح مكة صعد بلال على سطح الكعبة ليؤذن بأمر رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فقال أحد الجاهليين: "الحمد لله الذي قبض أبي حتى لم ير هذا اليوم"،^(٥) وقال آخر: "أما وجد محمد غير هذا الغراب الأسود مؤذناً؟!"^(٦)

لقد دعاهم فخرهم بأحسابهم أن يتكبروا على عباد الله، ولا ينقادوا للحق إن كان فيمن هو أقل نسباً، وأدنى شرفاً، بلا سبب وجيه، أو دليل صحيح.

وحتى اليهود والنصارى يفخرون بجنسهم وحسبهم ونسبهم حتى قالوا: "نحن أبناء الله وأحباؤه"^(٧)، فاليهود والنصارى كانوا يرون لأنفسهم فضلاً على سائر الخلق بسبب أسلافهم الأفاضل من الأنبياء حتى انتهوا إلى هذا القول^(٨)، وذكر في التلمود: أن نطفة

(١) انظر المرجع السابق نفسه ج ٢ ص ١٨٧.

(٢) انظر فتح القدير. ج ٤ ص ١٤٣. (مرجع سابق).

(٣) انظر تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٨١٧.

(٤) انظر بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب ج ١ ص ٢٧١-٢٨١ و ٢٨٧.

(٥) أسباب نزول القرآن. لأبي الحسن علي الواحدي ص ٤١٧ تحقيق / السيد احمد صقر. للثقافة. جدة. (ط : ٢) ١٤٠٤هـ.

(٦) المرجع السابق نفسه. ص ٤١٧.

(٧) المائدة - ١٨.

(٨) انظر التفسير الكبير. ج ١١/٦ ص ١٩٢. (مرجع سابق).

غير اليهودي كمنطقة باقي الحيوانات^(١)، والفرق بين درجة الإنسان والحيوان هو بقدر الفرق الموجود بين اليهود وباقي الشعوب !! وهذه الشعوب ليست كلاباً فقط بل يرى اليهود أنها حمير أيضاً^(٢)، ولذا يرى أحد حاخاماتهم أن الشعب المختار اليهودي هو الذي يستحق الحياة، أما ما عداهم فمثلهم كمثل الحمير^(٣)

فلا غرابة أن تتكبر هذه الفئات بأحسابها ومآثرها تكبراً يبعدها والعياذ بالله عن الحق، فحينما دعا الرسول (صلى الله عليه وسلم) جماعة فرغبهم ورهبهم قالوا : تخوفنا بعذاب الله ونحن أبناء الله وأحباؤه^(٤).

فتصورهم القاصر وخدرهم في مآثر الأسلاف جعلهم يظنون شراً بغيرهم فلا يفقهون قولاً ولا يستجيبون لدعوة.

والفرس كذلك كانوا يسمون أنفسهم الأحرار والأبناء، وكانوا يعدون سائر الناس عبيداً لهم^(٥).

وفي هذا الزمان مع تشدد وتبجح الدول الكبرى بالمساواة بين الشعوب فإنهم يضعون الشعوب الأخرى موضع الدون، بل لا يرونهم شيئاً ولا سيما من يعايشونهم، ويدل على هذا ما يضعونه من صفات وألقاب على الآخرين مثل كلمات : "الأسود" "الأحمر" فهي تعبر عن عيانات إنسانية سفلى^(٦).

وهكذا تمضي بهم هذه النعرات كل مذهب، فينكرون الحق لا لضعف الدليل ولا لكذب الداعي، وإنما لغلوهم في أعراقهم وأحسابهم المزعومة، وهذه غاية الصفاقة والحماقة

(١) الكنز المرصود في قواعد التلمود. ترجمة / د. يوسف نصر الله. ص ٦٦. دار العلم. دمشق. دار العلوم. بيروت. ط : ١ (١٤٠٨هـ).

(٢) انظر المرجع السابق نفسه. ص ٧٣، ٧٤.

(٣) انظر المرجع السابق نفسه. ص ٧٤، ٧٥.

(٤) انظر التفسير الكبير. ج ١١/٦ ص ١٩٢. (مرجع سابق).

(٥) انظر الفصل في الممل والامواء والنحل. الإمام أبي محمد علي بن أحمد بن جزم الظاهري. ج ٢ ص ١١٥. ط : ٢. دار المعرفة للطباعة والنشر.

(٦) انظر في مهب المعركة. ص ١٦٢ (مرجع سابق).

حيث إن الاستجابة للخير لا تزيد الإنسان إلا خيراً ورفعة، ويدل على ذلك قول الرسول صلى الله عليه وسلم : "خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا"^(١).
٤ - العدد والقوة :

ويظهر هذا الداعي بوضوح في قصص القرآن ولا سيما ما حكاه عن عاد، وفرعون، والوليد بن المغيرة، فيقول تعالى عن عاد : "فأما عاد فاستكبروا في الأرض بغير الحق، وقالوا من أشد منا قوة"^(٢)، فيتبين بوضوح تكبرهم بداعي القوة، وعن فرعون يقول تعالى : "وفرعون ذي الأوتاد"^(٣)، وهم الجنود الذين يشدون أمره^(٤).

فدعتهم هذه النعم إلى التكبر على الحق والخلق "الذين طغوا في البلاد فأكثروا فيها الفساد"^(٥).
ويزيد القرآن تفصيل ذلك في ما نزل في الوليد بن المغيرة (لعنه الله) : "ذرني ومن خلقت وحيداً * وجعلت له مالأ ممدوداً * وبينين شهوداً"^(٦) فما النتيجة لهذه الدواعي وكيف استعملها ؟ ثم أدبر واستكبر"^(٧) أي حرف عن الحق ورجع القهقري مستكبراً عن الانقياد للقرآن"^(٨).

وينتقل القرآن ليعين الداعي لتكبر أبي جهل فيقول تعالى : "كلا إن الإنسان ليطغى * أن رآه استغنى"^(٩). فقد جاء أن الرسول (صلى الله عليه وسلم) انتهره فقال أبوجهل : لم تنتهرني يا محمد ؟ فوالله لقد علمت ما بها رجل أكثر نادياً مني !!^(١٠) وكانهم سلسلة

(١) صحيح البخاري مع الفتح ك/ المناقب. باب (قول الله تعالى : (يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم) ج ٦ ص ٥٢٥.

(٢) فصلت - ١٥.

(٣) الفجر - ١٠.

(٤) انظر تفسير ابن كثير. ج ٤ ص ٨٠٢ (مرجع سابق).

(٥) الفجر - ١١، ١٢.

(٦) المدثر (١١، ١٣).

(٧) المدثر - ٢٢.

(٨) تفسير ابن كثير. ج ٤ ص ٦٩٣.

(٩) العلق (٦، ٧).

(١٠) المسند - ج ٤ ص ٩٢. حديث رقم (٢٣٢١).

واحدة بطريقة تفكيرهم وتقديرهم للنعم فيها هو ذا صاحب الجنتين يبين القرآن أنه تكبر
بكثره أنفاره وكان له ثمر فقال لصاحبه وهو يحاوره أنا أكثر منك مالاً وأعز نفراً^(١).
ويوضح ابن حجر (رحمه الله) أن الفرس كانوا في غاية القوة، فتكبروا وتجبروا؛
حتى مزق ملكهم كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم^(٢).
شواهد تدل على نفسها بلا بيان، فالقوة والعدد الكثير للاتباع - من الجنود والأبناء
وغيرهم - كانا داعيين رئيسيين لظهور التكبر .

٥ - الشراء المالي :

المال نعمة يؤتيها الله من يشاء من عباده، فمنهم لبيب يشكر، ومنهم جاهل يكفر.
فالأولى إذا استعمال هذه في أوجه الخير وسبله ابتغاء مرضاة الله عز وجل .
ولكن الإنسان ظلوم كفور، فهو ذو فرح وبطر وطغيان إذا رأى نفسه قد استغنى
وكثر ماله ، ويدل على هذا قوله تعالى : "كلا إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى"^(٣)، فهو
يتكبر ويتعاضم^(٤) إذا أحس من نفسه الاستغناء^(٥)، فهم لذلك يرون أن التكريم يكون بحسب
المال وكثرتة، ولذا عرضوا على الرسول صلى الله عليه وسلم من ضمن ما عرضوا أن
يجمعوا له مالاً ليكون من أكثرهم مالاً فيترك دعوته^(٦)، ويؤكد ذلك ما جاء في القرآن يبين
إستغرابهم أن لا يمتاز بمميزات مادية لتملأ عيونهم المادية فيصدقوه فيقول تعالى : "أو
تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيراً"^(٧) "أو يكون لك بيت من
زخرف"^(٨).

(١) الكهف - ٢٤ - .

(٢) انظر فتح الباري ج ٦ ص ٣٠٢ .

(٣) الملق - ٧٠٦ - .

(٤) انظر التحرير والتنوير ج ٢٠ ص ٤٤٤ . (مرجع سابق) .

(٥) انظر المرجع السابق نفسه ج ٢٠ ص ٤٤٤ .

(٦) انظر السيرة لابن كثير ج ١ ص ٥٠١ (مرجع سابق) .

(٧) الإسراء - ٩١ - .

(٨) الإسراء - ٩٢ - .

وهذا أحد أئمتهم المتكبرين وهو فرعون يقول عن موسى : "فلولا ألقى عليه أسورة من ذهب" ^(١) " أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي" ^(٢) "فكلا الاعتراضين يبين عن نفسية المتعالي عن دعوة الحق والتباهي بالجاه والمال، فلا يملأ عين الكبراء ولا يعظم في نفوسهم غير بريق الذهب" ^(٣) وفي هذا توجيه عظيم للدعاة بأن يترفعوا ويزهدوا عما بأيدي الأغنياء -الفساق من المدعويين- من مال ومتاع ليكون هذا أدهى للإجابة، وكذلك يدل على غيظ هؤلاء وخوفهم في أن واحد من الدعاة إذا رأوا فيهم إعراضاً عما بأيديهم من زخرف الحياة الدنيا، حيث يظنون أن الكل بحاجة لهم، وبالتالي من يجرؤ أن ينكر منكراً أو يأمر بمعروف وقد تكلمت الأيدي بعطايا هؤلاء وذلهم. ويدل على ذلك أن جميع الرسل كانوا في بداية الدعوة يقول كل منهم : "وما أسألكم عليه من أجر" ^(٤) . وهذا هو الواقع الفعلي، ولتوثيق ما يدل على ذلك أثر عن أحد الخلفاء محاولته استمالة سفيان الثوري (رحمه الله) فعجز عن ذلك فقال : "ألقينا الحب إلى العلماء، فلقطوا إلا ما كان من سفيان فإنه أعيانا فراراً" ^(٥) .

(١) الزخرف - ٥٣ - .

(٢) الزخرف - ٥١ - .

(٣) سيكلوجية القصة في القرآن، ص ٢٧٢. (مرجع سابق) .

(٤) الشعراء - ١٠٩ - .

(٥) المقد الفريد. لابن عبد ربه، ج ٣ ص ١٠٩. دار الكتب العلمية. بيروت. (ط : ١) ١٤٠٤ هـ .

المطلب السابع : أقسام التكبر

ينبغي قبل الخوض في نتائج الكبر أن يحدد أقسام المتكبر عليهم .
فمن النصوص والآثار التي تطرقت للكبر والمتكبرين نجد أن المتكبر عليهم ينقسمون إلى
قسمين رئيسين هما :

القسم الأول : التكبر على الحق وهو التكبر على الله تعالى .

القسم الثاني : التكبر على الناس وهو أيضاً يتفرع إلى فرعين :

الفرع الأول : التكبر على الرسل والمصلحين .

الفرع الثاني : التكبر على الناس بجميع أصنافهم ويدل على هذا قول الرسول (صلى

الله عليه وسلم) : "الكبر بطن الحق وغمط الناس"^(١) .

والأدلة على ذلك كثيرة، فعلى القسم الأول يدل عليه قوله تعالى "إنهم لا

يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون"^(٢) . "إن الذين يستكبرون عن

عبادتي سيدخلون جهنم داخرين"^(٣) . وعلى التكبر على رسل الله يقول تعالى :

"فقالوا أبشر يهددونا فكفروا وتولوا"^(٤) .

وعلى عامة الناس يقول تعالى : "هؤلاء من الله عليهم من بيننا"^(٥) وقوله تعالى : "وما

نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادي الرأي وما نرى لكم علينا من فضل بل نظنكم

كاذبين"^(٦) .

(١) صحيح مسلم بشرح النووي . ك/الإيمان باب (تحريم الكبر وبيانه) . ج ٢ ص ٨٩ .

(٢) الأنعام - ٣٣ - .

(٣) غافر - ٦٠ - .

(٤) التباين - ٦ - .

(٥) الأنعام - ٥٣ - .

(٦) هود - ٢٧ - .

المطلب الثامن : أقسام المتكبرين :

إن الذي يستقريء النصوص القرآنية، والأخبار النبوية، يكشف أن الكبر أكثر ما يكون في الأقسام الآتية :

الأخبار والرهبان

الملوك

الملا

وهذا لا يعني أن الكبر يقتصر على هؤلاء فحسب، بل هو ينتشر بين جميع الأصناف، ولكنه دافع ذو درجات متفاوتة يختلف قوة وضعفاً بحسب نشأة الإنسان، وبيئته، وبحسب ما يتهيأ له من إمكانات مادية، واجتماعية، وسياسية، إلى غير ذلك. ولذا فإن دواعي الكبر وأسبابه غالباً ما يكون توفرها في هذه الأصناف الثلاثة، فامتازوا بها عن سواهم، فحفرت جذور الكبر في نفوسهم أصوله المتينة، وضربت أطنابها إلى أبعد مدى.

فما الدليل على تخصيص هؤلاء ؟

الحلال والحرام اختصاص إلهي لا دخل للبشر وأهوائهم بالتدخل به، ولكن أخبار ورهبان السوء سمحوا لأنفسهم بأن يباشروا التحليل والتحرير من عند أنفسهم، ولشناعة هذا الأمر وجرأة مرتكبة جعلهم الرسول صلى الله عليه وسلم - بمنزلة الأرباب، ففي الصحيح أن عدي بن حاتم - رضي الله عنه - سمع الرسول صلى الله عليه وسلم - يقرأ "اتخذوا أخبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله" قال : "أما إنهم لم يكونوا يعبدونهم ولكنهم كانوا إذا أكلوا لهم شيئاً استحلوه، وإذا حرّموا عليهم شيئاً حرّموه"^(١).

وشاهد آخر للصف الثاني وهم الملوك تظاهرت الأخبار بأن الرسول (صلى الله عليه وسلم) أرسل كتباً لعدد من ملوك الأرض آنذاك تحمل في طياتها رسالة سلام وأمان ناصحة وليست فاضحة، مبشرة غير منفرة، فتباينت المواقف، فتكبر هرقل وكسرى،

(١) صحيح سنن الترمذي : محمد ناصر الدين الألباني. ج ٢ ص ٥٦ حديث رقم (٢٤٧١)، مكتب التربية العربي لنول

الخليج. الرياض ط : - ١ - ١٤٠٨ هـ .

ورفضوا الإستجابة لداعي الحق. ^(١) ولذا قيل :

وهل أفسد الدين إلا الملوك وأحبار سوء ورهبانها. ^(٢)

أما الملا مع دلالة ما سبق على كبرهم إلا أن القرآن الكريم أبرز بوضوح موقف هذا الصنف من رسالات الحق من لدن نوح إلى محمد صلى الله عليهما وسلم؛ فنوح يدعو قومه فمن ذا يبادر برد ما جاء به؟ فقال الملا الذين كفروا من قومه إنا لنراك في ضلال مبين ^(٣)، وهود (عليه السلام) : قال الملا الذين كفروا من قومه إنا لنراك في سفاهة ^(٤) وشعيب وصالح - عليهما السلام- قال الملا الذين استكبروا من قومه ^(٥) . ومحمد صلى الله عليه وسلم - وانطلق الملا منهم أن امشوا واصبروا على آلهتكم ^(٦) ياسبحان الله هؤلاء الملا جعلوا أنفسهم أعداء الأنبياء، وهم عقبة الإصلاح في كل زمان ومكان، وهم في صراع دائم مع الحق وأهله ^(٧) فمن هم هؤلاء الملا؟ هم الكبراء والسادات والأشراف ^(٨)، وأجاد الراغب في تعريفه لهم إذ يقول : جماعة يجتمعون على رأي فيملئون العيون رواءً ومنظراً. والنفوس بهاءً وجلالاً ^(٩) فهذه صورتهم أما الحقيقة فهم في المقاييس الإلهية فارغون من كل قيمة باقية، ومن اللطائف أنه من معاني الكبر في اللغة أنه طبل له وجه واحد ^(١٠) فإذا قلبته وجدته فارغاً .

(١) انظر صحيح البخاري مع الفتح ج ١ ص ٣٢ وانظر المرجع نفسه ج ٦ ص ١٠٨ .

(٢) طب القلوب. ابن قيم الجوزية. ص ٤٠٥ دار الدعوة - الكويت. ط : ٢ - ١٤١٠ هـ .

(٣) الأعراف - ٦٠ - .

(٤) الأعراف - ٦٦ - .

(٥) الأعراف - ٧٥ ، ٨٨ - .

(٦) ص - ٦ - .

(٧) انظر التفسير الكبير. ج ١٤/٧ ص ١٥٠. وانظر/ دعوة الرسل إلى الله تعالى، محمد أحمد عبدالمعطي العدوي، ص ٢.

مكتبة العلوم والحكم. المدينة المنورة. ب : ت ، وانظر فقه الدعوة إلى الله ج ٢ ص ٩٦٨. د. علي عبدالحليم محمود، دار

الوفاء للطباعة والنشر. ط : ١ - ١٤١٠ هـ .

(٨) انظر التفسير الكبير. ج ١٤/٧ ص ١٥٠. وانظر السيرة لابن كثير. ج ٢ ص ٤٧٣ .

(٩) المفردات في غريب القرآن. ص ٤٧٣ (مرجع سابق) .

(١٠) لسان العرب. مادة : كبر. (مرجع سابق) .

وصفوة القول : إنهم متكفون للتكبر ولا يستحق حقيقة، فلماذا إذاً يصرون على التكبر على الحق والخلق ؟ .

تبين مما سبق أن المتكبرين عادة هم الأشراف والسادة والزعماء، وهؤلاء ولا ريب يحظون بامتيازات أدبية، ومادية، وسياسية، واجتماعية، فمنازلهم إذاً هي العالية ومنزلة غيرهم في الدنيا^(١)، وبالتالي فإنهم يعدون قبولهم للدعوة واتباعهم للدعاة ضرباً لمراكزهم المزيفة، ويعني كذلك مساواتهم بالضعفاء من العبيد والموالي وغيرهم من دهماء الناس. فارتعدت - لهذه المساواة - فرائص المتكبرين والمتريعين على عروش المال والجاه، والمستغلين لخيرات المجتمع، والمحكرين ذلك لذواتهم لأن ذلك يعني بأن هذا كله سيزول إذا أذعنوا للحق وبواعيه.^(٢) وهذا ما خشيه فرعون وملاه من دعوة موسى إذ يحكي القرآن عنهم قولهم "قالوا أجنثنا لتلفتنا عما وجدنا عليه آباءنا وتكون لكما الكبرياء في الأرض وما نحن لكما بمؤمنين"^(٣) فكشف النص الكريم عن حقيقة امتناعهم وهي خشيتهم على العظمة والرئاسة في الأرض أن تزول منهم وتكون لموسى وهارون^(٤)، أو يخشون كذلك أن تسحب منهم لو آمنوا بالحق كما حدث لرئيس من رؤساء نجران حيث كاد أن يسلم بعد أن أقر بصدق نبوة محمد صلى الله عليه وسلم. ثم رفض الإسلام معللاً ذلك بقوله : "ما صنع بنا هؤلاء القوم شرفونا، ومولونا، وأخدمونا، وقد أبوا إلا خلافة ولو فعلت نزعوا منا كل هذا"^(٥) ويمضي الملام في غيهم يعمهون فلا يستجيبون لداعي الحق بلا حجة واضحة، المهم أن يكونوا السادة المتبوعين.

فهذا أبو جهل يقول : "إني لأعلم إنه لنبي، ولكن متى كنا لبني عبد مناف تبعاً"^(٦)

(١) انظر مفاهيم من القرآن في العقيدة والسلوك. ص ٩٢-٩٤ (مرجع سابق) .

(٢) انظر الأسباب الاقتصادية والاجتماعية لمعارضة قریش الدعوة إلى الإسلام. (دراسة علمية) د. نبيه عاقل. مجلة دراسات تاريخية. علمية فصلية تعنى الدراسات حول تاريخ العرب. جامعة دمشق. العدد -٧- ١٤٠٢/٣. ص ٩٧.

(٣) يونس - ٧٨ - .

(٤) انظر تفسير ابن كثير. ج ٢ ص ٦٦١ .

(٥) السيرة لابن كثير. ج ٤ ص ١٠٧ .

(٦) تفسير ابن كثير. ج ٢ ص ٢٠٨ .

المسألة إذاً ليست في نظره مسألة حق وباطل إنما تابع ومتبوع. وهذا أمية بن أبي الصلت يقول : "أستحي من نسبات ثقيف أنني كنت أقول لهن : إنني أنا هو، ثم أصير تابعاً لفلان من بني عبد مناف"^(١) وعامر بن الطفيل وهو رأس من رؤوس العرب يقول : "والله لقد كنت أليت ألا أنتهى حتى تتبع العرب عقبي، فأنا أتبع عقب هذا الفتى من قریش"^(٢) .

سبحان الله أزمانه مختلفة، وشخصيات مختلفة، ومواقف مختلفة، ومع ذلك فإن الجواب واحد .

العدوى وانتقالها من شخص لآخر في الأمراض المعدية في الأبدان أمر معروف، أما في الأمراض النفسية فشيء غريب، وفي ذلك إشعار إلى أن الكبر يسيطر على النفوس حتى يوجه الأفكار والمشاعر بحسب نزعاته وأهوائه المنحرفة .

فهم أخذتهم الحمية الجاهلية والعصبية الشيطانية على التمسك بالباطل ولا الرجوع إلى قول الداعي الأصغر سناً، أو الأخفى شهرة ظناً أن في ذلك عليهم ما يحط منهم، وينقص ما هم فيه^(٣) .

وفي ذلك ترشيد لجهود الدعاة في كيفية مواجهة هؤلاء بأنجع السبل المفيدة .
ولأن القول في هذه الجزئية لا يراد به معرفة نتائج الكبر إنما معرفة أقسام المتكبرين وشواهد لمواقفهم من الدعوة، فإنه يحسن الانتقال إلى المبحث التالي.

(١) فتح الباري. ج ٧ ص ١٥٣. (مرجع سابق) .

(٢) السيرة لابن كثير. ج ٤ ص ١٠٩. (مرجع سابق) .

(٣) انظر أدب الطلب. محمد بن علي الشوكاني. ص ٦٦. تحقيق ونشر : مركز الدراسات والأبحاث اليمنية.

صنعا ١٩٧٩م.

المطلب التاسع : آثار الكبر :

مما سبق تبينت الأنماط السلوكية، التي تفضح هؤلاء المتكبرين وتدل على سوء بواعث هذا المرض، مما يدعو إلى التعرض للآثار السلبية التي تنجم عنه، وأضراره الخلقية على مستوى الفرد والجماعة.

فأين يصل الكبر بالمتكبرين ؟

عند ذكر الأسباب الرئيسة للكبر والدواعي له، والتي تبرز وتظهر بوضوح حقيقة مواقف المتكبرين يتبين أنه يذهب بصاحبه إلى أبعد مما ذكر، حيث إنه - والعياذ بالله - يحول بين الإنسان وبين اتباع الحق وقبوله. وظهر ذلك بوضوح أثناء الكلام عن أقسام المتكبرين والمتكبر عليه.

فكيف يكون ذلك ؟ وما الدليل ؟

يذكر القرآن الكريم أن الكبر هو السبب الأول في صرف أهله عن النظر والاستدلال على الحق والهدى^(١)، يقول تعالى : "سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها"^(٢) فالنص الكريم يدل على أنه تعالى يطبع على قلوب المتكبرين ويخذلهم، فلا يفكرون في الآيات ولا يعتبرون بها غفلة وانهماكاً فيما يشغلهم عنها^(٣)، فترتب على هذا صرفهم عن فهمها، والإيمان بها، وذلك مجازاة على تكبرهم^(٤).

فالمتكبر **يصح** أن يقبل الحق أو يذعن لمنطقه بل هو "يأنف عن قبوله ويتشمر لجحده"^(٥)

(١) انظر تفسير المنار، ج ٩ ص ١٩٦. (مرجع سابق).

(٢) الأعراف - ١٤٦ -.

(٣) انظر الكشاف، ج ٢٩ ص ١١٧. (مرجع سابق).

(٤) انظر الجامع لأحكام القرآن، ج ٧/٤٩ ص ٢٨٣. (مرجع سابق).

(٥) مفتاح العادة ومصباح السيادة في موضوعات العلوم، أحمد بن مصطفى (طاش كبرى زاده)، ج ٣ ص ٤٠٥، دار الكتب العلمية، بيروت، (ط : ١) ١٤٠٥ هـ.

، ولذا عده ابن عاشور الحائل الوحيد بين صناديد قریش وبين قبول الإسلام.^(١)

والآية السابقة تسجل وصول الحق إلى هؤلاء المتكبرين^(٢) فالعلة في كيانهم وطباعهم، إن قلوبهم منكرة جاحدة لا تقر بما ترى من الآيات وهم مستكبرون ولا يريدون التسليم للحق أياً كانت أدلته وبراهينه^(٣)، ويمثل ذلك كفر إبليس، وفرعون، وأهل الكتاب الذين يعرفونه كما يعرفون أبناعهم وغير هؤلاء، فإن إبليس لم يكذب خيراً ولا مخبراً بل استكبر عن أمر ربه^(٤)، والقرآن يحدد بوضوح الحائل بين فرعون وملئه وبين الحق : "وَجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً"^(٥)، "جحدوها وعاندوها وكابروها"^(٦)، "فالحجة مهما تكن ناهضة، والشبهة مهما تكن داحضة، فإن ذلك لا يستلزم الإيمان مهما قامت عليه الحجة، وانحسرت عنه غمة الشبهة إلا في حق من كان مستعداً، وزالت موانع الكبر والعناد عنه"^(٧)، ونص كريم آخر يؤكد تكرار هذا الحائل في قریش، حيث يقول تعالى : "فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون"^(٨)، والجحد معناه : نفي ما في القلب إثباته، وإثبات ما في القلب نفيه^(٩)، يقول شيخ الإسلام في حال هؤلاء "فأولئك المستكبرون والمتبعون أهواءهم مصروفون عن آيات الله لا يعلمون ولا يفهمون لما تركوا العمل بما علموه استكباراً، فعوقبوا بأن منعوا الفهم والعلم، فإن العلم حرب للمتعالى، كما أن السيل حرب للمكان العالى"^(١٠) ويؤكد هذا قوله تعالى : "سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق"^(١١).

(١) انظر التحرير والتنوير ج ٤ ص ١٤٥. (مرجع سابق).

(٢) انظر وظيفة الأخبار في سورة الأنعام. ص ٢٠١. (مرجع سابق).

(٣) انظر في ظلال القرآن. ج ٤ ص ٢١٦٧. (مرجع سابق).

(٤) انظر مجموع الفتاوى. ج ١٠ ص ٢٧١. (مرجع سابق).

(٥) النمل - ١٤ - .

(٦) تفسير ابن كثير ج ٣ ص ٥٧٢. (مرجع سابق).

(٧) تفسير المنار. ج ٧ ص ٣١٠. (مرجع سابق).

(٨) الأنعام - ٣٣ - .

(٩) المفردات في غريب القرآن. مادة : جحد. (مرجع سابق).

(١٠) مجموع الفتاوى. ج ٧ ص ٦٢٥.

(١١) الأعراف - ١٤٦ - .

ولا ريب أنه اذا حرف عن سبل الخير سيضل الطريق ويتخبط في سبل الظلمات والشر، فيوصلهم الكبر إلى اختيار سبل الغي : "وإن يروا سبيل الرشدا لا يتخذوه سبيلاً، وإن يروا سبيل الغي يتخذوه سبيلاً"^(١)، فالمعروف أن الإنسان يسلك سبيل الغي عن جهل، فإذا علم بمغبة ما هو عليه رجع عنه^(٢) أما المتكبر، فإنه يستمرى مرعي الغي والفساد فينفر من الهدى والرشاد^(٣)، ولذا تجد الكبراء المترفين في جميع العصور يعتادون الدعة والراحة والسيادة، حتى تترهل نفوسهم وتأسن، وترتع في الفسق، وتستتهتر بالقيم، والمقدسات، والكرامات، وتلغو في الأعراض والحرمان، وهم إذا لم يجدوا من يضرب على أيديهم عاثوا في الأرض فساداً، ونشروا الفاحشة في الأمة وأشاعوها، وأرخصوا القيم العليا التي لا تعيش الشعوب إلا بها ولها، ومن ثم تتحلل الأمة وتسترخي، وتفقد حيويتها، وعناصر قوتها وأسباب بقائها، فتهلك وتنتهي^(٤) وصدق الله حيث يقول : "الم تر إلى الذين بدلوا نعمت الله كفرةً وأحلوا قومهم دار البوار"^(٥) ويؤكد القرآن أن هؤلاء سبب في نهاية الأمم فيقول تعالى : "وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً"^(٦) .

وأراء هؤلاء المتكبرين هي المعتبرة، وإن كانت منحرفة، وينقصها الحكمة، وعلى غيرهم أن يتبعهم بلا مراجعة وعلى لسان فرعون يقول تعالى : "ما أرى وما أهديكم إلا سبيل الرشاد"^(٧)، أي ما أدعوكم إلا إلى طريق الحق والصدق والرشد^(٨) بلا شك ولاجدال وهل يرى الطغاة إلا الرشدا والخير والصواب ؟ ! وهل يسمحون بأن يظن

(١) الاعراف - ١٤٦ - .

(٢) انظر تفسير المنار ج ٩ ص ١٩٨ .

(٣) انظر المرجع السابق نفسه ج ٩ ص ١٩٨ .

(٤) انظر في ظلال القرآن. ج ٤ ص ٢١٦٧ .

(٥) ابراهيم - ٢٨ - .

(٦) الإسراء - ١٦ - .

(٧) غافر - ٢٩ - .

(٨) انظر تفسير ابن كثير. ج ٤ ص ١١٨ .

أحد أنهم قد يخطئون؟ ! وهل يجوز لأحد أن يرى إلى جوار رأيهم رأياً؟ ! والا فلم كانوا طغاة^(١)

"فالكبر خلة تأبى على صاحبها أن يسمع إلى قول أو يصيغ إلى دعوة، أو يتنازل إلى متابعة إنسان، ترفعاً عن الإصغاء قبل أن يهديه الإصغاء إلى موافقة أو إنكار"^(٢)، ومن هنا أطلق في الزمان المتأخر على فراعنة هذا الزمان "جنون العظمة" الذي هو خلل عقلي يجعل المرء يشعر بقوة وعظمة غير عادية فيخترع وقائع تتسق مع هذه المشاعر^(٣)، فهذا فرعون يقول لوزير هامان : "وقال فرعون يا هامان ابن لي صرحاً لعلي أبلغ الأسباب * أسباب السموات فأطلع إلى إله موسى"^(٤)، فأخسئوا أيها المتكبرون فلن تعدوا قدركم، وهذا ديدنهم إذا أحسوا بوطأة وقوة الحق، وقوة حجة الداعي لله، تملصوا وراغوا روغان الثعالب إلى الترهات، والتلبيس على الجماهير المغلوبة على أمرها.

وهذا ما فعله فرعون مع موسى- عليه السلام - أيضاً فحينما ظهر الحق وخشى أن تستيقظ الجماهير "قال إن رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون"^(٥)، أراد تهيج السامعين على موسى لأنه نسب الرسول إليهم لئلا يتأثروا أو يتأثر بعضهم بصدق موسى^(٦). واستخفاف الطغاة بالجماهير أمر لاغرابة فيه، فهم يعزلون الجماهير أولاً عن كل سبل المعرفة، ويحجبون عنهم الحقائق حتى ينسوها، ولا يعودون يبحثون عنها ويلقون في روعهم ما يشاعن من المؤثرات حتى تنطبع نفوسهم بهذه المؤثرات المصطنعة، ومن ثم يسهل استخفافهم بعد ذلك، ويلين قيادهم فيذهبون بهم ذات اليمين وذات الشمال مطمئنين^(٧)، ولذا قالت الجماهير حين لا ينفع مقال وقالوا ربنا إنا أطعنا ساداتنا وكبرأعنا

(١) انظر في ظلال القرآن. ج ٥ ص ٣٠٨. (مرجع سابق).

(٢) عبقرية الصديق. العقاد. ص ٨٤-٨٥.

(٣) معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية. د. أحمد زكي بدوي. ص ٢٦٣. مكتبة لبنان.

(٤) غافر - ٣٦، ٣٧ - .

(٥) الشعراء - ٢٧ - .

(٦) انظر التحرير والتنوير. ج ١٩ ص ١٢٠.

(٧) في ظلال القرآن. ج ٥ ص ٣١٩٤. (مرجع سابق).

فأضلونا السبيل" ^(١) "أي اتبعنا السادة وهم الأمراء والكبراء من المشيخة، وخالفنا الرسل، واعتقدنا أن عندهم شيئاً وأنهم على شيء، فإذا هم ليسوا على شيء" ^(٢).
وإن الواقع الأليم اليوم لشعوب العالم النامي لاكبر دليل على ذلك، فهي أشبه بقطعان غنم في مراعي الأسياد وكبار الساسة الذين يخدعون الشعوب فيصورون لها الاستعباد حرية، والشقاوة سعادة بتغيير الأسماء وتزيين أقبح المنكرات، وإن من الشعوب غراراً تلدغ من الجحر الواحد مرات ومرات ^(٣).

فهل يكفي المتكبر بهذا الموقف السلبي اتجاه الحق ؟ ! ، كلا فهذه الدرجة أخف مراحل الكفر، ثم ينتقلون إلى مرحلة التكذيب ^(٤) "كلما جاء أمة رسولها كذبوه" ^(٥) ثم يترقى بهم الكبر من موقع سيطرته على نفوسهم، فيورث مواقف أخطر اتجاه الدعوة والداعين لها والمؤمنين بها، وهي مرتبة حسب أولوياتها كالاتي :

١ - المجادلة بالباطل :

فأصحاب هذه العلة يجادلون ويناقشون دونما دليل صحيح، بل بحسب ما تمليه عليهم علة الكبر بدواعيها وبواعثها، ويدل على ذلك قوله تعالى : "إن الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم إن في صدورهم إلا كبر ما هم ببالغيه" ^(٦)، يقول صاحب الظلال : "فهذا التوجيه يكشف عن علة المجادلة في آيات الله بغير حجة ولا برهان. إنه الكبر الذي يمنع أصحابه من التسليم بالحق، وهم أصغر وأضال من هذا الكبر الذي يحيك في الصدور" ^(٧).

(١) الأحزاب -٦٧-.

(٢) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٨٢٦.

(٣) انظر تفسير المنار. ج ٨ ص ٧-٨. (مرجع سابق).

(٤) انظر وظيفة الاخبار في سورة الانعام. ص ٢٥١ (مرجع سابق).

(٥) المؤمنون -٤٤-.

(٦) غافر -٥٦-.

(٧) في ظلال القرآن. ج ٥ ص ٨٨ - ٢٠٨٩ (مرجع سابق).

ولماذا هذه المجادلة ؟ هل هي حب المعرفة والتثبت ؟ ابدأ وإنما وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق" ^(١) فحتى المجادلة لا تكفي بل يريدون إطفاء نور الحق بباطلهم، فيلبسوا على البسطاء والعوام، وهذا ديدن المتكبرين عبر العصور كلها. وعندما يحسون أن المجادلة لا تشفي غيظهم وحقدهم ينتقلون إلى نوع آخر من أنواع الكبر يرومون فيه إشباع كبرهم.

٢ - الإستهزاء :

وعن ذلك قال الله تعالى "وإذا رآك الذين كفروا إن يتخونك إلا هزواً لهذا الذي يذكر آلهتكم، وهم بذكر الرحمن هم كافرون" ^(٢)، "وإذا رأوك إن يتخونك إلا هزواً لهذا الذي بعث الله رسولا" ^(٣)، "إنهم يستبعدون أن يكون الرسول بشراً، ثم يرون أن الرسول حين يذكر آلهتهم بسوء إنما يتناول على مقامها !!"^(٤)

ومن إفرافات هذه السخرية، وهذا الإستهزاء؛ رميهم الرسول صلى الله عليه وسلم بشتى النقائص والعيوب كقولهم عنه : إنه ساحر، ومجنون، وكاهن وبرئني يأتيه ^(٥) وقال الكافرون هذا ساحر كذاب" ^(٦)، "فذكر فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون" ^(٧). ويستهزئون أيضاً بالذين آمنوا، وهذا كثير في القرآن منه قوله تعالى : "أهلؤا من الله عليهم من بيننا" ^(٨) فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما نراك إلا بشراً مثلنا وما نراك

(١) غافر -٥-.

(٢) الأنبياء -٣٦-.

(٣) الفرقان -٤١-.

(٤) الدعوة الى الله تعالى. (دراسة مستوحاة من سورة النمل) د. عبدالرب نواب الدين آل نواب. ص ٨٦ دار القلم. دمشق. الدار الشامية. بيروت. ط : -١- -١٤١٠هـ.

(٥) انظر سيرة ابن هشام. (مرجع سابق) ج ١ ص ٢٥٨-٢٦٢.

(٦) ص -٤-.

(٧) الطور - ٢٩ - .

(٨) الأنعام -٥٣-.

إتبعك إلا الذين هم أرذلنا بادي الرأي" (١)، وفي القرآن أيضاً "لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون" (٢) "أي اجعلوه لغواً وباطلاً، واتخذوه هزواً لعلكم تغلبونه بذلك" (٣). وهذا كله مرده إلى علوهم وطغيانهم بأنهم يختلفون عن غيرهم، ولا بد من مراعاة الفروق الجاهلية، وإن كانت دعوة سماوية، ولكن بوجوه بالضران فهذا من الكبير المتعال الذي لا نسب بينه وبين خلقه إلا من تقرب إليه بالأعمال المخلصات الصالحات.

٣ - التمرد والعناد :

وهما مرضان يفرزهما دافع الكبر، وهما واضحان جليان في مواقف سائر أقوام الأنبياء، وفصل القرآن بوضوح ذلك في موقف قريش، فأبرز مواقفهم الشائنة من الرسالة وتعنتهم وتحديهم بطلب المعجزات ومنها ما جاء في سورة الإسراء : "ولقد صرفنا للناس في هذا القرآن من كل مثل فأنبى أكثر الناس إلا كفوراً * وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً * أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيراً * أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفاً أو تأتي باله والملائكة قبيلاً * أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى في السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتاباً نقرؤه قل سبحان ربي هل كنت إلا بشراً رسولاً" (٤)، يذكر المفسرون المحققون بأن الآيات نزلت في الملأ من قريش (٥)، الذين يتصفون بدافع الكبر، حيث اجتمعوا بالرسول (صلى الله عليه وسلم)، فتفننوا في اقتراح المعجزات، والغاية من ذلك ليست طلب الحق والرغبة فيه، بل غرضهم، ورأس مالهم في ذلك المكابرة وقلب الحقائق. (٦) ولما كان اقتراحهم عناد وتمرد، أمره

(١) هود - ٢٧-

(٢) فصلت - ٢٦ -

(٣) سيرة ابن هشام. (مرجع سابق) ج ١ ص ٢٧٤.

(٤) الإسراء (٨٩-٩٢).

(٥) انظر التفسير الكبير ج ٢١/١١ ص ٥٦، ٥٩. وانظر تفسير ابن كثير ج ٣ ص ١٠٣ - ١٠٤. (مرجعان سابقان).

(٦) انظر الجامع لأحكام القرآن (مرجع سابق) ج ١٠/٥ ص ٢٢٨ - ٢٢٩. وانظر تفسير ابن كثير مرجع سابق. ج ٢

ص ١٠٣-١٠٤.

الله بأن يجيبهم بما يدل على التعجب من منطقتهم بكلمة "سبحان ربي" التي تستعمل للتعجب^(١). وهل يا ترى لو تحققت هذه الاقتراحات تخالهم يؤمنون ويصدقون؟ جواب هذا صدر من أحد المتمردين والمعاندين وهو عبدالله بن أبي أمية بن المغيرة المخزومي؛ حيث يذكر أهل السير وأهل التفسير بأنه تبع الرسول (صلى الله عليه وسلم) بعد هذه الاقتراحات وقال له : "قوالله لا أؤمن بك أبداً حتى تتخذ إلى السماء سلماً، ثم ترقى فيه وأنا أنظر حتى تأتيها، ثم تأتي معك بصك معه أربعة من الملائكة يشهدون لك أنك كما تقول، وأيم الله لو فعلت ذلك ما ظننت أنني أصدقك ! ثم انصرف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم"^(٢).

فهل ينفع مع هؤلاء نصيح وإرشاد؟ إنهم اختاروا سبيل الغي فاتخذوه سبيلاً، وتكبروا وتمردوا على سبيل الرشيد؛ فاتخذوه عدواً وظهيراً، وصدق الله حينما قال فيهم : "ولو أنزلنا عليك كتاباً في قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين"^(٣).

٤ - الصدود عن الحق :

لم يكفهم ما سبق بل تحركوا لمعاداة الدعوة عملياً، بحيث يصدون الناس عنها، وهذه أسوأ من سابقتها، لأنها تجمع أوزار المنكرين إلى هؤلاء زيادة للنكايه بهم. فكان الملا من قريش يأترون ويجتمعون بمنتدياتهم، ليدبروا ويخططوا في أنجع السبل لصد الناس عن دعوة محمد (صلى الله عليه وسلم)، فوصل الأمر إلى أن يتبعه أبولهب (لعنه الله) وهو يعرض دعوته على القبائل في أيام المواسم فيكذبه ويسفهه، بل ويرجمه بالحجارة حتى أدمى قدميه^(٤)، والمتكبرون هم هم من أزمنة غابرة ولاحقة، فكان

(١) انظر / الكشاف. (مرجع سابق) ج ٢ ص ٤٦٥، ٤٦٦.

(٢) الجامع لأحكام القرآن. (مرجع سابق) ج ١٠/٥ ص ٢٢٩-٢٣٠. وانظر تفسير ابن كثير. (مرجع سابق) ج ٢

ص ١٠٣-١٠٤. وانظر السيرة لابن كثير. ج ١ ص ٤١٨.

(٣) الأنعام - ٧ - .

(٤) انظر السيرة لابن كثير. (مرجع سابق) ج ٢ ص ١٥٦.

هذا ديدن الملا من قوم شعيب فيما حكاه القرآن عنهم وبنهي شعيب لهم عن الاعتراض للناس وصددهم عن الدعوة "ولا تقعدوا بكل صراط توعدون وتصنون عن سبيل الله من آمن وتبغونها عوجاً"^(١) "نهاهم عن القعود بالطرق، والصد عن الطريق الذي يؤدي إلى طاعة الله، وكانوا يوعدون العذاب من آمن"^(٢) .

فصدودهم هذا من معوقات الاستجابة، التي تحول بين المدعو وبين الاستماع الى الحق بدون موانع، فمباشرتك الاستماع دون تدخلات خارجية يختلف عن استماعك للحق بعد أن شوهدت صورته وصورة الداعي إليه^(٣)، وهذا واضح في قصة الطفيل بن عمرو الدوسي، ويلا نقص أو زيادة ينقل كلاماً عن موقف الملا فيقول : "قوالله ما برحوا بي يخوفونني أمرك حتى سددت أذني بكرسف لئلا أسمع قولك، ثم أبى الله إلا أن يسمعني قولك"^(٤) فكانوا ينفرون أحياء العرب والقادمين إلى مكة لحج أو لعمرة أو غير ذلك منه صلى الله عليه وسلم^(٥)، وهذا ولا شك فيه معوق مؤثر ويدل على هذا قول جميع القبائل التي رفضت دعوته "قوم الرجل أعلم به أترون رجلاً يصلحنا وقد أفسد قومه ولفظوه!"^(٦) .

وما أشبه الليلة بالبارحة فهاهم أولاء كبراء هذا الزمان يحيكون المؤامرات ويديرون الاجتماعات بلا توقف لصد الناس عن الحق عبر قنوات كثيرة، وأساليب جديدة، بل يقاتلون ويموتون في سبيل الباطل، وليس ما فعله الفرنسيون إبان حرب الجزائر منا ببعيد^(٧)، فالمستعمرون كانوا يعاملون شعوب البلاد المستعمرة معاملة الأسياد للعبيد، فكانوا يتبعونه حتى في حياته الخاصة كي يمنعوه من أن يتصرف في شؤونه ووسائله طبقاً لمصلحته^(٨) .

(١) الأعراف - ٨٦ - .

(٢) الجامع لأحكام القرآن. (مرجع سابق) ج ٨/٤ ص ٢٤٨ .

(٣) انظر وظيفة الأخيار في سورة الأنعام. (مرجع سابق) ص .

(٤) السيرة لابن كثير. (مرجع سابق) ج ٢ ص ٧٣ .

(٥) انظر المرجع السابق نفسه. ج ٢ ص ٧٢ .

(٦) المرجع السابق نفسه. ج ٢ ص ١٥٨ .

(٧) انظر/النور أولى. زين العابدين الركابي. ص ٥٣ (ط : ٢) .

(٨) انظر / في مهبط المعركة. مالك بن بني. ص ١٢٢-١٢٧. دار الفكر ١٤٠٥هـ.

الأذى والقتل :

وهذا غاية يصل لها المتكبر والعياذ بالله - فحينما تتغلغل هذه الصفة، ويعجز صاحبها عن إشباعها بشتى الطرق فإنه يعمد إلى الأذى بأنواعه للدعاة وللمؤمنين بهم، ليشفي هذا الغل الذي أحدثه الكبر حين تمكن منه.

ويذكر أهل السير خلاصة لهذا الأذى وهو موقف أبي جهل (أخزاه الله) وشلته ممن آمن فيقول ابن هشام عن ذلك : "وكان أبوجهل الفاسق الذي يغري بهم في رجال من قريش، إذا سمع بالرجل قد أسلم له شرف ومنعة، أنبه وأخزاه، وقال : تركت دين أبيك وهو خير منك، لنسفهن حلمك، ولنقلبن رأيك، ولنضعن شرفك. وإن كان تاجراً قال : والله لنكسدن تجارتك، ولنهلكن مالك. وإن كان ضعيفاً ضربه وأغرى به".^(١) وهذا رجل يسأل ابن عباس رضي الله عنهما فيقول : "أكان المشركون يبلغون من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يعذرون به في ترك دينهم ؟" فيقول : نعم والله إن كانوا ليضربون أحدنا ويجيعونه ويعطشونه حتى ما يقدر أن يستوي جالساً من شدة الضر الذي نزل به، حتى يعطيهم ما سأله من الفتنة"^(٢).

وتعدى هذا إلى إزهاق أرواح من آمن بلا جريرة تستحق ذلك إلا أن آمنوا بالله العزيز الحميد، كما حدث لسمية، حيث طعنها أبوجهل لعنه الله بحرية فقتلها^(٣).

والأخبار في هذا كثيرة، ليس الغرض ذكرها، وإنما الاستشهاد بحقيقة ما وصل إليه هؤلاء المتكبرون، وأنهم جمعوا خصال الشرف في الإعراض كلها، وأنهم قد أسسوا أعمالهم على إشباع نفثات هذا الدافع الدفين، وإن كان على حساب الآخرين، فأى تلذذ يجده هؤلاء في تعذيب الناس ؟ فهذه من إحياءات دافع الكبر الذي طمس النور في نفوسهم حتى تعدى بهم كل ما سبق إلى قتل الدعاة والمصلحين، ويؤكد هذا قول ربنا جل وعلا : "أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ففريقاً كذبتهم وفريقاً تقتلون"^(٤).

(١) السيرة لابن هشام. (مرجع سابق) ج ١ ص ٧٩.

(٢) نفس المرجع السابق. ج ١ ص ٢٧٩.

(٣) انظر السيرة لابن كثير. (مرجع سابق) ج ١ ص ٤٩٥.

(٤) البقرة - ٨٧ - .

فهؤلاء اليهود الأذلاء جرأهم الكبر حتى امتدت أيديهم لقتل فريق من الأنبياء الأبرياء،
وممن قتلوه يحيى وذكريا^(١)، ويستنبط ابن عاشور فائدة من الآية السابقة في حقيقة
استكبارهم فيقول: "فاستكبارهم أنواع: تكذيب، وتقتيل وإعراض"^(٢).
فالخلاصة أن الكبر لا يستقر في صاحبه ويؤذيه فحسب بل يتحول إلى تكبر على
الحق ثم يستحدث أنواعاً من التصرفات المتحدية للحق، فيذهب بصاحبه كل مذهب نحو
الشر حتى لا يبقى له خيراً.

وثمة ملاحظة ينبغي الإشارة إليها، مما سبق يتبين أن الكبر دافع متدرج، فهو يبدأ
بالاستقرار في نفس الإنسان، ثم يتدرج به فتظهر أعراضه في علامات المتكبر الشخصية
والاجتماعية، وهذا يؤدي به إلى الاستماع للحق فيعرض عنه، ويعانده فيتخذ سبيل الغي
سبيلاً، فيبدأ بعد ذلك بمواجهة الحق، ويتنوع كبره في ذلك، من مجادلة بلا حسنى، وعداوة
بلا هوادة، واستهزاء وسخرية بالحق وأهله بلا حدود ولا قيود، ثم يسعى بكل ما أوتي من
قوة للصد عن سبيل الله يبغيها عوجاً، فيعجز ويغتاظ من قوة الحق والداعي إليه فينال
الدعاة بالأذى والقتل، فالى أين ينتهي به كبره ياترى؟ .

(١) انظر الجامع لأحكام القرآن ج ٢ ص ٢٥ (مرجع سابق).

(٢) التحرير والتنوير ج ١ ص ٥٩٩ (مرجع سابق).

المطلب العاشر : نهاية الكبر :

إلى أين ينتهي الكبر ؟

يلازم الكبر صاحبه حتى اللحظات الأخيرة، فجذوره في الإنسان عميقة. حيث إنه آخر ما يبقى في قلوب تاركي الدنيا للأخرة، وذلك لتمكنه في النفس،^(١) .
ومن الأخبار الصحيحة ما يؤيد ذلك، فهذا أبوجهل - وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة، واستعداد ابن مسعود (رضي الله عنه) لجز رأسه - يقول : "أغبر أكار قتلني ؟"،^(٢) والأكار هو الزراع^(٣)، وأراد بهذا تنقيصاً لقاتله واحتقاراً له^(٤)، ويستمر أبوجهل شارحاً فنون كبره ومؤكداً احتقاره لمن تمكن من القضاء عليه، فيقول "لقد إرتقيت مرتقى صعباً يارويعي الغنم"^(٥) .

فمن يريد أبوجهل أن يقتله ؟

لا يزال وهو في هذه اللحظات الحرجة وفي آخر أنفاسه يجيب فيقول "أما إن أشد شئ لقيته اليوم قتلك إياي، وألا قتلني رجل من المطيبين الأحلاف"^(٦) سبحان الله حتى في مصرعه يريد أن يتولاه نذ له في دواعي الكبر.

فلا غرابة أن جعل (الرسول صلى الله عليه وسلم) الكبر نقيض الإيمان حيث يقول "لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر"^(٧)، ذرة واحدة من كبر تعمل بالإنسان كل هذا، وما هذا إلا لتحذير الإنسان من خطورة ذلك، وفي الحديث دلالة واضحة على أن الكبر دركات لا حد لها، فهذه ذرة من كبر فكيف بمن كله كبر والعياذ بالله .

(١) انظر / آداب النفوس. الإمام / أبو عبدالله ابن الحارث بن أسد المحاسبي ص٧٦. دراسة وتحقيق / عبدالقادر

أحمد عطا. مؤسسة الكتب الثقافية. بيروت. ط : ١ - ١٤٠٨ هـ .

(٢) صحيح البخاري مع الفتح. ج٧ ص٣٢٢ (مرجع سابق).

(٣) انظر فتح الباري. ج٧ ص٢٩٥. (مرجع سابق) .

(٤) انظر المرجع السابق نفسه ج٧ ص٢٩٥.

(٥) السيرة النبوية، لابن كثير ج٢ ص٤٤١.

(٦) الكامل في التاريخ. ج٢ ص٨٨ (مرجع سابق).

(٧) صحيح مسلم بشرح النووي. ك/الإيمان. باب (تحريم الكبر وبيانته) ج٢ ص٩٠.

والأعجب من ذلك هو تصوير الرسول (صلى الله عليه وسلم) لحال المتكبرين يوم القيامة حيث يقول : "يحشر المتكبرون يوم القيامة أمثال الذر في صور الناس، يعلوهم كل شئ من الصغار"^(١) فهو كان يرى نفسه فوق كل شيء، وهذا هو تحت كل شيء فلات حين مناص.

وهذا يبين مبلغ أثر هذا الدافع، ولذا عده شيخ الإسلام زيادة على الشرك بل وأخطر منه^(٢)، ويقول في ذلك : "فالمستكبر الذي لا يقر بالله في الظاهر كفرعون أعظم كفراً من غيره، وإبليس الذي يأمر بهذا كله ويحبه ويستكبر عن عبادة ربه وطاعته أعظم كفراً من هؤلاء"^(٣).

فالاستكبار ليس العصيان وعدم الطاعة فحسب، وليس هو الكفر وعدم الإيمان فقط، وإنما هو زيادة على ذلك التعالي والتحدي لما يكفر به المتكبر ويعصي فيه^(٤)، بل هو أول معصية بدأت من إبليس^(٥).

(١) المسند. ج ١٠ ص ١٥٧ حديث رقم (٦٦٧٧) (مرجع سابق).

(٢) انظر الفتاوى . ج ٧ ص ٦٢٨-٦٣٣ (مرجع سابق) .

(٣) المرجع السابق نفسه . ج ٧ ص ٦٣٣ . (مرجع سابق) .

(٤) انظر من مفاهيم القرآن في العقيدة والسلوك . د. محمد البهي ص ٩٨ . مكتبة وهبة . ط : ١ - ١٣٩٢ هـ .

(٥) انظر المحرر الوجيز . ج ١ ص ١٨٠ .

المبحث الثاني : دافع الغرور

ويشتمل على الآتي :

المطلب الأول	:	تعريف الغرور
المطلب الثاني	:	حقيقة الغرور
المطلب الثالث	:	أسباب الغرور
المطلب الرابع	:	آثار الغرور

المطلب الأول : تعريف الغرور :

أولاً : في اللغة : يطلق الغرور في اللغة على معنيين :

الأول : الخداع والغفلة عن العاقبة^(١) .

الثاني : ما يؤدي إلى الغرور، وما يوقع فيه من إنسان، وشیطان، ومن مال وشهوة.^(٢)

يرى ابن فارس أن تلك المعاني تدل على نقصان الفطنة^(٣) وهو زبدة ما قد يقال بشأنه في نظري .

ثانياً : في الاصطلاح : هناك توافق في المعنى عند أهل اللغة وأهل الاصطلاح، فأكثر

الاصطلاحيين يذكرون أنه : الخداع^(٤)، وذكروا بأنه الشيطان^(٥).

"ولا يفرنكم بالله الغرور"^(٦) فيفسر ابن حجر ذلك فيقول : "والعرة بالكسر غفلة في

الفطنة. والغرور : كل ما يغر الإنسان، وإنما فسر بالشيطان لأنه أس ذلك"^(٧).

ويتبين بوضوح من ذلك أن الغرور ذو شقين : داخلي وخارجي، وعبروا عن الأول

بغفلة الإنسان، وعن الثاني بما يخدعه من خارجه. ويوضح ذلك تعريف الغزالي حيث

يقول: "سكون النفس إلى ما يوافق الهوى. ويميل إليه الطبع، أو عن شبهة وخدعة من

الشیطان فمن اعتقد أنه على خير أما في العاجل أو الأجل عن شبهة فاسدة فهو مغرور"^(٨).

ويلخص ذلك كله ابن عاشور باختصار غير مغل فيعرفه بقوله : "الأطماع بما يتوهمه

المغرور نفعاً وهو ضرر"^(٩) .

(١) انظر تاج اللغة وصحاح العربية. أبي نصر إسماعيل حماد الجوهري. مادة : غرر ، وانظر المعجم الوسط.

مادة : غر .

(٢) انظر تاج اللغة وصحاح العربية. مادة : غرر (مرجع سابق).

(٣) انظر معجم مقاييس اللغة. مادة : غر (مرجع سابق) .

(٤) انظر تفسير ابن كثير ج ١ ص ٥٣٣ . (مرجع سابق).

(٥) انظر فتح الباري. ج ١١ ص ٢٥٠ . (مرجع سابق).

(٦) لقمان - ٣٣ - وانظر تفسير ابن كثير. ج ٤ ص ٧٥ .

(٧) المرجع السابق نفسه ج ١١ ص ٢٥٠ .

(٨) إحياء علوم الدين ج ٢ ص ٢٥٤ . (مرجع سابق).

(٩) التحرير والتنوير ج ٣٠ ص ١٧٤ .

المطلب الثاني : حقيقة الغرور :

يلاحظ عند الغزالي التداخل بين مفاهيم الكبر، والعجب، والغرور مع براعة الإمام في التقسيم والتجريد. وما هذا إلا لتقارب هذه الدوافع وتداخلها^(١). وهذا ناشئ لكون هذه الدوافع امتداداً لأصل واحد في النفس، وإنما اختلفت مسمياتها بحسب الآثار التي تترتب عليها في الإنسان^(٢). وإن كان من فرق فهو دقيق - فالعجب هو بداية نشوء هذه الدوافع في النفس، فحين يستعرض ويظهر ذلك يتحول غروراً "فخرج على قومه في زينته"^(٣) خرجة مليئة صلفاً وازدهاء،^(٤) فإذا تعدى ذلك بأذية الآخرين بالقول أو الفعل كان متكبراً.

فما هي حقيقة الغرور إذا ؟

الغرور نوع من أنواع الجهل، فكل غرور جهل وليس كل جهل غروراً^(٥)، يقول صاحب الإحياء : "الغرور : عبارة عن بعض أنواع الجهل، إذ الجهل هو أن يعتقد الشيء ويراه على خلاف ما هو به"^(٦) فهو حالة انفعالية معقدة تحدث في النفس خللاً، حتي يخيل للمغرور أمور ليست واقعية، ويدل على هذا قول عمر رضي الله عنه -لواعظ استأذنه بالحديث بعيد الصلاة - : "إني أخاف أن تنتفخ حتى تبلغ الثريا"^(٧)، فهو لن يبلغ شيئاً في الحقيقة؛ ولكنه باسترواح نفسه وتخيله يذهب كل مذهب . ويؤكد هذا كله قوله صلى الله عليه وسلم : "الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد

(١) انظر إحياء علوم الدين ج ٢ ص ٣٢١-٣٥٧، وانظر / الزاوجر عن اقتراف الكبار. أبي العباس أحمد بن محمد بن علي بن حجر الهيتمي، ج ١ ص ٧٩. دار المعرفة، بيروت ١٤٠٧هـ.

(٢) انظر الأخلاق والسير في مداواة النفوس. أبو محمد علي بن حزم. ص ٧٣. دار الكتب العلمية، بيروت. (ط: ٢) ١٤٠٥هـ.

(٣) القصص - ٧٩ - .

(٤) انظر التحرير والتنوير. ج ٢٠ ص ١٨٣. (مرجع سابق) .

(٥) انظر إحياء علوم الدين. ج ٢ ص ٢٥٤ .

(٦) نفس المرجع السابق. ج ٣ ص ٣٥٤.

(٧) المرجع السابق نفسه. ج ٢ ص ٣٢٥.

الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها، وتمنى على الله: ^(١) فالفرد إذاً موهوم يسير متخبطاً بلا هدى ولا دليل بين، تركض به أحلامه حتى يقع في المحذور.
ويستدعي الغرور : مغروراً فيه، إذ يفتر بما وهبه الله من نعم إلى درجة أنه يخيل إليه أنه الوحيد بلا قرين في تلك النعمة، ويستدعي أيضاً : غاراً يدعو إلى ذلك ويزينه له. ^(٢)
ويتبين مما سبق أن الغرور دافع نفسي اجتماعي حيث تنعكس سلبيات ذلك الغرور على المجتمع.

وخطر هؤلاء المغرورين على المجتمع عظيم جداً، فلا تجدهم إلا عيابين للناس، وقاعين في الأعراض، مستهزئين بالجميع، مجانيين للحقائق!! ^(٣)
وتقع دائرة الغرور باختلاف البشر في مشاربهم، ومداركهم، وبيئاتهم، وإمكاناتهم المادية؛ فغرور القروي غير غرور المدني، وغرور الجاهل يختلف عن غرور العالم، والفقير غير الغني، وهكذا.

فلا يتصور أن غرور هؤلاء تتساوى درجته وصورته، وهذا يدل على أن الغرور دركات وظلمات بعضها فوق بعض، وأعلاها وأعظمها الذي يدفع إلى انكار الحق وتكذيب دعائه.

(١) جامع الترمذي مع تحفة الأحوذى. ج ٧ ص ١٥٦. وضعفه الألباني. انظر ضعيف سنن الترمذي. محمد ناصر الدين

الألباني. ص ٢٧٩. المكتب الإسلامي. بيروت. (ط : ١) ١٤١١ هـ.

(٢) انظر إحياء علوم الدين. ج ٣ ص ٣٥٤.

(٣) انظر الأخلاق والسير في مداواة النفوس. ص ٧٦ (مرجع سابق).

المطلب الثالث : أسباب الغرور :

سببان رئيسان يبرزان الغرور بأكبر صورته ومظاهره، وما عداهما فما هو إلا فرع لهما مع مراعاة عدم التكرار لأسباب أخرى وردت في دافع الكبير.

السبب الأول : القياس الخاطئ

فإن المغرور تعرض له شبهة ومخيلة فاسدة يظن أنها دليل ولا تكون دليلاً^(١) ولكنكم فتنتم أنفسكم وتربصتم وارتبتم وغرتكم الأمانى^(٢).

يقول ابن الجوزي : "والغرور نوع من الجهل يوجب اعتقاد الفاسد صحيحاً والردىء جيداً، وسببه وجود شبهة أوجبت ذلك، وإنما يدخل إبليس على الناس بقدر ما يمكنه، ويزيد تمكنه منهم، ويقل على مقدار يقظتهم وغفلتهم وجهلهم وعلمهم"^(٣)، وما أدل على ذلك من قصة إبليس لعنه الله فيما حكاه عنه القرآن بقوله تعالى : "قال ما منعك إلا تسجد إذ أمرتك قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين"^(٤) فكانه امتنع من الطاعة لأنه لا يؤمر الفاضل بالسجود للمفضول، يعني لعنة الله أنا خير منه فكيف تأمرني بالسجود له ؟"^(٥) فهو استند بامتناعه بقياس عنصره الذي خلق منه بالعنصر الذي خلق منه آدم، ثم فضل نفسه على آدم فامتنع من الإذعان لأمر مولاه جلّ وعلا^(٦).

ولذا قال السلف : إن أول من قاس إبليس^(٧)، ويقولون : ما عبدت الشمس والقمر إلا

بالمقاييس^(٨).

(١) انظر إحياء علوم الدين ج ٢ ص ٢٥٤.

(٢) الحديد -١٤-

(٣) تلبس إبليس. أبي الفرج عبدالرحمن بن الجوزي. ص ٥٠ ط : -٢- ١٤٠٧هـ، دار الكتاب العربي .

(٤) الاعراف -١٢-

(٥) تفسير ابن كثير. ج ٢ ص ٢٢٤. (مرجع سابق).

(٦) انظر التحرير والتنوير.

(٧) انظر تفسير ابن كثير. ج ٢ ص ٢٢٤.

(٨) انظر المرجع السابق نفسه ج ٢ ص ٢٢٥.

السبب الثاني : التعلق بالدنيا :

حب الحياة والاستمتاع بها، هو السبب الأكبر في الكيان البشري، والمحرك الأكبر لما يصدر عن الإنسان من نشاط، وهو يشمل أسباباً جزئية تظل تتفرغ بدورها وتتشعب حتى تصل إلى دقائق صغيرة وعميقة، وكل منها يتصل في النهاية بالأعصاب النفسية،^(١) يقول تعالى : "وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور"،^(٢) والدنيا صفة للحياة،^(٣) يقول صاحب الكشاف - عفا الله عنه - "شبه الدنيا بالمتاع الذي يدلس به على المستام ويغر حتى يشتره ثم يتبين له فساد ورداعته"^(٤)

وأوضح من ذلك قوله تعالى : "ونرا الذين اتخذوا دينهم لعباً ولهواً وغرتهم الحياة الدنيا"^(٥) حيث سخروا به واستهزؤوا أو بنوا أمر دينهم على ما لا يكاد يتعاطاه العاقل بطريق الجد، وإنما يصدر عنه لو صدر بطريق اللعب واللهو كعبادة الأصنام،^(٦) ولذا حطمت هند بنت عتبة أصناماً لها بعد إسلامها ثم قالت : "لقد كنا منكم في غرور"^(٧)، فهم تصرفوا بهذا الحق والطيش باغترارهم بالحياة الدنيا حتى زعموا أن لا حياة بعدها أبداً^(٨) "فلاجل استيلاء حب الدنيا على قلوبهم أعرضوا عن حقيقة الدين واقتصروا على تزيين الظواهر ليتوصلوا بها إلى حطام الدنيا"^(٩)، وهي حقيقة جاء تفصيلها في قوله تعالى : "فوسوس لهما الشيطان ليبيدي لهما ما ووري عنهما من سوءاتهما وقال ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا

(١) انظر دراسات في النفس الإنسانية. ص ١٦٤. (مرجع سابق).

(٢) آل عمران - ١٨٥ -.

(٣) انظر تفسير المنار - ج ٤ ص ٢٧٢ (مرجع سابق).

(٤) الكشاف. ج ١ - ص ٤٨٦ (مرجع سابق).

(٥) الأنعام - ٧٠ -.

(٦) تفسر أبي السعود. ج ٢/٢ ص ١٤٨. (مرجع سابق).

(٧) الكامل في التاريخ. ج ٢ ص ١٧٠.

(٨) انظر التفسير الكبير. ج ١٣/٧ ص ٢٧. وانظر تفسير أبي السعود. ج ٢/٢ ص ١٤٨.

(مرجعان سابقان).

(٩) التفسير الكبير. ج ١٣/٧ ص ٢٧.

من الخالدين"،^(١) ثم قال تدلاهما بفرور"،^(٢) فهذا الفرور هو ما أوحاه الشيطان الأول للإنسان الأول ولزوجه؛ وهو تزيينه لهما الأكل من الشجرة المحرمة عليهما اختباراً من الله^(٣)، فحب الحياة، وزينة الدنيا دافعان فطريان في الإنسان يفرانه فيتوهم ويتمنى حتى يهلك وما بلغ مناه، ويصف الرسول صلى الله عليه وسلم حال الإنسان تلك فيقول: "لا يزال قلب الكبير شاباً في اثنتين: في حب الدنيا وطول الأمل"^(٤)، فهو يهرم ويشيخ ويكبر معه حب المال، والحرص على البقاء، وإذا كان جسمه قد تعرض للضعف والوهن بسبب عقود السنين التي قضاها حتى انتهى إلى الهرم، فإن قلبه لا يهرم ولا يضعف بل يتجدد شبابيه في الحرص عليهما وحبهما^(٥)، فالقرآن يصف الدنيا بأنها زينة ولعب ولهو، فمن اشتغل بذلك عن الحقيقة الباقية فهو مغرور " .. إنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد، كمثل غيث أعجب الكفار نباته، ثم يهيج فتراه مصفراً، ثم يكون حطاماً وفي الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان وما الحياة الدنيا إلا متاع الفرور"،^(٦) فالنصوص الكريمة السابقة تؤكد بوضوح أن التعلق بالدنيا وزينتها سبب رئيس في استئثار دافع الفرور وتمكنه من النفس حتى يورثها المهالك.

وحتى تتبين قوة هذه الأسباب، ولعرفة مبلغ أثر هذا الدافع يحسن إيراد أمثلة حية من شخصيات منعها دافع الفرور من قبول الحق والإذعان لداعيه، وهذا هو موضوع المبحث التالي:

(١) الأعراف - ٢٠ - .

(٢) الأعراف - ٢٢ - .

(٣) انظر تفسير المنار ج ٨ ص ٧ (مرجع سابق).

(٤) صحيح البخاري مع الفتح. ك/الرقاق. باب (من بلغ ستين سنة فقد أعذر الله إليه في العمر) ج ١١ ص ٢٣٩.

(٥) انظر التصوير الفني في الحديث النبوي. محمد الصباغ. ص ٤٧٥. المكتب الإسلامي - بيروت (ط: ١) ١٤٠٣ هـ.

(٦) الحديد - ٢٠ - .

المطلب الرابع : آثار الغرور :

الإنسان خطاء وقاصر بطبعه، فتجد أصنافاً من البشر يفترون بأي نعمة وهبها الله سبحانه وتعالى، فإذا ذكروا بالمنعم والاعتراف بفضلهم، ووجوب شكره، أركسه غروره فنسب النعمة بأنها من جهده وعلمه، وقصة قارون دليل يؤكد هذا، حيث نصحه العارفون قائلين : لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين* وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك ولا تبغ الفساد في الأرض إن الله لا يحب المفسدين*^(١) - أي : ولا تفرح فرح الزهو^(٢) فرد بقوله إنما أوتيته على علم عندي^(٣) - فأننا لا أفترق إلى ما تقولون، فإن الله تعالى إنما أعطاني هذا المال لعلمه بأنني أستحقه ولحبيته لي^(٤) فهذه قولة المغرور المطموس الذي ينسى مصدر النعمة وحكمتها، ويفتنه المال ويعميه الثراء، وهو نموذج مكرور في البشرية، فكم من الناس يظن أن علمه وكده هما وحدهما سبب النعمة التي هو فيها^(٥) .

فهذا ابن نوح عليه السلام - يفتقر بفتوته :^(٦) سأوي إلى جبل يعصمني من الماء،^(٧) وهناك من يفتقر بقوته البدنية : وقالوا من أشد منا قوة،^(٨) شعور كاذب أحسوه بأنه لم تعد هناك قوة تقف إلى قوتهم،^(٩) ولما كان اغترارهم بقوتهم؛ هو باعثهم على الكفر كان قولهم من أشد منا قوة^(١٠) دليلاً عليه خص بالذكر^(١١) .

فهذا الغرور أغفلهم عن قدرة الله؛ فأعرضوا عن رسالة رسول ربهم، وعن إنذاره

(١) القصص - ٧٦، ٧٧ - .

(٢) في ظلال القرآن. ج ٥ ص ٢٧١١. (مرجع سابق).

(٣) القصص - ٧٨ - .

(٤) تفسير ابن كثير. ج ٣ ص ٣٦٢. (مرجع سابق) .

(٥) انظر في ظلال القرآن. ج ٥ ص ٢٧١٢ (مرجع سابق).

(٦) انظر المرجع السابق ج ٤ ص ١٨٧٨ .

(٧) هود - ٤٣ - .

(٨) فصلت - ١٥ - .

(٩) انظر في ظلال القرآن. ج ٥ ص ٣١١٧ .

(١٠) التحرير والتنوير. ج ٢٤ ص ٢٥٦ .

إياهم إعراض من لا يكثر بعظمة الله، لأنهم لو حسبوا لذلك حسابه لتوقعوا عذابه، وأقبلوا على النظر في دلائل صدق رسولهم^(١).

وهذا فرعون يفتّر بسعة ملكه : "ونادى فرعون في قومه قال يا قوم أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي أفلا تبصرون"^(٢).

فهذا المغرور بمكره وشطانته نقلهم من الحقيقة إلى الصورة، ومن مقام الاستدلال والمحجة إلى التشغيب والسفسطة،^(٣) فهو يادر في التلبيس لئلا يستقيم الفكر، ويتجلى النور؛ فأركسهم إلى الظلمات التي كانوا فيها غافلين، لأنه عرف تهيؤهم للاستجابة لموسى^(٤).

ولخطورة هذا الداء ومبلغ أثره فصل القرآن حال من يقع به أحسن تفصيل في قصة صاحب الجنتين، وليبين بوضوح نتائج الغرور، ومآل المغرورين، فإلى أحداث هذه القصة.

فهي من الأمثلة التي ضربها القرآن للمغرورين وجعلها عبرة لهم، حيث يقول تعالى :
وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لأحدهما جنتين من أعناب وحففناهما بنخل وجعلنا بينهما زرعاً *كَلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أَكْلَهَا وَلَمْ تَظْلَمْ مِنْهُ شَيْئاً ، وَفَجَرْنَا خِلَالَهُمَا نَهْرًا ، وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفْرًا * وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ فَقَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا * وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رَدِدْتُ إِلَى رَبِّي لأجدن خيراً منها منقلباً"^(٥) اختلف في من نزلت هذه الآية بأشخاصها وزمانها ومكانها^(٦)، ولا عبرة في ذلك، والأهم أنه مثل لجميع من أغتر، يتبين من خلاله حقيقة الغرور ونتائجه، مع أنه ذكر - من بين الأقوال - أن زمانه في عهد الرسالة المحمدية^(٧).
فهذا المغرور حينما يدخل جنته مزهواً بمنظرها، فأحس بالزهو وانتفش كالديك،

(١) انظر المرجع السابق نفسه ج ٢٤ ص ٢٥٧.

(٢) الزخرف - ٥١ - .

(٣) انظر التحرير والتنوير. ج ٢٥ ص ٢٣١.

(٤) انظر المرجع السابق نفسه ج ٢٥ ص ٢٣٣.

(٥) الكهف - ٣١ - ٣٦ - .

(٦) انظر الجامع لاحكام القرآن. ج ١٠/٥ ص ٣٩٩ (مرجع سابق).

(٧) انظر المرجع السابق نفسه. ج ١٠/٥ ص ٣٩٩ (مرجع سابق).

واختال كالتواؤوس، ملأ جنبه الغرور، وقد نسي الله، ونسى أن يشكره على ما أعطاه^(١) فقال: "ما أظن أن تبيد هذه ابداً" وذلك اغتراراً منه لما رأى فيها من الزروع والثمار والأشجار والأنهار المطردة في جوانبها وأرجائها، ظن أنها لا تفتنى ولا تفرغ ولا تهلك ولا تتلف. وذلك لقلّة عقله، وضعف يقينه بالله، وإعجابه بالحياة الدنيا وزينتها وكفره بالآخرة^(٢)

تم تمادى في غيه فقال "وما أظن الساعة قائمة"، فهو أنكر أولاً فناء الدار، ثم ترتب على هذا إنكاره للمعاد^(٣)، ثم بلغ به الغرور غاية الحمق والسفاهة؛ ففاس حاله بالدنيا بمصيره في الآخرة "ولئن رُدِدْتُ إلى ربي لأجدن خيراً منها منقلباً" قال هذا قياساً للغائب على الحاضر، وأنه لما كان غنياً في الدنيا، سيكون غنياً في الآخرة، اغتراراً منه بما صار فيه من الغنى الذي هو استدراج له من الله^(٤) فتبين من القصة أن الاغترار بزينة الحياة الدنيا يؤدي إلى الكفر كما تبين جهل من يتصور أن إعطاء الله الحياة الدنيا علامة كرامة دائماً؛ فقد يكون الأمر كذلك وقد لا يكون^(٥).

ولو أن هذا المغرور المزهو كان مؤمناً بالله لما تردى في هذا الغرور ولشكر مولاه وسأله من فضله، ولكنه الغرور قد داخله فطمس هذه الحقيقة في نفسه فلم يرها، وجره الكفر والإشراك وظلم نفسه بحملها على هذه العقيدة الخاسرة^(٦).

فيظهر مما سبق أن الغرور دافع قوي للكفر بالله، والتعدي على حقوقه جل وعلا، فقد تبين مما سلف أن الغرور يداخل النفس حتى يخيل للمغرور أوهام أنه لا مثيل له ولا قادر عليه، فيتعدى به إلى أن يقيس أقيسة باطلة فيزن الآخرة بالدنيا، وما دام جنبه مكرماً بالدنيا بزعمه فلا بد أن يكون ملحوظاً بالآخرة، ولم يتركه الغرور حتى تسبب في تدمير ما يملكه وأحيط بثمره فأصبح يقلب كفيه على ما أنفق فيها وهي خاوية على عروشها ويقول يا ليتني لم أشرك

(١) انظر في ظلال القرآن. ج ٤ ص ٢٢٧ (مرجع سابق).

(٢) تفسير ابن كثير ج ٣ ص ١٣٦. (مرجع سابق)

(٣) انظر الجامع لاحكام القرآن. ج ١٠/٥ ص ٤٠٤.

(٤) فتح القدير. ج ٣ ص ٢٨٦.

(٥) انظر الأساس في التفسير. ج ٦ ص ٣١٨٦. (مرجع سابق).

(٦) نصوص قرآنية في النفس الإنسانية. ص ١٩٧ (مرجع سابق).

بربي أحداً * ولم تكن له فئة ينصرونه من دون الله وما كان منتصراً^(١) .

وكما حال الغرور بين صاحب الجنتين وبين المنعم، فإنه كذلك حال بين قريش ممثلة بزعمائها وصناديدها المغرورين بما حباهم الله من نعمة المال والولد والجاه - وبين الدخول في الإسلام باعتباره أحد الدوافع الرئيسية، فقد جاء في الصحيح عن خباب بن ابن الارت قال : كان لي على العاص بن وائل دين فأتيته أتقاضاه فقال : لن أقضيك حتى تكفر بمحمد قال : فقلت له : إني لن أكفر بمحمد حتى تموت ثم تبعث. قال : وإني لمبعوث من بعد الموت فسوف أقضيك إذا رجعت إلى مال وولد^(٢)، فنزل فيه قوله تعالى : ^(٣) أفرأيت الذي كفر بآياتنا وقال لأوتين مالا وولدا * أطلع الغيب أم اتخذ عند الرحمن عهداً^(٤) .

فالغرور منعه من النظر السليم وأبطل تفكيره، حتى أوقعه في الكفر ومحادة الله وأوليائه^(٥) .

فدعاه غروره إلى جحد حق غيره مع الاستهزاء به وبما يؤمن به من حق، ثم يجري معادلة باطلة بمقدماتها ونتائجها، فأصحاب الأبهة والسلطان أعظم أم خباب وأصحابه، ؟ وبين القرآن قياسهم الباطل بآيات قبل ذلك في قوله : وإذا تلى عليهم آياتنا بينات قال الذين كفروا للذين آمنوا أي الفريقين خيراً مقاماً وأحسناً ندياً^(٦)، إنه منطق مادي، منطق المحجوبين عن الأفاق العليا في كل زمان ومكان، فيقارنون بين منتدياتهم ومجتمعاتهم الفخمة الضخمة وذات المكانة البارزة، وبين بيت خباب وغيره من البيوت الفقيرة التي يجتمع بها المسلمون بهدف رفع راية الحق^(٧) .

بل يزعم هؤلاء المغرورون بزيفتهم الفانية أنهم أهدى من محمد صلى الله عليه وسلم

(١) الكهف - ٤٢ - ٤٣ - .

(٢) صحيح مسلم بشرح النووي. ج ١٧ ص ١٢٨. وانظر صحيح البخاري مع الفتح ج - ٨ - ص ٤٢٩ .

(٣) انظر المرجع السابق. ج ١٧ ص ١٢٨ .

(٤) مريم - ٧٧، ٧٨ - .

(٥) انظر في ظلال القرآن. ج ٢ ص ١٢٦٦ .

(٦) مريم - ٧٣ - .

(٧) انظر في ظلال القرآن. ج ٤ ص ٢٣١٨ .

سبيلاً لأنهم أغنى وأبهى^(١).

بل ويرون بغرورهم أنهم أولى بالرسالة من غيرهم، فهذا كبير من كبراء قريش يقول :
"أينزل على محمد وأترك وأنا كبير قريش وسيدها"^(٢) ! .

ويفعل بهم الغرور أفاعيله حتى يحكموا على أنفسهم بالنجاة في الآخرة : "وقالوا نحن
أكثر أموالاً وأولاداً وما نحن بمعذبين"^(٣) .

ميزان في غاية الجهل والحماقة، فبسط الرزق وقبضه ليست له علاقة بالقيم الثابتة
الأصيلة، ولا يدل على رضا ولا غضب من الله،^(٤) فاعتقد هؤلاء أن ذلك دليل على محبة الله
تعالى لهم واعتنائه بهم^(٥)، والله تعالى يعطي المال والولد لمن يحب ولن لا يحب قل إن ربي
يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر"^(٦) .

ولكنه الغرور الخادع الذي طمس بصائرهم، وركض بهم خلف تمنيات مبنية على
أقيسة باطلة، حتى خاضوا فيما لا طاقة لهم به، ويدل على هذا أيضاً ما ذكره علماء
التفسير في قوله تعالى : "عليها تسعة عشر"^(٧) وهم خزنة جهنم^(٨) قال أبو جهل - لعنه
الله - : "يامعشر قريش أما يستطيع كل عشرة منكم لواحد منهم فتغلبونهم"^(٩) وقال من
هو أحق منه : "يامعشر قريش اكفوني منهم اثنين، وأنا أكفيكم منهم سبعة عشر، إعجاباً
بنفسه، ولأنه يتصف بينهم بقوته البدنية"^(١٠).

فمن يبلغ به الغرور هذا المبلغ يصعب إرشاده ودلالته، ولذا قيل : إذا لم تكن المخالفة

(١) انظر في ظلال القرآن. ج ٤ ص ٢٣١٩. (مرجع سابق).

(٢) السيرة النبوية لابن كثير. ج ٢ ص ٥٤. (مرجع سابق).

(٣) سبأ - ٢٥.

(٤) انظر في ظلال القرآن. ج ٥ ص ٢٩١.

(٥) انظر تفسير ابن كثير. ج ٣ ص ٨٦٠.

(٦) سبأ - ٣٦.

(٧) المدثر - ٣٠.

(٨) انظر تفسير ابن كثير. ج ٤ ص ٦٩٤.

(٩) المرجع السابق نفسه ج ٤ ص ٦٩٥.

(١٠) انظر المرجع السابق نفسه ج ٤ ص ٦٩٥-٦٩٦.

عن غرور فالإصلاح عنها مرجو، أما المغرور فلا يتوقب منه إقلاع^(١).
ومن هؤلاء إلى بني إسرائيل وفنون غرورهم، حتى جعلوا النبوة حكراً عليهم : ولا
تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم^(٢) أي : لا تصدقوا إلا نبياً يقرر شرائع التوراة^(٣)، بل غلوا في
غرورهم حتى حقروا جميع الناس فجعلوا ما يكون من أنفسهم حسناً، وما يكون من
غيرهم قبيحاً، وهذا من الانتكاس الذي يحول بين أهله وبين كل خير^(٤).
بل يظن هؤلاء أن انتسابهم إلى أسلافهم من الأنبياء الصالحين بأنه كاف لنجاتهم،
فاستسهلوا العقوبة واستخفوا غروراً بذلك^(٥)، فيقول تعالى عنهم : ذلك بأنهم قالوا لن تمسنا النار
إلا أياماً معدودة^(٦).

والشواهد على مبلغ أثر الغرور كثيرة، فهذا صنف آخر ممن عاصروا الرسالة من
ملوك فارس، يأتيه كتاب الرسول (صلى الله عليه وسلم) فيه النجاة والفلاح في الأولى
والأخرى، فدلاه غروره حتى مزق كتاب الرسول (صلى الله عليه وسلم) وقال : يكتب إليّ
بهذا وهو عبدي، ثم كتب إلى عامل له : أن ابعث إلى هذا الرجل بالحجاز رجلين من عندك
جلدين فليأتياني به،^(٧) فحسب من غروره أن الاتيان بمحمد (صلى الله عليه وسلم) مكبلاً
بالحديد أمراً سهلاً، ولكنه غرور السطوة الذي يدلي بصاحبه حتى يجعله عبرة للمعتبرين.^(٨)
وهكذا يغتر جميع الطغاة فيحسبون أن قلوب الناس طوع أيديهم، أليسوا ملوكاً أذلوا
العباد، وأفسدوا البلاد، فلم لا يخضع لهم جميع البشر ؟! وأشد الفتنة، والمصيبة العظيمة:
حين يرى الناس أن النعم تجري في أيدي الفجار، ويرون أيدي الأبرار منها خالية، أو يرون

(١) انظر التحرير والتنوير ج ٢ ص ٢١١.

(٢) آل عمران - ٧٣.

(٣) التفسير الكبير ج ٨/٤ ص ٩٥.

(٤) انظر تفسير المنار ج ٢ ص ٢٢٤.

(٥) انظر المرجع السابق نفسه ج ٢ ص ٢٦٧.

(٦) البقرة - ٨٠.

(٧) انظر السيرة النبوية لابن كثير ج ٣ ص ٥٠٨-٥٠٩ (مرجع سابق).

(٨) انظر خاتم النبيين ج ٢ ص ٩٧٥ (مرجع سابق).

هؤلاء في عسر، أو مشقة، أو ابتلاء، وأولئك في قوة، وثروة، وسطوة، واستعلاء، فهذا يزيد في غرور الفجار؛ فيظنون أنهم هم المقربون ومن عداهم مبعدون، وينخدع البسطاء والدهماء بما يرون من ذلك ويفتتون^(١)، وصفوة القول : أن الغرور يدفع صاحبه إلى أنكر المواقف، فقد تبين مما سبق أن الغرور أدى بصاحبه إلى :

- أنه لا يقابل العطاء المتزايد من الله عز وجل بالشكر، بل يتمرد ويكفر.
- وأنه مدبر عن الحق مستكبر عن قبوله.
- وأنه يعاند القرآن الكريم ويحاربه ويخطط لإبطال أمره فيفكر ويسعى لذلك.
- وأنه يشكك بأمثال القرآن ومعانيه، وأنه يستهزئ بالقيم العليا، والمبادئ السامية، وبمن يحملونها^(٢).
- وأنه يستبد برأيه فلا يشاور ولا يحاور أحداً، وقد يتسبب في الإضرار بأمة بأكملها من أجل إشباع غروره، وما أدل على ذلك من أحوال بعض البلاد النامية^(٣) وأقرب دليل أحداث الجزائر الأخيرة، شعب كامل يريد الإسلام،؟ فيسلب حرية اختياره من أجل إرضاء ثلة من أفراخ العلمنة وأذناب الغرب فلا حول ولا قوة إلا بالله .

(١) انظر في ظلال القرآن. ج ٥ ص ٢١٨٨.

(٢) انظر الأساس في التفسير. ج ١١ ص ٦٢٣ (مرجع سابق).

(٣) انظر / الشورى بين الإسلام وواقع المسلمين المعاصر. نور الحسن فدا بحث مكمل للماجستير. قسم الدعوة، لم

يطبع بعد.

المبحث الثالث : دافع الحسد

ويتضمن المطالب التالية

- | | | |
|---------------|---|-----------------------------|
| المطلب الأول | : | تعريف الحسد |
| المطلب الثاني | : | حقيقة الحسد |
| المطلب الثالث | : | أسباب الحسد |
| المطلب الرابع | : | بيان كثرة الحسد بين الأقران |
| المطلب الخامس | : | آثار الحسد |

المطلب الأول : تعريف الحسد :

أولاً : في اللغة :

عرّف اللغويون الحسد. فقالوا : الحسد معروف : حَسَدَهُ يحسده ويحسده حسداً، وحسده : إذا تمنى أن تتحول إليه نعمته وفضيلته أو يسلبهما هو^(١).

والحسد كالقراد، ومنه أخذ الحسد يقشر القلب كما تقشر القراد الجلد فتمتص دمه^(٢).
ثانياً : في الاصطلاح :

يذكر أهل العلم تعريفاً موافقاً في معناه ما عرف به في اللغة وإن اختلف في مبناه، فيعرفه القرطبي - رحمه الله - بقوله : "أن تمنى زوال نعمة الله عن أخيك المسلم"^(٣). ويعرفه ابن حجر فيقول : "تمنى زوال نعمة عن المنعم عليه"^(٤)، وظاهر توافقهما في التعريف وتابعهما على ذلك النووي^(٥).

أما شيخ الإسلام (ابن تيمية) - رحمه الله - فقد فرق بين ماهية الحسد وما يترتب على الحسد، بمعنى أنه يرى أن هذا من أثر الحسد وليس الحسد بعينه^(٦) فما الحسد عنده إذا؟ يقول : "والتحقيق أن الحسد هو : البغض والكراهة لما يراه من حسن حال المحسود"^(٧)، والغزالي يرى ذلك أيضاً^(٨)، وهما بهذا يشيران إلى الباعث النفسي الذي يدفع إليه^(٩) لأنه موضع الحسد مكمنه الذي يستقر فيه ويبدأ منه باطنياً؛ ولذا يجد المطلع أن الخلف يبدوون بالجانب النفسي عند تعريفهم له، فيعرفه سيد قطب بأنه : "انفعال نفسي إزاء نعمة الله

(١) انظر لسان العرب. مادة : حسد (مرجع سابق).

(٢) المرجع السابق نفسه مادة : حسد .

(٣) الجامع لأحكام القرآن. ج ٢/١ ص ٧١ (مرجع سابق).

(٤) فتح الباري. ج ١ ص ١٦٦. (مرجع سابق).

(٥) انظر ج ١٨٠ ص ٩٦ (مرجع سابق) .

(٦) انظر مجموع الفتاوى ج ١٠ ص ١١١ وانظر النظرية الخلفية عند ابن تيمية ص ٤٩٦ - ٤٩٧ (مرجعان سابقان) .

(٧) مجموع الفتاوى ج ١ ص ١٦٦. (مرجع سابق).

(٨) انظر إحياء علوم الدين. ج ٣ ص ١٧٩.

(٩) انظر النظرية الخلفية عند ابن تيمية. ص ٤٩٧.

على بعض عباده مع تمنى زوالها^(١)، فهو بهذا التعريف قد وفق بين التعاريف السابقة، حيث أشار إلى أن بدايته نفسية داخلية، ثم تتعدى مجرد الشعور السيئ اتجاه المحسود إلى تمنى زوال النعمة .

(١) في ظلال القرآن. ج ٦ ص ٤٠٠٨ (مرجع سابق).

المطلب الثاني : حقيقة الحسد

من التعريف تَبَيَّنَ أن الحسد لا يقع إلا على نعمة، ويقول صلى الله عليه وسلم :
"استعينوا على إنجاح الحوائج بالكتمان، فإن كل ذي نعمة محسود"^(١).
فإن تمنى زوالها فهذا هو الحسد المذموم، أما إن كره فضل ذلك الشخص عليه فيجب أن
يكون مثله أو أفضل منه، فهذا اطلق عليه الحسد مجازاً وهو الذي سمي بالغبطة^(٢).
يقول العلامة الشنقيطي : "وقد يطلق الحسد ويراد به الغبطة، وهو تمنى ما يراه عند
الآخرين من غير زواله عنهم"^(٣)، ويدل على ذلك قوله صلى الله عليه وسلم : "لا حسد إلا
في اثنتين : رجل آتاه الله مالاً فسلطه علىهلكته في الحق، ورجل آتاه الله الحكمة فهو
يقضي بها ويعلمها"^(٤).

فالحسد المذكور في الحديث هو الغبطة والحرص على هذا يسمى منافسة، فإن كان
في الطاعة فهو محمود، ويدل عليه قوله تعالى : "وفي ذلك فليتنافس المتنافسون"، وإن كان
في المعصية فهو مذموم^(٥)، ويدل عليه قوله صلى الله عليه وسلم : "ولا تحسسوا ولا
تجسسوا ولا تنافسوا ولا تحاسدوا..."^(٦).
وفيه مراعاة لطبيعة الفطرة في حب التنافس وتوجيه ذلك في طلب الخيرات والسمو
إلى معالي الأمور وتجنب سفاسفها.

وبما أن نوعي الحسد بينهما تقارب لفظي فما الفرق بينهما ؟

مما سبق يستنتج الفرق بينهما حيث انهما اشتركا في الطلب من القلب غير أن الحسد

-
- (١) صحيح الجامع الصغير. ج ١ ص ٢٢٠ حديث رقم (٩٥٦).
 - (٢) انظر طب القلوب. ابن تيمية. ص ١١٠ جمع وحوار د. عجيل جاكم النشمي. (سلسلة طب القلوب ٢). دار الدعوة ١٤٤١هـ. وانظر فتح الباري. ج ١ ص ١٦٧ (مرجع سابق).
 - (٣) أضواء البيان في ايضاح القرآن بالقرآن. ج ٩ ص ٦٤٤ (مرجع سابق).
 - (٤) صحيح البخاري مع الفتح. ك/العلم. باب (الاغتباط في العلم والحكمة) ج ١ ص ١٦٥ (مرجع سابق).
 - (٥) انظر فتح الباري ج ١ ص ١٦٧.
 - (٦) صحيح مسلم بشرح النووي. ك البر والصلة. باب (تحريم الظن والتجسس والتنافس والتناجش ونحوها) ج ١٦ ص ١١٨ - ١١٩.

تمني زوال النعمة عن الغير، والغبطة تمنى حصول مثلها من غير تعرض لطلب زوالها عن صاحبها^(١).

وبما أن الغبطة كذلك لم سميت حسداً ؟

يرى شيخ الإسلام (ابن تيمية) أن مبدأ هذا نظره إلى إنعامه على الغير، وكراهته أن يفضل عليه^(٢).

أين مكان الحسد ؟

كثير من أهل العلم يرون أنه من أمراض النفس^(٣) ويدل على هذا ويؤكد قوله تعالى: "وَد كَثِيرٍ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُونَكَ مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كِفَارًا حَسَدًا مِّنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ"^(٤).

ويذكر شيخ الإسلام (ابن تيمية) أنه مرض غالب، فلا يخلص منه إلا القليل من الناس، ولهذا يقال: ما خلا جسد من حسد، ولكن اللئيم بيديه، والكريم يخفيه^(٥)، ومعنى هذا أن ذلك الشعور أو خاطر يخالط الإنسان منه شيء وهو مألوف بالنسبة للطبيعة الإنسانية^(٦)، بل قد يكون مفيداً إذا كان لطلب المجد والرفعة وعلو الشأن وليسابق الإنسان غيره في المفاخر، فيكثر العمل، ويزدان العمران، وهذا من الغبطة^(٧)، ولكن إذا أساء الإنسان إستعمال واستثمار هذا الدافع فيما يعود عليه بالنفع العاجل والأجل؛ انحرف به لسبيل الشر فطغى ويفى، وأخذ يعمل على إزالة النعمة والفضل عن المحسود (عياداً بالله).

ويظهر أن الحاسد الذي يتمنى زوال نعمة الغير، ويعمل لذلك؛ يحس في نفسه انحطاطاً عن المحسود، وأنه لا قبل له بمجاراته في وسائل النعمة وطرائق الفضل، وأن

(١) انظر الفروق. العلامة، شهاب الدين أبي العباس الصنهاجي. المشهور بـ (القرافي)، ج ٤ ص ٢٢٤. دار المعرفة. بيروت.

(٢) انظر طب القلوب (٢) ص ١١١ (مرجع سابق).

(٣) انظر على سبيل المثال: الفوائد. ص ٧٤. وانظر مجموع الفتاوى ج ١٠ ص ١٢٤ (مرجع سابق).

(٤) البقرة - ١٠٩ - .

(٥) انظر مجموع الفتاوى . ج ١٠ ص ١٢٥ .

(٦) انظر النظرية الخلقية عند ابن تيمية. ص ٥٠٢ (مرجع سابق).

(٧) انظر دعوة الرسل إلى الله تعالى. ص ٩١ (مرجع سابق).

الطريق المألوف لتلك المجاراة يكلفه من الجهد والمشقات ما لا قبل له به، فأراد بذلك السوء أن يختصر على نفسه الطريق، فيصل إلى غايته دون أن يكلف نفسه مشقة أو عناءً، فعمل على أن يفتك بالمحسود ويحول بينه وبين الحياة، وبذلك يصل إلى أمنيته من طريق يراها سهلة، ولكنها في الحقيقة محفوفة بالأخطار والمخاوف^(١).

ولأنه كذلك خشي السلف من مغيبته وتساءلوا : هل يكون الحسد في المؤمن ؟ فيجيب الحسن البصري -رحمه الله- من سأله عن ذلك قائلاً : "لا أبالك، ما أنساك بني يعقوب ! فعلوا بأخيهم ما فعلوا"^(٢).

وفي ذلك تنبيه للدعاة وتحذير من استئثار هذا المرض الخبيث فيهم وهم دعاة الخير، فكيف يتصور من الداعية حسداً وحقداً وهو صاحب القدوة في السلوك، والأنموذج الحي في الأخلاق ؟ وكيف يتصف بأفة من أفات القلوب، والعامّة من أخلاقه يرتشفون، ومن رقائقه ومواعظه يتأثرون ؟^(٣).

وله أن يتصور مبلغ موقع ذلك في نفوس المدعويين لو شعروا بمظاهر الحسد وقد بدت عليه .

كيف ينشأ الحسد ؟

يرى الغزالي أن الحسد نتيجة الحقد، والحقد ينتج من الغضب، فأصله يتولد من الغضب^(٤)، ويشرح ابن القيم ذلك في معرض حديثه عن الدوافع الساقطة فيقول : "إذا استعمل الغضب في دفع المضرة عن نفسه تولد منه القوة والغيرة، فإذا عجز عن ذلك الضار أورثه قوة الحقد، وإن أعجزه وصول ما يحتاج إليه ورأى غيره مستبداً به أورثه الحسد"^(٥)، وفي هذا دلالة على مبلغ تمكن هذا الدافع من النفس، وعمق مدفنه فيها، وبالتالي

(١) انظر المرجع السابق نفسه. ص ٩١.

(٢) الحسد (الداء والدواء) أبي عبدالله الحارث بن أسد المحاسبي ص ٤٤، تخريج وتعليق / محمد شاکر الشریف. دار طيبة. مكة والرياض. (ط : ١) (١٤١١هـ)، وانظر مجموع الفتاوى ج ١ ص ١٢٥ .

(٣) انظر عقبات في طريق الدعاة وطرق معالجتها في ضوء الإسلام. ج ١ ص ١٠٥. الشيخ/عبدالله ناصح علوان. دار السلام. القاهرة. ط : ١ - ١٤٠٧هـ .

(٤) انظر إحياء علوم الدين. ج ٢ ص ١٧٦ (مرجع سابق).

(٥) انظر تهذيب مدارج السالكين. ص ٤١٩ (مرجع سابق).

ينبه إلى خطورة النتائج التي يؤدي إليها، وإلى صعوبة علاج من ابتلي به. ولاغربة أن يبدأ بعض أهل العلم بذكر الحسد في بداية تعرضهم لمساوئ الأخلاق^(١)، إذ هو أس وأصل تتفرع منه أخلاق ذميمة كثيرة. ويدل على ذلك ما ذكره القرطبي عند قوله تعالى: "ومن شر حاسد إذا حسد"^(٢) يقول: وأمر نبيه صلى الله عليه وسلم أن يتعوذ من جميع الشرور وجعل خاتمة ذلك الحسد تنبيهاً على عظمه وكثرة ضرره^(٣).

ولتحديد مادة هذا المبحث ومحاولة الإحاطة بما له علاقة بموضوعه فلا بد من الإجابة عن سؤال قد يرد مفاده: ما موقع العين والعائن من موضوع البحث؟ العين حق وأمر يقع بإذن الله، يقول الرسول صلى الله عليه وسلم: "العين حق"^(٤) يقول ابن حجر: "أي الإصابة بالعين شيء ثابت وموجود"^(٥).

فما الفرق بين الحسد والعين؟

العائن والحاسد يشتركان في شيء ويفترقان في شيء، فيشتركان في أن كل واحد منهما تتكيف نفسه وتتوجه نحو من يريد أذاه، ولكن العائن يحدث منه ذلك عند مقابلة المعين ومعاينته، أما الحاسد يحصل له ذلك عند غيبة المحسود وحضوره أيضاً^(٦).

وفيفترقان في أن العائن قد يصيب من لا يحسده من جماد وحيوان ونحو ذلك وربما أصاب نفسه، ولكنه إذا حسد لا يكاد ينفك من حسد صاحبه^(٧) وفي هذا إشارة قوية لقوة ومبلغ الحسد في العائن.

ويعد أن أفاد وأجاد وفصل في حقيقة وقوع العين، واستشهد بالأدلة النقلية والواقعية،

(١) انظر سبل السلام شرح بلوغ المرام من جمع أدلة الأحكام. للإمام الشيخ/محمد بن إسماعيل الأمير اليمني الصنعاني. ج ٤ ص ٣٤٩. دار الريان للتراث ط: ٤ (١٤٠٧هـ).

(٢) الفلق - ٥ - .

(٣) انظر الجامع لأحكام القرآن. ج ١٠/٢٠ ص ٢٥٩-٢٦٠ (مرجع سابق).

(٤) صحيح البخاري مع الفتح. ك الطب. باب: (العين حق). ج ١٠ ص ٢٠٢ (مرجع سابق).

(٥) فتح الباري ج ١٠ ص ٢٠٢.

(٦) انظر بدائع الفوائد. ابن القيم. ج ٢/١ ص ٢٢١. دار الكتاب العربي. بيروت ب: ت.

(٧) انظر المرجع السابق نفسه ج ٢/١ ص ٢٢١.

قال : والمقصود أن العائن حاسد خاص وهو أضر من الحاسد،^(١) ثم استدل على ذلك بأن الله تعالى في قوله : "ومن شر حاسدٍ إذا حسد" ^(٢) ذكر الحاسد دون العائن لأنه أعم فكل عائن حاسد ولا بد وليس العكس ^(٣) .

ويلخص العلامة الشنقيطي الفرق باختصار مفيد فيقول : "ويقال في الحسد : حاسد، وفي العين : عائن، ويشتركان في الأثر ويختلفان في الوسيلة والمنطلق".^(٤)

ومما سبق يتضح أن العين من آثار الحسد وحرص صاحبه على أذية المحسود بتكليف معين تتكيفه نفسه ^(٥)، وقد يضره بإذن الله تعالى، وقد جاء في القرآن ما يدل على ذلك في قوله تعالى : "وإن يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم" ^(٦) يرى بعض المفسرين أن المقصود : يصيبونك بأعينهم ^(٧) وفي هذا دليل على أن العين تقع من الكافر للداعي، أو المستجيبين للدعوة مما يؤكد أثرها وأنها قد تكون من نتائج الحسد، بل من أكد نتائجها لأنها نوع من أنواع ضرره بالمحسود.

وبعد هذا كله ينبغي معرفة أسباب دافع الحسد التي تشعله وتزيد من تغلفه في النفس فإلى ذلك .

(١) انظر المرجع نفسه ج ٢/١ ص ٢٢٢.

(٢) الفلق - ٥ - .

(٣) انظر بدائع الفوائد. ج ٢/١ ص ٢٢٢.

(٤) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ج ٩ ص ٦٤١ (مرجع سابق) .

(٥) وتجنب التفصيل في ذلك أسلم، فقد خاض الناس خوضاً طويلاً في كيفية وقوع ذلك وأين مصدره ؟ هل هو العين ؟ أم النفس ؟ وما موقف الحاسد من ذلك ؟ ولاحظ بعضهم أن هذا شبيه في الخوض في مسألة القضاء والقدر. ولذا يرى صاحب أضواء البيان تعذر تعريف الحسد الخارج من العائن منطقياً؛ وسبب ذلك حسب ما يراه أنه خفي من أعمال النفوس والقلوب *

* انظر للاستزادة من ذلك : بدائع الفوائد. ج ٢/١ ص ٢٢٨-٢٢٦، وانظر أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن. ج ٩ ص ٦٤٦-٦٤٧، وانظر فتح الباري ج ١٠ ص ٢٠٠ (مراجع سابقة) . وانظر العين حق أحمد بن عبد الرحمن الشميمري . ص ١٦ - ٢٥ . مطبعة فضل الرحمن . جدة . (ط: ٢) ١٤١١ هـ .

(٦) القلم - ٥١ - .

(٧) انظر تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٦٣٩ ويقول : "وفي هذه الآية دليل على أن العين أصابتها وتأثيرها حق بأمر الله عز وجل، كما وردت بذلك الأحاديث المروية من طرق متعددة كثيرة". وانظر الجامع لأحكام القرآن ج ١٨/٩ ص ٢٥٤-٢٥٥.

المطلب الثالث : أسباب الحسد :

لا ريب أن الإنسان تصادفه في حياته عراقيل، وتحفه مؤثرات كثيرة، فإذا فقد طمأنينة الإيمان وحلاوته التي تسهل له كل ذلك، وتسمو به عن دنايا الأرض التي تجذبه إليها؛ فإنه ولا شك يغضب فيحقد ثم يحسد من تسبب له بأية مشكلة تعترضه ثم يعاديه ويسعى لأذيته. وهذا يشير إلى أن الأسباب ستكون كثيرة جداً لو تتبعنا صغيرها وكبيرها، ولكن الحديث سيكون منصّباً على الأسباب الكبيرة والتي تحوي في طياتها أسباباً تتفاوت دركاتها. وهي كالتالي :

الأول : البغضاء والعداوة : -

فسر شيخ الإسلام (ابن تيمية) الحسد بالبغض كما مر، وهذا يدل على أن بداية نشوء الحسد هو البغض الذي يفرز إحناً وضمائناً تتكاثر ويشد بعضها بعضاً حتى تنتج آثاراً مدمرة، ويشير إلى ذلك قوله تعالى : "وبما ما عنتم قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر"^(١)، أي : يتمنون لكم الشدة والتعب والضرر، وعجزوا عن إخفاء ذلك، فلاح في صفحات وجوههم، وقلات ألسنتهم ما يعلم به بغضهم للمسلمين^(٢).

وهما من أشد أسباب الحسد، فإن من أذاه شخص بأمر ماء وخالفه في غرض من الأغراض، فإنه يبغضه فيرسخ في نفسه الحقد، والحقد يفضي إلى التفشي والانتقام، فإن عجز عن ذلك أحب أن يتفشى منه الزمان، وربما توهم بأن ما يصيب مبعوضه كرامة من الله^(٣) وخالصة القول : إن العداوة والبغضاء ملازمتان للحسد ولا تفارقانه،^(٤) ويدل على أنهما سبب للحسد قول الرسول صلى الله عليه وسلم "لا تباغضوا ولا تحاسدوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخواناً"^(٥) ففيه إشارة إلي أن كل خصلة سبب للتي بعدها^(٦)

(١) آل عمران - ١١٨.

(٢) انظر تفسير ابن كثير ج ١ ص ٥٩٧. وانظر الكشاف ج ١ ص ٤٥٨، وانظر التحرير والتنوير ج ٤ ص ٦٤.

(٣) انظر إحياء علوم الدين. ج ٢ ص ١٨٢ (مرجع سابق).

(٤) انظر المرجع السابق نفسه. ج ٢ ص ١٨٢.

(٥) صحيح مسلم مع النووي. ج ١٦ ص ١١٥. (مرجع سابق).

(٦) انظر فتح الباري. ج ٦ ص ٢٦٣.

وقد نبهنا الله - عز وجل - إلى خطرهما وأثرهما على موازين الحق والعدالة، وأمرنا أن نتحرر من ذلك الأثر رغبة في التقوى ورهبة من اجتراح الظلم المؤدي إلى غضب الله ^(١)، قال تعالى: "ولا يجرمنكم شنآن قوم على أن لا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى" ^(٢). ويستفاد من ذلك أن الحسد بركات بعضها أشد من بعض، ولكن إذا نشأ بسبب البغضاء والعداوة فإنه يكون شديد الوطأة على صاحبه حيث لا يهدأ له بال ولا يقر له قرار حتى يزيل محسوده من الوجود.

ثانياً : الكبر ^(٣) :

وهذا واضح حيث أن الكبر إذا إستعرّ في النفس فإنه يعني الترفع عن الخلق وأنه أحق بكل أمر كبير، ومن ذلك رفض الكبراء اتباع الرسل والتسليم لهم لأن هذا يعني أنهم سيصبحون مكلفين بخدمتهم، وبذل النفس، والمال، بعد أن كانوا رؤساء متبوعين مخدمين ^(٤) فحسدوهم فأعرضوا عن الحق ودواعيه.

ومن ذلك حسدهم للضعفاء والمساكين الذين امتن الله عليهم بالهداية حتى قالوا أهولاء من الله عليهم من بيننا" ^(٥)، فهؤلاء الكبراء الأغنياء كانوا يحسدون فقراء الصحابة على سبقهم في الإسلام. فقالوا: لو دخلنا في الإسلام لوجب علينا أن ننقاد لهؤلاء الفقراء المساكين وأن نعترف لهم بالتبعية، فكان ذلك يشق عليهم ^(٦)، فقالوا هذه المقولة كالأستحغار لهم والأنفة منهم ^(٧)، وفي هذا السبب تظهر بوضوح مدى العلاقة بين دافع الكبر ودافع الحسد إذ هي علاقة وطيدة وعكسية؛ بمعنى أن كلاً منهما سبب لوجود الآخر، ويفيد أيضاً انهما بهذه الحقيقة يكونان خليطاً واحداً، وبهذا يقوى المانع بين الإنسان وبين الحق.

(١) انظر أبوجهل (عمرو بن هشام) دراسة تحليلية تاريخية. ص ١٢٢ (مرجع سابق).

(٢) المائدة - ٨ -.

(٣) انظر تفسير ابن كثير ج ١ ص ١٨٨ .

(٤) انظر التفسير الكبير. ج - ٢٤/١٢. ص ٦٦ (مرجع سابق).

(٥) الأنعام - ٥٢ -.

(٦) انظر التفسير الكبير. ج ١٢/١٢ ص ٢٣٧. (مرجع سابق).

(٧) انظر إحياء علوم الدين. ج ٢ ص ١٨٢. (مرجع سابق).

الثالث : التنافس الدنيوي :

"التنافس من المنافسة وهي الرغبة في الشيء ومحبة الانفراد به والمغالبة عليه، وأصلها من الشيء النفيس في نوعه"^(١).

ومنشأ ذلك حب الدنيا والتعلق بها، فهي التي تضيق بالمتزاحمين، أما الآخرة فلا تضيق بها. ولذلك خشى الرسول صلى الله عليه وسلم على أصحابه من هذا التنافس ومغيبته فقال مرة لهم : "قوالله ما الفقر أخشى عليكم، ولكن أخشى عليكم أن تبسط عليكم الدنيا كما بسطت على من كان قبلكم، فتنافسوها كما تنافسوها، وتلهيكم كما ألهتهم"^(٢) ويستنبط من هذا الحديث أن التنافس في الدنيا قد يجر إلى هلاك الدين^(٣)، وهذا الذي يخشاه الرسول صلى الله عليه وسلم على الجيل الكريم الذي خلق لعبادة الله وحده، ولانقاذ البشرية من نير العبودية لكل شيء، وإذا كان هذا التوجيه لأولئك فكيف بمن اشتروا الضلالة بالهدى، وعشقوا الدنيا وملذاتها حتى استخدموا - والعياذ بالله - دينهم لكسب دنياهم، فتتافس بعضهم مع بعض لدى أصحاب الجاه والمال والسلطة يحلون ويحرمون، ودافعهم الأول في ذلك الكسب المادي حتى تحاسدوا وتعادوا.

وفي رواية أخرى ينص صلى الله عليه وسلم أن التنافس في الدنيا يجر إلى الحسد والتدابير والتباغض، يقول صلوات الله وسلامه عليه : "تتنافسون ثم تتحاسدون ثم تتدابرون ثم تتباغضون"^(٤)، وفيه إشارة إلى أن كل خصلة من المذكورات مسببة عن التي قبلها"^(٥)، وقال العلماء : التنافس إلى الشيء المسابقة إليه كراهة أخذ غيرك إياه وهو أول درجات الحسد"^(٦).

(١) فتح الباري. ج ١١ ص ٢٤٥. (مرجع سابق).

(٢) صحيح البخاري مع الفتح. ك الرقاق. باب : (ما يحذرون من زهرة الدنيا، والتنافس فيها). ج ١١ ص ٢٤٢. (مرجع سابق).

(٣) انظر فتح الباري ج ٦ ص ٢٦٢.

(٤) صحيح مسلم بشرح النووي. ك الزهد. ج ١٨ ص ٩٦. (مرجع سابق).

(٥) فتح الباري. ج ٦ ص ٢٦٢. (مرجع سابق).

(٦) شرح النووي على صحيح مسلم. ج ١٨ ص ٩٦.

وأنواع التنافس في الدنيا كثيرة، فمن نافس آخر في عمل دنيوي فإنه يفتقد التوجيه الإلهي فيه كبنية التعامل مع ملذاتها فتكون سبباً في هلاكه، ولقد ذم الله فرقة من قوم قارون حينما رأوه في زينته وتمنوا مثله قال عنهم تعالى: "قال الذين يريدون الحياة الدنيا يا ليت لنا مثل ما أوتي قارون"^(١)، يقول ابن كثير "فلما رآه من يريد الحياة الدنيا ويميل إلى زخارفها وزينتها تمنوا أن لو كان لهم مثل الذي أعطي"^(٢).

وبالمقابل أثنى تعالى على من نصحوهم ووصفهم بالعلم بقوله تعالى: "وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحاً ولا يلقاها إلا الصابرون"^(٣) أي: "ولا يلقي هذه الكلمة إلا الصابرون عن محبة الدنيا الراغبون في الدار الآخرة"^(٤).

وإن التنافس بين الناس في سعيهم وراء كثير من مطالب الحياة، وملذات الدنيا قد يؤدي في كثير من الأحيان إلى نشوء البغضاء والكراهية بينهم وإلى وقوع العداوة بعد ذلك، فتشترك هذه الأسباب في تأصيل داء الحسد واستمراره بعد ذلك^(٥).

الرابع : خبث النفس :

وقد يكون السبب هو خبث النفس وإن لم يتوفر من الأسباب السابقة، فإنك تجد من لا يشتغل برئاسة ولا تكبر ولا طلب مال، ومع هذا إذا ذكر ووصف له حسن حال عبد من عباد الله ساء ذلك^(٦). وهذا يعود إلى خلق نفس ذميمة وضعيفة ساقطة ليس فيها حرص على الخير، فلعجزها، ومهانتها تحسد من يكسب الخير والمحامد، ويفوز بها دونها، وتتمنى أن لو فاته كسبها؛ حتى يساويها في العدم كما قال تعالى: "ودوا لو تكفروا كما كفروا فتكونون سواء"^(٧).

(١) القصص -٧٩-.

(٢) تفسير ابن كثير. ج ٣ ص ٦٢٨. (مرجع سابق).

(٣) القصص -٨٠-.

(٤) تفسير ابن كثير. ج ٣ ص ٦٢٨.

(٥) انظر الحديث النبوي وعلم النفس. ص ١٠٧. (مرجع سابق)

(٦) انظر إحياء علوم الدين. ج ٣ ص ١٨٢. (مرجع سابق).

(٧) انظر الفروق النفسية بين صفات النفس الطيبة والخبیثة. ابن قيم الجوزية ص ٤٠. انتقاء وعلق عليه / أبوحذيفة

إبراهيم بن محمد. دار الصحابة للتراث. طنطا ط : ١ (١٤١١هـ).

بل إنه يسر إذا وصف له اضطراب أمور الناس، وانتكاس أحوالهم في جميع شؤونهم، وهذا غاية الخسة والدناءة.^(١)

ولعله من هنا ارتبط الحسد بالشح حيث إن الشحيح هو الذي يبخل بمال غيره، وهذا يبخل بنعمة الله تعالى على عباده الذين ليس بينه وبينهم عداوة ولا رابطة^(٢) فهذا ليس به سبب ظاهر بل هو شر من النفس وطبعها، وليس هو شيئاً اكتسبه من غيرها بل هو من خبثها وشرها.^(٣)

ومن هذا يرى الغزالي أن هذا السبب من أشد الأسباب وأصعبها علاجاً لأن الحاسد بالأسباب الأخر قد يرجى شفاؤه بزوالها لأنها عارضة، أما هذا فهو عن خبث في الجبلة فيتعثر إزالته لرسوخه وقدمه في النفس فتستحيل عادة إزالته.^(٤)

(١) انظر إحياء علوم الدين. ج ٣ ص ١٨٢ (مرجع سابق).

(٢) انظر المرجع السابق نفسه ج ٣ ص ١٨٢ .

(٣) انظر الفروق النفسية بين صفات النفس الطيبة والخبثية. ص ٤٠ (مرجع سابق).

(٤) انظر إحياء علوم الدين. ج ٣ ص ١٨٢ .

المطلب الرابع : كثرة الحسد بين الأئمة والأقرباء والأقارب

فالحسد يكثر حينما تتوفر الأسباب السابقة، وهذه الأسباب عادة تكثر بين قوم تربط بينهم روابط يجتمعون بسببها في مجالس المخاطبات، ويتواردون على الأغراض^(١). ويؤكد هذا شيخ الإسلام؛ حيث يرى أنه يقع كثيراً بين المتشاركين في رئاسة أو مال ويكون بين النظراء فيكره أحدهما أن يفضل عليه الآخر كحسد إخوة يوسف له، وكحسد أحد ابني آدم لأخيه حيث تقبل الله قربان أحدهما ولم يتقبل قربان الآخر فحسده على فضله عليه من الإيمان والتقوى وقتله على ذلك^(٢).

ويرى الشيخ الدوسري أن كثرة الحسد وقلته، وقوته وضعفه في الأمكنة حكى العلماء أسباباً أرجحها ما يؤيده الحسن وهو : بروز المنافسة لبروز النعمة وبروز العمل والفن، وغير ذلك، ولهذا تجد الحسد ينتشر في القرى الصغيرة التي يبرز فيها أدنى شيء للعيان، فتكثر الغبطة ويقوى الحسد، بخلاف المدن الكبيرة، فإن الأعمال فيها كثيرة والحركات واسعة والمسافات شاسعة، وكل ذي نعمة من النعم مشغول عن منافسه ولا يدري عنه^(٣).

عدا كون القرى عادة تكون مجتمعاً صغيراً مترابطاً أسرياً، فتجد بعضهم بينه وبين الآخرين قرابة نسب. وهذا يجعل الانتباه أشد لأي نعمة تحدث لأي شخص فيها. وهذه قرىش متمثلة بصناديدها تحسد محمداً (صلى الله عليه وسلم) على نعمة النبوة لما يحدث بينها وبين أسرته من تنافس في المآثر والمكارم، واليهود لقربهم من العرب ومجاورتهم لهم حسدوهم على نعمة النبوة والإسلام، ولا ريب أن هناك أسباباً راسية في نفسيات هؤلاء، ولكن مع ذلك فهذا مما يزيد في غيظهم وحسدهم وهم يشاهدونهم أمامهم ويسمعون عن انتصاراتهم.

(١) انظر إحياء علوم الدين ج٣ ص ١٨٢ (مرجع سابق).

(٢) انظر مجموع الفتاوى ج١٠ ص١٢٦ (مرجع سابق).

(٣) انظر صفوة الآثار والمفاهيم في تفسير القرآن العظيم. ج٢ ص٢٠٦ (مرجع سابق).

المطلب الخاص : آثار الحسد :

مما سبق بدت خطورة الحسد تظهر وآثاره تتعدى الإنسان إلى مجتمعه وترديه في دينه ودنياه .

فهذه الآثار تترك بصماتها على السلوك الاجتماعي حيث ينجم عنه في المجتمع شرور كبرى منها : الغيبة والنميمة، والبغي والعدوان والظلم، والجور في الحكم حتى يصل والعياذ بالله إلى القتل بلا جريرة توجب ذلك.

ويؤدي هذا إلى إتساع هوة الخلاف والتصدع بين أفراد المجتمع، وهذا يوصل إلى تفرق الأمة أحزاباً وشيعاً حتى يذهب مجدها، ويضعف جندها بظهور الحسد وانتشار الحاسدين، ويظهر هؤلاء ينتشر معهم الكبر والحقد والبغضاء.^(١)

ولذا حذر الرسول صلى الله عليه وسلم أمته من هذا المرض الويل فقال : " لا تباغضوا ولا تحاسدوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخواناً"^(٢)

وهذا لأنه يقضي على كل السمات الخيرة في الإنسان فنهى عنه وعن مسبباته وأسبابه^(٣)، ويدل على ذلك أيضاً قوله صلى الله عليه وسلم : "سيصيب أمتي داء الأمم، الأشر والبطر، والتكاثر والتشاحن في الدنيا، والتباغض والتحاسد، حتى يكون البغي"^(٤) .

بل يتعدى ذلك حتى يحول بين الإنسان وبين الانصياع لنداء الحق فيتركه في الغي والضلال، يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : - "دبُّ إليكم داء الأمم قبلكم الحسد والبغضاء هي الحالقة، لا أقول تحلق الشعر ولكن تحلق الدين، والذي نفسي بيده لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ولا تؤمنوا حتى تحابوا أفلا أنبئكم بما يثبت ذلك لكم : أفشوا السلام بينكم"^(٥) .

(١) انظر الأخلاق الإسلامية وأسسها/ ج ١ ص ٧٢٨. وانظر النظرية الخلقية عن ابن تيمية ص ٥٠١. (مرجع سابق)..
وانظر حسد الحاسدين بين العلم والدين (حقيقة الحسد وعلاج المحسود). مجدي محمد الشهاوي. مكتبة القرآن.
القاهرة- ب : ت.

(٢) صحيح البخاري مع الفتح ك الأدب. باب : (ما ينهى عن التحاسد والتدابير). ج ١٠ ص ٤٨١ (مرجع سابق) .

(٣) انظر النظرية الخلقية عند ابن تيمية. ص ٥٠١. (مرجع سابق).

(٤) صحيح الجامع الصغير. ج ٣ ص ٢١٤ حديث رقم (٣٥٥٢).

(٥) صحيح سنن الترمذي. ج ٢ ص ٣٠٧. حديث رقم (٢٠٣٨).

ففيه دلالة واضحة على أنه يؤثر على الدين^(١) ويصد عن قبوله والإذعان لتعاليمه. بل إنّه من الدوافع القديمة قدم الإنكار من لدن إبليس لعنه الله. وعدوه من أول المعاصي مع الكبر والحرص^(٢)، فأبليس يعرف الحق ومع ذلك انصرف عنه، وأدرك سوء مغبته ووقع فيه، وهذا من نتيجة داء الحسد^(٣).

فاستحق إبليس أن يكون قدوة الحاسدين، حيث أنه حسد آدم فلم يذعن لأمر مولاه حين أمره بالسجود له.

يقول ابن القيم: "وهل منع إبليس من السجود لآدم إلا الحسد؟! فإنه لما رآه قد فضل عليه ورفع فوقه غصُّ بريقه، واختار الكفر على الإيمان بعد أن كان بين الملائكة^(٤). وإذا بالحسد يُرديه من أعلى المقامات إلى أسفلها، فبعد أن كان مع المقربين من الملائكة الطائعين أصبح من المبعدين أباً للمردة والشياطين .

ويحذو قابيل^(٥) حذو إبليس فيحسد أخاه لأن الله قبل ما قدمه من قربان ولم يقبله من قابيل فقتله لأجل ذلك^(٦)، وفيهما قال تعالى: "واتل عليهم نبأ ابني آدم بالحق إذ قربا قرباناً فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر قال لأقتلنك قال إنما يتقبل الله من المتقين" حتى قوله تعالى "فطوعت له نفسه قتل أخيه فقتله فأصبح من الخاسرين"^(٧).

فَسَنُّ سَنَةِ سَيْنَةَ يَتَحَمَلُ وَزَرَهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ بِسَبَبِ هَذَا الْحَسَدِ يَقُولُ الرَّسُولُ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): "لَا تَقْتُلْ نَفْسَ ظَلَمًا إِلَّا كَانَ عَلَى ابْنِ آدَمَ الْأَوَّلِ كِفْلٌ مِنْ دَمِهَا لِأَنَّهُ

(١) انظر النظرية الخلقية عند ابن تيمية. ص ٥٠١.

(٢) انظر المحرر الوجيز. ج ١ ص ١٨٠. وانظر مجموع الفتاوى. ج ١٠ ص ١٢٦.

(٣) انظر كلمة الحق في القرآن الكريم. الشيخ محمد الراوي. ج ٢ ص ٥٩٦. أشرف على طباعته ونشره: إدارة الثقافة والنشر بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ١٤٠٩هـ.

(٤) هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى ص ١٦ (مرجع سابق).

(٥) اختلف في اسم القاتل وهذا هو المشهور. انظر فتح الباري. ج ٦ ص ٣٦٩.

(٦) انظر مجموع الفتاوى ج ١٠ ص ١٢٦.

(٧) المادة - ٢٧ - ٣٠ - .

أول من سن القتل^(١) .

من الذي حمله على قتل أخيه حتى نال كل هذا الوزر ؟ "حمله على قتل أخيه حسده على مزية القبول فصار الحسد بهذا أول جريمة ظهرت في الأرض"^(٢) ، ويعلل مرضه فيقول: أتمشي على الأرض يراك الناس أفضل مني ؟^(٣) ومن هذا درس يعيه الدعاة اليوم إذا برز بينهم داعية ذاع صيته، وانتشر خبره وخيره، وإن كان أصغر سناً - وقد ذكر أهل العلم أن القاتل أكبر من المقتول في القصة السابقة^(٤) - لأن غاية الدعاة واحدة هي رضا الله عز وجل، وانتشار دعوته؛ فمن سعى لذلك فهو حبيبنا بصرف النظر عن مقدار سنه وعلمه وحسبه وجنسه .

وما ترك العلماء هذه الآية حتى بينوا ما تكشفه من الآثار والنتائج السيئة التي أدت إليها هذا الداء الأسود الذي ذلل النفس كتذليل الحيوان الصعب، وهذا يعني أنه تدرج به وطمس جميع الصوارف والمواقف التي تحول بينه وبين قتل أخيه، من : الأخوة، ومن الكلام الطيب الذي كان يدلي به أخوه، ومع ذلك كله تمكن الحسد من النفس وزين له قتل أخيه^(٥)، فهذا المرض إذا تملك النفس يفسدها، وإذا استقر في القلب أماته، فلا تنفع معه حيل الاسترضاء، أو الاقتناع، لأن عقله يقع تحت تأثير هذا الداء الشيطاني^(٦) .

ويعد قتل أخيه هل ياترى استراح وعاش هانئاً ؟ النص القرآني ينفي ذلك حيث بين وكشف ما آل إليه أمره بعد ارتكابه جريمته "فأصبح من الخاسرين"^(٧) جاء في تفسير ذلك: في دينه وديناه^(٨) .

(١) صحيح البخاري مع الفتح . ك/احاديث الأنبياء . باب (خلق آدم وذريته) ج ٦ ص ٣٦٤ .

(٢) التحرير والتنوير . ج ٦ ص ١٧٠ . (مرجع سابق) .

(٣) انظر المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز . ج ٥ ص ٧٧ . (مرجع سابق) .

(٤) انظر المرجع السابق ج ٥ ص ٧٧ .

(٥) انظر تفسير المنار . ج ٦ ص ٣٤٥ . (مرجع سابق) .

(٦) انظر الدعوة والإنسان . ص ٤٣٦ (مرجع سابق) .

(٧) المائدة - ٣٠ - .

(٨) انظر تفسير أبي السعود . ج ٥ ص (مرجع سابق) .

وأى خسارة أعظم من هذه ؟

خسر أخاه وسنده في هذه الحياة، ثم حمل وزر غيره، حيث أصبح قدوة لمن أزهق نفساً بغير حق، ثم مرده إلى ربه فيعذبه عذاباً اليماً في الآخرة جزاء ما اقترفت يداه.^(١)
والحسد في هذه القصة جر إلى جريمتين :
الأولى : قطع ما أمر الله به من يوصل وهو الرحم.

الثانية : القتل وإزهاق نفس بدون حق وهو أفظع أنواع الفساد في الأرض^(٢)، ولذلك قال تعالى محذراً من تكرار ما فعله ابن آدم الأول^(٣) من أجل ذلك كتبنا على بني إسرائيل أنه من قتل نفساً بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً^(٤) ويستمر هذا المرض الخبيث في بث آثاره السيئة عبر الأجيال؛ فكان الأول في زرع الاختلاف والفرقة وصد الناس عن قبول الحق، يقول تعالى : "كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغياً بينهم"^(٥).

ومهما يكن من خلاف في مدلول الوحدة هنا فالذي عليه المحققون من أهل التفسير أنهم كانوا على دين الحق والهدى والإيمان^(٦).

فما السبب المباشر في اختلافهم وافتراقهم ؟

ما كان اختلافهم الا بسبب البغي والتحاسد والتنازع في طلب الدنيا^(٧)، والبغي أطلق هنا على الحسد^(٨)،

(١) انظر تفسير ابن كثير. ج ٢ ص ٧٢.

(٢) انظر الأساس في التفسير ج ٣ ص ١٣٥٨ .

(٣) انظر تفسير ابن كثير. ج ٢ ص ٧٤ .

(٤) المائدة -٣٢-

(٥) البقرة -٢١٣-

(٦) انظر تفسير ابن كثير ج ١ ص ٢٧٤ - ٢٧٥، وانظر مجموع الفتاوى ج ١ ص، وانظر صفوة الآثار والمفاهيم من تفسير القرآن

العظيم. ج ٢ ص ٣٢٠، وانظر التفسير الكبير ج ٦/٣ ص ١١ . وانظر المحرر الوجيز ج ٢ ص ١٥٤. (مراجع سابقة).

(٧) انظر التفسير الكبير ج ٦/٣ ص ١١. (مراجع سابق).

(٨) انظر التحرير والتنوير. ج ٢ ص ٣١٠. (مراجع سابق).

والحسد أصل البغي الذي حرفهم عن الحق وقادهم إلى عداوته والتكره له من بعد علم ومعرفة^(١) يقول تعالى : إن الدين عند الله الإسلام وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد جاءهم العلم بغياً بينهم^(٢) "أي بغى بعضهم على بعض فاختلّفوا بالحق لتحاسدهم وتباغضهم وتدابرههم"^(٣). وفيما سبق دلالة على أن سبب الألفة والمحبة والاجتماع هو التمسك بالدين وأن البغي سبب في الفرقة والتشتت والاختلاف، ونتيجة ذلك : عذاب الله ولعنته، وسواد الوجوه^(٤) .

يقول ابن عاشور "والمعنى أن داعي الاختلاف هو التحاسد. وقصد كل فريق تغليب الآخر، فيحمل الشريعة غير محاملها ليفسد ما حملها عليه الآخر، فيفسد كل فريق صواب غيره، وأما خطؤه فأمره أظهر"^(٥)، وتوارث أهل الكتاب هذا المرض الخبيث حتى بعث محمد صلى الله عليه وسلم؛ فحال الحسد بينهم وبين الإيمان به وبالحق الذي يحمله ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً حسداً من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق"^(٦)، فحسدكم لم يكن شبهة دينية أو غيرة على حق يعتقدونه، وإنما هو خبث النفوس، ولؤم الطباع، وفساد الأخلاق، والتمادي في الباطل إصراراً وعناداً ولذلك اتبعه بقوله : "من بعد ما تبين لهم الحق"، فالحق عندهم ظاهر بيّن، ولكنهم حسدوا أهل الحق^(٧).

وفي الآية دلالات حول دافع الحسد :

- أن هذا الحسد لم يكن من قبل التدين والميل مع الحق بل هو منبعث من أصل نفوسهم بالغاً أقصى مراتبه^(٨) .

- إنه لم يصددهم عن الحق وحسب بل ودوا لو ردوا غيرهم عن الحق ليساؤوهم في

(١) انظر كلمة الحق في القرآن الكريم (موردها ودلالاتها). ج ٢ ص ٥٩٨. (مرجع سابق) .

(٢) آل عمران - ١٩ - .

(٣) تفسير ابن كثير. ج ١ ص ٥٣١ .

(٤) انظر مجموع الفتاوى. ج ١ ص ١٧ .

(٥) التحرير والتنوير. ج ٢ ص ٣١٠ .

(٦) البقرة - ١٠٩ - .

(٧) انظر صفوة الآثار والمفاهيم من تفسر القرآن العظيم. ج ٢ ص ٣٠٢-٣٠٣. (مرجع سابق).

(٨) انظر تفسير أبي السعود. ج ١/١ ص ١٤٦. (مرجع سابق).

الانحطاط والنقصان، ومع هذه الرغبة عمل دؤوب بشتى الوسائل لصد الناس عن الحق^(١) .
- فيها توجيه شديد للمسلمين وكشف لحقيقة موقف أعدائهم، فما يقدمونه وأذيالهم وكأنه
نصح لهم فيلبسون عليهم الأمور ويلقون إليهم بالشبهات، فأصل مبعث هذا إنما هو مكروهم
السييء الذي مبعثه الحقد والحسد وليس النصيح الذي مبعثه الاعتقاد^(٢) .

وتعدى بهم حتى تمنوا أن لا ينزل خير على المسلمين فيقول الله تعالى عن رغبتهم
هذه : "ما يود الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين أن ينزل عليكم من خير من
ربكم"^(٣) .

فهذا الحسد اليهودي هو الذي يحكم نظرته للآخرين الذين أنعم الله عليهم، فلا
يريدون أن ينعم على أحد غيرهم^(٤) .

بل ولا يزال هذا الحسد هو الذي يحكم علاقات اليهود بالمسلمين المعاصرين، إنهم
يحسدونهم على إسلامهم ونعمة الله عليهم، ولذلك يتحالفون مع الشيوعيين والملحدين
وغيرهم - إذا كان الإسلام هو الهدف - وكل تحالفاتهم المعاصرة لا تخرج عن هذا
التعليل السياسي القرآني الصادق^(٥) .

ولهذا الخبث، وهذا اللؤم، تمكن هذا الداء من أنفسهم، جمعوا أقبح الأمراض
النفسية والدينية، فهم من أبخل خلق الله وأشحهم على الخير، فعلاقة البخل بالحسد وطيدة،
وصورها القرآن بهذا الصنف اللئيم من الناس : "أم لهم نصيب من الملك فإذا لا يؤتون
الناس نقيراً" * أم يحسدون الناس على ما أتاهم الله من فضله فقد آتينا آل إبراهيم

(١) صفوة الآثار والمفاهيم من تفسير القرآن العظيم. ج ٢ ص ٢٠٢، وانظر الفروق النفسية بين صفات النفس الطيبة
والنفس الخبيثة. ص ٤٠ (مرجع سابق).

(٢) انظر صفوة الآثار والمفاهيم من تفسير القرآن العظيم. ج ٢ ص ٢٠٢.

(٣) البقرة - ١٠٥.

(٤) انظر الشخصية اليهودية من خلال القرآن (تاريخ - سمات - ومصير). د. صلاح عبدالفتاح الخالدي. ص ٢٠٢. دار

القلم . دمشق . (ط: ١) ١٤٠٧ هـ .

(٥) انظر المرجع السابق ص ٢٠٢ .

الكتاب والحكمة وأتيناهم ملكاً عظيماً^(١) .

النقير شكله في النواة؛ كالدائرة يضرب بها المثل في القلة، وشحهم ويخلهم مشهور^(٢)
. وفيها لطيفة لغوية وهي أن كلمة (أم) ذكرت مرتين بمعنيين مختلفين :

الأولى : استفهامية بمعنى : هل

الثانية : حرف إضراب وانتقال بمعنى : بل

وبهذا المعنى عرفنا البعد السياسي الواقعي المستمر لأم الثانية حيث تفسر هي وما
بعدها سر تحالفات اليهود مع الآخرين حتى قيام الساعة^(٣) فهم البخلاء بحيث تصل درجة
بخلهم أنهم لا يؤتون الناس نقيراً ولذلك عشقوا الربا ليستثمروا حاجة المحتاج، وكربة
المكروب، ولا يزيدهم منظر الإنسان المكروب إلا إغراءً لهم بامتصاص دمه.^(٤)

ولا يتوقع منهم بطبيعة الحال أن يرتفعوا على أحقادهم ويعترفون بالحق، ولكن الذي
لا يستساغ منا أن نتابعهم في تجاهل ما تجاهلوه واغفال ما أغفلوه من حقائق التاريخ،
وهو تاريخنا نحن "والتبعة في تسجيله وإبرازه تقع علينا نحن قبل أن تقع على أحد من
العالمين"^(٥) .

محمد صلى الله عليه وسلم - بعث من العرب وبعث من ذرية إسماعيل وإسماعيل
عمهم، ولكن تسلط عليهم العنصرية؛ وأصبحوا يرون من كان خارج دائرتهم فليس عليهم
فيه من سبيل أن يمتصوا دمه، ويتمنوا زوال نعمته، ويهونوا من شأنه، ويحقروا من أمره،
ويسفهاوا موقفه، وذلك كله تعبير عن الحسد الذي ملأ قلوبهم^(٦) .

وفي سياق الآية تذكير بما وهبهم الله من نعم، وإن هذا لمن أقبح دركات الحسد : أن
يحسد ذو النعمة الموهوب ! لقد يحسد المحروم ويكون الحسد منه رذيلة! أما أن يحسد

(١) النساء - ٥٣، ٥٤ - .

(٢) انظر التحرير والتنوير . ج ٥ ص ٨٨ .

(٣) انظر الشخصية اليهودية (تاريخ - سمات - ومصير) ص ٢٠٣ - ٢٠٤ (مرجع سابق) .

(٤) انظر اليهود في القرآن . صلاح أبو إسماعيل . ص ١٢٩ - ١٣٠ دار الصحوه - القاهرة ب : ت .

(٥) كيف نكتب التاريخ الإسلامي ؟ محمد قطب . ص ٢٣ دار الوطن للنشر ط : ١ - ١٤١٢ هـ .

(٦) انظر اليهود في القرآن . ص ١٣٠ .

الواجد المغفور بالنعمة، فهذا هو الشر الأصيل العميق - شر يهود ! المتميز الفريد !^(١).
ويذكر العلماء أن الآيات جمعت أهل الكتاب مع أن الحديث منصب على اليهود ليعلم
أن النصارى يدخلون في هذا الحسد^(٢)، ومع ذلك ففيه دلالة واضحة أنه في اليهود أشد
وأنكى، وفي النصارى أخف، وقصص السيرة ومواقف اليهود تدل على ذلك^(٣).
وللاستشهاد على أن الحسد حائل رئيس بين اليهود وبين الإيمان برسالة الإسلام
نذكر شواهد على ذلك منها :

كان اليهود يتوعدون العرب بقرب ظهور نبي أطل زمانه وبأنهم سينتصرون عليهم
بهذا النبي، ويقاثلونهم معه، فلما ظهر وعرفوا أنه من العرب وليس منهم كفروا به وحسدوه^(٤)
وفي هذا نزل قوله تعالى : وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به
فلعنة الله على الكافرين^(٥)، وكعب بن الأشرف أحد رؤوس يهود وشعرائهم نقض العهد الذي
كان بينه وبين الرسول (صلى الله عليه وسلم) حيث صار يمالئ قريشاً ضد المسلمين ويقول
لهم : إن دينهم الوثني أفضل من دين محمد (صلى الله عليه وسلم)، كما ورد محكماً في
قوله تعالى : ألم ترى إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون
للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلاً، وما حملهم على هذا إلا حسدهم للرسول
صلى الله عليه وسلم^(٦).

ولا تنتهي قصص يهود في الحسد والحقد لأن كل قصة لهم يشوبها الحسد إما
مباشرة أو غير مباشرة لأنه أساس بنوا عليه معاملاتهم وعلاقاتهم وجميع شؤون حياتهم.
وكذلك مشركو العرب وخاصة أولئك الذين كانوا يتطلعون للزعامة ويتنافسون على مآثر الجاهلية .

(١) في ظلال القرآن ج ٢ ص ٦٨٢ . (مرجع سابق) .

(٢) انظر التحرير والتنوير ج ١ ص ٦٥٢ .

(٣) انظر اليهود في القرآن. عبدالكريم الخطيب. ص ٣٥. دار الشروق، ط : ١ - ١٩٧٤ م .

(٤) انظر تفسير ابن كثير ج ١ ص ١٨٧ .

(٥) البقرة - ٨٩ - .

(٦) انظر الدر الثمين في معالم دار الرسول صلى الله عليه وسلم . غالي محمد الأمين الشنقيطي، ص ١٣٢ . دار القبلة

للثقافة الإسلامية . ط : ٢ (١٤١١هـ) .

فيذكر أن أمية بن أبي الصلت كان يطمع بالنبوة وينتظر وقتها وإذا^(١) به يفاجأ بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم - فسبحان مقلب القلوب والأبصار انقلب على عقبيه ونكص وكان الأجدر أن يؤمن ويسلم .

فياله من صداً يفسد النفس التي نطقت غابراً بالتوحيد، فلما جاءها الحق الذي تعرفه حسدت الناس على ما أتاهم الله من فضله^(٢) .

وهذا أبوجهل تأبى نفسه الخبيثة إلا أن يبين حقيقة كامنة في نفسه فضحته حيث يسأله أحد أقربائه عن حقيقة موقفة من الرسالة والرسول صلى الله عليه وسلم - فيرد قائلاً : "تنازعنا نحن وبنو عبدمناف في الشرف، أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا. حتى إذا تجاثينا على الركب، وكنا كفرسي رهان قالوا ! : منا نبي يأتيه الوحي من السماء ! فمتى ندرك هذه ؟! والله لا نسمع به ولا نصدقه"^(٣)، فالحسد هو الذي دعاه إلى العناد والمكابرة والشقاق^(٤)، وفي قصة أخرى يجتمع مع أبي سفيان والأخنس بن شريف فيذهبون يستمعون إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يصلي بالليل في بيته، فينتبهون لما هم فيه فيتواعدون بأن لا يعودوا خشية أن يراهم أحد ولكنهم عادوا مرة ثانية وثالثة يستمعون لتلاوة الرسول صلى الله عليه وسلم^(٥) .

يقول سيد قطب في هذه القصة : "فهو الحسد يقعد بأبي جهل عن الاعتراف بالحق الذي غالب نفسه عليه فغلبته ثلاث ليال ! هو الحسد أن يكون محمد صلى الله عليه وسلم قد بلغ إلى ما لا مطمع فيه لطامع وهو السر في قوله من كانوا يقولون "أنزل عليه الذكر من بيننا"^(٦) .

ويزيد القرآن الحقيقة نصوعاً ووضوحاً عن حقيقة موقفهم من الإسلام حيث يقول

(١) انظر السيرة لابن كثير ج ١ ص ٥٠٦ .

(٢) انظر الدعوة الإسلامية في عهدنا المكّي . ص ٤٢٢ (مرجع سابق).

(٣) السيرة ابن كثير ج ١ ص ٥٠٦ .

(٤) في ظلال القرآن ج ٥ ص ٣٠١٢ .

(٥) انظر سيرة ابن كثير ج ١ ص ٥٠٥-٥٠٦ .

(٦) انظر في ظلال القرآن ج ٥ ص ٣٠١٢ .

تعالى عنهم : " لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما اوتي رسل الله " (١).

ولكن هذا الحسد لن يوصلهم إلى شيء، إلا شيئاً أرادَه الله، ويستمر هذا الموقف متكرراً عبر الزمان، فإذا مارس الدعاة عملهم تصدى لهم هؤلاء بالحسد على ما نالوا في نفوس المستجيبين لهم من مكانة واحترام، متصورين أن المكانة والاحترام وقف عليهم وحدهم (٢) والحسد داء خبيث يسترسل ويستشري بالإنسان، فلا يكفي بالموقف السلبي إزاء الدعوة والداعين لها - بل يتعدى ذلك إلى التعرض للداعي والمؤمنين بدعوته، ويظهر ذلك بصورة شتى من خلال الحياة الاجتماعية.

فأحياناً يظهر حسد حقدهم عن طريق الهمز واللمز والغمز والهمس (٣)، ويدل على ذلك -على سبيل التمثيل- قولة أبي جهل لأبي سفيان حينما مر عليهما رسول الله صلى الله عليه وسلم- : "هذا نبيكم يا بني عبدشمس" (٤) فيستنكر أبو سفيان ذلك حمية منه فيقول أبوجهل : " أعجب أن يخرج غلام من بين شيوخ نبياً " (٥) ففي الأولى تهكم واستحقار، وفي الأخرى ظهر الحسد من مكنه دالاً على سبب مقولته .

وبأوضح صورة وأدق وصف يذكر القرآن حقيقة هذه التحرشات البذيئة والوضيعة من قبل الكافرين إزاء المؤمنين فيقول تعالى : إن الذين أجمعوا كانوا من الذين آمنوا يضحكون وإذا مروا بهم يتغامزون * وإذا انقلبوا إلى أهلهم انقلبوا فكهين" (٦).

إنهم في الحياة الدنيا يضحكون من المؤمنين، أي يستهزؤون بهم ويحتقرونهم ويتغامزون عليهم، بل ويستمررون مشبعين رغبتهم الجانحة في منازلهم فيشتغلون بالمؤمنين يحقرونهم ويحسدونهم (٧).

(١) الأنعام - ١٢٤ - .

(٢) انظر فقه الدعوة إلى الله ج ٢ ص ٩٦٦. (مرجع سابق).

(٣) انظر لمحات نفسية في القرآن الكريم. د. عبدالحميد محمد الهاشمي. ص ١٤٢ العدد ١١- رابطة العالم الاسلامي.

(٤) السيرة لابن كثير ج ١ ص ٥٠٧ .

(٥) نفس المرجع السابق ج ١ ص ٥٠٧.

(٦) المطففين - (٢٩-٣١) - .

(٧) انظر تفسير ابن كثير. ج ٤ ص ٧٦٦-٧٦٧. (مرجع سابق).

فهم يجمعون بين الامتناع من قبول الحق، وبين الأذى بالإشارات وبالهيئة، وسوء القول في غيبتهم وفي حضرتهم لمحاولة زعزعة إيمانهم وردتهم^(١). وهذه الحقيقة التي بينها القرآن هي مشاهد منتزعة من واقع البيئة في مكة، ولكنها متكررة في أجيال ومواطن شتى. وكثير من المعاصرين شهدوها، كأنما هذه الآيات قد نزلت في وصفها وتصويرها مما يدل على تشابه طبيعة المجرمين في كل زمان^(٢). وإن في ذلك لعبرة وفائدة يفيد منها الدعاة اليوم، فما أكثر ما يتحدث بعض المشتغلين بالدعوة عن استفزازات دائمة تواجههم من المدعوين فيتذكرون أن هذه سنة من سنن الدعوة جرت مع الأنبياء والصديقين وعامة المصلحين، فيسيرون في طريق الدعوة صابرين حالمين وللحاquدين غائظين.

فالحسد يأكل قلوبهم فيصور لهم أن هؤلاء يريدون انتزاع ميزة لهم كمطلب ملك، أو رئاسة ونحو ذلك، وهذا واضح في قصة ابن أبي، رأس النفاق، فبعد تحرشه بالرسول صلى الله عليه وسلم وإيذائه، ذكر الرسول صلى الله عليه وسلم وذلك لسعد بن عباد، فقال: يا رسول الله اعف عنه واصفح عنه، فوالذي أنزل عليك الكتاب، لقد جاء الله بالحق الذي أنزل عليك ولقد اصطلح أهل هذه البحيرة على أن يتوجه فيعصبونه بالعصابة، فلما أبى الله ذلك بالحق الذي أعطاك الله شرق بذلك، فذلك فعل به ما رأيت^(٣). نص صريح بأن الحسد كان الحائل الرئيس لهذا المنافق من قبول دعوة الايمان والحق، وفي قوله (شرق بذلك) وهو كناية عن الحسد، يقال غص بالطعام وشجى بالعظم وغص بالماء، إذا اعترض شيء من ذلك في الحلق فمنعه الإساعة^(٤) وفي هذا إشارة لشدة حسده لهذا الفضل العظيم الذي وهبه الله لرسوله صلى الله عليه وسلم - قاب قوسين أو أدنى من التتويج بالملك، فإذا بهذا الرجل من مكة يأتي فينتزع منه كل شيء فيه رئاسة وحكم .

(١) انظر التحرير والتوير ج ٢٠ ص ٢١٢.

(٢) إنظر في ظلال القرآن ج ٦ ص ٢٨٦٠.

(٣) صحيح البخاري مع الفتح ك/التفسير. باب (ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيراً). ج ٨ ص ٢٣١.

(٤) فتح الباري ج ٨ ص ٢٣٢. (مرجع سابق).

وما فتئ الحسد يضطرب في نفوسهم فيمنيهم لعل الدائرة تكون على المسلمين ولكن
الله زاد رسوله صلى الله عليه وسلم نصرة وبسطاً في البلاد ونقصاً في أطراف الأرض
ازدادوا حسداً وغلاءً وبغضاً وازدادت قلوبهم ضغناً وقلة طمع فيما عقدوا به رجاءهم جبناً
دخوراً.^(١)

وهكذا اتضح من الأدلة والشواهد السابقة أن الحسد دافع رئيس يحول بين الناس
وبين الاستجابة السليمة لداعي الخير، ولما يحمله من حق مبین.

(١) انظر الكشاف ج ١ ص ١٧٧. (مرجع سابق).

المبحث الرابع : دافع الخوف

ويحتوي على الآتي :

المطلب الأول	:	تعريف الخوف
المطلب الثاني	:	حقيقة الخوف
المطلب الثالث	:	أسباب الخوف
المطلب الرابع	:	آثار الخوف
المطلب الخامس	:	الجبن وعلاقته بالخوف

المطلب الأول : تعريف الخوف :

أولاً : في اللغة :

للخوف في اللغة معاني عديدة منها : الفرع، والقتل، والقتال، والتقنص^(١) وأبلغ من ذلك وأقرب للمعنى المراد في هذا المقام قولهم "حائط مخوف : إذا كان يخشى أن يقع"^(٢) ففيه إشارة إلى حقيقة الخوف.

ثانياً : في الإصطلاح :

يختار علماء الإصطلاح لفظين هما محور تعريفاتهما لهذا الدافع، ومع تقارب هذين اللفظين في بعض مدلولاتهما فإن المدقق يجد بوناً شاسعاً بينهما. عرفوه فقالوا : "توقع حصول المكروه للمتوقع"^(٣) وقالوا : "تألم من مكروه يتوقع"^(٤) فالتوقع له دلالة واسعة، بمعنى أنه قد يتوهم في أمر ما أنه يخوف وهو عكس ذلك، أما التألم فإنه يوحي بوقوع أمر يستوجب الخوف بدلالة أكيدة، ولذا عرفه البعض بقولهم : "توقع مكروه عن أمانة مظنونة أو معلومة"^(٥) فالمعلومة توجب الحذر أما المظنونة فهي من الأوهام والتي تقعد الإنسان عن الجد والإجتهد. ويقدم الغزالي رحمه الله- تعريفاً شاملاً للمعنيين السابقين فيقول : "عبارة عن تألم القلب وإحتراقه بسبب توقع مكروه في الإقبال"^(٦) وقد وردت معاني أخرى للخوف هي تصوير للتعريف^(٧) ووصف للحالة الداخلية التي تصيب الخائف، حيث يعرفه ابن القيم بقوله: "اضطراب القلب وحركته من تذكر المخوف"^(٨) ويذكر ابن القيم تعريفاً لأحد السلف وهو : "الانخلاع عن طمأنينة الأمن، والتيقظ لنداء الوعيد، والحذر من

(١) انظر لسان العرب. مادة : خوف (مرجع سابق).

(٢) انظر المرجع السابق نفسه. مادة : خوف.

(٣) التحرير والتنوير ج ١١ ص ٢١٦. (مرجع سابق).

(٤) المنار. ج ٤ ص ٢٣٦. (مرجع سابق).

(٥) موسوعة أخلاق القرآن ج ١/١ ص ١٥٤.

(٦) إحياء علوم الدين. ج ٤ ص ١٤٥. (مرجع سابق).

(٧) انظر موسوعة أخلاق القرآن. ج ١/١ ص ١٥٤.

(٨) تهذيب مدارج السالكين. ص ٢٦٩. (مرجع سابق).

سطوة العقاب^(١)

وثمة الفاظ أخر مقاربة للفظة "الخوف" كالخشية والرهبية والوجل والهيبة وهي : الفاظ متقاربة غير مترادفة.

فالحشية أخص من الخوف. فإن الخشية للعلماء بالله قال الله تعالى "إنما يخشى الله من عباده العلماء" فالخوف حركة، والخشية انجماع، وإنقباض وسكون.

أما الرهبية فهي الإمعان في الهرب من المكروه وهي ضد الرغبة التي هي سفر القلب في طلب المرغوب فيه.

وأما الوجل : فرجفان القلب وانصداعه لذكر من يخاف سلطانه وعقوبته أو لرؤيته.

والهيبة هي : خوف يقارنه إجلال وتعظيم وأكثر ما يكون مع المحبة والمعرفة^(٢).

وهذه قصد بها الإمام رحمه الله إثبات درجات الخوف من الله لدى المؤمنين كتفاوت

المسلمين بالإيمان^(٣).

أما الخوف من غير الله وإن تباينت دركاته وإختلفت أحواله، فالهم في هذا المقام

نتيجته، فإذا أدت الى دفع الحق وإنكاره، فهو ذو مقام واحد مهما اختلف نوعه ومسماه.

(١) طريق الهجرتين وباب السعادتین. ابن قیم الجوزية. ص ٥٠١. تحقيق : عبدالله ابراهيم الأنصاري. من مطبوعات

إدارة الشؤون الدينية- قطر ١٣٩٧هـ.

(٢) انظر تهذيب مدارج السالكين. ص ٢٦٩-٢٧٠.

(٣) انظر المراجع السابق نفسه ص ٢٧٠.

المطلب الثاني : حقيقة الخوف :

الخوف خلق من أخلاق القرآن الكريم، نبه عليه، ودعا اليه، وأمر به، فمادة الخوف وردت في مائة وأربعة وعشرين موضعاً في القرآن، مما يدل على عمق الشعور بالخوف في الإنسان، وضرورة توجيه هذا الخوف الي ما ينبغي أن يخاف منه وهو الله تعالى وضرورته عدم صرفة لغير الله تعالى^(١) ويدل على ذلك قوله تعالى منبها عباده أن الخشية منه تعالى "فلا تخشوا الناس واخشون"^(٢) وقوله تعالى "فلا تخافونهم وخافون إن كنتم مؤمنين"^(٣) وقوله تعالى : "وإياي فارهبون"^(٤). وآيات كثيرة تؤكد الأمر بعدم الخوف من غير الله تعالى. وعن أهمية الخوف للمؤمنين يقول ابن القيم "ومنزلة الخوف من أجل منازل الطريق، وأنفعها للقلب، وهي فرض على كل واحد"^(٥) وقد مدح الله أهله في كتابه وأثنى عليهم "إن الذين هم من خشية ربهم مشفقون" إلى قوله "أولئك يسارعون في الخيرات وهم لها سابقون"^(٦). ولذا يعده شيخ الإسلام (ابن تيمية) أصل كل خير في الدنيا والآخرة^(٧) وفي هذا بيان على أن الأصل في الخوف أن يوصل الانسان إلى توحيد ربه وتجنب غضبه ومعصيته^(٨). وأخوف الناس لربه أعرفهم بجلاله وقوته "إنما يخشى الله من عباده العلماء"^(٩) والرسول صلى الله عليه وسلم يقول : "فو الله إنني أعلمهم بالله وأشدهم له خشية"^(١٠)

(١) انظر موسوعة أخلاق القرآن. د. أحمد الشرباص. ج ١/٨ ص ١٥٤. دار الزائد العربي، بيروت ط : (٢) ١٤٠٧هـ.

وانظر الحرب النفسية من منظور إسلامي. د. أحمد نوفل. (الكتاب الثاني) ص ٨٢، دار الفرقان. عمان. ط : (٢) ١٤٠٧هـ.

(٢) المائدة - ٤٤ -

(٣) آل عمران - ١٧٥ -

(٤) البقرة - ٤٠ -

(٥) تهذيب مدارج السالكين. ص ٢٦٩.

(٦) المؤمنون - ٥٧ - وانظر تهذيب مدارج السالكين. ص ٢٦٩ (مرجع سابق).

(٧) انظر مجموع الفتاوى. ج ٧، ص ٢٠.

(٨) انظر المرجع السابق نفسه ج ٧ ص ٢٠.

(٩) فاطر - ٢٨ -

(١٠) صحيح البخاري مع الفتح. ك الاعتصام بالكتاب والسنة. باب (ما يكره من التعمق والتنازع والغلوث في

الدين والبدع) ١ ج ١٢ ص ٢٧٦.

ومخافة الله بهذا الإعتبار فضيلة لأنها ثمرة العلم والمعرفة، وكل من تخافة تتحاماه، وتفر منه، الا الله، فإن خوفه فرار إليه وإحتماء به^(١) ولذلك يقول تعالى لموسى (عليه السلام) حينما ولى هارباً خوفاً من العصا وأيتها الريانية يا موسى لا تخف إنى لا يخاف لدي المرسلون^(٢) والمؤمن يجمع بين الخوف والرجاء ليسير سالماً من المهلكات التي تصادفه في سبيل الحياة.

ويصف ابن القيم أهمية هاتين الصفتين ومبلغ حاجة المؤمن لهما فيقول : "إن القلب في سيره إلى الله عز وجل بمنزلة الطائر، فالمحبة رأسه، والخوف والرجاء جناحاه. فمتى سلم الرأس والجناحان فالطائر جيد الطيران. ومتى قطع الرأس مات الطائر، ومتى فقد الجناحان فهو عرضة لكل صائد وكاسر"^(٣) حتى يبين أن أسلم أحوال المؤمن هو إعتدال الرجاء والخوف، وغلبة المحبة. فالمحبة هي المركب، والرجاء حاد، والخوف سائق^(٤).

ويقابل الخوف السابق الذي يدعو اليه القرآن الأمن القائم على الإغترار، أو الكفران، أو الجهل، وقد نفر منه القرآن وحذر^(٥)، وهذا في قوله تعالى "أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتاً وهم نائمون أو أمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضحى وهم يلعبون، أفأمنوا مكر الله فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون"^(٦).

ثم بينوا أن للخوف حدوداً ينبغي ان لا يتجاوزها لأنها توصله إلى اليأس والقنوط، فقد يخرج الى المرض، والضعف، والوله، والدهشة، وزوال العقل، بل الموت وكل ذلك مذموم^(٧).
ومما سبق يتضح أن الخوف الشرعي قسمان : محمود، ومذموم. فالمحمود هو

(١) انظر سيكولوجية القصة في القرآن. ص ٤٤٩ (مرجع سابق).

(٢) النمل - ١٠ -.

(٣) طب القلوب. ص ٢٦٤ (مرجع سابق).

(٤) انظر المرجع السابق نفسه. ص ٢٦٤.

(٥) انظر موسوعة أخلاق القرآن. ج ١/١ ص ١٥٤ (مرجع سابق).

(٦) الأعراف - ٩٩ -.

(٧) انظر تهذيب مدارج السالكين. ص ٢٦١. وانظر مفتاح السعادة ومصباح السيادة في موضوعات العلوم. ج ٢ ص ٤٧٢.

(مرجع سابق).

المطلوب شرعاً وعقلاً وفطرة، فهذا رجل يسأله الرسول صلى الله عليه وسلم- والرجل على شركه عن عدد الآلهة التي يعبدها فيذكر أنها : "سبعة؛ ستة في الأرض وواحد في السماء، قال : فأبهم تعد لرغبتك ورهبتك ؟ فقال : الذي في السماء"^(١) ولذا دعاه الرسول صلى الله عليه وسلم للإسلام فأسلم مباشرة. وفي القرآن. "فذكر بالقرآن من يخاف وعيد"^(٢) أما الخوف المذموم : فهو أساس كل شر، وخلصته أن الإنسان يخاف من غير الله تعالى، ويرتقي به هذا الخوف حتى يجره إلى إنكار الحق.

وعلماء النفس والاجتماع حينما يتحدثون عن الخوف يعدونه من النواحي الهدامة مثل : الروح المعنوية المنخفضة.^(٣) ولذا فإن الخوف والشعور بالنقص مترادفان من الناحية العملية، فالشعور بالنقص يكون مصحوباً عادة بالخوف، وهذان المرضان يؤثر كل منهما في الآخر ويتأثر به^(٤). ولذا فهو عامل أساسي لسيطرة العدو في حربه النفسية والوهم من قوة العدو.

وقد استغلت الدول الكبرى هذا المرض ف دشنت عبر وسائل الإعلام غزواً فكرياً مكثفاً تصور فيه أنها قوى لا تقهر، فتهمز النفوس الخاملة المريضة وهى في مكانها، فتقعدها عن طرق سبل العظمة والقوة، وتكتفي بأن تخضع وتذل لغير الله. ومن بين أنواع الخوف المذموم يقع (دافع الخوف) الذي تجري الدراسة لبيانها، فيخرج منه الخوف الفطرى الذي وهبه الله لكل بني آدم للهروب مما يضرهم في حياتهم^(٥).

(١) جامع الترمذي مع تحفته الأحوذى. (ما جاء في جامع الدعوات عن رسول الله صلى الله عليه وسلم) ج ٩ ص ٤٥٥ .

(٢) ق -٤٥- .

(٣) انظر علم النفس الإجتماعى. د. حامد عبدالسلام زهران. ص ٣٦٨. عالم الكتب، القاهرة . (ط : ٤) ١٩٧٧م.

(٤) انظر الخوف. و. ج. ما كبريد. ترجمة. د. سيد غنيم. ص ٢٦، دار الفكر العربي. ب : ت.

(٥) انظر السلوك الإجتماعى بين علم النفس والدين. فوزى سالم عفيفى. ص ١٥٠. دار الصحابة للتراث.

طنطا. (ط : ١) ١٤١١هـ.

المطلب الثالث : أسباب الخوف :

هذا الدافع لا ينشأ من فراغ، إذ له أسباب هي التي تنحرف به عن طبيعته الفطرية السوية، وتؤجج عوامل الخوف من كل شئ في الخائف.

فما هي هذه الأسباب ؟

الخوف تكتنفه عوامل كثيرة تحوط به مع جميع الجوانب ولكن هل تعد تلك العوامل أسباباً مباشرة لزرع هذا المرض ؟ هناك بالتأكيد أسباب رئيسه وكبرى وما عداها لا يتعدى كونه متفرعاً منها أو تابعاً لها.

وهي تنقسم الى قسمين رئيسين :

القسم الاول : سبب خارجي وهو : الشيطان

القسم الثاني : سببان داخليان وهما : حب الشهوات والتعلق بها، والظنون والأوهام والوساوس .

القسم الأول : الشيطان :

مر في مواضع سابقة في البحث مدى حرص الشيطان على إغواء الإنسان بشتى السبل، وأنه متسلط عليه مذ ولادته إلى مماته، ومن هذا التسليط زرعه الخوف في الإنسان من كل شئ، ليصده بذلك عن ذكر الله وعبادته، ويدل على ذلك قوله تعالى : "إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين"^(١). أي إذا سول لكم وأوهمكم فتوكلوا على والجاؤا إلى^(٢). فكشفت الآية الكريمة أن الخوف وأسبابه من وسوسة الشيطان، وأن هولاء الذين يملأ الخوف قلوبهم هم أتباع الشيطان وأنصاره.^(٣)

(١) آل عمران - ١٧٥ - .

(٢) انظر تفسير ابن كثير . ج ١ ص ٦٤٧ . (مرجع سابق).

(٣) انظر منهج القرآن في تربية الرجال . د . عبدالرحمن عميرة . ص ١٢٨ . شركة عكاظ . (ط : ١) ١٤٠١ هـ .

القسم الثاني : الداخلي وهو : سببان :

السبب الأول : حب الشهوات، والتعلق بها :

فطر الله الإنسان على حب أشياء؛ ولكنه تعالى حدد ضوابط لهذا الحب. بحيث لا تطفئ على محبة الله، فإن أحبها فله والله.

وأكبر هذه المحبوبات جمعها القرآن الكريم في قوله تعالى : "زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة من الأنعام والحارث ذلك متاع الحياة الدنيا"^(١)

فهذا الحب إذا تعدى حدوده يجعل الإنسان يتمسك بهذه المحبوبات ويخشى عليها من كل شئ:

وعلى سبيل المثال ما حدث لرئيس من رؤساء نجران وبعد أن سمع دعوة الحق، واعترف بصدق نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ينكر أخ له عليه عدم إسلامه فيرد عليه بقوله : "ما صنع بنا هؤلاء القوم شرفونا ومولونا، وأخدمونا، وقد أبو إلا خلفه؛ ولو فعلت نزعوا منا كل ما ترى"^(٢)

وصناديد قريش تطارد صهيباً رضي الله عنه -، وبعد لحاقهم به بينوا له أنهم لن يتركوه يذهب بأمواله معه، فيعدهم بتركها إن هم خلوا سبيله، فأجابوه لذلك فوراً^(٣) مما يدل على حرصهم وخوفهم على الأموال التي اكتسبها لديهم.

والصحابي الجليل حاطب بن أبي بلتعة - رضي الله عنه - يشتد خوفه على أهله وماله، فدفعه هذا الخوف إلى أن يبعث كتاباً إلى المشركين يحذرهم من المسلمين، فيسأله الرسول صلى الله عليه وسلم عن سبب ذلك، فيقول : "والله ما بي أن أكون مؤمناً بالله ورسوله صلى الله عليه وسلم. أردت أن تكون لي عند القوم يد يدفع الله بها عن أهلي ومالي"^(٤).

(١) آل عمران - ١٤ - .

(٢) السيرة لابن كثير. ج ٤ ص ١٠٧ .

(٣) انظر المرجع السابق. ج ٢ ص ٢٢٢ .

(٤) صحيح البخاري مع الفتح. ك المغازي. باب (فضل من شهد بدرأ) ج ٧ ص ٣٠٤ .

ويستخلص من ذلك أن الخوف على قوات هذه المحبوبات، يتمكن من الإنسان حتى ينسيه طاعة ربه، فيذهب به إلى كل مصيبة.

السبب الثاني : الظنون والأوهام :

كل خوف من غير الله عز وجل - فهو مبني على أوهام، وتصورات لا أساس لها، (والمقصود هنا الخوف غير الطبيعي).

وهذه هي التي تقعد بالإنسان عن التقدم، والسعي الجاد في درجات الفلاح والنجاح في دينه ودنياه، فهذا الوهم يتسلط على سلوك الإنسان ومواقفه إزاء الأحداث^(١) ويكفي دليلاً على فساد الأوهام، أنها توحى بخوف من مجهول، وما تأتي به صروف الأيام الليالي، وذلك غيب في علم الله تعالى،^(٢) ويدل عليه قوله تعالى : "لاندري لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً"^(٣)

ويدل على ذلك أيضاً؛ خوف هرقل (ملك الروم) حينما وصله كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم - فهو بسيطرة الأوهام والظنون عليه أفاد أنه ينحاف الروم على نفسه ومرة أخرى ذكر أنه يخاف على ملكه؛^(٤) ويقول ابن حجر معلقاً على حالته تلك : "لو تظن هرقل لقوله صلى الله عليه وسلم في الكتاب الذي أرسل إليه "أسلم تسلم" وحمل الجزاء على عمومته في الدنيا والآخرة لسلم لو أسلم من كل ما يخافه"^(٥) وهذا صحيح يؤكد موقف النجاشي مع غضب بطارقتة وتنافرهم، فإنه لم يعبأ بهم وأسلم وسلم^(٦).

ولذلك يرى الغزالي - رحمه الله - أن النفس مطيعة للأوهام وإن كانت كاذبة، وأكثر إقدام الخلق وإحجامهم بسبب هذه الأوهام فإن الوهم عظيم الإستيلاء على النفس^(٧).

(١) انظر حتى يغيروا ما بأنفسهم. ص ٨٦ (مرجع سابق).

(٢) منهج القرآن في تربية الرجال. ص ١٤ (مرجع سابق).

(٣) الطلاق - ١ - .

(٤) انظر فتح الباري ج ١ ص ٣٧.

(٥) المرجع السابق. ج ١ ص ٣٧.

(٦) انظر السيرة النبوية لابن كثير. ج ٢ ص ١٩ - ٢٠ (مرجع سابق).

(٧) انظر المستصفي من علم الأصول. الامام أبي حامد محمد بن محمد الغزالي ج ١ ص ٥٩. دار العلوم الحديثة. بيروت ب.ت.

فتسلط هذه الأوهام يمنع من رؤية أمر ما على حقيقته ويشل الخوف الناشئ من الوهم
جهد الإنسان فيصبح اسيراً له^(١).

(١) انظر. حتى يغيروا ما بأنفسهم. ص ٨٨.

المطلب الرابع : آثار الخوف

تبين مما سبق أن الخوف في الأصل مطلوب، وهو غريزي في الإنسان يقيه الوقوع بالمخاطر، وأنه إذا توجه الوجهة السليمة فهو محمود، بل هو غاية المراد ليصل الإنسان إلى مولاة. وفي ذلك فائدة قيمة حيث يفترق هذا الدافع عن الدوافع السابقة؛ إذ هي في الأصل مذمومة غير مطلوبة، أما الخوف فمطلوب ولا يستقيم الإنسان الا بوجود هذا الخوف ليردعه عن ارتكاب النواهي، ويحثه على الإمتثال للأوامر.

بل هو علاج رئيس لجميع الدوافع الساقلة حيث يدعو الإنسان إلى تجنبها والإبتعاد عن أسبابها ومسبباتها.^(١)

ولكن اذا فقد الخوف وجهته الصحيحة فإنه ينحرف بالإنسان عن كل فضيلة، وكل مقام رفيع.

فهو حينئذ يعوق قيام العقل بوظائفه العليا على وجهها الصحيح، فيؤدي إلى شرود البال، وتشنت الإنتباه، وخطأ التفكير^(٢) وهذا بداية الإعراض عن الحق ودواعيه، حيث ينشغل بالتفكير بالمخوف وبالتخلص منه، ويهمل البحث الجاد السليم عن غايته في هذه الحياة.

فكيف يكون الإعراض عن الحق بسبب دافع الخوف ؟

سبل الحياة كثيرة، ومتشعبة، وتنوع فيها رغبات الناس، بحسب ميولهم، ومقاماتهم، وشهواتهم .

فمنهم ملك يخشى على ملكه، وهذا وجيه يخشى على وجاهته، وذاك نو مال يخشى على ماله، وآخرون يخشون على أولادهم وأزواجهم ومن يحبونه.

فهؤلاء يخافون على ما يظنون أنهم يملكونه، وغيرهم يخافون من الغير، بمعنى أنهم يخضعون للأقوياء والكبراء باختلاف نوع قوتهم وكبرهم، فيستسلمون لهم، ويسلمون لهم قيادهم، فيسير بهم هؤلاء وفق ما يريدون وكيفما يريدون بلا سؤال، ولا نقاش ولا يعون الا وهم واقعون في مواطن الردى والذل.

وكل هذا بسبب واقع الخوف الذي يفقد صاحبه الطمأنينة والراحة، ويقبضهم عن

(١) انظر مفتاح السعادة ومصباح السيادة في موضوعات العلوم. ج ٢ ص ٤٧٢ (مرجع سابق).

(٢) انظر/الخوف. ص ٦ (مقدمة الكتاب) (مرجع سابق).

مصالحهم، ويحجزهم عن تصرفهم، ويكفهم عن أسباب المواد التي بها قوام أودهم، وانتظام جملتهم^(١)
وهل هذه أنواع الخوف فقط؟ وما الأدلة على هذه الأنواع؟
الخوف يختلف باختلاف أسبابه، ويتفاضل بتباين جهاته، ويكون بحسب اختلاف
الرغبة فيما خيف عليه،^(٢) ولعل في الشواهد والأخبار الثابتة زيادة بيان على مبلغ خطورة
هذا الدافع وبيان أنواعه:

الخوف على السلطان والرئاسة :

ففي القرآن تبرز بوضوح قصة فرعون وخوفه على ملكه أن يسلبه إياه موسى - عليه
السلام - وذلك بقوله تعالى على لسان فرعون "قالوا أجنثنا لتلفتنا عما وجدنا عليه آباءنا
وتكون لكما الكبرياء في الأرض وما نحن لكما بمؤمنين"^(٣) إذ توهموا وخافوا أنهما يريدان
نفعاً لأنفسهما ونزع السيادة منهم^(٤)

فما حمل فرعون على إظهاره هذه العداوة الشعواء ضد موسى - عليه السلام - الا خوفه على ملكه.^(٥)
وفي الأخبار الصحيحة أن هرقل ملك الروم زمن النبوة المحمدية وبعد وصول داعية
الهدى اليه، وتيقنه من صحة نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وشهادته الصريحة؛ سواء
أكان ذلك من مضمون الحوار الذي جرى بينه وبين أبي سفيان (رضي الله عنه) قبل
إسلامه، أو من إقراره مباشرة بصحة ذلك، ومع ذلك أنكر وانقلب على عقبه؛ وما ذلك الا
لخوفه من رجالات دولته وكبرائها^(٦).

وليس هذا مقتصرأ على الأفراد، بل حتى الجماعات، بل والأمم تخاف أن تسحب

(١) انظر أدب الدنيا والدين. لأبي الحسن علي بن محمد بن حبيب العصري المارودي. ص ١٧٨. دار

الرياض للتراث. (ط : ١) ١٤٠٨ هـ.

(٢) انظر المرجع السابق نفسه. ص ١٧٨.

(٣) يونس - ٧٨ -.

(٤) انظر التحرير والتنوير. ج ١١ ص ٢٥٢. (مرجع سابق).

(٥) انظر تفسير أبي السعود. ج ٦/٣ ص ١٨. (مرجع سابق).

(٦) انظر/هداية الحباري في أجوبة اليهود والنصارى ص ١٦ (مرجع سابق).

الزعامة الموهومة منها إلى أمم أخرى.

ومن ذلك تشبثت قريش بسلطانها على القبائل العربية وخوفها من الدين الجديد أن ينتزع هذه الزعامة، وأن يقضي على هذا السلطان، وهي في البلد الحرام الذي إمتلا بالأصنام التي تحج إليها القبائل. فكيف لو هدمت هذه الأصنام وحل محلها دين جديد.^(١) يريد أن يوجه المشاعر ويوجه الضمائر الى عبادة رب واحد، فتسقط بهذا قداسة الأصنام، ويسقط بذلك كهانها وسدنتها، ويتساوى فيها الناس كأسنان المشط، لا فرق بينهما الا بالتقوى. هذا ما يخافه الملأ دائماً وأبداً .

الخوف من الناس :

ومن ذلك خوف قريش - كما ادعت - من القبائل العربية إن هي أسلمت وفي ذلك يقول تعالى على لسانهم «وقالوا إن نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا»^(٢) فهم يعترفون أن الذي يقوله - صلى الله عليه وسلم - حق، ولكن يمنعهم بزعمهم من اتباع الهدى مخافة أن تتخطفهم العرب من أرضهم^(٣) وإن الشبهة التي عرضتها الآية الكريمة السابقة هي حجة كافري اليوم في الانصراف عن الاسلام غافلين أن الله عز وجل هو الذي بيده الأمور كلها، قد يعطي الأمن للكافرين فكيف لا يعطيه للمؤمنين؟^(٤) ويشير إلى هذا قوله تعالى «الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف»^(٥)

ومن هذا الخوف هناك خوف آخر مع صنف آخر حيث يخاف فيه المستضعفون من الكبراء . فلا شك أن الكبراء بيدهم القوة، والنفوذ، والمال، ويستطيعون أن يرهبوا الجماهير ويخوفوهم؛ إن خرجوا عن الكفر الذي هم فيه، وهذا الخوف يثبط الهمم والعزائم عن كثير

(١) انظر/دراسات في السيرة النبوية. د. محمد علي جمأن. ص ٢٨ دار القلم. الكويت. (ط : ١)

١٤٠٢هـ.

(٢) القصص -٥٧- .

(٣) انظر زاد المسير في علم التفسير. ج ٦ ص ٢٣٢.

(٤) انظر الأساس في التفسير. ج ٦ ص ٢٣٢.

(٥) قريش - ٤ - .

من جماهير الناس طلباً لسلامة أنفسهم من الأذى^(١) ويدل على ذلك ما ذكره القرآن عن خوف بني اسرائيل من فرعون وملاه أن يؤمنوا «فما آمن لموسى الا نرية من قومه على خوف من فرعون وملئهم أن يفتنهم إن فرعون لعال في الأرض وإنه لمن المسرفين»^(٢) .

فقد ساء فرعون هؤلاء سوء العذاب حيث كان يقتل أبناءهم ويستحي نساءهم ومع ذلك هم فوقهم قاهرون، ومع حدوث كثير من المعجزات على يد موسى وإصرار فرعون مع ذلك على الكفر بل ومحاولة قتل موسى كل هذا أوقع الرعب والخوف في قلوب بني اسرائيل قوم موسى فما آمن الا الشبان والأحداث فقط.^(٣)

«فالخوف من تنكيل السادة هو أحد العوامل التي تصد المستعبدين عن الإيمان بالدين، ولو يتيقنوا أنه هو الهدى الحقيقي^(٤) .

ولا يزال هذا الدافع حائلاً كبيراً بين الناس وبين أن يصدعوا بالحق فالملا الفاسد بيده زمام الأمور فالأسرة، والراتب، ومتطلبات الحياة .. الخ، كل هذا بأيديهم، فأين الكبير المتعال، أين القاهر الجبار، وأين الداعي من قول الله عز وجل «فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين»^(٥) .

كم من داع يبصر الحق، ويقدر على التذكير به، ولكنه يحتبس في حلقه فلا يسمع به أحد، لماذا؟ لأنه لو نطق لحرم من هذا النفع، أو لغضب عليه هذا الرئيس، أو لفاته هذا الحظ. فهو ايثار لمتاع الدنيا، يلزم الصمت ويظلم اليقين^(٦) .

فلا دعوة صادقة مع خوف أحد غير الله، لأن الخوف يورث الخمول والكسل وهما عدوا الحركة الدائبة المخلصة .

(١) انظر أصول الدعوة. د. عبدالكريم زيدان. ص ٣٩٣.

(٢) يونس - ٨٣ - .

(٣) انظر تفسير المراغي. أحمد بن مصطفى المراغي. ج ١١/٤ ص ١٤٥.

(٤) كيف نكتب التاريخ الاسلامي؟ محمد قطب. ص ٦٩ دار الوطن للنشر. (ط: ١) ١٤١٢ هـ .

(٥) آل عمران - ١٧٥ - .

(٦) مع الله - دراسات في الدعوة والدعاة. ص ٢١٥ (مرجع سابق) .

ومنها الخوف على السمعة :

وهذا ما فعله هذا الدافع الخطير مع فئات من الناس حيث تزعم أنها إذا اتبعت داعي الحق تعير ويقل قدرها بين الناس والأدلة على ذلك كثيرة أقربها قول أبي طالب للرسول صلى الله عليه وسلم «والله لو لا مخافة السُّبة عليك وعلى بني أبيك من بعدي، وأن تظن قريشُ أنني انما قتلتها جزعاً من الموت لقلتها»^(١) وأمّية بن أبي الصلت يذكره رفيق له تنبأ بقرب ظهور نبي وأنه سوف يتبعه، فيقول مجيباً : "استحى من نسيات ثقيف، إنني كنت أقول لهن إنني أنا هو ثم أصير تابعاً لغلام من بني عبد مناف"^(٢) .

وحتى النساء يخشين المسبة، فهذه أم مصعب تقول لابنها المشفق الناصح - : "لا أدخل في دينك فيزري برأيي ويضعف عقلي"^(٣) .

فهؤلاء كانوا يخشون الاساءة إلى نواتهم، وهذه من أوهام وضلالات الجاهلية وحميتهم الفاسدة لأحسابهم .

فهؤلاء يخشون المسبة إذا التحقوا بركب الايمان، ولا يخشون المسبة من عبادة الأصنام والأوثان.

وصفوة القول أن الخوف بشتى أشكاله وصورة يدفع بأصحابه إلى إنكار الحق، والحق بركب الكفار كل هذا من أجل أوهام لا حقيقة لها .

(١) السيرة النبوية لابن هشام ج٢ ص ٤٧ .

(٢) فتح الباري ج٧ ص ١٥٢ . (مرجع سابق) وانظر سيرة بن كثير ج١ ص ١٣٠ .

(٣) الطبقات الكبرى . ابن سعد ج ٢ ص ١١٩ . دار الفكر . بيروت .

المطلب الخامس : الجبن وعلاقته بالخوف :

الجبن يعرف بالآتي : "ضعف القلب وخوره"^(١) وما علاقته بالخوف ؟ .
الجبن زيادة الخوف عن حاجته عند الأسوياء، فليس كل خوف جبناً والعكس صحيح^(٢)
والذي يكشف صفة الجبن في الإنسان هو وجوده في مواقف الخوف الحقيقي أو الوهمي،
فيمثل الجبن بعدم الاقدام في المواقف التي تتطلب الاقدام، أو بعدم ثبوت الاقدام في
المواقف التي يجمل فيها ثبوت الاقدام، أو بالفرار من الساحة.^(٣)
فهو مرض قلبي يدل على ضعف الانسان، ومن ثم يكون من السهل عليه أن يقع في
الكفر، ومعصية الله ورسوله.^(٤)
وعمر رضي الله عنه - يعده من الغرائز القديمة في الانسان حيث يقول : "الشجاعة
والجبن غرائز تكون في الرجال يقاتل الشجاع عن لا يعرف، ويفر الجبان عن أمه"^(٥)
ولذا ذمه الرسول صلى الله عليه وسلم فقال : "شر ما في رجل شح هالع، وجبن
خالع"^(٦) والجبن الخالع هنا معناه : شديد كآئه يخلع فؤاده من شدة خوفه، والمراد ما
يعرض من نوازع الأفكار وضعف القلب عند الخوف"^(٧)
وفي العبارة الأخيرة إشارة إلى علاقة الجبن بموضوع هذا البحث حيث يشوش
الجبن على صاحبه في تفكيره وتصميم قلبه؛ فلا يهتدي إلى الحق، وتتجاذبه الأوهام وتؤزّه

(١) فوائد قرآنية. العلامة / عبدالرحمن بن ناصر السعدي. تحقيق/ زهير الشاويش ص ٩٩. المكتب الاسلامي.

بيروت. د : ت.

(٢) نظر الأخلاق الاسلامية وأسسها. ج٢ ص ٥٨٥ (مرجع سابق) .

(٣) انظر المرجع السابق نفسه. ج ٢ ص ٥٨٥ .

(٤) انظر النظرية الخلقية عند ابن تيمية. ص ٥٠٩. (مرجع سابق).

(٥) تاريخ عمر بن الخطاب. ص ٢٢١. (مرجع سابق).

(٦) صحيح سنن أبي داود. ج ٢ ص ٤٧٧. حديث رقم (٢١٩٢).

(٧) عون المعبود. شرح سنن أبي داود. العلامة أبي الطيب محمد شمس الحق العظيم آبادي. مع شرح الحافظ ابن القيم.

ج ٧/٤ ص ١٢٤/١٢٥. دار الكتب العلمية. بيروت. (ط:١) ١٤١٠ هـ .

الشياطين أزاً، فيستمر بهلعة محتاراً هائماً لا يقر له قرار .
وهذا يعني كذلك : أنه يدل على قصور في النظر إلى حقائق الأشياء بل إنه يدل على
النظرة المعكوسة اليها. ^(١) .

ولذلك يعده ابن القيم بعكس الحزم، والحازم في نظره هو : "الذي قد جمع عليه همه
وإرادته وعقله، ووزن الأمور بعضها ببعض، فأعد لكل منها قرنه، ولفظة الحزم تدل على
القوة والإجماع ومنه حزمة الحطب" ^(٢) ويضيف قائلاً : "فحازم الرأي : هو الذي اجتمعت
له شؤون رأيه، وعرف منها خير الخيرين وشر الشرين؛ فأحجم في موضع الإحجام رأياً
وعقلاً لا جبناً ولا ضعفاً". ^(٣)

وهذا ما قرره ابن القيم عن الحزم اثناء حديثه للتفريق بين الجبن والحزم، حيث عقوب
هذه الجزئية بقوله : الفر بين الحزم والجبن ^(٤)

وصفة القول أن وجود الجبن في الإنسان؛ يقعه عن الاستقلال بالرأي، فيعتمد على
الغير ^(٥) وهذا يدفعه إلى الخضوع والاستسلام لما يعرض له، بل قد يوصل إلى الكفر بالله
عز وجل .

وأقرب مثال يصور حالة هذا المرض هم : المنافقون واليهود، "فالنفاق رذيلة تنشأ عن
الضعف والخوف، مع الأنانية والهبوط الخلقي" ^(٦) .

فهؤلاء يظنون ما لا يعتقدون لجبنهم وهلعهم، وهذا أوضحه القرآن أيما وضوح في
مواضع كثيرة، تبين كيف عبث بهم هذا المرض، وجعلهم امثولة بين الناس.

(١) انظر النظرية الخلقية عند ابن تيمية. ص ٥٠٩. (مرجع سابق) .

(٢) الفروق النفيسة بين صفات النفس الطيبة والخبثية. ص ١٤.

(٣) المرجع السابق نفسه. ص ١٤ .

(٤) انظر المرجع السابق نفسه ص ١٤. وهذا العنوان يعني أن الجبن يتضمن عكس ما ذكر في الحزم، وهذا يعني أن
النتائج التي يؤدي إليها هذا المرض خطيره تؤثر على اختيار الجبان لما يمتقده، ولم يتطرق للحديث عن الجبن مع

وجوده في العنوان مما يدل على أنه يفهم منه أنه بعكس ما شرحه في الحزم، وهذا والله أعلم.

(٥) الغرور. ماكس نوردو. تعريب/ حافظ نجيب. ص ٦٠. مطبعة المعارف. مصر . (ط:١) ١٣٤١ هـ .

(٦) الفضائل الخلقية في الإسلام . ص (مرجع سابق) .

ومن ذلك قوله تعالى "إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراعن الناس ولا يذكرون الله الا قليلا * مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلاً" (١) .

فهو التراجع وعدم الإستقرار والثبات في أحد الصفتين : الصف المؤمن أو الصف الكافر، فهذا موقف يوحي بضعف المنافقين الذاتي؛ هذا الضعف الذي يجعلهم غير قادرين على اتخاذ موقف حاسم هنا أو هناك، ولا على المصارحة برأى وعقيدة وموقف" (٢)

ولأن هذه طبيعتهم وهذا دينهم في جميع شؤونهم، ومع كل من يختلطون به، فهم أشد خطراً من الكافرين الصرحاء، والذي حدد المؤمن موقفه منهم؛ أما هؤلاء فكل يوم لهم حال بحسب قوة الخصم، فالمنافق يقول ما يرضى المستمع الذي يكون عادة في موقف أقوى، وإن كان يخالف ما يعتقد ويؤمن به (٣) ولذا تجد رأس النفاق بن أبي لعنه الله يظهر الطاعة للرسول صلى الله عليه وسلم - وعلى يأمر باتباعه فيفتخر من يسمعه بجلادة كلامه وحسن بيانه، ولكنه في الحقيقة العدو الكئود اللدود لله ولرسوله وللمؤمنين" (٤) .

ومنهم إلى إخوة القردة، وهم الشياطين الذين يغذون المنافقين بكل آفة، فهم المثال الأول لغاية الجبن والخور، تأصل فيهم هذا الداء من قديم، وأكد القرآن هذا في غير موضع ومن مواقف الجبن عند هؤلاء أن موسى (عليه السلام) أمرهم بدخول الأرض المقدسة وهو قائدهم، وقد أخبرهم بأن الله كتبها لهم وهو لم يكذب قط، وقد رأوا على يديه الآيات المعجزات تباعاً، ومع هذا كله رفضوا وقالوا : "يا موسى إنا لن ندخلها أبداً ما داموا فيها، فاذهب أنت وربك فقاتلا. إنا هاهنا قاعدون" (٥) فالجبن والوقاحة صنوان في كثير من الأحيان. يدفع الجبان إلى الواجب فيجيب. فيخرج بأنه ناكل عن الواجب، فيسب هذا

(١) النساء - ١٤٢، ١٤٣ - .

(٢) انظر في ظلال القرآن. ج ٢ ص ٧٨٤. (مرجع سابق).

(٣) انظر الفضائل الخلقية في الاسلام. ص ١٥٨ - ١٥٩ .

(٤) انظر مجموع الفتاوى. ج ٧ ص ٢٨٠. (مرجع سابق).

(٥) المائدة - ٢٤ - .

الواجب ويتوقع على دعوته التي تكلفه ما لا يريد! ^(١) .

وانتبه الى قولتهم "فاذهب أنت وربك" فما دامت الربوبية ستكلفهم القتال فليس ربهم ^(٢) .
فهؤلاء الجبناء يريدون من الأعداء أن يخرجوا من المدينة بلا حرب ولا نصب، ثم يدخلونها، يالوقاحتهم، وللأسف بأن العرب في هذا الزمان المتأخر أخذوا الجبن عن اليهود، فهم يتوهمون أن اليهود سيتركون فلسطين أو جزءاً منها للعرب، ويخرجون منها بطوعهم واختيارهم وإرادتهم وليس بقتالهم وهزيمتهم ^(٣) .

وعموماً فكل من أشرك بالله وكفر به خشية من سواه فهو جبان ويقرر هذا خليل الرحمن (عليه السلام)، حيث يرد بثقة المؤمن الموحد مفحماً عبده الأوثان حينما خوفوه من آلهتهم قال مقررأ الحقيقة التي غابت عن أذهانهم "وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطاناً فأي الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون" ^(٤) .

فهم خوفوه بطش آلهتهم. ومسهم إياهم بسوء. فبين لهم أن عدم خوفه من آلهتهم أقل عجباً من عدم خوفهم من الله تعالى ^(٥) .

وكفى بحجته عليه السلام - حجة على جميع الأذلاء الجبناء الذين يخشون كل شيء ولا يخشون الله، لأن من خشى الله خشاه كل شيء حيث لا يجمع الله في قلب مؤمن خوفين .

(١) انظر في ظلال القرآن ج ٢ ص ٨٧٠ .

(٢) انظر المرجع السابق نفسه. ج ٢ ص ٨٧٠ .

(٣) انظر الشخصية اليهودية من خلال القرآن. (تاريخ - وسمات - ومصر) ص ٢٢٩ (مرجع سابق).

ويكثرون الشكوى للهيئات الدولية، واستمعوا إلى الجواب إن كنتم تعقلون، تقول غولدا ما ثير، (تقول هذه القرده) : لقد يبدو الرأي العام العالمي ضدنا، ولكن على أية حال ليس مدافعاً مصوباً إلى صدورنا .

فأقامت الدليل بهذه المقولة: بأنها لا تحترم ولا تخاف منطقاً، فما دام الرأي العالمي ليس قوة تواجه اليهود وحقيقة فلا داعي للاهتمام به . *

* انظر اليهود في القرآن. صلاح أبو اسماعيل. ص ٣٦ (مرجع سابق) .

(٤) الأنعام - ٨١ - .

(٥) انظر التحرير والتنوير. ج ٧ ص ٢٢٨-٢٣٠ (مرجع سابق). وانظر الجامع لأحكام القرآن. ج ٧/٤

ص ٣٠. (مرجع سابق).

**المبحث الخامس : التقليد الأعمى
ويتضمن الآتي :**

المطلب الأول	:	تعريف التقليد
المطلب الثاني	:	حقيقة التقليد
المطلب الثالث	:	أسباب التقليد
المطلب الرابع	:	ركائز التقليد
المطلب الخامس	:	آثار التقليد

المطلب الأول : تعريف التقليد :

أولاً : لفظ التقليد في اللغة : له معان عديدة منها :

الإلزام ، والتناوب، وأقلد البحر عليهم أغرقهم، وقد قلده قلادة وتقلدها؛ ومنه التقليد في الدين وتقليد الولاة الأعمال^(١) وهو مشتق من القلادة وهي : "ما جعل في العنق يكون للإنسان، والفرس، والكلب، والبدنة التي تهدي ونحوها"^(٢) يقول تعالى : "ولا الهدى ولا القلائد"^(٣) .
ويتبين من المعاني اللغوية السابقة أن التقليد يستعمل لمعان كثيرة ذات دلالات سلبية، وأبرزها :

- الانقياد والخضوع بلا اختيار .

- الاحاطة حتى الاغراق^(٤) :

- التسليم بلا تمحيص يقال "قلد فلاناً الدين سلمه إياه"^(٥) .

ثانياً : في الاصطلاح :

اتفق أهل الاصطلاح في تعريفهم للتقليد، وإن زاد بعضهم ألفاظاً وأنقص آخرون فعرفوه بقولهم : "قبول قول الغير من غير حجة"^(٦) وهو استعارة من المعنى اللغوي كأن المقلد يطوق المقلد سوء ما قلده به في دينه^(٧) وبه قال شيخ الاسلام (ابن

(١) انظر لسان العرب. مادة : قلد . وانظر القاموس المحيط، مادة قلد (مرجعان سابقان) .

(٢) لسان العرب. مادة : قلد .

(٣) المائدة - ٢ -

(٤) انظر التقليد والتبعية وأثرها في كيان الأمة الاسلامية. ناصر بن عبدالكريم العقل ص٥٢ . بحث مقدم لكلية الشريعة عام ١٣٩٤/٩٣هـ، مطابع الرياض ب : ت .

(٥) لسان العرب. مادة : قلد .

(٦) شرح مختصر الروضة. نجم الدين أبي الربيع سليمان بن عبدالقوي عبدالكريم بن سعيد الطوفي. ج ٢ ص ٦٥١ تحقيق د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي. مؤسسة الرسالة. بيروت ، (ط : ١) ١٤١٠هـ .

(٧) انظر المرجع السابق نفسه . ج ٢ ص ٦٥١ - ٦٥٢ .

تيمية^(١) وتعريف آخر هو : "عبارة عن العمل بقول الغير من غير حجة ملزمة"^(٢) والقرطبي - رحمه الله - يعرفه بقوله : "قبول قول بلا حجة"^(٣) وهو تكرار لما سبقه من التعاريف وإنما أعيد عمداً لأنه - رحمه الله - عرفه اثناء حديثه وتفسيره لآية فيها ذم التقليد الذي يتناوله البحث بالدراسة وهذا يعني أنه ايأ كان قصد ووجهة التعاريف فهي مناسبة للمقام لأن المراد الحديث عن يقلد غيره بلا برهان، وإن كان أكثر العلماء يعرفونه من ناحية فقهية قد ينصب القصد منها على المقلدين من عامة المسلمين، ولأن التشبيه لم يقع من جهة كفر أحدهما وإيمان الآخر، وإنما وقع التشبيه بين التقليديين بغير حجة للمقلد كما لو قلد رجلاً فكفر، وقلد آخر فأذنب^(٤) .

ولإزالة الاشتباه والالتباس ولتحديد التقليد المراد بهذه الدراسة يكون التعريف الآتي :
(اتباع الانسان غيره في اعتقاد دين بلا دليل ولا نظر ولا تأمل)^(٥) ودليله قوله تعالى وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا"^(٦) .
وفي التعريف لم يقتصر على ذكر الآباء لأن المتبوعين أنواع .

(١) انظر مجموع الفتاوى ج ٢٠ ص ١٥ .

(٢) شرح مختصر الروضة ج ٣ ص ٦٥٢ ، (مرجع سابق) .

(٣) الجامع لأحكام القرآن ج ٢/١ ص ٢١١ .

(٤) انظر جامع بيان العلم وفضله وما ينبغي في روايته وحمله . الامام العلامة ابي عمر يوسف بن عبدالبر النمري

القرطبي . ص ٤٣٨ دار الكتب الاسلامية - مصر (ط : ٢) ١٤٠٢ هـ .

(٥) انظر محيط المحيط . المعلم ، بطرس البستاني . ج ٢ ص ١٧٥٠ (١٨٧٠ م) .

(٦) البقرة - ١٧٠ - .

المطلب الثاني : حقيقة التقليد الأعمى :

هل التقليد مذموم عموماً ؟ وما الفرق بينه وبين الاتباع ؟ وما التقليد الذي يدخل في نطاق هذا البحث . ؟

لعل في التعريف السابق مفتاحاً للإجابة على هذه الأسئلة، وبداية واضحة، ولكن لغرض تحديد معالم هذا الدافع، والتعرف على جوانبه ينبغي المرور على بعض ملامساته لتبرز حقيقته .

حث الله عباده على الاقتداء وتقليد الأنبياء، والصالحين، فبعد أن عدّ جمعاً من الرسل والانبياء قال تعالى " أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده " (١) .

وهذا يوسف عليه السلام فيما حكاه عنه تعالى بقوله : " إني تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون . واتبعت ملة آبائي إبراهيم واسحاق ويعقوب " (٢) يقول القرطبي : " فلما كان أبأوه عليه وعليهم السلام متبعين للوحي، وهو الدين الخالص الذي ارتضاه الله، كان اتباعه اباؤه من صفات المدح " (٣) .

" ولم تختلف العلماء أن العامة عليها تقليد علمائها، وأنهم المرادون بقول الله عز وجل " فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون " وأجمعوا على أن الأعمى لابد له من تقليد غيره ممن يثق بمميزه بالقبلة إذا أشكلت عليه، فكذلك من لا علم له ولا بصر بمعنى ما يدين به، لابد له من تقليد عالمه " (٤) .

ولفظ التقليد لم يذكر في القرآن بهذا اللفظ بل ورد بلفظ الاتباع، والاقتداء والاهتداء مما يشير الى أنها تستعمل لمعنى واحد، .

ومن هنا اضيف لفظه الأعمى الى التقليد احترازاً من الاشتباه بين التقليد المباح والتقليد المنوع .

(١) الأنعام - ٩٠ - .

(٢) يوسف (٢٧ - ٢٨) .

(٣) الجامع لأحكام القرآن . ج ٢/١ ص ٢١٢ . (مرجع سابق) .

(٤) جامع بيان العلم وفضله ما ينبغي في روايته وحمله . ص ٤٤٦ (مرجع سابق) .

ولكن في عرف الفقهاء اذا أطلق التقليد فهو المذموم وفرقوا بينه وبين الاتباع فقالوا :
"التقليد معناه في الشرع : الرجوع إلى قول لا حجة لقائله عليه، وذلك ممنوع منه في
الشريعة. والاتباع ما ثبت عليه حجة"^(١) وزاد الأمر شرحاً ووضوحاً فقال : "فكل من اتبعت
قوله من غير أن يجب عليك قوله لدليل يوجب ذلك فأنت مقلده، والتقليد في دين الله غير
صحيح، وكل من أوجب عليك الدليل اتباع قوله، فأنت متبعه، والاتباع في الدين مسوغ
والتقليد ممنوع"^(٢) .

فإن قيل : إن الذم لمن قلد الكفار وآبائه الذين لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون، ولم يذم من
قلد العلماء، بل أمر بسؤال أهل الذكر فكيف تجمعون بينهم ؟^(٣) .

ويجيب ابن القيم : بأنه سبحانه ذم من أعرض عما أنزل إلى تقليد الآباء وهذا القدر
من التقليد هو بما اتفق السلف والائمة الأربعة على ذمة وتحريمه وأما تقليد من بذل جهده
في اتباع ما أنزل الله، وخفي عليه بعضه فقلد فيه من هو أعلم منه، فهذا محمود غير
مذموم^(٤) .

"والانسان بطبعه ميال الى حب الموافقة والتقليد ولذلك قيل ان الناس كاسراب القطا،
لأن الانسان مخلوق اجتماعي فأكبر عقاب له أن تعزله عن المجتمع في سجن انفرادي.

(١) جامع بيان العلم وفضله ص ٤٥٠ وانظر رسالة التقليد. الامام بن القيم ص ١٢ تحقيق وتعليق/محمد عفيفي. المكتب

الاسلامي. بيروت. (ط : ١) ١٤٠٣هـ ولقد أجاد ابن القيم في ايضاح ما يحرم التقليد به وعده أنواعاً ثلاثة هي :-

الأول : الإعراض عما أنزل الله وعدم الالتفات إليه اكتفاء بتقليد الآباء .

الثاني : تقليد من لا يعلم المقلد انه أهل لأن يؤخذ بقوله .

الثالث : التقليد بعد قيام الحجة وظهور الدليل على خلاف قول المقلد وقد ذم الله سبحانه هذه الأنواع الثلاثة من

التقليد في موضع من كتابه "واذا قيل لهم : اتبعوا ما أنزل الله، قالوا : بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا أولو كان آباؤهم

لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون" البقرة - ١٧٠ -

انظر رسالة التقليد ص ٩ - ١٠ (مرجع سابق) .

ولقد بوب ابن عبد البر لهذا الموضع بقوله "باب فساد التقليد ونفيه..". ولم يقيده .

(٢) جامع بيان العلم وفضله. ص ٤٥٠.

(٣) انظر رسالة التقليد ص ١٠ (مرجع سابق) .

(٤) انظر المرجع السابق نفسه ص ١٠ .

ولكي يعيش الفرد مع الناس لابد أن يدفع ثمن ذلك موافقة لهم في أفكارهم وعاداتهم ومظاهر حياتهم لأن المجتمع يقسو على من يشذ عنه في هذه الأمور .
والموافقة هذه أمر لابد منه وهي ليست شراً في ذاتها، وإنما تكون شراً حين تسود في المجتمع عقيدته باطله أو فكرة خاطئة أو عادة ضارة، ويطلب من الفرد أن يتابع المجتمع فيها. هنا يمتحن الانسان، فالكثرة من الناس تخشى المفارقة والتميز، وترضى بالمتابعة وإن تبين لها الخطأ، والقلة من الناس التي تمتاز بقوة العزيمة والشجاعة وحب الحق هي وحدها التي تصمد وتقوى على التميز والمفارقة، وإذا ما تميزت وفارقت تبعها غيرها ممن هو أقل منها جرأة، وتبع هؤلاء غيرهم وهكذا إلى أن يحدث في المجتمع تيار جديد لا يلبث أن يكون هو الاتجاه المقبول^(١) .

ويشهد لذلك حال الدعوة حيث بدأت برجال ونساء كان عددهم قليل، فاعتبرهم المجتمع شاذين ووصموهم بأقبح الألقاب، ونالوا منهم فصبروا صبراً طويلاً حتى ظفروا بنصر ربهم وانتشرت الدعوة الفتية بانحاء الأرض .
ويستخلص مما سبق أن التقليد ليس مذموماً إذا ما قلد الانسان أصحاب الحق ببصيرة ودراية، ولكن إذا قلد كل ناعق بلا دليل وبرهان حتى أوصله تقليده ذلك إلى الهاوية فهذا التقليد هو المذموم وهو المراد في هذه الدراسة .

(١) الدعوة الاسلامية والغزو الفكري . د. جعفر شيخ ادريس . ص ٢٠ عبارة عن بحث أصدرته رابطة الشباب المسلم

العربي . اللجنة الثقافية سلسلة البحوث والدراسات . ١٩٨٧ م .

المطلب الثالث : أسباب التقليد الأعمى

السبب الأول : العصبية القبلية :

وهذه جنورها عميقة في نفوس أهل الجاهلية يتوارثونها جيل بعد جيل^(١) وهي تعتبر الرابطة المعنوية التي تجمع ذوي القربى والأرحام ومن يتصل بهم، حيث يدعى الرجل إلى نصرته عصبته، والتألب معهم على من يناوئهم ظالمين أو مظلومين^(٢) .
ولهذه العصبية الجاهلية أنواع وصور منها : عصبية النسب والدم، وعصبية الحلف والولاء،^(٣) بل حتى الأصنام لها عصبية بأنفون أن يعبدوا معها غيرها^(٤) ويشير إلى ذلك قوله تعالى "إذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحمية حمية الجاهلية"^(٥) .
وما ذلك إلا نبت من عصبيتهم لدم الآباء الذين أورثوهم عبادة الأصنام، وما أدل على ذلك من تأسف أبي لهب وخوفه من إهمال صنمه المدلل بعد مماته .
فالتعصب الغضوب للآباء دفعهم للتعصب لعقائدهم كذلك، دون أي تأمل أو تفكير، فهو يثيرهم - أن تمس عقيدتهم الموروثة - كما يثورون لحماية الحوزة أو الذود عن الآباء، والأجداد، لأنه بحسب عقيدتهم من جملة ما ورثوه عن الآباء^(٦) .
فالتعرض - بنظرهم الجاهل - لما يعتقدونه فإنه تعرض للآباء، ولذا كانوا كثيراً ما يكررون في بداية حوارهم مع الرسول - صلى الله عليه وسلم - قولهم : ضللت الآباء^(٧) وأبولهب رام الذود عن الرسول - صلى الله عليه وسلم - بعد وفاة أبي طالب، وبكلمة

(١) انظر خاتم النبيين (صلى الله عليه وسلم) ج ١ ص ٢٦٠ (مرجع سابق) .

(٢) انظر الرأي العام في عهد النبوة والخلفاء الأربعة (عوامل تكوينه، خصائصه، وقواعد مخاطبته). د. سعيد بن علي بن ثابت. ص ١٠٥-١٠٦ . (رسالة دكتوراه مقدمة لقسم الاعلام. بكلية الدعوة والاعلام. جامعة الامام. غير مطبوعة) .

(٣) انظر المرجع السابق نفسه. ص ١٠٥ .

(٤) انظر الجامع لأحكام القرآن. ج ١٦/٨ ص ٢٨٩ . (مرجع سابق) .

(٥) الفتح - ٢٦ - .

(٦) انظر عبقرية الصديق. ص ٧٥ (مرجع سابق) .

(٧) انظر السيرة النبوية لابن كثير ج ١ ص ٥٠٤ .

واحدة من أحد رجالات قريش تخلى عن هذه الحمية وكان مضمون هذه الكلمة أن رسول
الله يشتم عبدالمطلب والده فقال أبولهب : "لا برحت لك عدوا وأنت تزعم أن عبدالمطلب في
النار"^(١) .

(١) السيرة الطيبة. ج ٢ ص ١٥ (مرجع سابق).

السبب الثاني :

التنشئة الفاسدة : فالطفل ينشأ بين أبويه وفي مجتمعه يتلقف ما يلقي في عبه إن خيراً وإن شراً ويدل على ذلك قول الرسول - صلى الله عليه وسلم - : "كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه"^(١) .

فالتقاليد الفاسدة، والعقائد الزائفة هي التي تلقفت الأجيال الناشئة فانحرفت بها يمناً ويسرة بعيداً عن الصراط المستقيم^(٢) .

فالعرب كانت تقول لابنائهم لا تدرن الأصنام التي كنا نعبدتها^(٣) فنشأوا وتربوا على تقليد الآباء في عبادة هذه الأحجار لأن الآباء لم يربوهم على أعمال عقولهم، واختيار الأصلح، ونبذ الأفسد .

والطفل يميل إلى أن يتوحد، وينسج سلوكه على منوال هؤلاء الناس الذين اظهروا الحب له، وهكذا يستطيع الأب أن يشكل ميول ولده وهو آياته، ورغباته، ونشاطاته، وكثيراً من جوانب السلوك الاجتماعي الأخرى^(٤) والجماعة النفسية تؤثر على الفرد ولو كان بعيداً عنها، فهو يعيش معها بشعوره وعواطفه، وتحتل تفكيره، ويتأثر سلوكه بسلوك أفرادها كما ينسجم مع افكارها واتجاهاتها^(٥) .

وهذان السببان يطردان على جميع أنواع التقليد، حيث يتدرج به ذلك إلى التبعية لأي أحد، والسير خلف كل ناعق، لأنه لم يتربى على أعمال فكره فيما يعرض عليه، بل نشأ على تقبل أي شيء يوافق هواه وشهواته بلا تمييز وعلى كيفية اتفق .

(١) صحيح البخاري مع الفتح. ك/الجنائز. باب (ما قيل في أولي المشركين) ج ٣ ص ٢٤٦ .

(٢) انظر الحق المر. ص ١١٨ . (مرجع سابق) .

(٣) انظر الجامع لاحكام القرآن. ج ١٨/٩ ص ٣٠٧ . (مرجع سابق) .

(٤) انظر الدافعية والانفعال. انوار. ج. موداي. ص ١٨٣ . ترجمة/ د. أحمد بن عبدالعزيز. سلامة. مراجعة . د. محمد عثمان نجاتي. دار الشروق. (ط : ١) ١٤٠٨ هـ .

(٥) انظر المرشد في علم النفس الاجتماعي. د. عبدالحميد محمد الهاشمي. ص ١٣١ ، دار الشروق : ج ٥ (ط : ٢) ١٤٠٩ هـ .

المطلب الرابع : ركائز التقليد والتقليد يرتكز على ثلاثة عناصر هي :

الأول : الرغبة في المحاكاة والاقتداء :

وهو تقليد غير مقصود ولا يقتصر على حسنات السلوك بل قد يتعداها إلي غيرها حتى تغيير الدين^(١) ويدل على ذلك قول الرسول - صلى الله عليه وسلم - "ما من مولود إلا ويولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه"^(٢) .

الثاني : الاستعداد للتقليد :

وذلك منبعه الشعور بالضعف أمام القوة فالمغلوب يقلد غالبه بعد أن يخضع له، وقد نبه لذلك ابن خلدون - رحمه الله - في مقدمته وبين أن المغلوب مولع أبداً بالاقتداء بالغالب في شعاره وزيه ونحلته وسائر أحواله^(٣) .

ومع ذلك فإن المقلد لديه استعداد للتقليد، فإن أحسن في استثمار ذلك الاستعداد وإلا تحول إلى قرد يقلد كل أحد وفي كل شيء .

الثالث : الهدف :

لكل تقليد هدف قد يكون معروفاً لدى المقلد وقد لا يكون، والهدف الأول من سلوك التقليد هو غرض دفاعي؛ مبعثه الدفاع عن الكيان الفردي، وكأنه انضواء في ظل الشخص القوي المرموق يقلده شخص أضعف منه لعله يستمد من هذا التقليد قوة وبأساً من شخصية المقلد .

ولعله من هنا نشأ الغلو في الصالحين حتى وصل إلى عبادتهم - والعياذ بالله - ولقد نبه القرآن هؤلاء ولكنهم ما تنبهوا "اولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده" ولم يقل بذواتهم وشخصياتهم بل بهديهم، ويقدر سيرهم على الصراط المستقيم .

(١) انظر أصول التربية الإسلامية وأساليبها . عبدالرحمن النحلاوي . ص ٢٥٨ . (ط : ٢) ١٤٠٢ هـ دار الفكر . دمشق .

(٢) صحيح البخاري مع الفتح . ك الجنائز . باب (ما قيل في أولاد المشركين) ج ٣ ص ٢٤٦ .

(٣) مقدمة ابن خلدون . ص ١٤٧ . (مرجع سابق) .

المطلب الخامس : آثار التقليد

١ - تقليد الآباء

إنه من التعصب الكرية أن يجمد المرء على فكرة وصلت إليه بطريقة ما، فلا يقبل لها مناقشة، ويرفض أن ينظر في أي رأي آخر يعرض عليه، بل إنه قد يعجز عن استبانة الرأي الآخر، وما قد يكون فيه من صواب أو خطأ لأن عقله استغلق فلا يتحمل جديداً ولا مزيداً^(١).

ومن نوع هذا التعصب كان تقليد كثير من الكافرين السابقين واللاحقين، فيما أكده، وحكاه القرآن الكريم عنهم "وكذلك ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون"^(٢) فدين كثير من المنكرين مبني على أصول أعظمها التقليد، فهو القاعدة الكبرى لجميع الكفار من الأولين والآخرين .

فكانوا في ربة هذا التقليد لا يحكمون لهم رأياً، ولا يشغلون فكراً، ولذلك تاهوا في أودية الجهالة، والتعصب لما كان عليه المتبوعون^(٣) ومن أنواع التقليد التي ذمها القرآن، وركز على خطورتها هو : تقليد الأسلاف .

وظهرت حقيقة هذا الدافع بوضوح في العرب خاصة تحت وطأة القوى الموروثة اللاشعورية التي توجه المشاعر ثم توجه السلوك^(٤) .

ويدل على صحة ذلك موقف أبي طالب عم رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي بذل كل ما يستطيعه الدفاع عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وحمایته، وهو يبلغ دعوة الحق، وتحمل من الأذى والصدام مع صناید عشيرته الشيء الكثير. وكان ممن يشار لهم برجاحة العقل وريزانتة .

(١) انظر العق المر. محمد الفزالي. ص ١٠٨. دار الجيل - بيروت. (ط : ٢) ١٤٠٧ هـ .

(٢) الزخرف - ٢٣ - .

(٣) انظر/ مسائل الجاهلية التي خالف فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم أهل الجاهلية شيخ الاسلام/ محمد بن عبد الوهاب. وتوسع فيها : محمود شكري الألويسي. ص ٨ . دار المجد .

الرياض. (ط : ١) ١٤١٢ هـ .

(٤) انظر سيكولوجية القصة في القرآن. ص ٢١٤ (مرجع سابق) .

فقد توفرت جميع الفرص لإسلامه^(١) وزيادة على ذلك حرص الرسول صلى الله عليه وسلم وألح عليه ليقول لا إله إلا الله .

فما فعل التقليد الأعمى الذي نشأ عن التعصب لدين الإسلاف ؟ لقد نسف كل هذه العوامل المساعدة، فالعقيدة وإن كانت فاسدة إذا كانت قوية السلطان؛ غلبت عزتها على عزة العقل والفؤاد، فأصر عليها من كان خليقاً أن يعافها ويعرف عيبها^(٢) .

وهذا حقيقة موقف أبي طالب فيما رواه البخاري (رحمه الله) لما حضرت أبا طالب الوفاة جاء رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال : أي عم، قل لا إله إلا الله كلمة أحاج لك بها عند الله حتى قال : فلم يزل رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرضها عليه حتى قال أبوطالب آخر ما كلمهم : على ملة عبدالمطلب، وأبي أن يقول لا إله إلا الله^(٣) .

فمن القصة يلاحظ الآتي :- قال : لما حضرت أبا طالب الوفاة، وقال : آخر ما كلمهم . ففي العبارتين السابقتين دلالة على أن ذلك قبيل مفارقتة للحياة، ومعروف أن الإنسان في هذه اللحظات يردد بما هو مستقر في نفسه ومخالف شفاف قلبه ومشاهد هذا لمن حضر وفاة إنسان ما، ولذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة^(٤) .

وهذا يكشف حقيقة مهمة حيث يدل على أن التقليد وإن كانت بدايته سلوكاً اجتماعياً، فهو مع الزمن يتحول الى دافع نفسي يستكن ويتمكن في النفس^(٥) ففي أول الأمر يكون اختيارياً معللاً بأسباب ومبررات، ثم لا يلبث ان يتحول الى سلطة قهرية جبرية^(٦) .

(١) ومن هنا اتخذ بعض الباحثين فهموا اسلامه، وحاولوا اثبات ذلك ومن هؤلاء : أبو زمرة في كتابه/خاتم النبیین ج ١ ص ٤٤٠-٤٤٥ .

(٢) انظر عبقرية الصديق . ص ٧٥ (مرجع سابق) .

(٣) صحيح البخاري مع الفتح . ك التفسير . باب (إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء) ج ٥٠٦٨ .

(٤) صحيح سنن أبي داؤد . ج ٢ ص ٦٠٢ حديث رقم [٢٦٧٣] .

(٥) استفتت أصل هذا الكلام من د . عبدالله بن محمد المطلق رئيس قسم الدعوة أثناء حوار علمي مع فضيلته وأعيدت قراءته عليه في يوم الاثنين الموافق ١٤١٣/٥/٨ هـ . وانظر تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق . أبي علي أحمد بن محمد بن يعقوب الرازي (مسكويه) . ص ٥١ منشورات دار مكتبة الحياة . بيروت (ط : ٢٠) ب : ت .

(٦) انظر الأخلاق والدعوة إلى سبيل الله . جمع محمد السباعي عامر . ص ٨٧-٨٨ ، المطبعة المصرية الأهلية الحديثة، القاهرة . ب : ت .

- ويلاحظ أيضاً الحاج الرسول صلى الله عليه وسلم وحرصه، وتكرار تلقينه له الشهادة: ومع هذا نطق باسم أبيه وترك اسم الله، وهذا يؤكد تغلغل هذا التعصيب في نفسه فاختر دين الآباء على دين الله^(١) .

وهل هذا الدافع كان عند أبي طالب وحده بين العرب ؟ أبطالب في الحقيقة ما هو الا انموذج، وإلا فهو متوفر ومتفشي في كثير من العرب وأكد دليل ما حكاه القرآن عنهم مكتباً وهادماً هذا لمرض فيهم، يقول تعالى : "وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا * أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون"^(٢) فهو ما تقلدناه من ساداتنا وكبرائنا، وشيوخ علمائنا، ولم يخاطب هؤلاء ببطلان ما هم عليه وتشنيعه خطاباً لهم بل حكى عنهم حكاية .
ففيها كأنه أنزلهم منزلة من لا يفهم الخطاب، ولا يعقل الحجج والدلائل، كما بين ذلك بالتمثيل الذي يليه، ولو كان لهم قلوب يعقلون بها لكانت هذه الحكاية كافية بأسلوبها إلى تنفيرهم من التقليد^(٣) وهذا لفرط عنادهم واستحكام التقليد فيهم^(٤) .

"قاله تعالى أمرهم بأن يتبعوا ما أنزل الله من الدلائل الباهرة، فهم قالوا : لا نتبع ذلك، وإنما نتبع آباءنا وأسلافنا فكانهم عارضوا الدلالة بالتقليد، وأجاب الله تعالى عنهم بقوله (أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون"^(٥) ولأنهم بهذه الحال استحقوا الوصف الإلهي لهم حيث يقول تعالى : "ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع الا دعاء ونداء صم بكم عمي فهم لا يعقلون"^(٦) فهذه هي الصورة التي تليق بهم إزاء هذا التقليد، وهذا الجمود، صورة البهيمة السارحة التي لا تفقه ما يقال لها، بل إذا صاح بها راعيها سمعت مجرد الصوت لا تفقه ماذا يعني، بل هم أضل من هذه البهيمة فالبهيمة ترى وتسمع وتصيح^(٧)

(١) انظر سيكولوجية القصة في القرآن. ص ٢١٤. (مرجع سابق) .

(٢) البقرة - ١٧٠ - .

(٣) انظر تفسير المنار. ج ٢ ص ٩١ .

(٤) انظر وظيفة الاخبار في سورة الأنعام - ص ٤٠٩ (مرجع سابق) .

(٥) التفسير الكبير، ج ٦/٣ ص ٦ .

(٦) البقرة - ١٧١ - .

(٧) انظر في ظلال القرآن. ج ١ ص ١٥٥ .

أما المقلدون فلا ينظرون في أية أو دليل ولا في فائدة ما هو فيه والمقارنة بينه وبين غيره، فهو أعمى لا يبصر، أصم لا يسمع أغلف القلب لا يعقل^(١) لذا يقول أحد السلف: "لا فرق بين بهيمة تقاد، وإنسان يقلد"^(٢) ومن هنا تتكشف حقيقة مقلدي هذا الزمان الذين يحاكون الغرب في كل ما صدر عنه كالقرود بلا تمييز ولا تمحيص، وللحديث عن هذا محله .

وعن المثل السابق الذي ضربه الله تعالى لهؤلاء يقول الشيخ الدوسري: "وحقيقة هذا المثل أنهم ليس فيهم قابلية للحق ولا استعداد للاستجابة إليه، وإن حالهم كحال البهائم"^(٣) .

وشبه هؤلاء الحمقى بالحيوانات لصدودهم عن الحق، أما غير الحق ودواعيه من متطلبات حياتهم الدنيوية ومآربهم الخاصة، فهم اسبق الناس إليها، وتقليدهم لأبائهم لم ينشأ من فراغ، بل تكشف الأخبار مبلغ تعلقهم بهم في صور شتى اتضحت في مواقفهم من دعوة الرسول ص الله عليه وسلم؛ فحين بعثت قريش مندوبها الى الرسول - صلى الله عليه وسلم - افتتح كلامه بذكر الآباء قائلاً: "يا محمد أنت خير أم هاشم ؟ أنت خير أم عبدالمطلب ؟ أنت خير أم عبدالله"^(٤) وما هي هذه الخيرية ؟ وعلي أي شيء بناها ؟ هذا لا يهم المهم أنهم أبأؤك لذا هم خير منك .

ومن ثم تجدهم يكادون يتفوقون في محاوراتهم المستمرة مع الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم بتنديدهم له بتضليل آبائهم^(٥) .

وأكبر من ذلك، ومما يدل على مبلغ تأثرهم بأسلافهم ما طلبوه منه صلى الله عليه وسلم في بعض طلباتهم التعجيزية فمنها قولهم: "وليبعث لنا من مضى من آبائنا، وليكن فيمن يبعث لنا منهم قصي بن كلاب فنسألهم عما تقول أحق هو أم باطل" !^(٦) .

وأبولهب تأخذه الحمية الجاهلية مرة فينصر الرسول صلى الله عليه وسلم ويمنعه من

(١) انظر تفسير المنار ج ٢ ص ١٧ .

(٢) جامع بيان العلم وفضله وما ينبغي في روايته وحمله . ص ٤٤٦ (مرجع سابق) .

(٣) صفوة الآثار والمفاهيم في تفسير القرآن العظيم . ج ٢ ص ٤٩٥ (مرجع سابق) .

(٤) السيرة النبوية لابن كثير ج ١ ص ٥٠١ وانظر السيرة النبوية للذهبي (مرجع سابق) .

(٥) نظر المرجع السابق نفسه ج ١ ص ٥٠٤ .

(٦) انظر المرجع السابق نفسه ج ١ ص ٤٨٠ .

الأذى، فيأتي أحد شياطين قريش فيخبره أن الرسول صلى الله عليه وسلم يشتم عبدالمطلب فيغضب ويتخلى عن نصرته له^(١) .
واستغل أبولهب هذا السلوك الجاهل بصد الناس عن سماع الرسول صلى الله عليه وسلم حيث يتبعه ويقول : "لا يفرنكم عن دينكم ودين آبائكم"^(٢) ويقولون له بعد الاسلام :
"تركت دين أبيك وهو خير منك"^(٣)
وكانوا يقفون في الموسم فيقول الرجل منهم : كان أبي يطعم ويحمل الحملات،
ويحمل الديات، ليس لهم ذكرغير فعال آبائهم^(٤) فأنزل تعالى قوله "فانكروا الله كذكركم
أباكم أو اشد ذكراً"^(٥) شهادة من الله تعالى بشدة ذكركم لأباكم وتعلقهم بهم .
فهذه الأخبار توضح أن هذا التقليد له جذوره في نفوسهم ويصعب اقتلاعه بسهولة.
وجملة المعني أن هؤلاء يعيشون في جاهلية جهلاء لا تعرف من الحق رسماً، ولا تقيم به
في مقاطع الحقوق حكماً، بل كانت تنتحل ما وجدت عليه أباها، وما استحسنته أسلافها،
من الآراء المنحرفة، والنحل المخترعة، والمذاهب المبتدعة، فحين قام صلى الله عليه وسلم
بشيراً ونذيراً، فسرعان ما عارضوا معروفه بالانكر، ونسبوا اليه - لمخالفته اياهم - كل
محال ورموه بأنواع من الافك والبهتان، وكل ذلك حرصاً منهم على التأسى بأسلافهم
والموافقة لهم على ما ينتحلون، واعتقدوا إذ لم يتمسكوا بدليل ان الخلاف يوهن الثقة، ويقبح
جهة الاستحسان، وخصوصاً حين اجتهدوا في الانتصار بعلم، فلم يجدوا أكثر من تقليد
الآباء^(٦) بل ولقوة وعمق أثر هذا الدافع يرجع بعض الباحثين أن من أسباب الرده بل من
أهمها بقايا رواسب الماضي - فالاسلام كان عدواً للجمود والتقليد واتباع الأول، وبقية آثار

(١) انظر السيره الحلبيه ج ٢ ص ٥١ .

(٢) السيره النبويه. للذهبي. ص ١٥١ (مرجع سابق) .

(٣) السيره النبويه لابن هشام . ج ١ ص ٢٧٩ .

(٤) انظر تفسير ابن كثير ج ١ ص ٣٦٥ .

(٥) البقرة - ٢٠٠ - .

(٦) انظر الغربية والغرياء (ابن تيمية وابن القيم، أبواسحاق الشاطبي) حققه وضبطه نصومنه/سليم بن عبدالهلاي. ص

٨٤-٨٦. دار الهجرة (ط : ١) ١٤٠٩هـ .

هذه التقاليد البالية كانت أحد الأسباب التي انشأت حركات الردة^(١) .

والعلل المتوارثة لها سدنة يتعصبون لها ويقاثلون دونها ويتعامون عن البديل الأفضل. وسلطان التقليد الأعمى باطش، فتجد المقلد يستमित في دفع الحق وإنكاره لتبقى التقاليد السائدة، ويخاصم ببأس شديد لاستبقاء وضع موروث لا دليل له إلا أنه موروث^(٢) .

يا ترى لم هذا الحرص على القديم ؟

أن هناك مستفيدين من بقاء القديم لأنهم توارثوا مع عقيدة الاسلاف الامتيازات الاقتصادية والأدبية والزعامة، فهذا يوحي لهم بكرهية الحق والتجديد، لأنه يحس بالبداية أن صاحب الجديد أولى بالسيادة منه، إن شاع ما جده بين الناس فتبطل سيادته ببطلان القديم الذي فات عليه، وقيام الجديد الذي نسخته وعفاه^(٣) .

وهذا يفسر العلاقة الوطيدة بين المترفين وبين حرصهم على تقليد اسلافهم، ويؤكد هذا ما جاء في كتاب الله تعالى عنهم : "وكذلك ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير الا قال مترفوها إنا وجدنا آباغنا على أمة وأنا على آثارهم مقتدون"^(٤) فالزعماء كانوا أحرص على الاستمسك بعقيدة الاسلاف والدفاع عنها أكثر من غيرهم، لأن كيانهم مستمد من ذلك، وخاصة في المجتمع العربي في بيئة كالبيئة التي بعث بها رسول الله صلى الله عليه وسلم^(٥) .

وكان موقف فرعون وملئه تفصيل لما أجمل أنفأ، فهم أظهروا سوء ظنهم -بموسى وهارون عليهما السلام - في غايتهما من هذه الدعوة^(٦) يقول تعالى : "وقالوا أجنثنا لتلفتنا عما وجدنا عليه آباغنا وتكون لكما الكبرياء في الأرض وما نحن بمؤمنين"^(٧) فهم ظنوا أن

(١) انظر عوامل قيام حركات الردة بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم . د. علي حسيني الخريوطي، ص ٦٤-٦٧.

دار الفكر العربي ب : ت .

(٢) الغزو الثقافي يمتد في فراغنا . ص ١٦٨ (مرجع سابق) .

(٣) انظر أبوجهل عمرو بن هشام (دراسة تحليلية تاريخية) ص ١٣١ . (مرجع سابق) .

(٤) الزخرف - ٢٣ - .

(٥) انظر سيره الرسول - صلى الله عليه وسلم - صور مقتبسة من القرآن الكريم . ج ١ ص ١٨٠-١٨١ (مرجع سابق) .

(٦) انظر التحرير والتنوير . ج ١١ ص ٢٥١ . (مرجع سابق) .

(٧) يونس - ٨٢ - .

موسى جامعهم لقصد لفتهم عما وجدوا عليه آباؤهم، ويتبع ذلك وراثته الملك والتفوق على الناس^(١) فهذا الصنف من الناس يبنون وجاهتهم في المجتمع على الارتباط بالقديم وهم سدنة كل عرف شائع، أو قانون قائم، فهم يحترمون الأوضاع المقررة من قبل، ولذا فهم لا يرغبون في الاصلاح أبداً، بل هم عقبات الاصلاح دائماً وأبداً^(٢) .

ما دام هذا الأمر أحيل اليهم ضمن التركة بلا تعب ولا نصب أنى يتخلون عنها لأي كائن كان ومهما أظهر من الدليل والبرهان .

وهذا التعصب إذا كان أساسه الجهل؛ فهو اسهل لأنه يمكن معالجته؛ ولكن إذا كان مع الجهل جحوداً واستكباراً، فهذا علة العلل^(٣)؛ حيث يرى الشيء وكأنه لا يراه فتبدوله روائع الايات والآثار فلا يتحرك لها، ولا تثيره رؤيتها فيمضي كالراقد الذي يفتح عينيه ويذهب ويجيء وهو نائم،^(٤) وإلى هذا يشير قوله تعالى : "وكأين من آية في السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون"^(٥) .

ومما سبق يتبين كيف كان هذا التقليد الذميمة للباطل القديم الذي كان عليه الآباء والأجداد من أعظم أسباب التمرد على الحق^(٦) .

(١) انظر التحرير والتنوير ج ١١ ص ٢٥٢ ، (مرجع سابق) .

(٢) انظر في موكب الدعوة . محمد الغزالي . ص ٦ دار الكتب الحديثة (ط : ٤) ١٩٦٥ م .

(٣) انظر المرجع السابق ص .

(٤) انظر تذكرة الدعاة . البهي الخولي . ص ١٥٤ ، (مرجع سابق) .

(٥) يوسف - ١٠٥ - .

(٦) انظر أصول الدعوة . ص ٣٨٨ . (مرجع سابق) .

٢ - تقليد الرؤساء والزعماء

والمجتمع ليس كوماً من الأفراد المتماثلي الأهمية والأثر الاجتماعي، ولكنه نظام، بعض الطبقات فيه أهم من بعض وأشد أثراً على غيرها، فإذا تغيرت هذه أو سنت للناس سنة جديدة تبعها غيرها .

هذه الطبقات القائدة تشمل طبقة قادة الفكر، وطبقة الحكام، وطبقة كبار رجال الدين، وطبقة الأثرياء، الى غير ذلك من التقسيمات لهذه الاصناف حسب مواقعهم ومواضعهم من أقوامهم^(١) . فهذه الاصناف تؤثر بالمجتمع بحسب قوة نفوذها وقوة شخصياتها، فتدعن الجماهير لهؤلاء، فيحركونها كيف شاعوا ويقودونها كقيادة الراعي للشيء . وفي القرآن الكريم شواهد تؤكد مبلغ هذا الأثر الذي تحدثه هذه الفئات على متببعيها حتى توردهم النار وسوء المصير .

فعن تقليد الأحرار والرهبان بلا بينة ولا برهان يقول تعالى : "اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله"^(٢) فانبرى احد مقلديهم يبين للرسول صلى الله عليه وسلم انهم لم يكونوا يعبدونهم، فشرح الرسول صلى الله عليه وسلم حقيقة هذه العبادة بقوله : "إما إنهم لم يكونوا يعبدونهم، ولكنهم كانوا إذا أحلوا لهم شيئاً استحلوه، وإذا حرموا عليهم شيئاً حرموه"^(٣) .

وصنف آخر يذكره القرآن في غير موضع، وهو صنف الكبراء^(٤) يقول تعالى : وقالوا ربنا إنا اطعنا سادتنا وكبرائنا فأضلونا السبيلاً"^(٥) فكثير من الناس يتبع هؤلاء الأمراء والكبراء من المشيخة، ويخالفون الرسل، وهم يعتقدون أنهم علي شيء، وإذا هم ليسوا كذلك^(٦) .

(١) انظر الدعوة الاسلامية والعزو الفكري . ص ٢٠ (مرجع سابق) .

(٢) التوبة - ٣١ - .

(٣) صحيح سنن الترمذي ج ٣ ص ٥٦ حديث رقم [٢٤٧١] .

(٤) ويكتفى بذكر هذا الوصف لأن الاصناف التي تدخل في هذا كثيرة من : زعماء، وسادة، وكبار المشيخة ونحو ذلك .

(٥) الأحزاب - ٦٧ - .

(٦) انظر تفسير ابن كثير . ج ص ٨٢٦ .

وشيخ الإسلام ابن تيمية يعد هذا تقليداً باطلاً مذموماً بغير حق^(١) ويقول ابن القيم في الآية السابقة : "هذا نص في بطلان التقليد"^(٢) .

فالجمهور الكبير من الاتباع عطلوا إرادتهم الشخصية التي وهبهم الله، فاعتقدوا ما يملية عليهم السادة والقادة، ولم يعملوا أفكارهم ببحث حر، أو مناقشة منطقية سديده^(٣) فقط اكتفوا بكون هؤلاء سادة فإذا هم على صواب .

ومع قوة هذا الزجر الالهي عن التقليد^(٤) وكثرة النصوص وتصريحها بذمة ومغبة عاقبته، ونهي المسلم أن يصبح أمة يتبع كل ناعق - إلا أنك تجد التقليد الأعمى للزعماء لا يزال موجوداً بين الأمم والشعوب، فتجد المارقين، والخالعين يقودون شعوباً إلى الهاوية، وهذه القطعان تسير وراءهم نونما سؤال أو كلام والله المستعان .

فضعفاء الرأي ضعفاء الإرادة يتخففون من مسؤولية البحث ورؤية طريقهم في الحياة، فيقولون : نحن مع الزعماء إن أحسنوا أحسنا، وإن أساءوا قلدنا وسكتنا وتلمسنا لهم الأعذار^(٥) .

فعاقبة هذا التقليد الأعمى للكبراء وخيمة اذا قد يصل بالانسان الى الكفر بالله عز وجل، وفصل القرآن النتيجة التي وصل اليها المقلدون بلا هدى فقال تعالى : - مصوراً حالهم المزرية التي استقروا بها - "ولو ترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم يرجع بعضهم إلى بعض القول، يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا لولا أنتم لكانا مؤمنين * وقال الذين استكبروا للذين استضعفوا أنحن صدقناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم بل كنتم مجرمين * وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا بل مكر الليل والنهار إذ تأمرونا أن نكفر بالله ونجعل له انداداً وأسروا الندامة لما رأوا العذاب"^(٦) .

فالمستضعفين ادعوا أن وجود المستكبرين مانع لهم أن يكونوا مؤمنين، وهنا تجرعا

(١) انظر مجموع الفتاوى ج ٤ ص ١٩٨، ج ٢٠ ص ١٥ (مرجع سابق) .

(٢) رسالة التقليد. ص ١٢ (مرجع سابق) .

(٣) انظر الأخلاق الاسلامية وأسسها ج ١ ص ٧٦٤. (مرجع سابق) .

(٤) انظر الجامع لأحكام القرآن. ج ١٤/٧ ص ٢٤٩. (مرجع سابق) .

(٥) انظر الأخلاق الاسلامية وأسسها ج ١ ص ٧٦٤. (مرجع سابق) .

(٦) سبأ - ٣١ - ٣٢ - .

على المتكبرين، واستيقظوا من غفلتهم بيقظة لن تتفهم، وعرفوا أنهم أوقعوهم في هذا المأزق^(١) .
ومن ذا الذي يملك أن يجعل أولئك الضعفاء تبعاً للمستكبرين في العقيدة، وفي التفكير، وفي السلوك؟ إن المستضعفين كثرة، والطواغيت من الكبراء قلة. فمن ذا الذي يخضع الكثرة للقلة؟^(٢) .

«إنما يخضعها ضعف الروح، وسقوط الهمة، وقلة النخوة، والتنازل الداخلي عن الكرامة التي وهبها الله لبني الانسان»^(٣) .

فطبقة الزعماء والسادة قد ترى رأياً أوتسن عادة لأنها توافق مصلحتها وهواها، ثم يأتي كثير من أفراد الطبقات التابعة فيقلدوننا في الرأي، أو العادة لمجرد أنها قالت به، أو سنته من غير نظر في صواب الرأي وخطئه، وحسن العادة أو سوءها^(٤) .

فهذا رجل واحد غير دين الفطرة فجر قريش إلى عبادة الاصنام ففي الحديث أن الرسول (صلى الله عليه وسلم)، قال : «أول من غير دين ابراهيم عمرو بن لحي بن قمعة ابن خندف أبوخزاعة»^(٥) وبلغ أثر هذا الرجل على متبعيه يقول ابن كثير : «وكان قوله وفعله كالشرع المتبع، لشرفه فيهم ومحلته عندهم وكرمه عليهم»^(٦) .

والقرآن يخبر عن فرعون وهو فرد واحد كيف استطاع بقوة نفوذه المادي أن يتلاعب بقومه كيفما شاء حتى قال : «ما أرىكم الا ما أرى وما أهديكم إلا سبيل الرشاد»^(٧) غاية التبعية والخنوع، وما داموا بهذه الصفة فلم لا يدعي الربوبية؟ وفعلا قال : «أنا ربكم الأعلى»^(٨) .
ولأن هؤلاء الكبراء هم الموجه الحقيقي للأتباع وجه القرآن المؤمنين إلى قتالهم

(١) انظر التحرير والتنوير ج ٢٢ ص ٢٠٥-٢٠٦ (مرجع سابق) .

(٢) انظر في ظلال القرآن، ج ٤ ص ٢٠٩٦ .

(٣) المرجع السابق ج ٤ ص ٢٠٩٦ .

(٤) انظر الدعوة الاسلامية والغزو الفكري، ص ٢١-٢٢ (مرجع سابق) .

(٥) صحيح الجامع الصغير، ج ٢ ص ٢٥٤ حديث رقم [٢٥٧٧] (مرجع سابق) .

(٦) السيرة النبوية لابن كثير، ج ١ ص ٦٢ (مرجع سابق) .

(٧) غافر - ٢٩ - .

(٨) النازعات - ٢٤ - .

مخصصا بهم نون ذكر الأتباع - يقول تعالى "فقاتلوا أئمة الكفر"^(١) . فهم القدوة لأهل الكفر، وقال ذلك لزيادة التشنيع عليهم ببلوغهم هذه المنزلة من الكفر وهي أنهم قدوة لغيرهم^(٢) . وفي هذا توجيه لترشيد جهود الدعاة؛ لمعرفة خصائص هذا الصنف من الناس ومحاولة التأثير عليهم بثتى السبل؛ ليدخلوا في الدعوة، أو على أقل محاولة تحييدهم؛ لإزالة الحواجز التي يضعونها بين الدعوة وبين جماهير الناس .

وفي هذا الزمان المتأخر تعدّ الأمر تقليد الزعماء الى تقليد المشاهير، وهم في العادة من سفلة الناس ممن أمتهنوا الغناء والتمثيل ولعب الكرة. حتى وصل الأمر الى تعليق صورهم في الغرف الخاصة، والمداومة على ذكركم، والتقاتل والتخاصم من أجهلهم، وتقليدهم في كل شأن من شؤونهم في المشي والكلام واللباس، ونحو ذلك، فلا حول ولا قوة الا بالله.

ومع قبح التقليد الأعمى بجميع اشكاله وصوره لا أن هذا الشكل اقبحها وأسفلها؛ والسبب أن التقليديين الأولين لهما مبرراتهما؛ حيث لا يخفى علاقة الأبناء بابائهم، والجماهير بزعمائهم، فالزعيم قائد رأي، قائد حرب، ويدفع عن بعض اتباعه ما يعرض لهم من أمور دنيوية ويساعدهم في حلها .

ولكنّ المصيبة فيمن يضر ولا نفع منه اطلاقا، فيمن يعلن بغضه لك وعداوته لامتك، ومع ذلك تتبعه بلا تبصر كالأعمى معجباً مندهشاً بطربه وميوعته وتخنته، وهذا مما يجعل الانسان السوي يحترق من خنوع الإنسان وذلكه أمام أعمال هؤلاء المشاهير فلا يقبل نصح ناصح ولا قول قائل فيهم^(٣) .

ولكن إذا غابت الغاية التي خلق من أجلها الانسان وضل في عبادته فلا غرابة أن تضطرب جميع شؤون حياته، فيصبح حائراً هائماً ينبع كل ناعق ويرتكب كل فعل أهوج .

(١) التوبة - ١٢ - .

(٢) انظر التحرير والتنوير. ج ١٠ ص ١٢٩-١٣٠. (مرجع سابق) .

(٣) والآنكى من ذلك أنك تجد بعض هؤلاء المشاهير في عالم الرقص والطرب والرياضة يصرح بوضوح أنه لو يعلم أن ضمن المعجبين به عربيا لاعتزل ما يمارسه من عمل ضال، ومع ذلك هناك من العرب من يستमित في تقليد هؤلاء والتشبه بهم، بل ويدافع بصرارة عن المساس بأشخاصهم المبجلة؟! من أي احد كان وإن كان أباه أو اخاه (فلا حول ولا قوة الا بالله) .

٣ - تقليد الأمة بعضها لبعض

قد مر فيما سبق نوعان من أنواع التقليد وهما :

الأول : تقليد الآباء والأسلاف

والثاني : تقليد الرؤساء والكبراء والمشاهير .

ويبقى النوع الثالث، وهو أخطر من سابقه إنّه : تقليد الأمم بعضها لبعض .

فكيف يكون ذلك ؟ وكيف يمنع من قبول الحق ؟ وما شاهده في زمن الرسالة المحمدية ؟
يقدر ابن خلدون في مقدمته هذه الحقيقة، ويبين سبب ذلك في نظره وهو : كون الأمة المغلوبة تعتقد الكمال فيمن عليها فتقلدها لذلك رغبة في نيل الرفعة^(١) ويستشهد على ذلك بما حصل في الاندلس مع أمم الجلالقة، فإنهم يتشبهون بهم في ملابسهم، وشاراتهم، والكثير من عوائدهم واحوالهم حتى في رسم التماثيل في الجدران والمصانع والبيوت، حتى يوحي ذلك أنه من علامات الاستيلاء^(٢) .

ويؤكد على ذلك قول الرسول صلى الله عليه وسلم : "لتتبعن سنن من كان قبلكم شبراً شبراً وذراعاً ذراعاً حتى لو دخلوا جحر ضب تبعتموه، قلنا : يا رسول الله اليهود والنصارى ؟ قال فمن ؟" ^(٣) ويقول : "لا تقوم الساعة حتى تأخذ أمتي بأخذ القرون قبلها شبراً بشبر وذراعاً بذراع. فقيل : يا رسول الله كفارس والروم ؟ فقال ومن الناس إلا أولئك" ^(٤) .

وأثناء حديث ابن حجر في شرحه لهذين الحديثين يشير إلى السبب الذي ذكره ابن خلدون فيقول : "لكونهم كانوا إذ ذاك أكبر ملوك الأرض وأكثرهم رعية وأوسعهم بلاداً"^(٥) وفي اختيار النبي الكريم صلى الله عليه وسلم لألفاظ : الشبر، والذراع، وجحر الضب، دليل

(١) انظر مقدمة ابن خلدون. ص ١٤٧. (مرجع سابق) .

(٢) نفس المرجع السابق. ص ١٤٧ .

(٣) صحيح البخاري مع الفتح. ك/ الاعتصام بالكتاب والسنة. باب : (قول النبي صلى الله عليه وسلم : "لتتبعن سنن من كان قبلكم" ج ١٣ ص ٢٠٠ .

(٤) صحيح البخاري مع الفتح. ك/ الاعتصام بالكتاب والسنة. باب : (قول النبي صلى الله عليه وسلم : "لتتبعن سنن من كان قبلكم" ج ١٣ ص ٢٠٠ .

(٥) فتح الباري. ج ١٣ ص ٢٠١. (مرجع سابق) .

على الاقتداء بهم في كل شيء^(١) .

وإن الواقع اليوم لأكبر دليل على ذلك، فتجد الأمم المتخلفة تقلد الأمم المتقدمة تقليد القروء بلا تحفظات، وفي جميع شؤون حياتها^(٢) .

(١) انظر المرجع السابق نفسه ج ١٢ ص ٢٠١ .

(*) ولو كان ذلك مقتصرأ على الأمم غير الاسلامية؛ لهان الأمر؛ ولكن أن تجد أمة الاسلام تقلد هذه الأمم الكافرة تقليد الأعمى، فهذا الأمر النكير، والخطب الجسيم، وهي التي تحمل رسالة خالدة، وتسير نحو غاية سامية .

وإذا كان التقليد سعياً وراء الرقي والتطور كوسيلة يبتغون بها رضا الله وحماية أمة الاسلام من كيد الأعداء، فإنهم بذلك يفعلون خيراً ومباحاً ويستفيدون من خبرات غيرهم. ولكنهم مع الأسف افتتنوا بالحضارة الغربية في الوقت الذي كانوا فيه بأحط درجات الجهل، والمهانة، وما تبعهما من الخلل في كافة الميادين .

بل إن بعض أبناء المسلمين أقاموا حرباً شرسة ضد الاسلام وتعاليمه وقيمه، فملأوا حياة المسلم اليومية بوسائل تزيد من ارتباطه بعاداتهم وتقاليدهم الفاجرة، ولتبرير ذلك يوسوس رموز العلمنة - بالعالم العربي - بأنه لا رقي ولا تقدم إلا بالانسلاخ من الدين وهدم كل قويم،

وينعقون بذلك دون تقديم تحليل علمي وموضوعي منضبط، يبين لنا مصداقية ذلك الترابط الحتمي مقترنا بأمنئة فعلية تطبيقية على هذه الاشكالية .

ومرادهم من ذلك أن يتخلى المسلم عن دينه فيسهل قياده، ويمكن ايجاد روابط من الود والتفاهم بين الحمار وراكبه، وهي روابط تفيد الراكب دائماً ولا تفيد الحمار .

وما حدث وما يحدث في تركيا لهو دليل ناصح بأن التقليد الأعمى للغرب لم ينفع تركيا، بل ولم يسمح لها بالانضمام الى مجموعة الدول الأوربية، وكررت المحاولة فباعت محاولاتها بالفشل لماذا يا ترى؟

← ينبع ←

بين الحقيقة المستشار الألماني السابق "شميدت" قائلاً "إنهم يرفضون تركيا عضواً في السوق الأوروبية استناداً الى هوية تركيا وثقافتها الاسلامية التي لا يمكن أن تنسجم مع القيم اليهودية المسيحية التي تنتمي اليها دول السوق ويضيف : أن هؤلاء يخدعون انفسهم اذا ما اعتقدوا أن مجرد علمنة تركية سيجعلها اوتوماتيكياً كياناً غربياً، أو اوروبياً.

وهل يستطيع المناوون بالتخلي عن الدين بالاجابة على السؤال الآتي :

لماذا لا يكون الدين مظهر تخلف لاسرائيل، واليابان، وهما اشد ما يكون

التزاماً بعقائدها ؟ *

* انظر الطريق الى الاسلام. محمد أسد. ص ٢٧٨. ترجمة عفيف البعلبكي. دار العلم للملايين. بيروت. (ط : ٧) ١٩٨١م وانظر اسلمة المعرفة (المباديء العامة وخطة العمل). د. اسماعيل الفاروقي. ترجمة. عبدالوارث سعيد. ص ٢٧-٢٨. دار البحوث العلمية (ط : ١) ١٤٠٤هـ. وانظر الله أو الدمار. سعد جمعة . ص ١٤ ، ١٢٨ ، دار بوسلامة ، تونس (ط : ١) ١٩٨٥م. وانظر تجديد الفكر الاسلامي جمال سلطان. ص ٤٧. دار الوطن. الرياض. (ط : ١) ١٤١٢هـ .

وانظر حصوننا مهددة من داخلها. د محمد محمد حسين. ص ١٢٨. المكتب الاسلامي. بيروت

انظر تركية وأزمة الهوية تحقيق صحفي أجراه : د. عبدالقادر طاش. جريدة "المسلمون" عدد (٣٤٧) بتاريخ ١٩/٣/١٤١٢هـ، وانظر مجتمع كراهية. سعد جمعة ص ٢٥١. دار الكاتب العربي. بيروت. ب : ت .

وانظر تجديد الفكر العربي د. زكي نجيب محمود ص ١٨٩، دار الشروق. بيروت. (ط : ٧) ١٤٠٢هـ.

وفي القرآن بيان لحقيقة تقليد الأمم لبعضها البعض تقليداً أعمى يؤدي بها في النهاية إلى الكفر بالله، يقول تعالى : "قال ادخلوا في أمم قد خلت من قبلكم من الجن والانس في النار كلما دخلت أمة لعنت أختها حتى إذا ادركوا فيها جميعاً قالت اخراهم لإولاهم ربنا هؤلاء اضلونا فاتهم ضعفاً من النار"^(١) .

وجل المفسرين وإن اختلفت عباراتهم ذكروا أن سبب هذا اللعن، وهذا القول يعني أن الاتباع وجدوا ضلالات مقرره وسنناً كاذبة من عمل الأوائل، فقلدوهم في أباطيلهم وأضاليلهم، وما كانوا عليه من دين وسائر الأعمال، فنتج عن ذلك انكارهم للحق ومعاداته، وممارستهم لما كانت عليه الأمم السالفة^(٢) .

وقريش - قبل الإسلام - من الجماعات الضالة والمضلة لغيرها، ويدل على هذا قول الرسول صلى الله عليه وسلم : "الناس تبع لقريش في هذا الشأن : مسلمهم تبع لمسلمهم، وكافرهم تبع لكافرهم"^(٣) . وهذه التبعية لقريش اتخذت صوراً متنوعة منها :

كانت العرب تعظم قريشاً في الجاهلية فهم رؤساؤهم وأصحاب حرم الله، وأهل حج بيت الله؛ فقد كان هذا البيت مثابة وأمناً لجميع العرب على اختلاف أديانهم وقبائلهم، فلذا كانوا يعدون قريشاً إماماً لهم في الأمور الدينية والدنيوية .

ومن هذا المنطلق توقف غالب العرب على اتباع الرسول صلى الله عليه وسلم وقالوا : ننظر ما يصنع قومه، ويدل على هذا أنه بعد فتح مكة واسلام قريش تبعهم العرب ودخلوا في دين الله أفواجاً^(٤)

(١) الاعراف - ٣٨ - .

(٢) انظر اضواء البيان في ايضاح القرآن بالقرآن ج ٢ ص ٣٠٠ . وانظر المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ج ٧ ص ٥٧ . وانظر التفسير الكبير ج ١٤/٧ ص ٧٣ . وانظر تفسير المنار . ج ٨ ص ٤١٤ . وانظر التحرير والتنوير ج ٨ ص ١٢١ . (وكلها مراجع سابقة) .

(٣) صحيح البخاري مع الفتح . ك المناقب . باب (قول الله تعالى : يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ... الآية) وما ينهى عن دعوى الجاهلية ج ٦ ص ٥٢٦ .

(٤) انظر شرح النووي على صحيح مسلم ج ١٢ ص ٢٠٠ . وانظر فتح الباري ج ٦ ص ٥٣٠ . وانظر سيره الرسول صلى الله عليه وسلم . صورة مقتبسة من القرآن الكريم . ج ١ ص ١٨١ (وكلها مراجع سابقة) .

تبعية عمياء، وتصميم على التقليد الخاطيء، الذي يتم عن عجز في اتباع الحجج السليمة، وإقفال لأدوات الإدراك التي وهبها الله عز وجل للإنسان، وكان بإمكان هؤلاء ان يتبينوا قبل أن يعلنوا موقفهم من الدعوة، وذلك ببعض نفرأ منهم يقابل الرسول صلى الله عليه وسلم ويحاوروه ليكتشفوا حقيقة هذه الدعوة، وهذا ما فعله نصارى نجران عندما بعثوا نفر منهم إلى الرسول صلى الله عليه وسلم وعلى ضوء هذه المقابلة أمن الوفد بعد أن عرفوا الحق، وفيهم نزل قول الله تعالى : "وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين * وما لنا لا نؤمن بالله وما جاغنا من الحق ونطمع أن يدخلنا ربنا مع القوم الصالحين" ^(١) فهم لم يؤمنوا اعتباراً بل لما عرفوا أنه حق، فاليهود عيروهم بإسلامهم فردوا "مالنا لا نؤمن بالله وما جاغنا من الحق" اي لا مانع من الايمان مع وجود مقتضيه ^(٢) فنحن لم نتبعه لهوى، أو شهوة، ولن نظل مقلدين لباطل، ومن صور هذه التبعية أيضا أن الرسول صلى الله عليه وسلم يتعرض لقبائل العرب في مواسمها التي تجتمع فيها لحج أو تجارة، فيدعوها إلى الله باساليب مشوقة مرغبة ومع ذلك أكثرهم يقول : "قوم الرجل أعلم به أترون أن رجلاً يصلحنا وقد أفسد قومه ولفظوه" ^(٣) وأحسنهم جواباً كان يقول له : الحق بقومك ^(٤) .

والخلاصة أن الحاجز بينهم وبين اتباعه هو تقليد قريش، ففي الصورة الأولى اتضح أن التبعية من أجل الرئاسة الدينية، والاقتصادية وفي الصورة الثانية هم قوم النبي صلى الله عليه وسلم فلماذا لم يؤمنوا به مع أنهم أدري به ؟ ما السر الذي منعهم ؟ ومن هنا تنكشف حكمة من الحكم من حرص الرسول صلى الله عليه وسلم على إسلام قومه، وبدايته بدعوتهم .

(١) المائدة - ٨٢ ، ٨٤ - .

(٢) انظر تفسير الجلالين للقرآن العظيم . الامام جلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر السيوطي والامام، جلال الدين محمد بن احمد المحلي . ج ١ ص ١١٨-١١٩ مكتبة مصطفى الباري الطبي وأولاده . مصر . (ط : ٢) ١٣٧٤هـ .

(٣) انظر البداية والنهاية ج ٢ ص ١٤٠ (مرجع سابق) .

(٤) انظر خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم ج ١ ص ٤٨٢ (مرجع سابق) .

تقليد أهل الكتاب :

وهذا أيضا يشتمل على نوعين :

النوع الأول : تقليد العرب لأهل الكتاب :

وهذا التقليد وإن لم يكن صريحاً إلا أنه موجود حيث توضح بعض اللقاءات التي تتم بين الرسول صلى الله عليه وسلم وبين مشركي قريش اغتزارهم بأهل الكتاب، ويدل على ذلك أنهم كانوا يستشيرون أهل الكتاب؛ بأمر الرسول صلى الله عليه وسلم، وفي رسالتهم بيان اغتزارهم باليهود ومضمونها : "سلوهم عن محمد وصفا لهم صفته، واخبراهم بقوله، فإنهم أهل الكتاب الأول، وعندهم علم ما ليس عندنا من علم الأنبياء"^(١)

ويؤكد هذا ويثبته ما جاء في القرآن الكريم : "ما سمعنا بهذا في الملة الآخرة إن هذا الا اختلاق"^(٢) يروى عن ابن عباس تفسيره لهذه المقولة بأنه قال : ما أخبرتنا النصارى بذلك^(٣) ويروى : اي ما سمعنا من أهل الكتاب أن محمداً رسول الله^(٤) .

وصفوة القول في ذلك أن تأثرهم بأهل الكتاب وتبعيتهم لهم جعلتهم يقولون ذلك .

تقليد النصارى لليهود :

وهذا شهد به القرآن الكريم حيث حذرهم من تقليدهم، يقول تعالى : "قل يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم غير الحق ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيراً وضلوا عن سواء السبيل"^(٥) .

التابعون هم النصارى خاصة لأنه ورد عقب مجادلة النصارى وأن المراد بالقوم الذين ضلوا من قبل هم اليهود^(٦) .

(١) السيرة النبوية لابن كثير. ج ١ ص ٤٨٢ . (مرجع سابق) .

(٢) ص - ٧ - .

(٣) انظر تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٤٢ .

(٤) انظر الجامع لأحكام القرآن. ج ٨/١٥ ص ١٥٢ . (مرجع سابق) .

(٥) المائدة - ٧٧ - .

(٦) انظر الجامع لأحكام القرآن. ج ٦/٢ ص ٢٥٢ وانظر التحرير والتنوير ج ٦ ص ٢٩١ .

وقوله "وَضَلُّوا عَنْ سِوَاءِ السَّبِيلِ" أي عن قصد طريق محمد صلى الله عليه وسلم فهم ضلوا من قبل في دينهم وضلوا من بعد عن الاسلام، وأضلوا غيرهم^(١) .
وغرض الآية تحذير الحاضرين من متابعة هؤلاء اليهود وتغييرهم من سلوكهم في دينهم المماثل لسلوك اليهود^(٢) .

والواقع اليوم يؤكد هذه التبعية العمياء، فاليهودية تقود النصرانية الى كل هاوية، وهي تسير في ركابها سيراً أعمى تحارب بها الحق وأهله في كل مكان .
ويستخلص مما سبق أن التقليد الأعمى يكون بأنواع ثلاثة هي :
تقليد الأفراد بعضهم لبعض، وتقليد الجماهير للزعماء والكبراء والمشاهير وغيرهم من قادة،
وتقليد الأمم بعضها لبعض .

والقاسم المشترك لهذه الأنواع هي : التبعية العمياء والانقياد وراء كل داعي شر بلا تبصر وتعقل يحدوهم لذلك عوامل، وأسباب، وبواعث عدة، وقد تختلف بواعث كل نوع عن الآخر .
فمنهم من يدعوه لذلك الحمية الجاهلية، والتعصب لتراث الأسلاف، ومنهم من يخدعه ما عليه غيره من معلومات يظنها علماً صواباً، وماهي الا خليط لا يكون حقاً متكاملأً .
ومنهم من يغره قوة غيره المادية وكثرة عدده وعدته، ونحو ذلك من سمات وخصائص
ويجمع، الكل امتناعهم عن قبول الحق؛ والدافع هو تقليديهم الأعمى لغيرهم بلا حجة
ناهضة أو برهان ناصح .

وثمة أمر يدعو للتأمل والملاحظة وهو العلاقة بين الكبر والتقليد الأعمى، فمفهوم الكبر يدل على التعظم ورؤية النفس على الخلق والتقليد يدل على التبعية وهضم الذات .

فكيف يجتمعان في أن واحد في غالب المنكرين ؟

إن لهذا دلالات من أبرزها أنه دليل على المتكبر بأنه يتكلف ما ليس فيه، ولا يعني هذا جدة هذه الملاحظة، ولكنه يعني توجيه المتكبر لهذا التناقض، فيستفاد من هذا التوجيه، وكذلك فهو يضاف الى الأدلة الأخرى دليلاً من نفس المتكبر التابع الذليل لغيره والله أعلم .

(١) انظر التحرير والتنوير ج ٦ ص ٢٩١ وانظر الجامع لأحكام القرآن ج ٦/٣ ص ٢٥٢ .

(٢) انظر التحرير والتنوير ج ٦ ص ٢٩٠-٢٩١ .

الفصل الثالث : سبل العلاج

ويتضمن ما يلي :

توطئة ، وخمسة مباحث هي :

- | | | |
|---------------|---|------------------|
| المبحث الأول | : | السبل الحسية |
| المبحث الثاني | : | السبل العقلية |
| المبحث الثالث | : | السبل الأخلاقية |
| المبحث الرابع | : | السبل الإجتماعية |
| المبحث الخامس | : | السبل النفسية |

توطئة :

١ - مما سبق يتبين مدى تغلغل هذه الدوافع السيئة في الإنسان، ومبلغ أثرها في توجيه أفكاره، وسلوكه فهل من سبيل إلى علاجها ؟ وكيف عولجت في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ؟ .

يتشام بعض الناس، فيظنون أن هذه الدوافع قد تتأصل في الإنسان وعندئذ فلا سبيل إلى علاجها^(١) .

ويستنتج ذلك من عناية بعض أهل العلم بالرد على هذا الزعم، وبذل الجهد لاثبات إمكانية العلاج، وقيامهم بسوق الأدلة النقلية والعقلية الصائبة والواضحة، التي تظهر بوضوح هذه الحقيقة .

فالغزالي (رحمه الله) يقرر إمكانية تغيير الأخلاق السيئة ويسوق الأدلة، ومنها قوله : "لو كانت الأخلاق لا تقبل التغيير لبطلت الوصايا والمواعظ والتأديبات"^(٢) ويضيف قائلاً : "وكيف ينكر هذا في حق آدمي؛ وتغيير خلق البهيمة ممكن؛ إذ ينقل البازي من الاستيحاش إلى الأنس، وكذ الكلب والحصان"^(٣) .

وإلى هذا يشير قوله تعالى : "وما علمتم من الجوارح مكبلين تعلمونهن مما علمكم الله"^(٤) فالجوارح الكواسب من سباع البهائم، والطير، كالكلب والفهد، والنمر، والعقاب، والصقر، والبازي والشاهين^(٥) أما التكليل : فتأديب الجوارح وترويضها بالحيل وطرق التأديب والتثقيف^(٦) . فهذا يحدث للحيوان فكيف بالإنسان ؟ .

(١) انظر إحياء علوم الدين ج ٣ ص ٥٤ - ٥٥ (مرجع سابق)

وينقل أحد الثقات قولاً لأخذ طلبة العلم هو : أرح نفسك من وعظ الناس فلا فائدة ترجى، يقول هذا متشامماً مما يراه من أحوال الناس وتفشي المنكرات بينهم .

(٢) المرجع السابق نفسه. والمدرك نفسه ج ٣ ص ٥٤ .

(٣) انظر المرجع السابق نفسه. والمدرك نفسه ج ٣ ص ٥٤ .

(٤) المائدة آية - ٤ - .

(٥) انظر الكشف ج ١ ص ٥٩٤ .

(٦) انظر المرجع السابق نفسه ج ١ ص ٥٩٤ .

بل يرى ابن مسكويه أن الإنسان مطبوع على قبول الخلق بالتأديب والمواظب إما سريعاً أو بطيئاً وهذا مشاهد وملحوس^(١) .

ثم يفند الرأي القائل بعدم امكانية ذلك فيقول : "فهذا يؤدي إلى ابطال قوة التمييز والعقل، وإلى رفض السياسات كلها وترك الناس همجاً مهملين، وإلى ترك الأحداث والصبيان على ما يتفق أن يكونوا عليه بغير سياسة ولا تعليم، وهذا ظاهر الشناعة جداً"^(٢) .

بل ربُّ كلمة تصادف القلب، وربُّ حادث مفاجيء يصدم الشعور، فإذا مجرى الحياة كلها قد تغير في طرفة عين، وإذا المعوج يعود مستقيماً، والفاجر العريبد تقياً نقياً^(٣) .
ولذ كان الرسول صلى الله عليه وسلم يدعو ربه قائلاً : "يا مثبت القلوب ثبت قلوبنا على دينك"^(٤) .

ويدل عليه أيضاً تحول كثير من الناس من الشر إلى الخير فجأة، وبدون مقدمات، وقصة اسلام عمر (رضي الله عنه) شاهد على ذلك وغيرها كثير .

بل أمة بأسرها - أمة العرب - تحولت من وأد البنات، وعبادة الأصنام، وتقطيع الأرحام، وحروب لأتفه الأسباب تحولت من كل ذلك إلى أمة عابدة، رحيمة، واصلة، لا تقاتل إلا في سبيل الله^(٥) الا يدل ذلك على أن هذا الإنسان الذي كرمه ربه بحمل القدره والإرادة إلى التحول من حال إلى حال إذا استعان بالله، واستعمل ما وهبه الله من نعم الفهم والادراك .

وفي القرآن الكريم والسنة الشريفة كثير من النصوص تأمر بفعل الخيرات وتنهاي عن الشرور والمنكرات .

(١) انظر تهذيب الأخلاق في التربية ص ٢٦ (مرجع سابق) .

(٢) المرجع السابق نفسه ص ٢٦ .

(٣) انظر دراسات اسلامية في العلاقات الاجتماعية والدولية د. محمد بن عبدالله براز. ص دار القلم. الكويت. ١٤٠٠هـ .

(٤) صحيح سنن ابن ماجه. ج ١ ص ٤٠ حديث رقم [١٦٥] (مرجع سابق) .

(٥) انظر على هامش فقه الدعوة. د. علي جريشه ص ٩٩. دارالبشير. طنطا. (ط : ١) ١٤١١هـ .

يقول شيخ الاسلام (ابن تيمية) : وقد أمر الله في كتابه الكريم بفعل الخصال الحميدة، والله لا يأمر بأمر إلا وقد خلق سببه ومقتضيه وفي جيلة العبد، وجعل محتاجاً إليه، وفيه صلاحه وكمالهِ؛ فإنه أمر بالعلم، والصدق، والعدل، وصلة الأرحام وأداء الأمانة، وغير ذلك من الأمور التي في القلوب محبتها ومعرفتها .

ونهى عن الكفر، والكذب، والظلم، والبخل، والجبن، وغير ذلك من الأمور التي تنكرها القلوب، وإنما يفعل الأدمي الشر المنهي عنه لجهله به، أو لحاجته إليه ^(١) .

ولكن الفضائل لا يستطيع تحصيلها إلا بعد أن تطهر نفوسنا من الرذائل التي هي أضعافها، وهي شهواتها الرديئة الجسمانية ونزواتها الفاحشة البهيمية، وما يحجب القلب من أمراض نفسية وغير ذلك .

فإن الإنسان إذا علم أن هذه ليست فضائل بل هي رذائل، تجنبها وكره أن يوصف بها وإذا أهمل فظن أنها فضائل ولزمها، صارت عادة يحب التباسه وتدنسه بها ^(٢) .

والغزالي (رحمه الله) يرى ذلك؛ حيث يوجه المرابين إلى إخراج أخلاق السوء من المتربي ويجعل مكانها أخلاقاً حسنة .

ويشبه ذلك بعمل الفلاح الذي يقطع الشوك، ويخرج النباتات الأجنبية من بين الزرع، ليحسن نباته ويكمل ريعه ^(٣) .

ويؤكد هذا شيخ الإسلام (ابن تيمية)؛ فيرى أن فعل الحسنات يوجب ترك السيئات، وليس مجرد ترك السيئات يوجب فعل الحسنات، لأن ترك السيئات مع مقتضيتها لا يكون إلا بحسنة ^(٤) .

وفي هذا توجيه رشيد للدعاة والمرابين حيث يفهم منه أنه ينبغي عليهم أن يتابعوا المدعويين والمتربين بعد قبولهم للدعوة لمدة طويلة حتى يتأصل في نفوسهم حب الخير وبغض الشر .

(١) انظر مجموع الفتاوى ج ٢٠ ص ١٢١-١٢٢. (مرجع سابق) .

(٢) انظر مجلة الأزهر. ج ٦ (السنة السادسة) ص ٥٠٧ .

(٣) انظر رسالة أيها الولد. الأمام الغزالي. ص ١٢٥ - ١٢٦. تحقيق علي محي الدين علي القره داغي. دار الاعتصام. ب : ت. وانظر اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم ج ١ ص ٢٩٧-٢٩٨ (مرجع سابق) .

(٤) انظر مجموع الفتاوى. ج ٢٠ ص ١٢٢ .

وهذا بدوره يبعدهم عن المعاصي، وعموم النواهي، ويزيدهم رقياً في درجات الإيمان^(١) .
ويثبت هذه الأقوال، ويزيدها تأكيداً قول الرسول (صلى الله عليه وسلم) "إنما العلم بالتعلم، وإنما الحلم بالتحلم، ومن يتحر الخير يعطه، ومن يتق الشر يوقه"^(٢) .
فتبين مما سبق أنه بالإمكان معالجة الانسان من نوافعه السيئة، ونقله منها إلى أخرى طيبة تعينه على بلوغ ما تصبو إليه نفسه ومن خيرات، وتسمو به الى معالي الأمور، ولكنهم يتفاوتون في قبول العلاج، فمنهم من يحتاج إلى علاج مضني متدرج، ومنهم من يقبله دفعة واحدة .

وهنا يحسن الحديث عن الاجابة على السؤال الثاني وهو :

وكيف عولجت تلك النوافع في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ؟

بدأ الاسلام في تربية الانسان قبل ولادته، إذ حث المسلمين على حسن اختيار الزوجة الصالحة، والتي تربت في بيئة صالحة، يقول الرسول صلى الله عليه وسلم «تنكح المرأة لأربع : لمالها، ولحسبها، ولجمالها، ولدينها، فاظفر بذات الدين تربت يداك»^(٣) فكل هذه تطفى وتردي إلا صاحبة الدين فهي غاية البغية^(٤) ثم الزم الأبوين بمتابعة أولادهم، مذ ينزل الوليد ويرى النور حتى يصبح فتى يافعاً ينفع أمته، ويسعى لتحقيق الغاية النبيلة من وجوده في الأرض، ويحظى بالسعادة في عاجلته وأجلته .

والشخصية لا تولد مع الفرد عند ولادته، ولكنها تتكون وتنمو تدريجياً بتفاعل الفرد بالمحيط الاجتماعي الذي ينشأ فيه. فيكتسب شخصيته، وكثيراً من اتجاهاته، وعاداته النفسية والاجتماعية^(٥) .

وما أدل على عناية الاسلام بجميع شؤون المسلم؛ من تعجب المشركين من توجيهات

(١) انظر المرجع السابق ج ٢٠ ص ١٢٢-١٢٣ .

(٢) صحيح الجامع الصغير وزيادته الفتح الكبير ج ٢/١ ص ٢٨٠ حديث رقم [٢٣٢٤] .

(٣) صحيح البخاري مع الفتح. ك النكاح باب (الكفاء في الدين) ج ٩ ص ١٢٢ .

(٤) انظر فتح الباري. ج ٩ ص ١٣٥ .

(٥) انظر الاسس النفسية والتربوية. د. عمر بن محمد التومي الشيباني. ص ١٠٨ الدار العربية للكتاب. طرابلس - ليبيا

(ط : ٢) ١٩٨٧ م .

الرسول صلى الله عليه وسلم لأصحابه في كل شؤونهم. حتى قال أحد اليهود لسلمان الفارسي (رضي الله عنه) «إني أرى صاحبكم يعلمكم حتى يعلمكم الخراءة. فقال : أجل إنه نهانا أن يستنجي أحدنا بيمينه أو يستقبل القبلة، ونهى عن الروث والعظام، وقال : لا يستنجي أحدكم بدون ثلاثة أجار»^(١) يعلق النووي على ذلك قائلاً : «ومراد سلمان (رضي الله عنه) أنه علمنا كل ما نحتاج إليه في ديننا، حتى الخراءة التي ذكرت أيها القائل، فإنه علمنا آدابها، فنهانا عن كذ وكذا والله أعلم»^(٢) .

والذي يفهم حقيقة من الحديث؛ أنه علمهم كل ما يهمهم من أمور الدين والدنيا؛ ويشير إلى ذلك تكرار المشرك قوله يعلمكم، وكأنه يقول : إنه يعلمكم وما يزال يعلمكم بكل شيء حتى الخراءة^(٣) .

وما أحسن قولة من قال : الوقاية خير من العلاج، فاشتهرت هذه الحكمة، وجرت على السنة أطباء الأبدان، فما بالك بمن هم أطباء الأرواح .

فالهدى النبوي، يتابع أبناء الجيل الكريم متابعة دقيقة في جميع ما يعرض لهم من الشؤون، وشاملاً جميع خصائص الانسان الروحية، والنفسية والبدنية .

ومن ذلك يربي فيهم الفضائل الخلقية منذ صغرهم، فيحثهم على تعلمها واكتسابها، وبالمقابل يحذرهم وينهاهم عن ارتكاب الرذائل .

(١) صحيح مسلم بشرح النووي. ك / الطهارة. باب (آداب قضاء الحاجة) ج ٣ ص ١٥٢ .

(٢) شرح النووي على صحيح مسلم. ج ٣ ص ١٥٤ .

(٣) ويفهم من الحديث فوائد دعوية هامة يحسن مراعاتها ومنها :

توجيه الداعي إلى حسن استعمال الحوار، فالصحابي الكريم بنى رده على كلمة من مشرك أراد بها مسبة، فحولها إلى شهادة عظيمة يحججه بها. وفيه دلالة على مبلغ متابعة تصرفات المسلمين من قبل المشركين، وهذا تنبيه عظيم للمسلم لينتبه ويراقب جميع تصرفاته، لئلا تكون حائلاً بين الكافرين وبين قبول الاسلام، بل إنه من أخطر الأسباب التي دفعت بعض مشركي هذا الزمان إلى التردد في قبوله . *

وكذلك في الحديث توجيه إلى أخذ الحيطة والحذر، فما يراقبك عدوك لهذه الدرجة، إلا ويفهم منه تحينه الفرص لايقاع الشر بك أو بما تعتقده بالتشكيك، ويث الشبهات. (هذا والله أعلم) .

* انظر في ذلك / نساء نور الله قلوبهن. مصطفى فوزي غزال. دار القبلة للثقافة الإسلامية. جدة (وعلى سبيل المثال ما جاء في ص ١٤) وانظر مجلة النور عدد (٧٧) رجب ١٤١٠هـ ص ٦٠ - مجلة شهرية .

والمعروف أن الخلق لا يكون في النفس فجأة، ولا يولد قوياً ناضجاً؛ بل يتكون على مكث، وينضج على مراحل .

وهذا سر ارتباط نمائه بأعمال متكررة، وخلال لها صفات الدوام كالصلاة والزكاة، والتصديق بيوم الجزاء، والاشفاق من عقاب الله .. الخ .

وإذا كانت الطباع الرديئة دائمة الإلحاح على صاحبها، تحاول العوج بسلوكه بين الحين والحين، فلن يكفك شرها علاج مؤقت .

وإنما يسكن توازنها عامل لا يقل قوة عنها، يعيد التوازن على عجل إذا أختل^(١) .
ولذا يركز الاسلام على تربية القلوب، إذ هي محل الصلاح والفساد ويدل على ذلك قوله صلى الله عليه وسلم : "إن الله لا ينظر إلى اجسادكم ولا إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم. وأشار إلى صدره"^(٢) .

ولذا تتظاهر النصوص النبوية مرشدة، ومؤكدة على أهمية تزكية هذه القلوب وطهارتها من أدرانها، والتي هي محل الدوافع السافلة، ومنها الدوافع المدروسة في هذا البحث .

ومن هذ النصوص قوله صلى الله عليه وسلم : "لا تحاسدوا، ولا تناجشوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، (حتى قال) : التقوى ها هنا. ويشير إلى صدره ثلاث مرات"^(٣) فيفيد الحديث "أن الأعمال الظاهرة لا يحصل بها التقوى؛ وإنما تحصل بما يقع في القلب من عظمة الله وخشيته ومراقبته"^(٤) .

وطبعي أنه متى تزكت النفس، وتربت على المكارم، وتهذبت طباعها استقام السلوك الداخلي والخارجي لا محالة بخلاف توجيه العناية إلى تقويم السلوك الظاهر فقط، فإنه بناء على غير أساس، عرضةً للانحيار في أي وقت .

(١) خلق المسلم. محمد الغزالي. ص ٢٨-٢٩. دار الكتب الحديثية، مصر. (ط : ٨) ١٣٩٤ هـ .
(٢) صحيح مسلم بشرح النووي. ك البر والصلة والآداب. باب (تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره ودمه وعرضه وماله) ج ١٦ ص ١٢١ .

(٣) صحيح مسلم بشرح النووي. المدرك نفسه ج ١٦ ص ١٢٠ - ١٢١ .

(٤) شرح النووي على صحيح مسلم ج ١٦ ص ١٢١ .

- ويلاحظ أن ذلك شامل لجميع أدران القلب فلا تقتصر على هذه الدوافع، أما الحالة الثانية للعلاج فهي خاصة بالدوافع وهي ذات شقين :

سبل مباشرة : وهذا يعني أنها مقصودة عمداً لعلاج أصحاب هذه الدوافع، كل دافع بما يناسبه، وتتفاوت قوة هذا العلاج ودرجاته بحسب الانسان المراد علاجه وتطويعه لما فيه صالحه .

وسبل غير مباشرة : لم تقصد لعلاج دافع بعينه، ومع هذا أثرت على صاحبه بطريق أو بأخر، كمظنر رآه، أو فكرة استوقفته، فأزال ذلك المرض الكامن في نفسه ونقله إلى حديقة الخير والإسلام .

والشواهد تؤكد هذا التقسيم، ولكن الحديث أجمل هنا لما سيأتي من تفصيل في مباحث الفصل (إن شاء الله) .

٢ - المراد بسبل العلاج :

يلاحظ مما سبق مبلغ أثر الدوافع، وتباين أسبابها ودواعيها، فعلاجها يحتاج إلى جهد في التفاعل، وجهد في انتقاء أنسب السبل، وأعمقها أثراً في النفس .
ويضحى المعالج لهذه الدوافع وكأنه يستأنى ينتقل من نبتة لأخرى؛ يطرد الآفات بأنواع المطهرات؛ لتهيئاً للنبت الجديدة وهذا ما فعله (صلى الله عليه وسلم) مع المدعويين؛ فهو ينتقل من علاج لآخر، يتحسس ويتلمس أنجع وأيسر السبل؛ للوصول إلى نفوسهم .
فذاك منكر ينفذ إلى الحقيقة ببسر وسهولة؛ وذاك يحتاج إلى براهين محسوسة دامغة، ومنها ما يصل به برود العاطفة إلى حد الجمود رغم المثيرات العاصفة. ومن هنا يتضح السر في تنوع عوامل التأثير في أي القرآن الكريم تبعاً لتنوع الاستجابات في الإنسان، فهو يخاطب العاطفة عن طريق الشعور، ويقنع العقل عن طريق الحس، ويجلب الأسماع والقلوب بشتى السبل^(١) .

فماذا تعني سبل العلاج ؟

من معاني السبل في اللغة أنه : الطريق الواضح، والسبب، والوصيلة^(٢)، ويذكر ويؤنث، ويجمع : سبل، وأسبلة^(٣) .

ويقول الراغب : "ويستعمل السبيل لكل ما يتوصل به إلى شيء خيراً كان أو شراً"^(٤).
وفي الاصطلاح : هناك توافق ملحوظ مع المعاني اللغوية؛ فيذكرون أنه : الطريق، والمسلك، والسنة^(٥)، والمنهاج^(٦) . وهو مستعار لوسيلة الشيء بقريته إضافة إلى الرشد وإلى الغي^(٧) .
فصفوة القول أن السبل في هذا البحث هي : الطرق الواضحة المستخدمة في العهد النبوي لمعالجة دوافع الإنكار عند أصحابها؛ بغية الوصول إلى نفوسهم. وينتقل الحديث إلى تفصيل ملائم لكل سبيل على حدة ليزداد الأمر وضوحاً :

(١) انظر سيكولوجية القصة في القرآن. ص ٤٢٤. (مرجع سابق) .

(٢) انظر لسان العرب. مادة : سبل. (مرجع سابق) .

(٣) انظر المرجع السابق نفسه والمدرک نفسه وانظر المعجم الوسيط. مادة : اسبلت .

(٤) المفردات في غريب القرآن. مادة : سبل. (مرجع سابق) .

(٥) انظر تفسير ابن كثير. ج ٢ ص ٧٦٧. (مرجع سابق) .

(٦) انظر الجامع لأحكام القرآن. ج ٩/٥ ص ٢٧٤ .

(٧) انظر التحرير والتنوير. ج ٩ ص ١٠٥ (مرجع سابق) .

المبحث الاول : سبل العلاج الحسية

ويشمل الآتي

مدخل وخمسة مطالب هي :

- | | |
|-----------------|---------------------|
| المطلب الأول : | دفع الأموال |
| المطلب الثاني : | المعجزات الحسية |
| المطلب الثالث : | زوال النعمة |
| المطلب الرابع : | الجهاد في سبيل الله |
| المطلب الخامس : | القدوة الحسنة |

ماذا تعني السبل الحسية ؟

يقصد بالسبل الحسية كل فعل مباشر محسوس رصد في العهد النبوي على شرط أن يؤدي هذا الفعل إلى ازالة الدوافع، أو يساعد على ازالتها، أو حتى يحدث أثراً يهون من حدتها، ووقعها في النفس، فتصبح فيها قابلية لاستقبال النبت الجديد بإذن الله .
فهذه الأعمال المحسوسة قد يكون لها من النفع والاعلان عن الاسلام، مثل القول وأكثر في بعض الأحيان لما فيها من أمور معينة تحقق الهدف المنشود بإذن الله، وهو بمثابة الدعوة الصافية إلى الاسلام^(١) .
فهناك فئات من الناس ولغوا في المحسوسات حتى صار لا ينفع معهم إلا ما يحسونه ويلمسونه، سواء اكان ترغيباً وتشويقاً، أو ترهيباً وتخويفاً .
وقد استخدم الرسول صلى الله عليه وسلم هذا السبيل مع شرائح كثيرة من مجتمع عصر النبوة، وكان لهذا العلاج النبوي صور عديدة، ونتج عنه آثار ونتائج ايجابية كثيرة .
وللاطلاع على حقيقة ذلك، ينتقل الحديث إلى هدي الرسول صلى الله عليه وسلم في ذلك بشواهد واقعة تؤكد هذه الأهمية :

(١) انظر الدعوة إلى الله (الرسالة - الوسيلة - الهدف) ص ٣٥٧. (مرجع سابق) .

المطلب الأول :

دفع الأموال :

يدفع الناس الأموال لجهات كثيرة، ولأهداف متباينة، ولكن القليل من الناس هم الذين تجود أنفسهم بصرف الأموال الطائلة ولا يبتغون من ذلك إلا وجه الله، ورضاه والدعاء إلى سبيله القويم .
وقدوة وإمام هؤلاء هو محمد بن عبدالله (صلى الله عليه وسلم) فقد كان لا يتردد في صرف الأموال العريضة، وكل همه وسدمه من ذلك: أن يشوق ويرغب الآخذين - منه ذلك - إلى دين الله، ويتألفهم بذلك .

وكان القرآن هو الدليل والموجه لذلك، فقد عد القرآن - المؤلفة قلوبهم - من أصناف الزكاة، يقول تعالى : "إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم"^(١) .
ولذا يرى شيخ الإسلام (ابن تيمية) أنه يجب اعطاؤهم لتأليف من يحتاج إلى تأليف قلبه، وإن كان هو لا يحل له أخذ ذلك، كما أباح الله تعالى في القرآن اعطاعهم ذلك، وكما كان النبي (صلى الله عليه وسلم) يعطي المؤلفة قلوبهم من الفيء ونحوه^(٢) .
أما من فوائد عطائهم، فالكافر منهم، يرجى بعطيته منفعة : كإسلامه، أو دفع مضرته إذا لم يندفع إلا بذلك^(٣) .

فمن هم هؤلاء ؟ ومن تتبع هذا الصنف واستقرأ أحوالهم يتبين أنهم الرؤساء والسادة المطاعون في عشائرهم، فقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يعطي أمثال : لأقرع بن حابس، سيد بني تميم، وعيينة بن حصن، سيد بني فزارة، وزيد الخير الطائي، سيد بني نبهان، علقمة بن علاثة العامري، سيد بني كلاب، ومثل سادات قريش من الطلقاء : كصفوان بن أمية، وعكرمة بن أبي جهل، وأبي سفيان بن حرب، غيرهم كثير^(٤) ولك أن تتصور الأعداد الهائلة من البشر التي تتبعهم، فهم إذا رغبوا في الاسلام وقبوله، أقبلت

(١) التوبة آية - ٦٠ - .

(٢) انظر مجموع الفتاوى . ج ٢٨ ص ٢٨٨ (مرجع سابق) .

(٣) انظر المرجع السابق نفسه ج ٢٨ ص ٢٩٠ .

(٤) انظر المرجع السابق نفسه ج ٢٨ ص ١٨٨ .

معهم أم تتبعهم، يرضيها ما يرضيهم، ويغضبها ما يغضبهم، وقد مر هذا في مبحث التقليد الأعمى، ومبلغ تأثر الجماهير بالقادة والسادة، وأيضاً حب المال من أهم أسباب ترسب كثير من الدوافع التي مرت، فهذا العمل علاج مباشر لأسباب الدافع .

فما أثر هذا العطاء على المدعويين ؟

بعث الرسول صلى الله عليه وسلم داعياً وليس جابياً، فهمه أن يصرف ما تناله يده في ذات الله، وفي الدعوة إلى سبيله، وليس كعطاء جبابرة الأرض وملوكها، لشراء ذمم الملا من الناس ليوطدوا أركان حكمهم، وهذه الأموال تأتيهم من ظلم الناس وجباية الأموال منهم، فيهبون قسماً منها لآخرين، ثمناً لسكوتهم، ومعاونتهم في الظلم، فصاروا نهايين وهابيين^(١) .

تعجب صحابي كريم من عطاء الرسول صلى الله عليه وسلم لرجل وتركه رجلاً هو أفضل منه في نظره، فآلح على النبي الكريم لمعرفة سبب ذلك، فيجيبه إمام الدعاة قائلاً :
"إني لأعطي الرجل وغيره أحب إليّ منه مخافة أن يكبّه الله في النار"^(٢) .

وعن أنس (رضي الله عنه) أن رجلاً سأل النبي صلى الله عليه وسلم غنماً بين جبلين فأعطاها إياه، فأتى قومه، فقال : أي قوم أسلموا، فوالله إن محمداً يعطي عطاء ما يخاف الفقر^(٣) .
فتنبه لمبلغ الأثر الذي أحدثه هذا العطاء الكريم، فقد جعل الرجل داعياً صادقاً لقومه، محضراً دليلاً معه، انظروا مقدار العطاء هل تتصورون أن يعطي هذا غير نبي ؟ .

فهذا صفوان ينال مثل ذلك، فيعلق على هذا الكرم بقوله "أشهد ما طابت بهذا إلا نفس نبي فأسلم"^(٤) .

(١) انظر المرجع السابق نفسه ج ٢٨ ص ٢٩٢ .

(٢) صحيح مسلم بشرح النووي. ك/الايان. باب (تألف قلب من يخاف على إيمان الضمنا) ج ٢ ص ١٨٠ (مرجع سابق) .

(٣) صحيح مسلم بشرح النووي. ج ١٥ ص ٧٢ .

(٤) الاصابة في تمييز الصحابة. ابن حجر العسقلاني. ج ٢ ص ١٨١. دار الكتاب العربي. بيروت. ب : ت .

ويشهد أنس (رضي الله عنه) مبيناً غاية الرسول (صلى الله عليه وسلم) من هذا العطاء فيقول : "إن كان الرجل ليسلم ما يريد إلا الدنيا حتى يكون الاسلام أحب إليه من الدنيا وما عليها"^(١) .

ويكرر العطاء صلى الله عليه وسلم ما دام يزيل غشاوة القلوب، ويلينها، وينتزع منها التحاسد والتكبر، لتصفو وتتوجه لباريها وخالقها؛ وهذا ما حدث مع صفوان بن أمية (رضي الله عنه)، فقد وهبه الرسول (صلى الله عليه وسلم) عدة مرات حتى قال : "والله لقد أعطاني رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أعطاني وإنه لأبغض الناس إليّ فما برح يعطيني حتى إنّه لأحب الناس إليّ"^(٢) .

فينبغي للدعاة أن يفيدوا من هذا السبيل النبوي لأهداف صحيحة يراد بها نصره الاسلام والمسلمين، والترغيب فيه بكل ممكن، كأن يبذل لولده، وأهله، أو لرعيته، ما يرغبهم في العمل الصالح، من مال، أو ثناء، أو نحو ذلك^(٣) وما تعمله جماعات تحفيظ القرآن من عطاء الحفظة أموالا تشجيعاً لهم وتشويقاً، لهو من أنجع السبل، وقد ظهرت بحمد الله آثار ذلك .

(١) صحيح مسلم بشرح النووي ج ١٥ ص ٧٢ .

(٢) صحيح مسلم بشرح النووي ج ١٥ ص ٧٢ .

(٣) انظر مجموع الفتاوى ج ٢٨ ص ٣٦٩ .

المطلب الثاني :

المعجزات الحسية :

وقعت في العهد النبوي معجزات كثيرة، أيد الله بها نبيه محمد صلى الله عليه وسلم وكان من هذه المعجزات الحسية ما يلي :

١ - انشقاق القمر :

فإن أهل مكة سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يريهم آية فأراهم القمر شقتين حتى رأوا حراء بينهما^(١) .

فهذه المعجزة بهرت كفار مكة حتى لم يصدقوا بوقوعها، فبعثوا إلى أفاق مكة يسألون عن صحة وقوع ذلك، فجاءت السفار وأخبروا بأنهم عاينوا ذلك،^(٢) وهزمت قريش كالعادة في ساحة العقل والبراهين لتلجأ للاتهام مرة أخرى كما اعتادت^(٣) .

٢ - تكثير الماء :

وهذا وقع كثير في زمانه صلى الله عليه وسلم، وعلى يديه من بركة في الأكل والشرب ومن ذلك : قصة صاحبة المزدتين : فهذه المرأة رأت بعينها معجزة تكثير الماء، وما فعل صلى الله عليه وسلم عدا أنه أمر بإحضار اناء ثم فرغ من أفواه المزدتين، فاستقى الناس، وما نقص من مزودتيها شيء، بل ويقول الصحابة : ليخيل إلينا أنها أشد ملاء منها حين أبتدأ فيها^(٤) .
فما أثر ذلك على هذه المرأة ؟ وعلى قومها من ورائها ؟ .

فهذه المرأة بعد ما ذهبت إلى قومها وهي مبهورة فيما حدث لها سألوها عن أسباب تأخرها، فقالت : لقيني رجلان فذهبا بي إلى هذا الذي يقال له الصابيء ففعل كذ وكذا، فوالله إنه لأسحر الناس من بين هذه وهذه - تعني السماء والارض - أو أنه لرسول الله حقاً^(٥) .

(١) صحيح البخاري. ك مناقب الأنصار. باب (انشقاق القمر) ج ٧ ص ١٨٢ .

(٢) انظر فتح الباري. ج ٧ ص ١٨٥ ، ١٨٦ (مرجع سابق) .

(٣) انظر السيرة النبوية كما جاءت في الأحاديث الصحيحة. محمد الصوياني ص ١٢٣ . مطابع شركة الصفحات الذهبية. الرياض (ط : ١) ١٤١٢هـ .

(٤) انظر صحيح البخاري مع الفتح. ج ١ ص ٤٤٨ .

(٥) صحيح البخاري مع الفتح. ج ١ ص ٤٤٨ .

فهذه المعجزات وقع منها في عهد الرسول (صلى الله عليه وسلم) كثير، وكانت من أسباب دخول الناس الاسلام^(١) .
ومن أقوى سبل علاج الغرور العلاج بالبرهان وأي برهان أقوى من هذه المعجزات الحسية التي بهرت من شاهدها، أو حتى سمع بها .

٣ - مصارعة يزيد بن وكانه :

هذا الرجل مغرور بما وهبه الله من قوة بدنية، فظن أن لا غالب له من بني البشر، فقد دعاه الرسول (صلى الله عليه وسلم) إلى الاسلام فلم يقبل، فاستوعده إن هو صرعه أن يسلم^(٢) .

فصارعه الرسول (صلى الله عليه وسلم) فصرعه ثلاث مرات، فلما كان في الثالثة قال : يا محمد ما وضع ظهري إلى الأرض أحد مثلك، وما كان أحد أبغض إليّ منك، وأنا أشهد أن لا إله إلا الله، وأنت رسول الله^(٣) .

فهذا الاسترواح النفسي كسره صلى الله عليه وسلم بدواء يناسب حالة هذا الرجل المغرور، لعله بعد ذلك يذعن، ويستجيب لنداء الحق، وفعلاً جاء هذا التصرف بنتيجة ايجابية .

(١) انظر الاعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام واطهار محاسن دين الاسلام واثبات نبوة محمد صلى الله عليه وسلم. الامام القرطبي ص ٣٥٤-٣٦٩ تقديم وتحقيق وتعليق/ د. أحمد حجازي السقا. دار التراث العربي. القاهرة ب : ت .

(٢) انظر السيرة النبوية لابن كثير. ج ٢ ص ٨٣ .

(٣) انظر المرجع السابق نفسه ج ٢ ص ٨٤ .

المطلب الثالث :

زوال النعمة :

هذه النعمة تطغي بعض الناس، فيتكبر على الحق والخلق^(١) فقسّم منهم قد ينفع معه العلاج المتواضع والرفيق، ولكن هناك أصناف لا ينفع معها إلا إصابته بأفة توقظه من غفلته، وترقق من قساوة قلبه وذلك هو أسلوب القوة^(٢) .

ومن ذلك قصة الرجل الذي أكل بشماله، فأمره صلى الله عليه وسلم أن يأكل بيمينه فقال : لا أستطيع . فقال له النبي صلى الله عليه وسلم « لا استطعت » ما منعه إلا الكبر . قال : فما رفعها إلى فيه^(٣) .

وفي القرآن تأكيد ذلك؛ حيث يقص تعالي قصة صاحب الجنتين المغرور بهما، فإن رفيقه نصحه أن يشكر الله على نعمته، وحذره من مغبة استرساله بذلك .

ولكن الغرور أرداه فكفر بنعمة ربه، واستبعد بنظره القريب أن يصيب هذه الجنان شيء .

فكانت النتيجة "وأحيط بثمره فأصبح يقلب كفيه على ما أنفق فيها وهي خاوية على

عروشها ويقول يا ليتني لم أشرك بربي أحداً"^(٤) الشاهد أنه بعد أن رأى وأحس بما حصل

لهذه النعمة، وبزوالها بقدرة الله ندم وتمنى أنه لو عرف نعمة الله عليه، وأنه لم يكفر بها،

وهذا ندم منه حين لا ينفعه الندم^(٥) ومثله أصحاب الجنة في سورة «القلم» فلم يرتدعوا عن

غيهم الذي كانوا فيه حتى اجتاحت - بأمر الله - جنتهم جائحة "قطاف عليهم طائف من

ربك وهم نائمون فأصبحت كالصريم"^(٦) فلما رأوا هذا المنظر وتأملوا ووقفوا على حقيقة

الأمر المحسوس، أضربوا عن قولهم الأول، نادمين مستغفرين^(٧) "فلما رأوها قالوا إنا

(١) انظر مبحث بواعي التكبر من هذا البحث ص .

(٢) انظر الحكمة في الدعوة الى الله (تعريف وتطبيق) د. زيد بن عبدالكريم ص ٦٩ دار العاصمة. الرياض.
(ط : ١) ١٤١٢هـ .

(٣) صحيح مسلم بشرح النووي. ك الأشربة. باب (آداب الطعام والشراب وحكمهما) ج ١٣ ص ١٩٢ .

(٤) الكهف - ٤٢ - .

(٥) انظر الجامع لأحكام القرآن ج ١٠/٥ ص ٤١٠ .

(٦) القلم (١٩-٢٠) .

(٧) انظر تفسير أبي السعود. ج ٩/٥ ص ١٦ .

لضالون^(١) وفئة من قوم قارون يغترون بما هو عليه من سعة المال، فيتمنون انهم مثله، وبعد أن خسف به وبيداره فخسفنا به وبيداره الأرض فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله^(٢) فبعد أن رأوا بأعينهم ما حل به، تراجعوا عن امنياتهم الباطلة وأصبح الذين تمنوا مكانه بالأمس يقولون وي كأن الله ييسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر لولا أن من الله علينا لخسف بنا وي كأنه لا يفلح الكافرون^(٣) الشاهد أنهم حينما رأوا عياناً بياناً ما حصل بالطاغي المفرود، اعتدت حينئذ أفكارهم واستقامت أفعالهم، وندموا بصدق على ماظهر منهم من سوء.

بل إن الدعاة يلجأون إلى الله بطلب زوال النعمة عن المجرمين وذلك إذا أعتيتهم السبل وزاد الطغيان وبلغ حداً لا بد أن يرد .

وهذا ما فعله أحد أولي العزم من الرسل (موسى عليه السلام) فقد استنفذ - في دعوة فرعون - كل السبل الممكنة من لين ورفق ودعوة بالتي هي أحسن إلى غير ذلك. ولكن لا مجيب، فبعد ذلك سأل موسى ربه بأن يزيل النعمة التي تسببت في غطرتهم وكبرهم فقال : "ربنا إنك أتيت فرعون وملأه زينة وأموالاً في الحياة الدنيا ربنا ليضلوا عن سبيلك ربنا أطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم"^(٤) .

فموسى عليه السلام - مهد لدعوته بأن هدفه نصره الدين، لا نصره نفسه ومصالحته، فسأل ربه سلب النعمة عن فرعون وملئه، وحلول العذاب لخضد شوكتهم، وتذليل تجبرهم ليرجعوا عن ضلالهم ويسهل قبولهم الايمان^(٥)، وإن رسول الله صلى الله عليه وسلم فعل نفس العلاج مع قريش لما رأهم استعصوا عليه، فقال : اللهم أعني عليهم بسبع كسبع يوسف، فأخذتهم السنة حتى حصت كل شيء، حتى أكلوا العظام، وقال أحدهم : حتى أكلوا الجلود والميتة، وجعل يخرج من الأرض كهيئة الدخان، (فما النتيجة ؟) فاتاه

(١) القلم - ٢٩ - .

(٢) القصص آية - ٨١ - .

(٣) القصص آية - ٨٢ - .

(٤) يونس ، آية - ٨٨ - .

(٥) انظر التحرير والتتوير . ج ١١ ص ٢٦٧-٢٦٨ .

أبوسفيان فقال : يا محمد إن قومك قد هلكوا، فادع الله أن يكشف عنهم فدعا، ثم قال :
تعودوا بعد هذا" (١) .

وشاهد آخر أثر في صناديد قريش فبعد أن قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم أول
سورة فصلت حتى بلغ قوله تعالى : "فإن عرضوا فقل أنذرتكم مثل صاعقة عاد
وتمود" وضع عتبة بن ربيعة يده على في رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وناشده الرحم أن يكف (٢) .

المطلب الرابع : الجهاد في سبيل الله (قتال الكفار)

لم يكن تقرير مبدأ الجهاد غريباً، أو جديداً، فهو وضع طبيعي تحتمه ظروف الحياة
البشرية، وهي سنة الله في استمرار الصراع بين دعوة الحق، ودعوات الباطل (٣) "بل نقذف
بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق" (٤) .

فالجهاد لا يراد به العلو في الأرض والطفيان، بل غاية المجاهد في سبيل الله تحقيق عبودية البشر
لخالقهم، أو على أقل تقدير إزالة الحواجز التي تحول بينهم وبين دعوة الفلاح والصلاح .
والجهاد إذا أطلق فلا يقع إلا على مجاهدة الكفار بالسيف، حتى يدخلوا في الإسلام (٥) .

والكثير من البشر لا ينقادون للحق بدون قوة تحملهم على ذلك (٦) والجهاد نوع من
أنواع هذه القوة التي تطهر الأرض من دنس الجاحدين، أو تدخلهم في دين الله القويم، أو
يدفعوا الجزية عن يد وهم صاغرون .

(١) صحيح البخاري مع الفتح. ك التفسير. باب (ربنا اكشف عنا العذاب إنا مؤمنون) ج ٨ ص ٥٧٢ .

(٢) انظر السيرة النبوية لابن كثير ج ١ ص ٥٠١-٥٠٢ .

(٣) انظر أسباب نجاح الدعوة الإسلامية في العهد النبوي. عبدالله بن محمد آل موسى ص ٢٢٨-٢٢٩، دار عالم الكتب.
الرياض. (ط : ١) ١٤٠٥هـ .

(٤) الأنبياء آية ١٨ .

(٥) انظر المقدمات الممهدة لبيان ما اقتضته رسوم المدونة من الأحكام الشرعية والتحصيلات المحكمات الشرعية
لأمهات مسائلها المشكلات. الحافظ أبي الوليد محمد بن أحمد بن رشد. ج ص مطبعة السعادة. مصر. (ط : ١) .

(٦) انظر أهمية الجهاد في نشر الدعوة الإسلامية والرد على الطوائف الضالة فيه د. علي بن نفيح العلياني ص ٢٥٤ دار
طيبة. الرياض. (ط : ١) ١٤٠٥هـ .

فالجهد بالسيف كما تؤكد الأخبار الصحيحة، كان سبباً في دخول كثير من الناس في الإسلام، وبخاصة الصناديد والكبراء^(١) .

فهولاء الكبراء عولجوا بسبل كثيرة، ونفعت مع قلة منهم، ولكنها لم تنفع مع البقية، ولذا وجه الله نبيه للعلاج الأمثل، والأنجع؛ وذلك في قوله تعالى : "وإن نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم وطعنوا في دينكم فقاتلوا أئمة الكفر إنهم لا أيمان لهم لعلهم ينتهون"^(٢) "يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلب عليهم"^(٣) .

فبعد غزوة بدر وانتصار المسلمين أسلم كثير من الناس^(٤) ، وهذا الرسول صلى الله عليه وسلم حينما علم بحسد يهود له وغدرهم هددهم بالحرب، وذكرهم بما أصاب قريش في بدر^(٥) . وانتصار جيوش الايمان مع قلة العدد لمداة للتفكير الجاد للتعرف على السر في ذلك، وكذلك انتصار المسلمين في غزوة الخندق بلا حرب لهي داعية إلى الانبهار في حقيقة أمر هذا النبي .

وفي ذلك إعلام كبير لهذا الدين، ودعاية واسعة النطاق لرسول هذا الدين^(٦) فإن ذلك ملفت للعقول، وقارع لها عن عبادة غير الله تعالى ناصر المؤمنين وخاذل الكافرين، فقوارع الحرب تسمع الذين في أذانهم وقر، وعلى ابصارهم غشاوة^(٧) .

وفيه مع ذلك علاج للحسد، فالحاسد لا يرتاح حتى يزول الخير الذي أنت فيه، ولذا قال الرسول صلى الله عليه وسلم لليهود : "اعلموا أنما الأرض لله ورسوله، وإني أريد أن اجليكم من هذه الارض"^(٨) . ودواء ناجح ايضا لدافع الخوف وقريش كانت تقول :

(١) السيرة النبوية لابن هشام ج ٤ ص ١٣٦، ١٥٢ .

(٢) التوبة آية - ١٢ - .

(٣) التحريم آية - ٩ - .

(٤) انظر مجتمع المدينة في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم، ص ٤٤٧ (مرجع سابق) .

(٥) انظر الكامل في التاريخ ج ٢ ص ٩٦ (مرجع سابق) .

(٦) انظر الاعلام في صدر الاسلام. عبداللطيف حمزة. ص ١٦٦. دار الفكر العربي (ط : ٢) ١٩٧٨ م .

(٧) انظر خاتم النبيين. ج ٢ ص ٩٦٧. (مرجع سابق) .

(٨) صحيح البخاري مع الفتح. ك/الاعتصام بالكتاب والسنة. باب (وكان الانسان اكثر شيء جدلاً) ج ١٢ ص ٢١٢ .

تخاف أن نتخطف من حولنا" (١) .

والذين كانوا يعتقدون في قوة قريش، ويخافون من بأسها إن هم أسلموا، ظهرت لهم الحقيقة؛ فذاك الصنم الذي يظن العرب أنه لا يقهر هامو يستسلم خانعاً ذليلاً لقوة الاسلام، وصار الرسول (صلى الله عليه وسلم) وصحبه - بالحق الذي يحملونه - هم اسياد الجزيرة العربية، وتحطمت قوى المعارضة المسلحة (٢) .

ولذا كان من الطبيعي أن تفد القبائل العربية الضخمة لتحاور أو تناقش أو تسلم (٣) .
يقول ابن هشام : فلما افتتحت مكة، ودانت قريش، ودوخها الاسلام، وعرفت العرب أنه لا طاقة لهم بحرب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ولا عداوته؛ دخلوا حينئذ في دين الله أفواجا (٤) .
وحسن الاعداد، وقوة العدة، وكثرة العدد، كان لها تأثيراً بليغاً على الناس، فهذا الرسول صلى الله عليه وسلم يأمر العباس (رضي الله عنه) بأن يحبس أبا سفيان (رضي الله عنه) عند مضيق الوادي حتى تمر به جنود الله فيراها (٥) فماذا يريد صلى الله عليه وسلم من ذلك ؟ يجيب أبو سفيان بنفسه، فبعد أن رأى ما هاله من حسن الاعداد الحربي لجند الله قال : "ما لاحد بهؤلاء قبل ولا طاقة" (٦) بل أكثر من ذلك ذهب مسرعاً إلى مكة صارخاً محذراً من عصيان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أو الخروج عن أمره فإنه جاعم بما لا قبل لهم به (٧) .

وهذا علاج لمن لا يذعن إلا لقوة وعدد، وهما من أسباب داء الكبر .

فيتضح مما سبق أن القوة سبيل علاج ناجح لمن لم يوفقه الله لطريق الحق، بالسبل الهينه الرفيعة، وأنى لتكبر عنيد أن يؤمن إلا بعد أن تتخذ مراكز الكبر في نفسه فينفش أعجابه وينكسر غروره .

(١) القصص آية - ٥٧ - .

(٢) انظر المنهج الحركي للسيرة النبوية. منير محمد الغضبان. ج ٣ ص ١٧٣. مكتبة المنار. الأردن. (ط : ٦) ١٤١١ هـ .

(٣) انظر المرجع السابق نفسه ج ٣ ص ١٧٣ .

(٤) انظر السيرة النبوية لابن هشام ج ٤ ص ١٥٢ .

(٥) صحيح البخاري مع الفتح. ك/المغازي. باب (أين ركز النبي -صلى الله عليه وسلم- الرؤية زمن الفتح) ج ٨ ص ٥ .

(٦) انظر السيرة النبوية لابن هشام. ج ٤ ص ٢٤ .

(٧) المرجع السابق نفسه ج ٤ ص ٢٤ .

المطلب الخامس :

القدوة الحسنة :

الفعال والخصال هي مفاتيح الشخصية، وهي المرآة التي ينظر فيها الناس إلى القدوات، وما أجمل أن يحسن الدعاة الفعال، ويحمدوا الخصال مع جميع من يعايشون، ويعاشرهم، حتى لا يعاب الاسلام من قبلهم^(١).

ويجمع علماء الأخلاق والنفسيون؛ على أن خير وسيلة لغرس الفضائل في نفوس الناشئة هي القدوة الطيبة، والمثل الصالح، فبالأسوة الحسنة التي يراها الأحداث في أهلهم ومعلميهم، وأصدقائهم، وحكامهم، وغيرهم مما تجمعهم وإياهم رابطة اجتماعية؛ يكتسبون الشيم الطيبة والأخلاق الحميدة اللازمة^(٢).

وهذه القدوة الحسنة المتحلية بالفضائل الممتازة، تعطي الآخرين قناعة بأن بلوغ هذه الفضائل من الأمور الممكنة التي هي في متناول القدرات الانسانية، وشاهد الحال أقوى من شاهد المقال^(٣).

ومما يؤكد مبلغ أثر وأهمية القدوة أن قدرات الفهم للكلام لدى الناس تتفاوت، ولكن الجميع يتسارون أمام الرؤية بالعين المجردة لمثال حي، فإن هذا ادعى لتقريب الأفكار بصورة محسوسة، وملموسة، وهي لذلك إحدى أهم وسائل التربية في إيصال المفاهيم والمعاني التي يريد الداعية المربي إيصالها للمقتدي^(٤).

ويتضح مما سبق أن القدوة المستقيمة من أهم السبل التي تحدث أثراً كبيراً في اتجاهات وسلوك المدعوين - وخاصة في بدايات دعوتهم - وذلك لأن الداعي هو المثل الأعلى في نظرهم، إذ يقلدونه سلوكياً، ويحاكونه خلقياً من حيث يشعر أو لا يشعر، بل

(١) انظر في موكب النبيين. ج ١ ص ٣٢١. (مرجع سابق).

(٢) انظر الأخلاق والدعوة إلى سبيل الله. جمع/محمد السباعي عامر. ص ٦٢ (مجموعة مذكرات من كلية أصول الدين الأزهرية).

(٣) انظر المصفي من صفات الدعاة. عبدالحميد البلالي ج ١ ص ٢٠. دار الدعوة الكويت. (ط : ٢) ١٤٠٧هـ.

(٤) انظر المرجع السابق ج ١ ص ٢٠ وانظر التربية الاسلامية وأشهر المريين المسلمين د. محمد علي المرصفي. د. آمال حمزة المرزوقي أبو حسين. ص ٢٠ مطابع الوفاء. المنصورة (ط : ١) ١٤١٠هـ.

ينطبع في نفوسهم واحساسهم صورته القولية والفعلية والحسية والمعنوية .
فالنماذج البشرية الفذة تفرض على الغير المعجب بها محاولة تحريك بوافع التقليد
والمحاكاة، فتتبعها برغبة وصدق في كل ما تفعله^(١) .
واستثمر الاسلام هذا الدافع استثماراً صالحاً طيباً، فهو لم يدعو إلى الغاء هذه
الرغبة في التقليد والمحاكاة، وإنما هذبها وحدد القدوات الصالحة التي هي أهلاً لأن يقتدى
بها .

ففي القرآن الكريم توجيه إلى الاقتداء الصحيح فيمن يستحق ذلك، بهديه المستقيم
وسيرته الحميدة، يقول تعالى - موجهاً رسوله الكريم (صلى الله عليه وسلم) إلى ذلك :
"أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده"^(٢) .

وعباد الله الصالحين يدعون ربهم فيقولون : "واجعلنا للمتقين إماماً"^(٣) فغايبتهم ليست
القيادة في ذاتها، بل غاية الدعاة تحقيق عبادة الله في الارض، وهذه وسيلة من وسائلها^(٤) .
وكما سلف وتبين من تغلغل داء التقليد لدى الجاهليين، حتى أصبح هو علة العلل
لديهم، فكانوا يقلدون بلا وعي ولا بصيرة مبنية على الدليل .

لذا ما فتىء القرآن يندد بهذه التبعية العمياء، ويورد الآيات تلو الآيات يقرع بها
أسماعهم، ويفتح بها أفئدتهم، عليهم يبصرون، وللحق وحده يتبعون .
ومن هذه الآيات ما ذكره القرآن من موقف عظيم لانسان متحرر من التقليد الباطل
للآباء، وذلك في شخصية ابراهيم (عليه السلام)، يقول تعالى بعد أن بين علة التقليد وندد
بها : (وإذ قال ابراهيم لأبيه وقومه إنني براء مما تعبدون إلا الذي فطرني)^(٥) .

وهذا دعوته المباركة محمد (صلى الله عليه وسلم) فإنه قدوة طيبة في جميع شئونه،

(١) انظر غزوة في الصميم. ص ١٥١ (مرجع سابق) .

(٢) الانعام، آية - ٩٠ - .

(٣) الفرقان . آية - ٧٤ - .

(٤) انظر في موكب النبيين ج ١ ص ٣٢١ (مرجع سابق) .

(٥) الزخرف ، آية - ٢٦ - وانظر الاساس في التغيير ج ٩ ص ٥١٣٠ .

فيراه المؤمن والكافر على أفضل صورة يتوقعها، ولذا وجه سبحانه للاقتداء به، فقال تعالى : "لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة" (١) .

فكان صلى الله عليه وسلم بشخصه ويتصرفه قدوة عملية يراها الرائي؛ فلا يملك إلا أن يتعجب، ويفكر متأملاً هذه الحقيقة الماثلة أمامه؛ وما أدل على ذلك أنه حينما رآه عبدالله بن سلام (رضي الله عنه) أن قال : "ما هذا بوجه كذاب" (٢) .

وهؤلاء قوم يتبايعون مع الرسول صلى الله عليه وسلم فيبتاع منهم متاعاً، وينصرف واعداء اياهم بالعودة بحقهم، فخافوا على مالهم، فقالت امرأة منهم : "أنا ضامنة لكم ثمن البعير رأيت وجه رجل مثل القمر ليلة البدر لا يخيس بكم" (٣) .

وكانت اسوته الطيبة وازنا لأموره فلا يأمر بشيء إلا ويرى أول المنفذين له ولا ينهى عن أمر الا وينتهي عنه، ولذا قال (صلى الله عليه وسلم) في حجة الوداع : "دماء الجاهلية موضوعة وإن أول دم اضع من دماننا دم ابن ربيعة بن الحارث" (٤) ويقول : "ربما الجاهلية موضوعة وأول ربا اضع ربانا؛ ربا عباس بن عبدالمطلب فإنه موضوعة كله" (٥) .

وإن القادة اذا بدأوا بأنفسهم فيما يأمرون به وينهون عنه لفي ذلك أثر بالغ على الاتباع، وعلى الراغبين في دخول الدين، وقد أثر ذلك في أحد الرؤساء حتى قال : والله لقد دلني على هذا النبي الأمي أنه لا يأمر بخير إلا وكان أول أخذ به، ولا ينهى عن شيء إلا وكان أول تارك له" (٦) .

وإن من أخطر العقبات في الدعوة إلى الله افتقاد القدوة، فإن كثيراً من كفار اليوم يرى خاصة المسلمين أن سبب صدودهم وإعراضهم عن الدعوة بسبب تصرفات بعض

(١) الأحزاب . آية - ٢١ - .

(٢) صحيح سنن ابن ماجه . ج ١ ص ٢٢٣ . حديث رقم [١٠٩٧] .

(٣) الشفا بتعريف حقوق المصطفى القاضى عياض . ج ١ ص ٤٨٤ تحقيق مجموعة من العلماء . اصدار : مؤسسة علوم القرآن . دار الفحاء . عمان (ط : ٢) ١٤٠٧ هـ .

(٤) صحيح مسلم بشرح النووي ك الحج . باب (حجة النبي صلى الله عليه وسلم) ج ٨ ص ١٨٢ .

(٥) نفس الحديث السابق .

(٦) الشفا بتعريف حقوق المصطفى . ج ١ ص ٤٨٤ . (مرجع سابق) .

المسلمين، وافتقادهم القدوة العملية الحسنة في أعمالهم وأخلاقهم، ومعاملاتهم التجارية وغير ذلك .

وعلى عكس ذلك فما انتشر الاسلام في جنوب افريقيا إلا بفضل الله ثم بفضل القدوة الحسنة، حيث كان التجار المسلمين هم الدعاة إلى دين الله؛ فكان الوثنيون هناك يعدونهم قدوة في سلوكهم ونظافتهم وحرصهم على أداء الفرائض^(١) .

فصفوة القول أن القدوة الطيبة بأعمالها الجميلة المخلصة، تشوق الناس إلى الاتباع، فيفكرون في دينه الذي يدين به فيتبعونه، ثم هو علاج قوي للتقليد حيث يحولهم من تقليد أعمى إلى تقليد يعتمد على الدليل .

(١) بحث كتب مقالات في جريدة الحياة عدد [١٠٦٤٤] تاريخ ١٤١٢/٩/٢٧ هـ ص ٧ كاتبه/محمد خالد النيرابي .

وعنوان البحث (التمازج العربي الافريقي عبر القرون) .

المبحث الثاني : سبل العلاج العقلية
ويحوي الآتي :
توطئة ومطلبان هما :

المطلب الأول : مواقف الرسول صلى الله عليه وسلم
العقلية مع أهل الكتاب
المطلب الثاني : مواقف الرسول صلى الله عليه وسلم
العقلية مع الوثنيين العرب

توطئة :

إن المدعويين إلى معرفة الحق والايمان به، ليسوا سواء في ملكاتهم العقلية واستعداداتهم الفطرية، ولا في تصوراتهم وأخلاقهم وطباعهم، ولذلك فإن نتيجة الجهود الدعوية إنما تحصل بتأثير عامل معين فيهم، وهذا العامل المؤثر يختلف حسب الشخص الواحد من وقت لآخر^(١) وحمل الحق الى الآخرين بحاجة إلى وسائل عقلية وفكرية ونفسية وواقعية، وفي حاجة إلى الابقاء على هذا الوسائل في منأى عن أية مؤثرات تحد من معرفته، أو تنحرف بها عن طبيعة الوصول إليه^(٢) .

وهناك صنف من الناس قد يتأثر بأساليب عقلية؛ من خلالها يروم الوصول إلى الحقائق مستخدماً في ذلك ما وهبه الله من أدوات الفهم والإدراك .

ومن نعم المولى أن وهب للإنسان عقلاً يتدبر به دلائل الايمان في الأنفس والآفاق، وزوده باستعداد فطري للتعليم، واكتساب المعرفة، والعلوم، والمهارات؛ مما يزيد من قدرته على تحمل تبعه أعماله، ومما يمكّنه من تنمية قدراته ومهاراته، بما يكفل له بلوغ ماشاء الله تعالى له من الكمال الانساني^(٣) .

ويدل على ذلك تصنيف القدرات العقلية في القرآن إلى أصناف عديدة^(٤) : القدرة على التأويل "وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين"^(٥) القدرة على التدبر "أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها"^(٦) القدرة على الفقه "ولكن لا تفقهون تسبيحهم"^(٧) القدرة على التفكير "أن

(١) انظر سيكولوجية القصة في القرآن. ص ٤٢٢. (مرجع سابق) .

(٢) انظر النظرية الخلقية عند ابن تيمية. ص ١٤١ (مرجع سابق) .

(٣) انظر في ظلال القرآن ج ١ ص ١٤٤ وانظر القرآن وعلم النفس ص ١٤٤ (مرجعان سابقان) .

(٤) انظر اهداف التربية الاسلامية (دراسة مقارنة بين اهداف التربية الاسلامية، والاهداف التربوية المعاصرة) .

د. ماجد عرسان الكيلاني. ص ٥٧ مكتبة دار التراث. المدينة. (ط : ٢) ١٤٠٨ هـ .

(٥) يوسف - ٤٤ - .

(٦) محمد - ٢٤ - .

(٧) الاسراء - ٤٤ - .

تقوموا له مثني وفرادى ثم تتفكروا ...^(١) القدرة على التذكر : "كلا إنها تذكره فمن شاء ذكره"^(٢) القدرة على النظر العقلي "أو لم ينظرو في ملكوت السموات والارض"^(٣) : "القدرة على الاعتبار : "فاعتبروا يا أولي الأبصار"^(٤) .

وتفاوتت هذه القدرات قوة وضعفاً من شخص لآخر أو عند الشخص الواحد خلال فترات حياته .

وفي ذلك إشارة إلى تعدد السبل العقلية واستخداماتها في الدعوة تبعاً لاختلاف شخصيات المدعويين، والفروق الفردية، وتبعاً لموضوع الدعوة وأهدافها، بيد أن هذه السبل على كثرة أساليبها واختلافها؛ إلا أنها متفاعلة متبادلة التأثير، فليس كل سبيل مستقل عن الآخر، بل هي متممة لبعضها البعض، فهي ذات مرونة منضبطة بغاية سامية؛ هي الوصول بالمدعو إلى سلوك طريق الحق بأوضح سبيل وأبينه وأيسره.

فماذا يقصد بالسبل العقلية ؟

يقول الراغب الاصفهاني في معرض حديثه عن معاني العقل : "العقل قال للقوة المتهيئة لقبول العلم، ويقال للعلم الذي يستفيده الانسان بتلك القوة عقل"^(٥) ويستدل على الأول بقوله تعالى : "وما يعقلها إلا العالمون" وعلى الثاني بكل موضع ذم الله فيه الكفار بعدم العقل "صم بكم عمي فهم لا يعقلون"^(٦) .

فخلاصة الجواب أن المقصود بذلك هو : استعمال الأساليب التي يغلب عليها مخاطبة عقل الانسان^(٧) .

(١) سبأ - ٤٦ - .

(٢) المدثر - ٥٥ - .

(٣) الاعراف - ١٨٥ - .

(٤) الحشر - ٢ - .

(٥) المفردات في غريب القرآن. ص : ٣٤٦-٣٤٢ .

(٦) انظر نفس المرجع السابق. والمدرك نفسه. ص ٣٤٢ .

(٧) انظر منخل إلى الاعلام الاسلامي . د. سعيد اسماعيل صيني. ص ٢٤٢ .

والإنسان إذا أمعن النظر وأحسن التفكير وتتبع الأسباب المبتوثة في الكون، يدلّه المولى بإذنه إلى اسرار خلقه ويعلمه ما يجهل^(١) .

أما من يغفل عن ذلك فالنتيجة هي : "وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير"^(٢) فهم لم يسمعوا سماع من يعي ويفهم وإلا لتعلموا ما يجب عليهم ولنجوا^(٣) .

ومن أبرز الأمور التي تعين على هذا التعقل ما يلي :

١ - تعلم اللغة :

فاللغة هي أداة الانسان الرئيسية في التفكير واكتساب المعرفة وتحصل العلوم؛ وبها يتمكن الانسان من تناول جميع المفاهيم في تفكيره بطريقة واضحة^(٤) .

ويقول تعالى في حكمة إرسال الرسل بلغة أقوامهم "وما أرسلنا من رسول الا بلسان قومه ليبين لهم"^(٥)

٢ - العلم والتعلم :

من خلال ما سبق تبين أن الجهل أس وسبب رئيس في تأصل الدوافع السيئة، ولذا لا بد من بناء نقيضه وهو العلم .

ولا غرو بأن الاسلام مذ لاحت أنواره وهو يرفع من شأن العلم والعلماء بل جعل رفعة الانسان في أمرين هما : الايمان ، والعلم^(٦) يقول تعالى : "يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات"^(٧) وأول ما نزل من كتاب الله يحض على العلم ويبين مكانته

(١) انظر الدعوة الى الله (الرسالة ، الوسيلة، الهدف) ص (مرجع سابق) .

(٢) الملك - ١٠ - .

(٣) انظر فتح الباري. ج ١ ص ١٦١. (مرجع سابق) .

(٤) انظر القرآن وعلم النفس ص ١٤٧ (مرجع سابق) .

(٥) ابراهيم - ٤ - .

(٦) انظر الدعوة الى الله (الرسالة ، الوسيلة ، الهدف) ص ٢١٥ .

(٧) المجادلة - ١١ - .

العظيمة "اقرأ باسم ربك الذي خلق" حتى قوله "علم الانسان ما لم يعلم" ^(١) ولم يأمر نبيه - صلى الله عليه وسلم - بطلب الازدياد من شيء إلا من العلم ^(٢) "وقل ربي زدني علماً" ^(٣) .
ويبلغ العلم غايته السعيدة إذا اهتدى صاحبه لمولاه "إنما يخشى الله من عباده العلماء" ^(٤) وما يعقلها إلا العالمون" ^(٥) .

وشرف العلم بشرف المعلوم وأفضل العلوم ما دل على الله وقرب من رضاه ^(٦) .
وتكون الزلازل والقلائل والفتن حين يزول العلم ويقبض العلماء جاء في الحديث "تكون بين يدي الساعة أيام يرفع فيها العلم، وينزل فيها الجهل، ويكثر فيها الهرج، والهرج القتل" ^(٧) "لا تقوم الساعة حتى يقبض العلم، وتكثر الزلازل، ويتقارب الزمان، وتظهر الفتن، ويكثر الهرج" ^(٨) وهذا ما أقلق أمير المؤمنين عمر بن عبدالعزيز - رحمه الله - فأوصى أحد عماله قائلاً : "انظر ما كان من حديث رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فاكتبه فإنني خفت دروس العلم وذهاب العلماء" ^(٩) .

الرسول - صلى الله عليه وسلم - كان يوصي صحابته رضوان الله عليهم حينما يدخل احد في الاسلام بتعليمه امور دينه ^(١٠) .

والمقام هنا ليس للحديث المفصل عن العلم بما يحوي من أصول وفروع، عن فضله وفضل العلماء، وإنما الحديث للإشارة إلى أنه لابد من محاربة الجهل السبب الرئيس في انبعاث الدوافع السيئة وتغلغلها .

(١) العلق - (١-٥) .

(٢) انظر فتح الباري ج ١ ص ١٤١ .

(٣) طه - ١١٤ - .

(٤) فاطر - ٢٨ - .

(٥) العنكبوت - ٤٣ - .

(٦) انظر فتح الباري ج ١ ص ١٤١ .

(٧) صحيح الجامع الصغير وزيادته (الفتح الكبير) ج ٣ ص ٥٢ حديث رقم [٢٩٨٩] .

(٨) نفسه ج ٦ ص ١٧٦ حديث رقم [٧٣٠٥] .

(٩) صحيح البخاري مع الفتح. ك العلم باب (كيف يقبض العلم) ج ١ ص ١٩٤ .

(١٠) انظر السيرة النبوية - لابن هشام. ج ٢ ص ٢٢٢ . (مرجع سابق) .

شواهد من العهد النبوي في استخدام السبل العقلية :

لقد أعد الله نبيه محمد - صلى الله عليه وسلم - بأهم صفة يجب أن يتزود بها رجل الدعوة القدير وهي رجاحة العقل، حتى قيل أن يبعث ومع سوء البيئة التي عاش في وسطها؛ حيث تفتشت فيها عبادة الأصنام وشرب الخمر وحياة اللهو والمجون؛ إلا أنه كان راجح العقل لم يتأثر بهذه البيئة بل رأى ذلك باطلاً وعبياً^(١) .

وبعد البعثة كان أقوى وأحكم وأدرى بالممارسات الفكرية وكيفية التعايش معها، ونبذها، وتفنيدها، وتصنيف الفئات التي عايشته زمن النبوة من حيث ما يعتقدون، وكيف يتصرفون في جميع شئون حياتهم .

وأكبر معين له في ذلك هو القرآن الكريم الذي يزوده بما يحتاجه من أساليب لا ترد فيخاطب كلاً بما يناسبه .

فكان في دعوته مثلاً كريماً في حسن العرض والاداء ولا يأمر إلا بما تقبله العقول، ولا ينهى إلا عما ترفضه العقول وقد سئل أحد الاعراب : بم عرفت أنه رسول الله ؟ فقال : ما أمر بشيء فقال العقل : ليته ينهى عنه. ولا نهى عن شيء ، فقال : ليته أمر به^(٢) .

ومعلوم أن نفس الدين الذي جاء به، والملة التي دعا إليها من أعظم براهين صدقه وشواهد نبوته - صلى الله عليه وسلم -^(٣) .

ومن الاجمال إلى التفصيل في مواقف عقلية له مع المنكرين :

(١) انظر الجوانب الاعلامية في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم (مرحلة الاعداد والممارسة العامة في مكة)

د. عبدالوهاب كحيل. ص ٤٣ دار الهداية. ب : ت .

(٢) التفسير القيم. ابن القيم - ص ٢٧٩. جمعه/محمد اويس الندوي، تحقيق محمد حامد الفقي. دار العلوم الحديثية.

بيروت. ب : ت .

(٣) نفسه. ص ٢٧٩ .

مواقف الرسول صلى الله عليه وسلم العقلية مع أهل الكتاب

أولاً : اليهود :

اليهود أساتذة في فن الجدل بالباطل؛ استمرعوه حتى توارثوه؛ فصار من سماتهم البارزة واللازمة.

فمنذ أرسل موسى (عليه السلام)، وهم يجادلون بحق وبغير حق حتى غضب الله عليهم فعاقبهم بشدة. وأظن القرآن في تبيان مواقف اليهود المشينة، ومنها موقفهم حينما أمروا أن يذبحوا البقره، فمأطلوا، وجادلوا؛ فسألوا أولاً "أدع لنا ربك يبين لنا ماهي" ثم سألوا "أدع لنا ربك يبين لنا ما لونها" ثم عادوا يسألون : "أدع لنا ربك يبين لنا ما هي إن البقر تشابه علينا" فما النتيجة ؟ فذبحوها وماكادوا يفعلون^(١).

ومحمد - صلى الله عليه وسلم - يحاول جاهداً باذلاً أقصى جهده مع هؤلاء المرده محاوراً، ومجادلاً بالتتي هي أحسن، وغايته انقاذهم من غرورهم وكبرهم لعلهم يصلون إلى الحق .

يقول أحد الصحابة : "بينما نحن في المسجد خرج رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال : انطلقوا إلى يهود، فخرجنا معه، فجتنا بيت المدراس. فقام النبي - صلى الله عليه وسلم - فناداهم فقال : يا معشر يهود أسلموا تسلموا. فقالوا : بلغت يا أبا القاسم. قال : فقال لهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : ذلك أريد. أسلموا تسلموا. فقالوا : قد بلغت يا أبا القاسم. قال لهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : ذلك أريد. ثم قالها الثالثة. فقال : اعلموا أنما الأرض لله ورسوله وإني أريد أن أجليكم عن هذه الأرض"^(٢).

فالرسول - صلى الله عليه وسلم - أراد من ذلك ابلاغهم وإنذارهم، واستعد

(١) البقرة - ٦٨ - ٧١ - .

(٢) صحيح البخاري مع الفتح ك/ الاعتصام بالكتاب والسنة. باب (وكان الانسان أكثر شيء جدلاً، وقوله ولا تجادلوا أهل الكتاب الا بالتتي هي أحسن" ج ٣ ص ٣١٤ .

لمجادلتهم، ومحاورتهم؛ إذ ذهب إلى بيت مدراسهم وأكبر علمائهم^(١) وهذا فهم منه أنه تعمد ذلك ليكون أبلغ في الإنذار، فلو جادل فرداً من دهماعهم لقالوا هذا لا يعقل شيئاً. وكذلك فيه علاج للتقليد حيث يبدأ بكبار المقلّدين فإذا شاء الله وأمن لتبعه خلق كثير؛ وفي هذا ترشيد للجهود .

والعلماء يؤكدون أن ما فعله وقاله الرسول - صلى الله عليه وسلم - بانه مجادلة بالتي هي أحسن^(٢) ولذا عنون هذا الباب البخاري بقوله تعالى "ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي احسن"^(٣) .

ولعله في الحديث السابق دعاهم كما يدعو غيرهم فلم يدخل معهم في أمور تفصيلية، وإنما دعاهم إلى الاسلام بشكل عام .

ويتدرج الجدل مع اليهود في كتابهم "التوراة" وما فيه من الأحكام فيروى أنه أتى نفر من اليهود فدعوا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى القف؛ فاتاهم في بيت المدراس. فقالوا يا أبا القاسم : إن رجلاً منّا زنى بامرأة فاحكم. فوضعوا لرسول الله -صلى الله عليه وسلم - وسادةً فجلس عليها، ثم قال : "أنتوني بالتوراة" فأتى بها فنزع الوسادة من تحته فوضع التوراة عليها ثم قال : "أمنت بك وبمن أنزلك" ثم قال "أنتوني بأعلمكم"^(٤) فاعترف علماءهم بحد الرجم للزناة^(٥) .

فهو - صلى الله عليه وسلم - الزمهم الحجة؛ بأن كتاب الله الذي أنزل على موسى يوافق القرآن في قضية الرجم^(٦) .

وفي الحديث فوائد عظيمة في فنّ الحوار، فالرسول الكريم - صلى الله عليه وسلم - لم يستعجل الجواب، ومن ثم أمر بالتوراة، وهي كتابهم المقدس، وفي هذا لفت لانتباههم بأنّه

(١) انظر فتح الباري. ج ١٢ ص ٢١٨ .

(٢) انظر نفس المرجع السابق ج ١٣ ص ٢١٥ .

(٣) صحيح البخاري مع الفتح ج ١٣ ص ٢١٤ .

(٤) صحيح سنن أبي داود. ك الحدود. باب (في رجم اليهوديين) ج ٢ ص ٨٤٢ .

(٥) نفس المرجع والمدرّك نفسه حديث رقم [٢٧٣٧] وحديث رقم [٢٧٤٠] .

(٦) انظر منهج الرسول صلى الله عليه وسلم في دعوة أهل الكتاب. ص ٧٧ (مرجع سابق) .

يقُدِّسها، ويقُدِّرُها؛ ويدل على هذا أيضاً رفعه لها على الوسادة^(١). وفي هذا جذب لهم إلى شخصية المحاور الكريم وتوطئة لتقبل ما يدعوهم إليه.

وعن ابن عباس (رضي الله عنهما) قال: حضرت عصابة من اليهود نبي الله - صلى الله عليه وسلم - يوماً فقالوا: يا أبا القاسم حدثنا عن خلال نسالك عنهن، لا يعلمهن إلا نبي، قال: "سلوني عما شئتم، ولكن اجعلوا لي ذمة الله وما أخذ يعقوب عليه السلام على بنيه: لئن حدثتكم شيئاً فعرفتموه لتتابعني على الاسلام" قالوا: فذلك لك، قال: فسلوني عما شئتم. قالوا: أخبرنا أي الطعام حرم اسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوراة، وأخبرنا كيف ماء المرأة وماء الرجل؟ كيف يكون الذكر منه؟ وأخبرنا كيف هذا النبي الأمي في النوم؟ ومن وليه من الملائكة؟ قال: فعليكم عهد الله وميثاقه لئن أنا أخبرتكم لتتابعني؟ قال: فأعطوه ما شاء من عهد وميثاق: قال: (فأجابهم على هذه الاسئلة جميعاً مستجوباً لهم صحة الجواب في كل مرة وهم يقولون) اللهم نعم. (فيقول): "اللهم أشهد عليهم" (وكان إذا نشدهم قال في بداية كل جواب): "فأنشدكم بالذي أنزل التوراة على موسى - صلى الله عليه وسلم -"^(٢).

فيلاحظ أنه - صلى الله عليه وسلم - يريد استثمار هذا الحوار لخدمة الدعوة، فهو اشترط عليهم متابعتهم إن أجابهم، وكذا كرر شهادة الله عليهم بأنهم اعترفوا بصدق الأجوبة. ولأنه يخاطب قوماً يقرؤون بكتاب، ويؤمنون برسول؛ فلذلك يذكرهم دوماً بهذه الحقيقة؛ لتكون ردةً يعين على ابتعاث بقية خير ترفعهم إلى أعلى.

وفيه علاج لدافع الفرور بالعلم لتتكسر نفوسهم، ويعلموا أن هناك من هو أعلم من أحبارهم الذين يقلدونهم بلاوعي.

ومع ذلك فالرسول - صلى الله عليه وسلم - استمر في السماح لهم بمحاورته، ومجادلته لعله يكون نافعاً لبعضهم، وهذا ما حصل إذ اعترف أحد أحبارهم بنبوته - صلى الله عليه وسلم - بعد محاورته له.

(١) انظر عون المعبود شرح سنن أبي داود. ج ١٢/٦ ص ٨٩ (مرجع سابق).

(٢) المسند. ج ٤ ص ١٧٦-١٧٧. حديث رقم [٢٥١٤].

يقول أحد الصحابة - رضي الله عنهم - أجمعين - : "كنت قائماً عند رسول الله صلى الله عليه وسلم - فجاء خبر من أحبار اليهود فقال : السلام عليك يا محمد، فدفعته دفعة كاد يصرع منها، فقال : لم تدفعني، فقلت : ألا تقول يا رسول الله، فقال اليهودي : إنما ندعوه باسمه الذي سماه به أهله، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : "إن اسمي محمد الذي سماني به أهلي" فقال اليهودي : جئت أسألك، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم - : "أينفعك شيء إن حدثتك" قال : اسمع بأذني، فنكت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بعودٍ معه فقال : "سل" فقال اليهودي : أين يكون الناس يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : "هم في الظلّة بون الجسر"، قال : فمن أول الناس اجازة، قال : "فقراء المهاجرين"، قال اليهودي : فما تحفتهم حين يدخلون الجنة، قال : "زيادة كبد النون" قال : فما غداؤهم على أثرها، قال ينحر لهم ثور الجنة الذي كان يأكل من أطرافها" قال : فما شرابهم عليه، قال : "من عين فيها تسمى سلسبيلاً" قال : صدقت، قال : وجئت أسألك عن شيء لا يعلمه أحد من أهل الأرض إلا نبي، أو رجل، أو رجلان، قال : ينفعك إن حدثتك" قال : اسمع بأذني، قال : جئت أسألك عن الولد، قال : "ماء الرجل أبيض وماء المرأة أصفر، فإذا اجتمعا، فعلا مني الرجل مني المرأة، اذكرا بإذن الله، وإذا علا مني المرأة مني الرجل؛ أنثى بإذن الله" قال اليهودي : لقد صدقت، وإنك لنبي ثم انصرف"^(١) .

وفي الحديث توجيه للدعاة بأن يحرصوا على استثمار أي حوار، أو جدل مع غير المسلمين، بل ويشعرونهم صراحة بهذا الهدف، ويدل على ذلك قوله - صلى الله عليه وسلم - قبل السماح له بطرح الأسئلة، والاجابة عليها - "أينفعك شيء إن حدثتك ؟" .
وفي الجملة يلاحظ من مناظراته - صلى الله عليه وسلم - مع اليهود كيف كان رفيقا بهم، عطوفاً عليهم؛ يقسم عليهم بأحب أيامهم إليهم، ليستدنيهم إليه، وفي الوقت نفسه يلزمهم بما عندهم، فيلزمهم بما يقرون، وهكذا يكون المجادل الأريب^(٢) .

(١) صحيح مسلم ومعه شرح النووي . ك الحيض . باب : (صفة مني الرجل والمرأة) ج ٢ ص ٢٢٦ .

(٢) انظر تاريخ الجدل . محمد أبوزهرة . ص ٥٢ . دار الفكر العربي . ب : ت .

ثانياً : النصارى

وهم الفريق الثاني من أهل الكتاب، ولكنهم أفردوا لأنهم يختلفون عن اليهود في أساليب المحاوره معهم، وكذلك موقفهم من الاسلام كان أخف منهم؛ خاصة بين رهبانهم^(١) .
وأول شاهد يشهد ويدل على ذلك؛ أنه جاء إلى الرسول صلى الله عليه وسلم :
"العاقب، والسيد صاحبنا نجران يريدان أن يلاعنا. قال فقال أحدهما لصاحبه : لا تفعل؛ فوالله إن كان نبياً فلاعنا لا نفلح نحن ولا عقبنا من بعدنا. قالا : إنا نعطيك ما سألتنا. وابعث معنا رجلاً أميناً"^(٢) .

فقد خافا من الله أن يلاعنا نبياً، وقد مر أنفاً كيف أن المردة اليهود لم يتورعوا عن المعاهدة للرسول - صلى الله عليه وسلم - بالتصديق له؛ ومع ذلك نكثوا العهد، ولم يفوا بالوعد .

فابن حجر (رحمه الله) يذكر أن الرسول دعاهم إلى الاسلام وقرأ عليهم القرآن فامتنعوا فقال : إن انكرتم ما أقول فهلم بأهلكم، فاصرفوا على ذلك^(٣) .
فأسلوب الحوار والنقاش يهيء للمدعو المجال للتفكير العميق في جوانب الموضوع وتدفعه إلى المساهمة في التفكير لطلب مزيد من التوسع للاحاطة بكل ما يتصل بالفكرة والموضوع .

ويفهم من القصة السابقة أنه - صلى الله عليه وسلم - اعطاهم فرصة للتفكير فيما عرضه عليهم حيث تشاور كل منهما مع صاحبه قبل ان يجيبا^(٤) .

والذي جعل موقف النصارى ألين من موقف المشركين واليهود كونهم مقلدين غير

مستكبرين فعلتهم الرئيسة التقليد الأعمى وخاصة لكبار اليهود .

(١) انظر التفسير الكبير ج ١٢/٦ ص ٦٦. وانظر التحرير والتوير ج ٧ ص ٦ . (وهما مرجعان سابقان) .

(٢) صحيح البخاري مع الفتح. ك المغازي. باب (قصة أهل نجران) ج ٨ ص ٩٣ .

(٣) انظر فتح الباري. ج ٨ ص ٩٤ (مرجع سابق) .

(٤) انظر الرسول العربي المرابي د. عبدالحميد الهاشمي. ص ٤٥٤ .

(دراسات نفسية مرجع ب - ١ -) . دار الهدى. الرياض. (ط : ١) ١٤٠٥ هـ .

يشير إلى ذلك قوله تعالى : "لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً وأنهم لا يستكبرون" (١) .

والنجاشي ومن معه اثناء محاورتهم لجعفر - رضي الله عنه - في هجرته مع بعض الصحابة إلى الحبشة - لما قرأ عليهم شيئاً من القرآن فيها خير وحقيقة عيسى ابن مريم عليه السلام - بكوا واعترف النجاشي بصحة ذلك وأكد قائلاً : " ما عدا عيسى ابن مريم ما قلت هذا العود" (٢) .

ويذكر كذلك أن وفدأ من النصارى جاوا إلى الرسول - صلى الله عليه وسلم - وهو في مكة فكلموه وسألوه، فلما فرغوا من مسألتهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فيما أرادوا؛ دعاهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى الله عز وجل وتلا عليهم القرآن، فاستجابوا لله وأمنوا به وصدقوا وعرفوا منه ماكان يوصف لهم في كتابهم من أمره (٣) .

وفرق بين من جادل وجاء لمعرفة الحق والايامن به، وبين من جادل بالباطل ليدحض به الحق .

(١) المائدة - ٨٢ - .

(٢) المسند. حديث رقم [١٧٤٠] ج ٣ ص ١٨٤ .

(٣) انظر السيرة النبوية لابن كثير. ج ٢ ص ٤٠ .

مواقف الرسول صلى الله عليه وسلم العقلية مع الوثنيين العرب

لم يفتر الداعي الكريم، والامام النذير - صلى الله عليه وسلم - من دعوة بني قومه وغيرهم - من العرب - ليلاً ونهاراً سرّاً وجهاراً، بكل ما أوتي من وسيلة .

فكان يحاورهم، ويجادلهم؛ ليقيم الحجة عليهم؛ حتى يعترفوا بالحق، وإن أنكروه علناً حسداً وعناداً^(١) .
فهذا الوليد بن المغيرة يحاور الرسول - صلى الله عليه وسلم - حتى تأثر ورقاً للإسلام، بعدما سمع آيات من القرآن الكريم^(٢) .

ويجادل النضر بن الحارث، فيعترف صناديد قريش بأنه لم يكن نداً للرسول - صلى الله عليه وسلم - حيث أفحمه وأعجزه^(٣) .

وأورد كتاب السير القصتين السابقتين جملتين بلا تفصيل؛ مبيينين عجز هؤلاء الوثنيين عن مجارة نبي الاسلام، واعترافهم الصريح بإعجاز القرآن^(٤) .

وبتفصيل يوردون جدلاً دار بين الرسول - صلى الله عليه وسلم - وبين عتبة بن ربيعة الذي اختارته قريش بعناية، وبعد مشاورة، ومداورة؛ بشأن الند الذي يصلح بأن يرسل إلى محمد - صلى الله عليه وسلم - لعله يفحمه .

فأتاه عتبة فقال : يا محمد أنت خير أم عبدالله ؟ فسكت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - . فقال : أنت خير أم عبدالمطلب ؟ فسكت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - . قال : فإن كنت تزعم أن هؤلاء خير منك فقد عبدوا الآلهة التي عبدت، وإن كنت تزعم أنك خير منهم فتكلم حتى نسمع قولك، إننا والله ما رأينا سخلة قط أشأم على قومه منك، فرقت جماعتنا، وشتت أمرنا، وعبت ديننا، وفضحتنا في العرب، حتى لقد طار فيهم أن في قريش ساحراً، وأن في قريش كاهناً، والله ما ننتظر إلا مثل صيحة الحُبلي أن يقوم بعضنا إلى

(١) انظر السيرة النبوية لابن كثير ج ١ ص ٤٩٨ .

(٢) انظر المرجع السابق نفسه ج ١ ص ٤٩٨ .

(٣) انظر السيرة النبوية لابن كثير ج ٢ ص ٥٢ .

(٤) انظر المرجع السابق ج ١ ص ٢٠٠، وانظر السيرة النبوية لابن هشام ج ١ ص ٢٤٣. وانظر

بعض بالسيوف حتى نتفانى، أيها الرجل؛ إن كان إنمّا بك الحاجة جمعنا لك حتى تكون أغنى قريش رجلاً، وإن كان إنمّا بك الباعة فاختر أي نساء قريش شئت فلنزوجك عشراً .
فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : فرغت : قال : نعم . فقال رسول الله -
صلى الله عليه وسلم - : بسم الله الرحمن الرحيم "حم تنزيل من الرحمن الرحيم كتاب
فصلت آياته فرأنا عربياً لقوم يعلمون" إلى أن بلغ "فإن اعرضوا فقل انذرتكم صاعقة مثل
صاعقة عاد وثمود" فقال - حسبك، ما عندك غير هذا ؟ قال : لا -^(١) .

ففي القصة فوائد جمة في فن الحوار والمجادلة منها :

- أدب الحوار : وكيف أنّ رسول الله - صلى الله عليه وسلم - جلس يستمع لهذه
العبارات البذيئة، والعروض الهزيلة من الرجل، ومع ذلك لم يقاطعه في حديثه، ولم يشتمز
من كلامه، بل أكثر من ذلك يفسح له المجال للمتابعة كي يفرغ كل ما في جعبته، ثم يسأله
أو قد فرغت ؟^(٢) ويخاطبه في بعض الروايات بقوله : "يا أبا الوليد"^(٣) فهذه الملاحظة قد تهيء
الجو المناسب للاستجابة، وتشوق المدعو للزيادة مما لدى الداعي، فضلاً عن ما فيها من ترقيق
لنوازع الغطرسة والكبرياء، إذ يحس بأن له قيمة لدى الداعي، وببقاء جاهه وعزّه .
- ويلاحظ أنّ الرسول - صلى الله عليه وسلم - لم يحاوره ويجادله وهذا من الاعراض
عن الجهل والجاهلين، وعدم الدخول معهم في جدال لا ينتهي إلى شيء إلا الشد والجذب،
واضاعة الوقت والجهد، وقد ينتهي التلوث عنهم، والاعراض عن جهالتهم إلى تذليل نفوسهم
وترويضها، بدلاً من الفحش في الرد واللجاج في العناد^(٤)

وقد اختار الرسول - صلى الله عليه وسلم - - هذه الآيات، ليعرف محدثه حقيقة

الرسالة والرسول^(٥) .

(١) السيرة النبوية لابن كثير. ج ١ ص ٥٠٦-٥٠٢ (مرجع سابق) وقال الألباني في سند هذه القصة : وسنده حسن
(إن شاء الله) .

(٢) انظر المنهج الحركي للسيرة النبوية. منير محمد الغضبان. ج ١ ص ١٠٨ مكتبة المنار. الأردن. (ط : ٦) ١٤١١هـ .

(٣) انظر تفسير ابن كثير. ج ٤ ص ١٣٨ (مرجع سابق) .

(٤) انظر في ظلال القرآن. ج ٢ ص ١٤١٩ (مرجع سابق) .

(٥) انظر فقه السيرة للغزالي. ص ١١٣ (مرجع سابق) .

- فقد حوت الآيات أموراً عظيمة تحسم الموقف مع هؤلاء الوثنيين؛ فقد تناولت :
- أن هذا القرآن تنزّل من الله، وهم يتهمون الرسول - صلى الله عليه وسلم - باختلاقه .
 - بيان موقف الكافرين وعنادهم .
 - بيان مهمة الرسول وأنه بشر؛ ومسألة بشرية الرسل من العلل التي طالما تحجج بها المنكرون من الأولين والآخرين، يقول تعالى : "وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا أن قالوا أبعث الله بشراً رسولاً"^(١) والخوض في هذه الشبهة التي أحدثها هؤلاء - يطول وليس هذا محله .
 - بيان أن الخالق واحد هو الله خالق السماوات والارض.
 - بيان تكذيب الأمم السابقة وما أصابها، وإنذار قريش من أن يصيبهم ما أصابهم^(٢) وهذا من الأساليب المؤثرة جداً؛ ففي رواية أخرى جاء فيها أنه بعد تلاوة الرسول - صلى الله عليه وسلم - قوله تعالى : "فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود" أمسك عتبة بغيّة، وناشده الرحم أن يكف^(٣) .
 - بل إن تلاوة القرآن بذاتها ذات أثر فعال، وهذه ينبغي التوقف عندها، والحديث عنها بتفصيل ملائم :

(١) الاسراء - ٩٤ - .

(٢) انظر من معين السيرة للقرظي . صالح أحمد الشامي . ص ٦٩-٧٠ . المكتب الاسلامي (ط : ١) ١٤٠٥هـ - بيروت .

(٣) انظر تفسير ابن كثير . ج ٤ ص ١٣٧ (مرجع سابق) .

القرآن وقريش :

فالرسول الكريم - صلى الله عليه وسلم - كان يدرك ويعرف مبلغ أثر القرآن على العرب، حيث نزل القرآن بلسانهم، ولما كان للكلمة من أثر في حياة العرب؛ فقد كانوا يتباهون بالفصاحة، والبلاغة .

ولما أوتوه من فضول العقول وزيادة الأفهام، كانت معجزته لذلك التي تحدى بها عقلية^(١)؛ وهو القرآن المعجز في بلاغته، وفصاحته، فكانت مهمته الأولى بالدعوة؛ هي إيصال القرآن إلى أسماع القوم بل وصف القرآن الكريم قراءة القرآن عليهم جهاداً كبيراً يقول تعالى : "فلا تطع الكافرين وجاهدكم به جهاداً كبيراً"^(٢) "أي لا يخالطه فتور، بأن تلزمهم بالحجج والآيات؛ تدعوهم إلى النظر في سائر الآيات لتتزلزل عقائدهم، وتسمح في أعينهم عوائدهم، وهذه الآية من أصرح الأدلة، في وجوب مجادلة المبطلين، ودعوتهم إلى الحق بقوة، والتفنن في مخاطبتهم؛ بأفانين الأدلة، فإن الحق يتضح بالأدلة، كما أن الشهور تشتهر بالأهلة"^(٣) . ولشدة أثره فقد بذلوا كل جهد لتجنبه، ويحاولون جاهدين محاربتة خوفاً من تأثر المستمع له. "وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون"^(٤) "وقيل أنهم فعلوا ذلك لما أعجزهم القرآن"^(٥) وخوفاً من أن يستميل به القلوب^(٦) .

بل إن بعض الذين تولوا كِبَر مقاومتها، وصد الناس عنه؛ كانوا هم أنفسهم لا يستطيعون مقاومة شوقهم وشغفهم للاستماع للقرآن .

فقد كان أبوجهل، وأبوسفيان، والأخنس بن شريق يخرجون ليلاً ليستمعوا للرسول - صلى الله عليه وسلم - وهو يتلو القرآن، فيتلاقون في طريق العودة، فيتلاومون ويتعاهدون

(١) انظر فتح الباري ج ٧ ص ١٨٥ . (مرجع سابق) .

(٢) الفرقان - ٥٢ - .

(٣) تفسير القاسمي (المسمى محاسن التأويل) محمد جمال الدين القاسمي، ج ١٢/٧ ص ٢٦٧ . دار الفكر . بيروت (ط : ٢) ١٣٩٨ هـ .

(٤) فصلت - ٢٦ - .

(٥) الجامع لاحكام القرآن ج ١٥/٨ ص ٢٥٦ .

(٦) انظر المرجع السابق نفسه ١٥/٨ ص ٢٥٦ .

على عدم العودة لذلك، ومع ذلك يتكرر ذلك ثلاث ليال^(١) .
فالقصة تدل بوضوح على مبلغ موقع القرآن من نفوسهم ولكنهم يكابرون ويعاندون .
وهذا الوليد بن المغيرة، وهو من الفصحاء، والحكماء المعدودين حتى قال - يصف
نفسه - في جمع من قريش : "فوالله ما منكم رجل أعرف بالأشعار مني، ولا أعلم برجزة،
ولا بقصيده مني، ولا بأشعار الجن"^(٢)، فكيف كان وصفه للقرآن بعد أن استمع إليه، وبين
أنه ليس بالمخدوع؟ يقول : "إن لقوله الذي يقوله حلوة، وإن عليه لطلاوة، وإنه لمثمر أعلاه،
مغدق أسفله، وإنه ليعلو ولا يُعلى عليه، وإنه ليحطم ما تحته"^(٣) .
وقد والله حطم مراكز الكبر والغرور فيهم؛ فمنهم من استجاب وسلم، ومنهم عاند
فعطب .

(١) انظر السيرة النبوية لابن كثير، ج ١ ص ٥٠٥-٥٠٦ .

(٢) المرجع السابق نفسه ج ١ ص ٤٩٩ .

(٣) المرجع السابق ج ١ ص ٤٩٩ .

المبحث الثالث : السبل الأخلاقية
ويشتمل على :

- التمهيد :
- أثر السبل الأخلاقية على المنكرين

التمهيد :

لقد حدد رسول الاسلام (صلى الله عليه وسلم) أهداف دعوته ومن أهمها "إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق"^(١) .

فهذه الرسالة الخالدة خطت مجراها في تاريخ الحياة، وبذل صاحبها صلى الله عليه وسلم جهداً كبيراً في مد شعاعها وجمع الناس حولها، بأكرم الأخلاق وأيسر السبل، بل إذا اسملوا ترقوا في درجات الكمال، وابتعدوا عن الرذائل^(٢) .

والقرآن الكريم يشير إلى أن الدعوه إلى الله من أحسن وأجمل الأمور "ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال إنني من المسلمين"^(٣) .

فالداعي مأمور بأن يجمع إلى جانب صدق اللسان طهارة الجنان، وصلاح الأبدان^(٤) .
والخلق الحسن ثمره عمليه لما تعلموه وأقادوه من خير الأديان؛ وهم بدورهم ينقلونه للناس^(٥) .

والخلق في الاسلام له مزية وخصوصية تختلف عن نظرة الآخرين للأخلاق. حيث أن التعامل هو أولاً تعامل مع الله، يلحظ فيه عظمة الله وجنابه، ويتجنب به سخطه، ويطلب به رضاه؛ فالباعث ليس هو المصلحة، وليس هو عرف الجماعة، فلا بد من مقياس ثابت ترجع إليه الجماعة كما يرجع إليه الفرد، ولهذا المقياس قوه مستمدة من أعلى؛ من الله العلي الكريم^(٦) .

والرسول صلى الله عليه وسلم وهو الداعي الأول خير من امتثل للأخلاق الحميدة قبل وبعد بعثته، فقد كان العرب من قريش جميعهم يصفونه بالصادق، والأمين^(٧)، وهذه خديجة

(١) المسند تحقيق أحمد شاكر. ج ١٧ ص ٨٠ حديث رقم [٨٩٣٩] .

(٢) انظر خلق المسلم. ص ٦ (مرجع سابق) .

(٣) فصلت - ٣٢ - .

(٤) انظر أخلاق الدعاة إلى الله تعالى (النظرية والتطبيق) د. طلعت محمد عفيف سالم. ص ٢. مكتبة الإيمان. ب : ت .

(٥) انظر المرجع السابق نفسه. ص ٤ .

(٦) انظر في ظلال القرآن. ج ١ ص ٤١٨. (مرجع سابق) .

(٧) انظر السيرة النبوية لابن كثير ج ١ ص (مرجع سابق) .

رضي الله عنها تطمئننه وتهديء من روعه حينما جاءها خائفاً مما رآه من جبريل - عليهما السلام - وتقول له : "كلا والله ما يخزيك الله أبداً إنك لتصل - الرحم، وتحمل الكل وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق"^(١) وسألت أم المؤمنين (عائشة) (رضي الله عنها) عن خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : كان خلقه القرآن"^(٢) .
"وقد جمع الله له مكارم الأخلاق في قوله تعالى : "خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين"^(٣) .

ودعوتة بلسانه؛ دليل على حرص ما يدعو إليه على مكارم الأخلاق، فهؤلاء حكماء العرب حينما تبينوا ما يدعو إليه قالوا يحثون قومهم بإتباعه : "إن الذي يدعو إليه محمد لو لم يكن ديناً كان في أخلاق الناس حسناً"^(٤) .

وهذا أبوذر - رضي الله عنه - قبل اسلامه يرسل أخاه يستفسر عن حقيقة دعوتة فيعود إليه قائلاً : "رأيتك يأمر بمكارم الأخلاق"^(٥) .

فالشاهد وصفه لدين الاسلام بأنه دعوة إلى مكارم الأخلاق؛ وتوضيح ذلك يقول الرسول صلى الله عليه وسلم لمن سأله عن البر والإثم ؟ فأجابه : البر حسن الخلق. والإثم ما حاك في صدرك، وكهرت أن يطلع عليه الناس"^(٦) يفصلُ ابن القيم رحمه الله ذلك فيقول : "فقابل البر بالإثم، وأخبر : أن البر حسن الخلق والإثم : حوازُ الصدر. وهذا يدل على أن حسن الخلق : هو الدين كله؛ وهو حقائق الايمان؛ وشرائع الاسلام، ولهذا قابله بالإثم"^(٧) .

(١) صحيح البخاري مع الفتح. ك/بدء الوحي. باب (كيف بدء الوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقول الله إنا

أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده) ج ١ ص ٢٢ .

(٢) صحيح مسلم ومعه شرح النووي. ك. صلاة المسافرين. باب (صلاة الليل ومن نام عنه أو مرض) ج ٦ ص ٢٦ .

(٣) تهذيب مدارج السالكين. ص ٤١٣. (مرجع سابق) .

(٤) بلوغ الأدب في معرفة أقوال العرب. ج ١ ص ٢٠٩. (مرجع سابق) .

(٥) صحيح البخاري مع الفتح. ك الأدب. باب (حسن الخلق والسخاء وما يكره من البخل) ج ١٠ ص ٤٥٥ .

(٦) صحيح مسلم ومعه شرح النووي. ك/البر والصلة. باب (تفسير البر والإثم) ج ١٦ ص ١١١ .

(٧) تهذيب مدارج السالكين. ص ٤١٤ (مرجع سابق) .

فهذه باختصار حقيقة الأخلاق في الإسلام، وعلاقتها بالدعوة الإسلامية .
ومن هنا يتركز الحديث في هذا المبحث على المنكرين لدعوة الحق وأثر الأخلاق
فيهم :

أثر السبل الأخلاقية :

أولاً : أثر الدعوة باللسان إلى مكارم الأخلاق

إن الدعوة إلى مكارم الأخلاق باللسان قبل الفعال أثرت على المدعوين، وقد مر أنفاً قول أخ أبي نذر له، بأن الرسول صلى الله عليه وسلم يدعو إلى مكارم الأخلاق . وهذا عبدالله بن سلام (رضي الله عنه) يقول حاكياً قصة اسلامه؛ ومن أسبابها أنه سمع الرسول (صلى الله عليه وسلم) أول شيء تكلم به أن قال : "يا أيها الناس افشوا السلام، وأطعموا الطعام، وصلوا الأرحام، وصلوا بالليل والناس نيام تدخلوا الجنة بسلام"^(١) . وابن مظعون (رضي الله عنه) يتأثر بمثل ذلك فحينما نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله تعالى "إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون"^(٢) . قال : فذلك حين استقر الإيمان في قلبي، وأحببت محمداً"^(٣) .

فهذان الرجلان أحدهما كتابي يدرس الكتب، وفي هذا اشباع لرغبته في معرفة لب هذه الدعوة .

والآخر عربي فصيح، والعرب مغترة بفصاحتها، ويتفاخرها بأخلاق الجاهلية، وهذا فيه ما يشبع هذه الرغبة كذلك، ويبدله - عن أخلاق توارثها لا قلب لها ولا قالب - بأخلاق الهية تسعده في دينه ودنياه .

وهؤلاء أراد الله لهم خيراً فأعملوا عقولهم، وقلوبهم للبحث عما خلقت له، فاستدلوا بهذه الكلمات الخيرات بأن وراعا سراً عظيماً فأسلما وسلما .

ونقلة أخرى إلى تعامله صلى الله عليه وسلم بأخلاقه الكريمة، ومبلغ أثرها

على المدعوين :

(١) صحيح سنن ابن ماجة باختصار السند . ك/ الاطعمة . باب (إطعام الطعام) ج ٢ ص ٢٢٢ .

(٢) النحل - ٩٠ - .

(٣) المسند . ج ٤ ص ٣٣١ . حديث رقم [٢٩٢٢] .

ثانياً : أثر التعامل بمكارم الأخلاق

كان العرب من أشد الناس عداءً للدعوة، وخاصة صنائيد قريش، فحوّل الرسول صلى الله عليه وسلم هذه العداوة إلى محبة وصداقة بحسن خلقه، ومما يدل على ذلك قول هند بنت عتبة (رضي الله عنها) : "يا رسول الله، ما كان على ظهر الأرض من أهل خباء أحب إليّ أن يذلّوا من أهل خيالك، ثم ما أصبح اليوم على ظهر الأرض أهل خباء أحب إليّ أن يعزّوا من أهل خيالك" (١) .

إن نبع المودة الدافق من قلب الرسول صلى الله عليه وسلم بدلّ القلوب من حال إلى حال، بدل الحقد الدفين إلى محبة طرية صادقة .

فهل يتعلم الدعاة ذلك من نبيهم صلى الله عليه وسلم فيتآلفوا قلوب العباد ولا يطردها بسوء أخلاقهم (٢) .

والعرب أمة عرفت بالأنفة وإباء الضيم. وسلامة الفطرة، وسرعة الفهم، ولكنهم بحاجة إلى استئزال طائرهم في تبليغ الشريعة لهم؛ ليتجنبوا بذلك المكابرة؛ التي هي الحائل الوحيد بينهم وبين الاذعان الى الحق، وورد أن صفح النبي صلى الله عليه وسلم وعفوه، ورحمته كان سبباً في دخول كثير منهم الاسلام (٣) .

ومصدق ذلك قوله تعالى : "قبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك فأعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر" (٤) أي لو كنت سيء الكلام قاسي القلب عليهم لانفضوا عنك وتركوك، ولكن الله الآن جانبك لهم تأليفاً لقلوبهم (٥) فإذا كان الرسول صلى الله عليه وسلم هذا الشأن معه لو كان كذلك لتفرق الناس عنه فما بال غيره (٦) .

(١) صحيح البخاري مع الفتح. ك/ مناقب الأنصار. باب . ذكر هند بنت عتبة رضي الله عنها) ج ٧ ص ١٤١ .

(٢) انظر الحق المر. ص ٢٠٩ . (مرجع سابق) .

(٤) التحرير والتنوير. ج ٤ ص ١٤٥ . مرجع سابق .

(٥) آل عمران - ١٥٩ - .

(٦) انظر تفسير ابن كثير ج ١ ص ٦٢٩ (مرجع سابق) .

(٧) الأساس في التفسير. ج ٢ ص ٩١٦ .

وفي موضع آخر يؤكد القرآن على مبلغ أثر الدفع بالحسنى فيقول تعالى : "ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم"^(١) .

وقصة واقعة صريحة تبين هذه الحقيقة القرآنية ففي صحيح مسلم يقول صفوان ابن أمية، وهو من هو عداوة، وحقداً، وكبراً، على الاسلام وأهله، ونبي الاسلام، حتى أهدر دمه صلى الله عليه وسلم يوم الفتح^(٢) فهرب عن وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلما عاد عفا عنه الرسول صلى الله عليه وسلم، وزاد هذا العفو احساناً، وأعطاه مالاً حتى قال : "أعطاني محمد مائة من الأبل، ثم مائة، ثم مائة، وكان أبغض الناس إليّ فما زال يعطيني حتى كان أحبّ الناس إليّ"^(٣) .

فطفي نار الحسد في الحاسد بالاحسان إليه احياناً، فكلما ازداد أذىً وشراً وحسداً إزدت إليه احساناً، وله نصيحة، وعليه شفقة، فهو في أحد حالين : فإما أن ينطوي تحت جناحك وتستعبده باحسانك، وإما أن يقتل نفسه كمدأ وحقداً ويكون لك عليه من الله ظهير^(٤) وبعد فتح مكة، ولا يخفى مواقف قريش الكؤودة معه، ومعاندته ومعاداته والكيد له، ومع ذلك يصفح عنهم، وحين كانوا ينتظرون العقاب يقول لهم : "أذهبوا فأنتم الطلقاء"^(٥) .
وصدق الله إذ يقول "لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم"^(٦) .

وانظر إليه - صلى الله عليه وسلم - حين جمع من تمكنت من قلوبهم أحقاد الجاهلية ولم يصف فيها الايمان بعد في الجعرانة، وأخذ يصدق عليهم من الأموال فانتزع آخر قطرة من حقد على الإسلام والمسلمين ونبي الاسلام^(٧) .

(١) فصلت - ٣٤ - .

(٢) صحيح مسلم بشرح النووي. ك الفضائل (باب سخاؤه صلى الله عليه وسلم) ج ١٥ ص ٧٣ .

(٣) انظر بدائع الفوائد. ج ٢/١ ص ٢٤٤ . (مرجع سابق) .

(٤) السيرة النبوية لابن كثير. ج ٣ ص ٥٧٠ .

(٥) التوبة - ١٢٨ - .

(٦) انظر دراسة تحليلية لشخصية الرسول محمد صلى الله عليه وسلم (من خلال سيرته الشريفة) (د. محمد رواس قلعة

جي. ص ٢٠٩. دار النفائس. بيروت. (ط : ١) ١٤٠٨ هـ .

وكان صلى الله عليه وسلم يحضر ولائم أهل الكتاب ويغشى مجالسهم، ويواسيهم في مصائبهم^(١).
فهذا غلام يهودي كان يخدم رسول الله صلى الله عليه وسلم، فمرض، فاتاه النبي
صلى الله عليه وسلم يعوده، فقعده عند رأسه، فقال له : "أسلم. فنظر إلى أبيه وهو عنده
فقال له : أطع أبا القاسم - صلى الله عليه وسلم - فأسلم .."^(٢).

وفي ذلك دفع للحسد وإزالة أسبابه وعوارضه، حيث يقع هذا النبيل والكرم الخلقى
موقعه في النفس واليهود بنص القرآن قوم حسدٌ، ويدل على مبلغ اثره قول الوالد
لولده : أطع أبا القاسم .

والرسول صلى الله عليه وسلم كان يتحفى بهم إذا زاروه، فكيف كانوا هم
يتصرفون ؟

تروي عائشة (رضي الله عنها) قائلة : " .. دخل رهط من اليهود على رسول الله
صلى الله عليه وسلم. فقالوا : السام عليكم. قالت عائشة : ففهمتها فقلت : وعليكم السام
واللعنة. قالت : فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : مهلاً يا عائشة. إن الله يحب
الرفق في الأمر كله. فقلت : يا رسول الله، أولم تسمع ما قالوا ؟ قال رسول الله صلى الله
عليه وسلم : قد قلت وعليكم"^(٣) فتراه صلى الله عليه وسلم لم يعنف هؤلاء اليهود الذين
تواطئو على هذه الاساءة العظيمة، بل اظهر لهم أنه رد عليهم السلام كما يظنون وكأنه لم
يفطن لإساعتهم^(٤) ويستنبط ابن حجر أن ذلك كان لمصلحة التألف^(٥).

ويأتي جابر بن عبد الله - رضي الله عنه - إلى الرسول - صلى الله عليه وسلم -
ليشفع له عند يهودي يطلبه مالاً كان له عند أبي جابر، ومات وترك الدين وراءه، فيأتي
الرسول صلى الله عليه وسلم إلى اليهودي ليشفع لجابر بتأجيل موعد السداد فيأتي

(١) انظر سماحة الاسلام. د. أحمد محمد الحوفي. ص ٦٦. دار نهضة مصر. القاهرة. (ط : ٢) ب : ت .

(٢) صحيح البخاري مع الفتح. ك الجنائز. باب (إذا أسلم الصبي فمات هل يصلى عليه، وهل يعرض على الصبي
الإسلام). ج ٣ ص ٢١٩ .

(٣) صحيح البخاري مع الفتح. ك/الأدب. باب (الرفق في الأمر كله). ج ١٠ ص ٤٤٩ .

(٤) انظر منهج الرسول صلى الله عليه وسلم في دعوة أهل الكتاب. ص ٦٧ .

(٥) انظر فتح الباري ج ١١ ص ٤٢ .

اليهودي ذلك^(١) .

قائد الأمة، وأول وأفضل رجلٍ بها يشفع فلا يُشفع، فيذهب بكل أدب وقناعة، وبلا كلمة عتب مع هذا اليهودي .

أليس في ذلك درس لهذا اليهودي العنيد ؟ ولن يصله هذا الخبر من بني قومه وغيرهم ؟

وهذا الحلم منه صلى الله عليه وسلم لم يكن مرة واحدة أو مرتين، بل كان منهجاً في العمل للدعوة^(٢) .

يروى أنس رضي الله عنه موقفاً حليماً له فيقول : كنت أمشي مع رسول الله صلى الله عليه وسلم - وعليه رداء نجراني غليظ الحاشية، فأدركه إعرابي فجبذه بردائه جبذة شديدة؛ نظرت إلى صفحة عنق رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد أثرت بها حاشية الرداء من شدة جبذته، ثم قال : يا محمد مر لي من مال الله الذي عندك، فالتفت إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فضحك ثم أمر له بعتاء^(٣) .

ففيه بيان حلمه وصبره صلى الله عليه وسلم على الأذى في النفس والمال، والتجاوز على جفاء من يريد تأليفه على الاسلام، وليتأس به الدعاة بعده في خلقه الجميل من الصفا والاعفاء والدفع بالتتي هي أحسن^(٤) .

فلم يكتف صلى الله عليه وسلم بالصفح عنه بل دفع السيئة بالحسنة فأعطاه مالا متذكراً قول ربه ويدروون بالحسنة السيئة^(٥) .

فمقابلة السيئة بالحسنة تكسر شره النفوس، وتوجيهها إلى الخير، وتطفيء جذوة الشر، وتعالج النفوس من ادائها بأسرع وأسلم نتيجة^(٦) .

(١) صحيح سنن ابن ماجة. ك الصدقات. باب (أداء الدين عن الميت) ج ٢ ص ٥٧ حديث رقم [١٩٧٣] .

(٢) انظر سيكولوجية الرأي والدعوة. د. رؤوف شلبي. ص ٢٠٢. دار القلم. الكويت. (ط : ٢) ١٤٠٢ هـ .

(٣) صحيح مسلم بشرح النووي. ك الايمان. باب (تألف قلب من يخاف على إيمانه لضعفه) ج ٢ ص ١٨٠ .

(٤) انظر فتح الباري ج ١٠ ص ٥٠٦ . (مرجع سابق) .

(٥) الرعد - ٢٢ - .

(٦) انظر في ظلال القرآن. ج ٤ ص ٢٠٥٨ (مرجع سابق) .

والتيسير في الدعوة مع التبشير مطلوبان من الدعوة يقول إمامهم صلى الله عليه وسلم "يسرّوا ولا تعسّروا، وسكّنوا ولا تنفّروا"^(١).

ويتطبيق عملي يشرح لهم صلى الله عليه وسلم أثر ذلك حينما كان في مسجده فجاء اعرابي "قبال في المسجد، فثار إليه الناس ليقعوا به، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : دعوه وأهريقوا على بوله ذنوباً من ماء فإنما بعثتم ميسرين ولم تبعثوا معسرين"^(٢). وبعض اصحاب هذه الدوافع بحاجة إلى تيسير، وتسهيل، وتبشير تهدد من وطأة الدوافع فتلين للحق .

وفي حالة الحرب تستمر الأخلاق الحسنة، ولا يتغير الحال؛ فجنود الاسلام يأمرهم قائدهم بأن لا يغدروا ولا يقتلوا امرأة ولا طفلاً^(٣) وأن يدعو إلى الله قبل القتال^(٤). ويقول في حق الأسرى "فكوا العاني - يعني الأسير - وأطعموا الجائع، وعودوا المريض"^(٥).

وهذا أسير كافر يشهد بوقع هذه على نفسه فيقول : "فكنت في رهط من الأنصار حين اقبلوا بي من بدر، فكانوا إذا قدموا غداهم وعشاعهم خصوني بالخبز وأكلو التمر لوصية رسول الله صلى الله عليه وسلم إياهم بنا، ما تقع في يد رجل منهم كسرة خبز إلا نفحني بها فأستحي فأردها عليه ما يمسيها"^(٦).

فما مبلغ أثر هذه المعاملة الكريمة للأسرى ؟

"بعث النبي صلى الله عليه وسلم خيلاً قبل نجد فجاءت برجل من بني حنيفة يقال له ثمامة بن أثال. فربطوه بسارية من سواري المسجد، فخرج إليه النبي صلى الله عليه وسلم، فقال : ما ذا عندك يا ثمامة فقال : عندي خير. يا محمد إن تقتلني تقتل ذامم، وإن تنعم تنعم

(١) صحيح البخاري مع الفتح. ك الأدب. باب (قول النبي يسرّوا ولا تعسّروا) ج ١٠ ص ٥٢٤ .

(٢) نفسه والمدرك نفسه ج ١٠ ص ٥٢٥ .

(٣) صحيح البخاري مع الفتح ج ٦ ص : ٢٧٦، ١٤٨ .

(٤) صحيح البخاري مع الفتح ج ٧ ص ٤٧٦ . ج ٦ ص ١٠٨ .

(٥) صحيح البخاري مع الفتح ك/الجهاد. باب (فكاك الأسير) .

(٦) انظر السيرة النبوية لابن كثير ج ٢ ص ٤٧٥ .

على شاكر، وإن كنت تريد المال فسل منه ما شئت. فترك حتى كان الغد. ثم قال له : ما عندك يا ثمامة ؟ فقال : ما قلت لك. إن تنعم تنعم على شاكر. فتركه حتى كان بعد الغد، فقال : ما عندك يا ثمامة ؟ فقال : عندي ما قلت لك . فقال : أطلقوا ثمامة. فانطلق إلى نخل قريب من المسجد فاغتسل، ثم دخل المسجد، فقال : أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله، يا محمد والله يا محمد ما كان على الأرض وجه أبغض إليّ من وجهك، فقد أصبح وجهك أحب الوجوه إليّ. والله ما كان من دين أبغض إليّ من دينك، فأصبح دينك أحب الدين إليّ. والله ما كان من بلد أبغض إليّ من بلدك فأصبح بلدك أحب البلاد إليّ. وإن خيلك أخذتني، وأنا أريد العمرة، فماذا ترى ؟ فبشره رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وأمره أن يعتمر^(١) .

أين المهتمون بالدراسات النفسية ؟ ليستبدلوا الذي هو خير بالذي هو أدنى؛ فيتبعون هدى : أحسن الخلق؛ المستنير بنور الله الذي هو أعلم بخلقه من أنفسهم . قائد الأمة يأتي يتفقد حال الأسير ويحادثه بلطف وبرحمة، هل يفعل ذلك زعيم مع جنوده فضلاً عن الأسرى والأعداء ؟^(٢)

- (١) صحيح البخاري مع الفتح. المغازي. باب (واقف بني حنيفة، وحديث ثمامة بن اثال) ج ٨ ص ٨٧ .
- (٢) استمع أيها المسلم إلى هذا اليهودي كيف يتعامل مع جنوده، وهو وزير الحرب الاسرائيلي الهالك موشي ديان يقول : كنت مصمماً على تغيير أمور في الجيش من أهمها ازالة الهوة القائمة بين رئيس الاركان والجندي العادي (إلى أن قال) : قمت بتغيير هيئة مكتبي فألفت وظيفه الضابط القائم بخدمتي واستخدمت مكتبه وجعلت مكتبي الضخم قاعة للاجتماعات وكل هذا من أجل أن ازيل الحواجز بيني وبين الرتب الصغيرة . إلى أن قال وهو الأهم وكنت أكثر من زياراتي التفثيشية المفاجئة، والليلية، وكثيراً ما كنت اقود سيارتي بنفسي. وكنت ارمي إلى التأكد من أن الوحدات هي على استعداد دائم ومن أن هناك ضابطاً أعلى في مكان القيادة ، يتحمل المسؤولية. وكنت اسعى إلى التحدث مع الجنود العائدين من تمارين ليلية، أو من نوبة حراسة في المراكز المتقدمة، وعند قيام مشكلة تكتيكية، كنت استدعي الضباط بالرتب الصغيرة اناقش الأمر معهم بدون وسيط. ويسمع الضباط الصغار ملاحظتي . وكان رجال أركاني، وسكرتيرتي، ومدير مكتبي، يرون أنني لا أعير التفاتا كافيا إلى تسلسل الرتب؛ في الاتصالات المباشرة التي اقيمها مع الوحدات الصغيرة . ويقول : وكنت أزور الوحدات بلباس الميدان، وأقعد أرضاً وامتلئ، مثلهم غياراً ووحلاً ... أ . ه . =

ثم تركه بعد سؤاله لعدة أيام، هل هي فعل طائش لا ينطوي على حكم ومصالح ؟
يجيب النووي رحمه الله فيقول : هذا من تأليف القلوب وملاطفة لمن يرجى اسلامه من
الاشراف الذين يتبعهم على اسلامهم خلق كثير* (١) .

وسبقت الاشارة الى أن العرب عموماً أمة تعزز بكرامتها، وتفخر أن تموت قتلاً ولا
يداس لها طرف، فراعى صلى الله عليه وسلم ذلك وخاصة بعد تكرار العرض على الأسير،
فعرف أنه من الصنف الأبوي، وفعلاً فور اطلاق سراحه اغتسل قريباً وعاد نظيف القلب
يحمل كل ود وتقدير لنبي الرحمة ولدين الاسلام .

ويفهم من القصة أنه كان يعامل أثناء الاسر أكرم معاملة، يشير إلى ذلك عظم
استجابته، وكذلك اختلاف اجاباته اللاحقة عن السابقة مما يدل على أنه شعر بالطمأنينة،
فهدي روعه، وزال خوفه .

فهو لهذا التصرف الحميد بالعفو عنه أقسم أن بغضه انقلب حباً في ساعة واحدة لما
اسداه له النبي صلى الله عليه وسلم من جميل عفوهِ وكريم احسانه (٢) .

= انظر يوميات قادة العدو. الفاشية موشي دايان. ترجمة جوزيف صفيير. ص ١٥٨-١٥٩. دار المسيرة. بيروت. (ط) :
١٩٨٨م .

وليس المراد من سوق ذلك الاستغراب منه، ولكن المستغرب أن يتخلى بعض أصحاب المسؤولية من المسلمين عن هذه
السلوكيات الاسلامية الحسنة في أصلها .

ولإزالة ما يعلق في الذهن من غرابة في الاستشهاد، فانظر إلى المسؤولين الأقل مراكز بل بعضهم ممن يحسن
الظن بهم تجدهم ينظرون نظرة النون ممن هم أقل رتبة في الوظيفة أو سواها، وينظرون إلى سائر الناس من علي،
ولا يعيرونهم انتباها، وراقب الحواجز بن الناس وبين الوصول إلى هؤلاء في مكاتيبهم، وإن كان هناك من تعلات
وأعدار للدفاع عن هؤلاء؛ إلا أنهم مع ذلك مخطئون، ومن يغفل عن اسوتنا وسيدنا وقائدنا وكيف كان يعامل الناس
حتى قال : (أنا لكم كالوالد) * هذا والله اعلم .

* صحيح سنن أبي داود. ك الطهارة. باب (كراهية استقبال القبلة عند قضاء الحاجة) ج ١ ص ٥
حديث رقم [٦] .

(١) شرح النووي على صحيح مسلم ج ١٢ ص ٨٩ .

(٢) انظر فتح الباري ج ٨ ص ٨٨ - ٨٩ .

ولم يقتصر الأمر على إسلامه وحبّه لأهله، بل تعدى الأمر إلى حبّ بلد الإسلام ونبي الإسلام صلى الله عليه وسلم^(١)

وأكبر من ذلك أنه عادى أعداء الدعوة، وفي البخاري دليل ذلك في بقية القصة السابقة فلما قدم مكة قال له قائل : صبوت، قال : لا والله - ولكن اسلمت مع محمد صلى الله عليه وسلم ولا والله يأتاكم من اليمامة حبة حنطة حتى يأذن فيها النبي (صلى الله عليه وسلم)^(٢).

والرسول صلى الله عليه وسلم ما فتىء : يدعو إلى مكارم الأخلاق ويحض عليها بحرص ويمنتلها بكل صدق .

فاستمع إليه صلى الله عليه وسلم بحث على رحمة الحيوان ويقص على صحابته بأن رحمة الحيوان أوصلت رجلاً إلى الجنة فقالوا : يا رسول الله وإن لنا في البهائم أجراً ؟ فقال : في كل ذات كبد رطبة أجر^(٣) .

ومشاهدة اصحاب هذه الصفات مما يرقق القلب؛ والمتكبرون من اقسى الناس قلوباً، فتروضهم التعاليم الالهية على كسب السمات الجميلة، فيأمر بالرفق، ويندب بمداواة جروح الايتام "أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا؛ وقال بأصبعيه السبابة والوسطى"^(٤)، وقال "الساعي على المسكين والأرملة كالمجاهد في سبيل الله"^(٥) .

فالرحمة ليست مجرد كلام لا أثر لها في الخارج، بل لها آثار عملية مشاهدة : كأطعام الطعام، وكسوة العاري، وإغاثة اللهفان، ومساعدة المحتاج^(٦) ولا ريب أن امتثال ذلك

(١) شريط "حسن الخلق" الشيخ/سلمان بن فهد العودة. (شريط منشور) .

(٢) صحيح البخاري مع الفتح. ج ٨ ص ٨٧ .

(٣) صحيح البخاري مع الفتح. الادب . باب (رحمة الناس والبهائم) ج ١٠ ص ٤٢٨ .

(٤) صحيح البخاري مع الفتح. ك الادب باب (فضل من يعول يتيماً) ج ١٠ ص ٤٣٦ .

(٥) صحيح البخاري مع الفتح. ك الادب باب (الساعي على الأرملة) ج ١ ص ٤٣٧ .

(٦) انظر ولاية الشرطة في الإسلام. (دراسة فقهية تطبيقية) الشيخ عمر بن محمد بن ابراهيم الحميداني ج ١ ص

٢٩٨. رسالة دكتوراه مقدمة للمعهد العالي للقضاء. جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية. الرياض ١٤١٢هـ.

(غير منشورة) .

له اثره على اصحاب هذه الدوافع، وهذا يطرد على جميع الاخلاق الفاضلة في الاسلام .
ومما يبين مبلغ تاثرهم أنه جاء في الصحيح أن الأقرع بن حابس جاء إلى النبي
صلى الله عليه وسلم ورأى النبي صلى الله عليه وسلم يقبل الحسن بن علي (رضي الله
عنهما) فقال الأقرع : "إن لي عشرة من الولد ما قبلت منهم احداً . فنظر إليه رسول الله
صلى الله عليه وسلم ثم قال : "من لا يرحم لا يرحم" (١) .

وفيه تهذيب وتصحيح للمقاييس الارضية المادية؛ اذ يقول العلامة ابن حجر (رحمه
الله) في بعض شرحه للحديث : "وفي جواب النبي صلى الله عليه وسلم للأقرع اشارة الى
أن تقبيل الولد وغيره من الأهل والمحارم وغيرهم من الأجانب إنما يكون للشفقة والرحمة لا
للذة والشهوة" (٢) .

وثمة أمر ذي بال يدعو للتأمل وهو أن اثر الاخلاق الحميدة على اصحاب الدوافع
سريع المفعول ولا يقاس بالسبل الأخرى .
ولعل مرد ذلك إلى أن الاخلاق لها مساس مباشر على مكانن وعمق الدوافع؛ ولأنهما من
فصيل واحد .

وكذلك فإن رؤية الخلق المضاد وبصورة دائمة؛ مما ينفره من الدافع السيء الذي
يحملة؛ بمعنى أن المتكبر مثلاً حينما يرى المتواضع فإنه يراجع نفسه ويرى أهمية هذا
الخلق، ويأنه يحبب النفوس لصاحبه، فضلا عن كونه هو الأصل الذي ينبغي توفره في الانسان .
ولعله مما يشير إلى ذلك ملاحظة عدي بن حاتم (رضي الله عنه) للرسول صلى الله
عليه وسلم حينما استوقفته امرأة في الطريق، فوقف لها يحدثها، ففطن عدي لذلك
وقال : "والله ما هذا بملك" (٣) فلعل عدي كان في قومه مرموقاً، فظن أنه سوف يجد الرسول
صلى الله عليه وسلم من ملوك الدنيا المتكبرين العابثين المترفين، ولكنه فوجيء بعكس ذلك (٤) .

(١) صحيح البخاري مع الفتح . ك الأدب . باب (رحمة الولد وتقبيله ومعانقته) ج ١٠ ص ٤٢٦ .

(٢) فتح الباري ج ١٠ ص ٤٣٠ .

(٣) السيرة النبوية لابن كثير ج ٤ ص ١٢٥ .

(٤) انظر فقه السيرة . (دراسات منهجية علمية لسيرة النبي المصطفى صلى الله عليه وسلم معا تتطوي عليه من عطائ

ومبائديء واحكام) د . محمد سعيد رمضان البوطي . ص ٤٢٣ . دار الفكر . ١٤١٠ هـ (ط : ٨) .

فاتضح مما سبق كيف اثرت السبل الأخلاقية على المدعوين؛ فحببتهم للدعوة،
وقربتهم منها، أو على أقل تقدير جعلتهم يحبون أهلها، فلا يتعرضون لهم بسوء .

المبحث الرابع : سبل العلاج الاجتماعية
ويتضمن ما يلي :

- | | | |
|--------------|---|-------------------------|
| القسم الأول | : | تحديد الغاية |
| القسم الثاني | : | ربط الناس بالقيم العليا |
| القسم الثالث | : | مراعاة الاعراف والعادات |
| القسم الرابع | : | التركيز على دعوة الملا |

المدخل :

مر فيما سبق التعريف بالمجتمع، وتقرر أن لهذا المجتمع أمور خاصة، وعامة لأفراده، ولجماعاته .

إذ لكل مجتمع أعراف، وتقاليد، وأخلاق، وقيم، وهذه قد تكون بمنزلة مرشد يحدد سلوك الأفراد^(١)، وهذه تختلف باختلاف الثقافات من مجتمع لآخر .

بل إن الإدراك والمعرفة تتأثران بالماضي الاجتماعي وبمصالح وطبيعة الأفراد .
ومن هنا فإنه من الأهمية بمكان إحاطة الداعي بجميع أحوال المدعو. وملابساته،
حياته ،

وعن طريق الاطلاع والخبرة، وقربه من المدعويين؛ فإنه يكتسب معرفة الكثير عن سلوك المدعويين باختلاف أجناسهم .

وبذلك تكون دعوته أعمق أثراً، ويختصر المسافات الاجتماعية التي تبعده عن المدعويين .

فصفوة القول أن المراد بهذا المبحث هو تتبع مجموعة الأساليب التي استخدمها الرسول تركز على أمور المجتمع من قيم، وأعراف وعادات، وما إلى ذلك .

وسيرة الرسول صلى الله عليه وسلم هي النبراس المضيء، والقُدوة العملية لمعرفة أفضل السبل للتعامل مع المجتمعات الانسانية وما يتعلق بها من أمور .

فكيف كان الرسول صلى الله عليه وسلم يتعامل مع هذه الشؤون الاجتماعية ؟ .

(١) نظر المرشد في علم النفس الاجتماعي. د. عبدالحميد الهاشمي ص ١٢١ - ١٢٦. دار الشروق. (ط : ٢) ١٤٠٩ هـ .

قربه صلى الله عليه وسلم من المجتمع

لم يكن الرسول صلى الله عليه وسلم منطوياً على نفسه، قابلاً في بيته، بل كان عليه الصلاة والسلام يختلط بالناس في أسواقهم، ويزورهم في بيوتهم^(١) فكان صلى الله عليه وسلم يبيع ويشترى، ويستدين برهن، ويغير رهن؛ وتشفع وشفع إليه، وردت بريرة شفاعته فلم يغضب عليها ولا عتب، وكان يمزح ويضحك، وكان يشير ويستشير، وسمع الشعر وأثاب عليه، وكان يسابق، ويصارع . وكان يهتم لاهتمام الناس، ويسير في قضاء حوائجهم^(٢) ولا يفرق في ذلك بين كبير وصغير، ولا ذكر وأنثى .

وهو مع ذلك قائد لهم في سلمهم وحربهم، وقاضياً لهم في مشاكلهم وما يعترض لهم من أمور الدنيا والدين .

وبهذه الشخصية الاجتماعية، استطاع النبي صلى الله عليه وسلم أن يعايش الأغنياء، استطاعته أن يعايش الفقراء، كما استطاع أن يعايش الخدم ويعايش السادة، وكذا النساء والغلمان^(٣) .

وبذلك يكون قريباً من قلوب الجميع، وكلهم يود فداؤه والتضحية لنصرة مبادئه، ولعله مما يقرر ذلك ويؤكد الموقلة الماثورة عن أكثر الصحابة وهي قولهم للرسول صلى الله عليه وسلم "بأبي وأمي أنت يا رسول الله"^(٤) .

وبهذا العمل يستطيع الداعي أن يغزو القلوب، ويشوق المنكرين للتعرف على دعوته؛ ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم في الحث على ذلك "المؤمن يألف ويؤلف ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف، وخير الناس أنفعهم للناس"^(٥) ومع سلامة قصده صلى الله عليه وسلم

(١) انظر دراسة تحليلية لشخصية الرسول صلى الله عليه وسلم من خلال سيرته الشريفة. ص ١٩٢. (مرجع سابق) .

(٢) انظر زاد المعاد في هدى خير العباد. ج ١/١ ص ٤٠-٤١. (مرجع سابق) .

(٣) انظر أنبياء الله والحياة المعاصرة. د. عبدالغني عبود. ص ١١٢. دار الفكر العربي، (ط : ١) ١٩٧٨ م .

(٤) انظر المرجع السابق نفسه. ص ١١٢ .

(٥) صحيح الجامع الصغير زيادته (الفتح الكبير) ج ٦ ص ٧ حديث رقم [٦٥٢٨] .

من ذلك المنهج، وإخلاص الوجه لله تعالى، إلا أنه يفيد بمعرفة ظروف المدعويين؛ المعرفة الدقيقة الفاحصة، والاحاطة الكافية بعاداتهم وتقاليدهم، والمؤثرات التي يخضعون لها، قبل شروعه في أي عمل دعوى يمس الجماعة .

ومن الشواهد على ذلك أن الرسول صلى الله عليه وسلم لما قسم فيء حنين على المؤلفه قلوبهم وترك آخرين، بلغه قالة قالها بعض حديثي السن من الأنصار، فجمع الأنصار وتكلم معهم وكان فيما قاله "أما ترضون أن يذهب الناس بالأموال وتذهبون بالنبي صلى الله عليه وسلم إلى رحالكم ؟ فوالله لما تنقلبون به خير مما ينقلبون به . قالوا : يا رسول الله قدر ضيقنا" ^(١) .

الشاهد من ذلك انه خبير بمجتمع الدعوة الذي يدعو فيه فتصرف بدرايه تامه بصحة عمله .

فقد كان يعرف من لا يزال يرزح تحت ثقله حب المال والتعلق به، ويعرف من خالطت بشاشة الايمان قلبه فكل همه وسدمه رضا ربه .

وهذا دأب الداعي الحكيم يعطي كل أحد ما يناسبه ^(٢) ولما عرفه من طباعهم وأخلاقهم .

بل إن قريه من مجتمعه واندماجه فيه لفت أنظار الكفار مما أحدث أثراً في نفوسهم .

فهذا عدي بن حاتم رضي الله حينما كان على شركه يلتحظ قرب الرسول صلى الله عليه وسلم واندماجه في المجتمع، وتعامله المباشر مع الناس بلا وسائط حتى قال : "فعرفت أنه ليس ملك كسرى ولا قيصر" ^(٣) وأسلم متأثراً بذلك ^(٤) .

وفيما يأتي من الحديث زيادة بيان، وشواهد أخرى، وتؤكد هذا النهج النبوي الكريم:

(١) صحيح البخاري مع الفتح . ك/المغازي . باب (غزوة الطائف في شوال سنة ثمان) ج ٨ ص ٥٣ .

(٢) انظر فتح الباري ج ٨ ص ٤٩ .

(٣) السيره النبوية لابن كثير . ج ٤ ص ١٢٧ .

(٤) انظر المرجع السابق نفسه . ج ٤ ص ١٢٧ .

سبل العلاج الاجتماعية

لا ريب أن كل تحرك لاصلاح المجتمع والرقي به يعد من ذلك السبيل الاجتماعي .
ولكن احترازاً من التكرار وحرصاً على التجديد، والتزاماً بالمنهج، فإن البحث
سيبتدق إلى ماله مساس مباشر بالمجتمع ككل وليس الأفراد حالة انفرادهم، وذلك وفقاً
للآتي :

القسم الأول تحديد الغاية :

سبقت الاشارة إلى السبب الأول والحقيقي الكامن وراء ضياع المنكرين في جميع
شؤون حياتهم الدينية، والاجتماعية، والاقتصادية، .. الخ، وأن السبب هو غياب وفقدان غاية
الخلق في هذه الحياة، وهي عبادة الله وحده لا شريك له ^(١) .

فأصل داء الناس في القديم والحديث؛ جهلهم بربهم وشرودهم عنه، أو كفرهم به،
ورفضهم الدخول في العبودية الكاملة له، واغترارهم بالدنيا، وركونهم إليها وغفلتكم عن
الآخرة، وانكارهم لها ^(٢) .

ومن هنا جاء محمد صلى الله عليه وسلم ومن قبله جميع الأنبياء والرسل لتحديد
الغاية الكريمة - من وجود هذا الانسان - بأمر الله سبحانه وتعالى : "وما أرسلنا من قبلك
من رسول الا نوحى إليه أنه لا إله الا أنا فاعبدون" ^(٣) وقوله تعالى : "وما خلقت الجن
والانس الا ليعبدون" ^(٤) وقوله تعالى : "هذا بلاغ للناس ولينذروا به وليعلموا أنما هو إله واحد
وليذكروا أولوالآلآباب" ^(٥) .

(١) انظر ص من هذا البحث .

(٢) انظر أصول الدعوة، عبدالكريم زيدان، ص ٤٢١، مؤسسة الرسالة، (ط : ٤) ١٤١١هـ .

(٣) الأنبياء - ٢٥ - .

(٤) الذاريات - ٥٦ - .

(٥) ابراهيم - ٥٢ - .

فالمجتمعات التي وجدت أبان الرسالة المحمدية كانت جماعات متفرقة ومتناحرة ومتباينة في أهدافها، لا رابط بينها، وإن كان من رابط فهو فاسد وبتن الغاية، إما من خوف، أو تأمين رزق، أو عصبية جاهلية، ومر الحديث المؤكد لذلك في موضع سابق مما يغني من إعادة الكلام فيه .

وصفة القول مما سبق هو الاشعار بحاجة الانسان زمن الرسالة المحمدية الى رابط اقوى، رابط يرتفع بالانسان عن مقاصد البشر الدنيئة، والموثوقة، في زمان أو مكان معينين، ثم تتلاشى وتذهب هباء منثوراً .

وهذا الرابط - الذي أعلنه محمد صلى الله عليه وسلم من أول يوم بوضوح - هو توحيد الله عز وجل .

وهذا ما أغضب المتكبرين؛ إذ فيه وخز لنفوسهم المتعالية وكسر لحدة علوهم، إذ يستشعرون عظمة الخالق جل وعلا فيعترفون باستحقاقه المطلق لصفة الكبرياء المطلقة بوناً من خلقه، فتتطامن كبرياتهم، ويتواضعون للحق والخلق .

ولذا كان من أبرز الطرق التي عالج بها الرسول صلى الله عليه وسلم داء الكبر والحسد الزامهم بأن يفرودوا الله بالعبادة لما كانوا معترفين بانفراده سبحانه بالربوبية، واكتفى بالتمثيل بآيات أوضحت تلك الطريقة غاية الايضاح^(١) ومن ذلك قوله سبحانه : "الله خير أما يشركون * أمن خلق السموات والأرض وأنزل لكم من السماء ماءً فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها أأله مع الله بل هم قوم يعدلون" وما بعدها من الآيات حتى قوله تعالى : " ... أأله مع الله قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين"^(٢)

وقد حرص الرسول صلى الله عليه وسلم حرصاً شديداً على تجريد عقيدة التوحيد وتخليصها من كل ما علق بها من الأساطير والأوشاب والانحرافات التي طرأت على العقائد التي سبقت؛ حرص لأن التوحيد حقيقة أولية يقوم عليها هذا الوجود كله، ولأنه في

(١) انظر من اخلاق الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم. عبدالمحسن بن حمد العباد ص ٧ . مكتبة الهدى النبوية

الاسلامية. بورسعيد. ب : ت .

(٢) النمل - ٥٩ - ٦٤ - .

الوقت ذاته قاعدة لا تصلح الحياة البشرية كلها في أصولها وفروعها الا إذا قامت عليها^(١).
والخلاصة أن الايمان بهذه الحقيقة ضروري لصلاح الضمير البشري واستقامته
واستنارته، وتوجيه طاقاته ومشاعره .

ووضوح الارتباطات بينه وبين خالقه، ثم بينه وبين الكون وكل ما في الكون من احياء
وأشياء؛ وما يتبع هذا من تاثرات أخلاقية وسلوكية واجتماعية في كل مجال من مجالات
الحياة^(٢) .

إن من معالم التربية وأصولها شد الانسان إلى غاية عليا ينقضي عمره ولا ينتهي من
التحليق إليها، والسير الحثيث إليها، وهذه الغاية العليا لا تضيق بالراغبين منها المتطلعين
إليها، ومن ثم فلا يمكن أن يكون تحاسد في طلابها ولا تباغض، وإنما أنس ومحبة وتنافس^(٣) .
وفي الجملة فهذا التحديد الالهي لهذه الغاية فيه علاج مضمون النتيجة لهذه الدوافع
لمن استقام على لا إله الا الله .

وإيراد ذلك في الأصل لتحديد هدف سام تتوجه المشاعر إليه، ويتحاب القلوب من
أجل حقيقة، وتزول نزوات الجاهلية بنعراتها وأفاتها، فتجتمع القلوب ولا تفترق .

فهذا رجل جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم يقول : "الرجل يقاتل للمغنم، والرجل
يقاتل للذكر، والرجل يقاتل ليرى مكانه، فمن في سبيل الله ؟" قال : "من قاتل لتكون كلمة
الله هي العليا فهو في سبيل الله"^(٤) وفي رواية زاد : "ويقاتل حمية"^(٥) .

كل هذا من الأهداف الفاسدة التي لا تنفع صاحبها، وتفرق بين الناس ولا تجمعهم؛
بل إن الحيوانات تقاتل من أجل حجورها، وغذائها، "ليست الأمة كما يعرفها علم الاجتماع
الجاهلي مجموعة من البشر تجمعهم أرض مشتركة، ولغة مشتركة، وجنس مشترك، ومصالح مشتركة،

(١) انظر في ظلال القرآن. ج ٥ ص ٣٠١٠. (مرجع سابق) .

(٢) انظر المرجع السابق نفسه ج ٥ ص ٣٠١١ .

(٣) انظر أصول الدعوة. ص ٤٤٥ (مرجع سابق) .

(٤) صحيح البخاري مع الفتح. ك/الجهاد. باب (من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا) ج ٦ ص ٢٨ .

(٥) صحيح البخاري مع الفتح. ك/التوحيد. باب ، قوله تعالى : (ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين) ج ١٣ ص ٤٤١ .

فهذه كلها هي العناصر التي لا اختيار للانسان فيها، والتي يجتمع على مثلها الحيوان كذلك! (١) (٢) .
فما هذه إن وجدت إلا روافد إضافية، أما الأمة الحقيقية هي التي تجتمع على
العقيدة الصحيحة؛ إذ هي الوشيحة العليا التي يمكن أن تقوم عليه حياة الناس وتوجههم
الوجهة الصحيحة في جميع شؤونهم .

فوحدة الغاية جمعت قلوباً وأجناساً شتى، وهذه الوحدة هي التي نقلت العرب هذه
النقطة الهائلة لتكون منهم تجمعاً فريداً في التاريخ لينشئ منهم أمة العقيدة (٣) .

ويقرر ابن خلدون - رحمه الله - بثقة أهمية ذلك لعلاج هذه الدوافع حيث يرى أن
استتباب الخلافة المستقيمة إنما يكون بجمع القلوب وتأليفها وهذا يكون بمعونة من الله في
إقامة دينة (٤) يقول تعالى : "وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ
قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ" (٥) ثم يقول وسر ذلك أن القلوب : "إذا انصرفت
إلى الحق ورفضت الدنيا والباطل، وأقبلت على الله أتحدت وجهتها، فذهب التنافس وقل
الخلافة وحسن التعاون والتعاقد واتسع نطاق الكلمة لذلك، فعظمت الدولة" (٦) .

ويقول في موضع آخر : أن الصبغة الدينية تذهب التنافس والتحاسد الذي في أهل
العصبية، وتفرد الوجهة إلى الحق، فإذا حصل لهم الاستبصار في أمرهم لم يقف لهم
شيء، لأن الوجهة واحدة، والمطلوب متساو عندهم؛ وهم مستميتون عليه، وأعداؤهم وإن
كانوا أضعافهم، فأغراضهم متباينة بالباطل، وتخاذلهم خوفاً من الموت حاصل، فلا
يقاومونهم وإن كانوا أكثر منهم، بل يغلبونهم ويعالجهم الفناء بما فيهم من الترف والذل (٧) .

(١) واقعنا المعاصر. ص ٥٥. (مرجع سابق) .

(٢) والمقصود هنا أن هذا يخالف تحديد معنى ومفهوم "الأمة" من منظور اسلامي، فالأمة في عرف الاسلام هي "أمة التوحيد" التي
تلتزم بتعاليم الاسلام في جميع شؤون حياتها، تتطرق في علاقاتها مع الحياة، والكون والناس، من توجيه عقيدتها الاسلامية .

(٣) انظر المرجع السابق نفسه. ص ٥١ ، ٥٥ .

(٤) انظر مقدمة ابن خلدون. ص ١٠٧. (مرجع سابق) .

(٥) الانفال - ٦٣ - .

(٦) انظر المرجع السابق نفسه. ص ١٥٧ .

(٧) المرجع السابق نفسه ص ١٥٨ .

وصفوة القول أن تحديد الغاية العليا للإنسان تعطيه بعداً أقوى وأسمى لتخطي عقبات كثيرة تقف أمامه في انطلاقته في باب السعادة تكريماً له، مما يمكن أن يبينه المجتمع لديه من خبرات انفعالية سلبية^(١) .

فانظر كيف أثر رباط العقيدة على الأوس والخزرج تلك القبيلتان اللتان ظلتا تتقاتلان دهوراً طويلاً، وحينما اجتمعتا على كلمة "لا إله إلا الله" ذهب كل ما بينهما من تناحر وتنافر وتحولتا إلى قلب واحد يقاتل تحت راية واحدة هي راية التوحيد .

وفيهم نزل قوله تعالى : "واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداءً فالف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً"^(٢) .

يقول ابن كثير - رحمه الله - : "وهذا السياق في شأن الأوس والخزرج، فإنه قد كان بينهم حروب كثيرة في الجاهلية، وعداوة شديدة، وضيغائن وإحن وذحول، طال بسببها قتالهم، والوقائع بينهم، فلما جاء الله بالاسلام - فدخل فيه من دخل منهم - صاروا إخواناً متحابين بجلال الله، متواصلين في ذات الله، متعاونين على البر والتقوى"^(٣) ويتضح من كلام ابن كثير إن ذلك كان علاجاً مباشراً لأسباب الحسد والحقد وتطهير القلوب من أدوانها؛ ومسبباتها .

(١) انظر الانسان - وجوده، وخلافته في الأرض في ضوء القرآن الكريم - د. عبدالرحمن ابن ابراهيم المطرودي، ص

٢٢٣. مكتبة وهبة. القاهرة. (ط : ١) ١٤١٠هـ .

(٢) آل عمران - ١٠٣ - .

(٣) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٥٨٢ . (مرجع سابق) .

القسم الثاني : ربط الناس بالقيم العليا

تحديد الغاية لا يغني الغاء الأهداف الأخرى أو إهمالها وإنما يعني توافق هذه الأهداف مع الغاية وعدم تعارضها، وكذلك فهي تأخذ أصولها منها^(١) .

وهذا القسم فرع من القسم الأول، فكان من الاهتمامات الدعوية النبوية توجيه المدعويين إلى القيم العليا وربطهم بها .

ومن هذه التوجيهات :

١ - مر أنه من دواعي الكبر الجاه والثراء المادي، وليثير الرسول صلى الله عليه وسلم الكبراء والاثرياء - في المجتمع - لحقيقة تطرق قلوبهم فينتبهوا لأمر قد يفوت عليهم .

من ذلك أنه مر رجل على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال لرجل

عنده جالس : ما رأيك في هذا ؟ فقال : رجل من أشرف الناس، هذا والله حري

إن خطب أن ينكح، وأن شفيع أن يشفع. قال : فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم مر رجل فقال له الرسول صلى الله عليه وسلم ما رأيك في هذا ؟ فقال يا

رسول الله، هذا رجل من فقراء المسلمين، هذا حري إن خطب أن لا ينكح، وأن شفيع أن لا يشفع، وأن قال أن لا يسمع لقوله. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هذا

خير من ملء الأرض من مثل هذا^(٢) .

ولك أن تتصور وقع هذا على الصنف الأول الذي مر وهو يظن أنه في منزلة عظيمة

لا يباري ولا يماري في ذلك أحد، فإنه حين يسمع هذا ولا ريب سيعيد حسابه مع

مقاييسه المادية، ويسير وفق ما رسمه الشارع لأمثاله^(٣) .

٢ - وهذا موقف آخر يرويهِ أبوذر - رضي الله عنه - فيقول : إنني ساببت رجلاً فغيرته

(١) انظر الدعوة في الكتاب والسنة. (محاضرات القيت على طلاب السنة التمهيدية للماجستير) ، (مرجع سابق) .

(٢) صحيح البخاري مع الفتح. ك / الرقاق. باب (فضل الفقر) ج ١١ ص ٢٧٣ .

(٣) ولكن هل يا ترى استفاد كثير من دعاة اليوم من هذا المقياس ؟ بمعنى أنهم يزنون الناس بميزان الايمان والتقوى، أم

يزنونهم بما يلبسونه ويملكونه ويركبونه ؟ .. وإذا كان هذا السؤال موجه للدعاة ليجيبوا عن ذلك بصدق وواقعية فما

بالك بمن سواهم من عامة المسلمين .

بأمة، فقال لي النبي - صلى الله عليه وسلم - يا أبا ذر أعيرته بأمة ؟ إنك امرؤ فيك جاهلية. إخوانكم خولكم؛ جعلهم الله تحت أيديكم؛ فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل، وليلبسه مما يلبس؛ ولا تكلفوهم ما يغلبهم؛ فإن كلفتموهم فأعينوهم^(١) .
وهذا دليل لإهتمامه بجميع طبقات مجتمعه، حيث غضب لهذا الخادم وعنف هذا الصحابي الكريم على هذا التعبير الذي صدر منه .

فكيف كان أثر ذلك على أبي ذر رضي الله عنه ؟ إنه بدأ يحس بآلم نفسه حيث تذكر الجاهلية وأدناسها، وما هرب إلا منها، فهل يقبل أن يتصف بصفة من صفاتها ؟ بل إن هذا الحدث ايقظه ونبهه من خطورة العودة الى النعرات الجاهلية، والتفاخر بالأحساب، بل أصبح يكسو خادمه كسوة مثل كسوته بعد هذه القصة، يدل على ذلك أول الحديث وفيه : "عن المعرور قال : لقيت أباذر بالريذه وعليه حلة وعلى غلامه حلة فسألته عن ذلك"^(٢) فذكر له القصة السابقة .

فيظهر بجلاء الحث على المواساة^(٣) للآخرين والاحساس بمشاعرهم وبأدميتهم، ففي هذا علاج للغرسة والأنانية وهضم حقوق الآخرين الذين هم أقل شأنًا .

(١) صحيح البخاري مع الفتح. ك الايمان. باب (المعاصي من أمر الجاهلية) ج ١ ص ٨٤ .

(٢) صحيح البخاري مع الفتح. ك (الحديث السابق) ج ١ ص ٨٤ .

(٣) انظر فتح الباري. ج ١ ص ٨٧ (مرجع سابق) .

٣ - مبدأ المساواة :

فمن حيث المجتمع جاء الاسلام ليلغي الفوارق المادية الجاهلية بين الناس، وقد مر ما كان في المجتمع الجاهلي من سيطرة طبقة الاغنياء والمترفين، وما نتج عن ذلك من مشاكل مادية جاء الاسلام ليعالجها ويجعل الناس في ميزان الشرع سواسية .

وقد جاء في الحديث "أن قريشاً اهتمهم المرأة المخزومية التي سرقت، فقالوا : من يكلم فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن يجتريء عليه إلا أسامة حب رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فكلم رسول الله، فقال : أتشفع في حد من حدود الله ؟ ثم قام فخطب فقال : يا أيها الناس إنما ضل من كان قبلكم أنهم كانوا إذا سرق الشريف تركوه، وإذا سرق الضعيف فيهم أقاموا عليه الحد، وإيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها" (١) .

فلا ريب أن في هذه القصة إزعاج للمتكبرين، وزوال لا امتيازاتهم الباطلة قبل الاسلام، ومما يؤكد ذلك في مشاعرهم؛ أن القائد الكريم صلى الله عليه وسلم وأعظم شخصية في الأمة أوضح أن هذا سينفذ ولو كان السارق أعز أهله عنده، والبقية الباقية من ابناؤه، مما يوحي بترك المحاباة بذلك (٢) .

وقس ذلك على الادعاءات الزائفة بمبدأ المساواة في الغرب المادي الكافر، فقد ازعجتنا وسائل الاعلام أسبوعاً كاملاً ويزيد بعمليات العنف التي قام بها السود في امريكا احتجاجاً على حياة القهر والذل التي يعيشونها والعنصرية المقيتة من السيد الأبيض (٣) .

(١) صحيح البخاري مع الفتح . ك الحدود . باب (كراهية الشفاعة في الحد إذا رفع إلى السلطان) ج ١٢ ص ٨٧ .

(٢) انظر فتح الباري ج ١٢ ص ٩٥ (مرجع سابق) .

(٣) والغريب أن هؤلاء الدجلة نصبوا أنفسهم حراساً لحقوق الانسان في العالم، وأبواقهم المناقفة تتعق بأنفهم، وهذا الانسان في شتى بقاع الدنيا؛ يموت جوعاً وبلا ملوى، فأين هم من ذلك ؟ ودليل حديث جديد - وما أكثر الأدلة - وهو ماحدث لمسلمي يوغسلافيا، وماحدث لمسلمي الصومال... الخ، ههذ المأسى التي لا تنتهي عن ظلم الانسان المتكبر المتطرس للانسان المستضعف .

ومما يفيظ أن هؤلاء المارقين يوحون لأذنانهم أن حدود الله وإقامتها امتهاننا لحقوق الانسان، واستعبادهم، وظلمهم، وقهرهم للناس حقوقاً انسانية !!، والعبث بمقدرات الشعوب، ومصالحهم، وتنصيب أحجاراً وأدوات لهم عليهم، كذلك هذه انسانية ؟ !! .

ومع ما في هذا الهدى النبوي الكريم من وخز للمتكبرين ليرتدعوا عما هم فيه، فهو مع ذلك فيه دعوة صادقة للخائفين المستضعفين إلى الدخول في هذا الدين الذي فيه أمانهم، والحفاظ على حقوقهم وكرامتهم، مع مساواتهم مع كافة المجتمع بلا محاباة ولا مداينة .

ولكي يحقق هذه المساواة، ويحطم القيم الجاهلية المنبثقة من الأرض ومواضعاتها فإنه (صلى الله عليه وسلم) زوج بنت خالته زينب بنت جحش الأسدية، لمولاه زيد بن حارثة؛ ومساأة الزواج والمصاهرة مساأة حساسة شديدة الحساسية، وفي البيئة العربية بصفة خاصة^(١) .

وبعد تطبيقه بنفسه هذا العلاج يوجه المجتمع إلى هذه الحقيقة فيقول لبعض العرب :
يا بني بياضة : انكحوا أبا هند، وانكحوا إليه. وكان حجاماً^(٢) فهذا علاج فاعل لأصحاب هذه الدوافع؛ إذ فيه غزولها في الصميم، لتفتت نوازعها ومسبباتها، لعلها تعود إلى حقيقتها فتفكر بواقعها بصدق وموضوعية .

(١) انظر تفسير ابن كثير ج ٣ ص ٧٨١ وانظر في خلال القرآن. ج ٦ ص ٢٨٢٧ (مرجمان سابقان) .

(٢) سلسلة الأحاديث الصحيحة ج ٥ ص ٥٧٤ . حديث رقم [٢٤٤٦] .

القسم الثالث : مراعاة العادات والأعراف

للعادة والعرف أثرها الكبير، ومفعولهما الخطير، الذي لا يمكن أن يقلل من شأنه في حياة الناس وسلوكهم^(١) .

ومن العوامل التي تعين على إقناع الجماعة والتأثير بها، معرفة عاداتها وتقاليدها، وطبائعها .

فهذه الأمور ترسبت في قلوب الناس عبر أزمنة مديدة مما يطبع في نفوسهم التعصب لها، ومعادة من يعتدي عليها من بعيد أو قريب .

فلذا على الداعية الفطن، واللبيق، أن يتسلل إلى نفوس المدعوين، دون جرح أحاسيسهم، أو إشعارهم بالبلادة والتفاهة إزاء مواقفهم من هذه التقاليد البالية .

بل لعل تهور بعض الدعاة - خاصة في إفريقيا، وبعض بلدان آسيا - بمهاجمة أعراف وتقاليد المسلمين هناك مما أفقد دعوتهم من إحداث الأثر الفعال المطلوب^(٢) .

بل إنه لبلغ أهمية مراعاة ذلك؛ بنيت كثير من الأحكام في النصوص التشريعية على مراعاة الأعراف والعادات :

فقد بنى كثير من الفقهاء أراءهم في الفروع على العادات والأعراف التي كانت سائدة في مجتمعاتهم^(٣) . ما لم يخالف نصوص الشرع .

(١) انظر فن نشر الدعوة مكاناً وزماناً . د. محمد زين الهادي . ص ٢١ ، دار العاصمة . الرياض . (ط : ١) ١٤٠٩ هـ .

(٢) انظر مناهج التشريع الاسلامي . (في القرن الثاني الهجري) . د. محمد بلتاجي . ج ٢ ص ٨٦٤ . طبع لجنة البحوث والتأليف والترجمة والنشر . جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية . ١٣٩٧ هـ .

مراعاة الرسول صلى الله عليه وسلم لهذا القسم :

بعث الرسول صلى الله عليه وسلم والناس في زمنه يرفلون بعدد لا يحصى مما اعتادته وأشربته أنفسهم من الأعراف، والعادات، بل إن العرب - وهم صنف من أكبر أصناف المدعوين في عهده - من أشد الناس تعصبا لأعرافهم وعاداتهم، ومع هذا استطاع صلى الله عليه وسلم أن ينتزع من نفوسهم كل آفات الجاهلية، في زمن قياسي، تحولوا إذ إلى أسد ضارية مؤمنة تحب الله ورسوله، مطيعة لأوامر الشرع، مجتنبة لنواهيها، وتركوا الجاهلية وكل ما يمت لها بصلة خلف ظهورهم .

فكيف تعامل الرسول صلى الله عليه وسلم مع تلك الاعراف والعادات ؟

ينبغي التنبيه لأمر ذي شأن؛ وهو أن الرسول صلى الله عليه وسلم من أول يوم في دعوته، بين هدف دعوته الأول وهو الدعوة إلى توحيد الله، ولم يتنازل قيد انملة عن هذا الهدف مع ما حصل له من ضغوط ومؤثرات، فأمر العقيدة لا مراعاة ولا مجاملة ولا مواربة فيه، وهو من الواضوح بما يغني عن الاستدلال .

بل وأي مطلب يتسبب في إحداث خلل في هذه الغاية؛ فإنه لم يتنازل كذلك عنه من أمور العبادات، والخلافة .

إذ أراد رجال قبيلة من القبائل التي عرض عليها الاسلام أن تنتزع منه وعداً بتوليها الأمر من بعده، ومع حاجته آنذاك للمساعدة، وقلّة الناصر وكثرة الأعداء؛ رفض بشدة وبين أن الأمر لله يؤتية من يشاء^(١) وغيرهم أراد منه أن يترك لهم "اللات" ليعبدوها مدة من الزمن فأبى ذلك البتة، وساوموه في أمر الصلاة فلم يعطهم شيئاً من ذلك^(٢) والشواهد على مراعاته صلى الله عليه وسلم لذلك كثيرة منها :

تذكر كتب الحديث أنه صلى الله عليه وسلم همّ بنقض الكعبة، ليحدث فيها اصلاحات

فتراجع عن ذلك لماذا يا ترى ؟

(١) انظر السيرة النبوية لابن كثير. ج ٢ ص ١٥٨-١٥٩ .

(٢) انظر المرجع السابق ج ٤ ص ٥٥ .

يقول صلى الله عليه وسلم - مخاطباً أم المؤمنين (عائشة) رضي الله عنها : يا عائشة لولا أن قومك حديثو عهد بجاهلية لأمرت بالبيت، فهدم، فأدخلت فيه ما أخرج منه، وألزقته بالأرض، وجعلت له بابين؛ باباً شرقياً وباباً غربياً فبلغت به أساس إبراهيم^(١) .

فلو تسرع الرسول صلى الله عليه وسلم فقد يحدث من ذلك إنكار الناس له، ويخشى منه تولد الضرر عليهم في دين ودنيا، وتآلف قلوبهم بما لا يترك فيه أمراً واجباً^(٢) .

ومع وضوح علاقة ذلك بشكل عام وغير مباشر بدوافع الإنكار، إلا أنه صرح بأثر له مباشر على الفخر الذي هو مسببات الكبر وأقوى موجباته فكيف يكون ذلك ؟

لا يخفى أهمية مقام البيت العتيق لدى العرب عامة وقريش خاصة، ومما يدل على ذلك أنهم أرادوا إعادة بنائها في الجاهلية وحصل بينهم خلاف شديد فيمن يضع الحجر الأسود في مكانه^(٣) لعظم هذا الأمر وقدره لديهم وهو مما يتفاخرون به كابراً عن كابر^(٤) .

ويؤكد ذلك ما نقله ابن حجر عن بعض العلماء في ذلك إذ يقول : "أن النفرة التي خشىها النبي صلى الله عليه وسلم؛ أن ينسبوه إلى الانفراد بالفخر دونهم"^(٥) ويشير إلى ذلك أنه جاء في رواية أخرى قوله صلى الله عليه وسلم : " .. فأخاف أن تنكر قلوبهم"^(٦) .

وليهدب هذه الاعراف ويصبغها بالصبغة الإسلامية السليمة، فإنه يقر الصالح منها، ويعدل وجهة الطالح فيما يقر .

ومن ذلك أن بني عبدالمطلب كان من مآثرهم في الجاهلية سقاية الحاج، وفي حجة صلى الله عليه وسلم - مر عليهم وهم يسقون فقال : "أنزعوا بني عبدالمطلب فلولا أن يغلبكم الناس على سقايتكم لنزعت معكم، فنأولوه دلوفا فشرب منه"^(٧) .

(١) صحيح البخاري مع الفتح. ك الحج. باب (فضل مكة وبينانها...) ج ٣ ص ٤٢٩ .

(٢) انظر فتح الباري ج ٣ ص ٤٤٨ . (مرجع سابق) .

(٣) انظر المرجع السابق نفسه ج ٣ ص ٤٤٢ .

(٤) انظر المرجع السابق نفسه ج ١ ص ٢٢٥ .

(٥) المرجع السابق .. ج ٣ ص ٤٤٤ .

(٦) صحيح البخاري مع الفتح. ك الحج. باب (فضل مكة وبينانها ..) ج ٣ ص ٤٢٩ .

(٧) صحيح مسلم بشرح النووي. ك/ الحج. باب (حجة النبي صلى الله عليه وسلم) ج ٨ ص ١٩٤ .

فهذه توارثوها ولا ضرر منها، ويدل على أهميتها لديهم أن العباس بن عبدالمطلب (رضي الله عنه) استأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يبني بمكة ليالي منى من أجل سقاية فاذن له^(١) .

فهذه السقاية حق لآل العباس من أيام الجاهلية، وأقرها النبي صلى الله عليه وسلم له^(٢) .

ويعدل صلوات الله عليه في ذلك مع أصحاب المأثر الأخرى، ففي أيام الفتح الأعظم يأتيه علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - يطلب منه أن يضم إلى مأثر بني هاشم مأثرة سدانة البيت، فيأبى ويسلم مفتاح الكعبة إلى عثمان بن طلحة ويؤكد مع هذا النيل التحذير من انتزاعه من آل شيبه^(٣) .

ومما اثر عنه صلى الله عليه وسلم في ذلك أيضا أنه سأل أسامة بن زيد - رضي الله عنه - زمن الفتح - فقال : "يا رسول الله أين تنزل في دارك بمكة ؟ فقال : وهل ترك عقيل من رباع أو دور ؟"^(٤) وذلك لأنه ورث أبا طالب على الكفر ولم يرثه علي وجعفر (رضي الله عنهما)^(٥) .

فلك أن تتصور وقع ذلك على عقيل وغيره من أثرياء وملاك دور مكة، فهذه المقالة ليست من فراغ، رجل يدخل فاتحاً بلداً وقد طرد منها، وأوذى، وصودرت أملاك أتباعه، وهذا رد الجزاء بغير مثله .

ويفظن العلامة ابن حجر - رحمه الله - لفائدة عظيمة يدل عليها هذا الحديث حيث يقول : "وأمضى النبي صلى الله عليه وسلم تصرفات الجاهلية تاليفاً لقلوب من أسلم منهم"^(٦) .
يقول حكيم بن حزام - رضي الله عنه - مستفهما عن أمور كان يعملها في

(١) صحيح مسلم بشرح النووي. ك الحج. باب (وجوب المبيت بمنى ليالي أيام التشريق) ج ٩ ص ٦٢-٦٣ .

(٢) انظر شرح النووي على صحيح مسلم. ج ٩ ص ٦٣ .

(٣) انظر السيرة النبوية لابن كثير. ج ٣ ص ٥٧٠ .

(٤) صحيح البخاري مع الفتح. ك الحج. باب (توريث دور مكة وبيعها وشراؤها ..) ج ٣ ص ٤٥٠ .

(٥) انظر بقية الحديث السابق .

(٦) فتح الباري. ج ٣ ص ٤٥٢ ، (مرجع سابق) .

الجاهلية، : "يا رسول الله أرأيت أموراً كنت اتحنث بها في الجاهلية، من صلة وعتاقة، وصدقة، هل كان لي فيها أجر ؟" فيقول صلى الله عليه وسلم : "أسلمت على ما سلف من خير"^(١) .
رد حكيم يأسر القلوب، ويشوقها لهذا الدين والتعرف على مبادئه، فالرد قد يكون بأسلوب آخر وهو أن أمور الجاهلية غاياتها فاسدة، ولا فائدة من ذلك وإلا لنفع حاتم كرمه، ولكن الرجل أسلم وكان يعمل ذلك، فجاء الرد المرغب والمحبيب، فهو خير ولكن الاسلام حقق فيه خيري الظاهر والباطن، العمل والقصد .
ويقول صلى الله عليه وسلم من ذلك : "لا حلف في الاسلام، وأيما حلف كان بالجاهلية لم يزده الاسلام إلا شدة"^(٢) .

وفي صلح الحديبية وحينما بدأوا يشرعون في عمل المعاهدة وأراد صلى الله عليه وسلم ان يبدأ بالبسملة قال سهيل : أما باسم الله، فما ندري ما بسم الله الرحمن الرحيم، ولكن اكتب ما نعرف : باسمك اللهم. فقال اكتب من محمد رسول الله. فقالوا: لو علمنا أنك رسول الله لاتبعناك، ولكن اكتب اسمك واسم أبيك. فقال النبي صلى الله عليه وسلم : اكتب من محمد بن عبدالله"^(٣) .

فهؤلاء الملائكة كما مر يظنون الناس كلهم يريدون منازعتهم سلطتهم، ويحسدون الرسول صلى الله عليه وسلم على النبوة .

ففي هذه التصرفات منه صلى الله عليه وسلم امتصاص لنوازع الكبر والحسد لتحصيهم بأنه لا يريد العلو عليهم، أو أن يستأثر لنفسه بامتيازات مادية أو وجاهية .
ويفهم من جملة الآثار السابقة انه ينبغي على الدعاة أن يبدعوا بتعديل المألوف، ومنه ينتقلون بالناس إلى الجديد الذي لم يؤلف من قبل"^(٤) .

(١) صحيح البخاري مع الفتح. ك الأدب. باب (من وصل رحمه في الشرك ثم أسلم) ج ١٠ ص ٤٢٤ .
(٢) صحيح مسلم بشرح النووي ، ك فضائل الصحابة. باب (مؤاخاة النبي صلى الله عليه وسلم) بين أصحابه رضي الله تعالى عنه) ج ١٦ ص ٨٢ .
(٣) صحيح مسلم بشرح النووي. ك الجهاد والسير. باب (صلح الحديبية) ج ١٢ ص ١٣٩ .
(٤) انظر الدعوة الاسلامية (أسولها ووسائلها) د. أحمد أحمد غلوش. ص ٣١٠ دار الكتاب المصري. القاهرة. (ط : ٢) ١٤٠٧هـ .

وترسل له قريش يوم الحديبية رسلاً فكان ممن أرسلت، رجلاً من بني كنانة فلما اشرف على النبي صلى الله عليه وسلم قال : "هذا فلان، وهو من قوم يعظمون البدن، فابعثوها له". فبعثت له واستقبله الناس يلبون. فلما رأى ذلك قال : سبحان الله ما ينبغي لهؤلاء أن يُصدوا عن البيت. فلما رجع إلى أصحابه قال : رأيت البدن قد قلدت وأشعرت، فما أرى أن يصدوا عن البيت ^(١) .

فانظر موقع هذا التصرف على هذا الرجل بل في موضع آخر أخذته الحمية لهذا التصرف حتى قال لقريش يهددها : "والذي نفس الحليس بيده لتخلن بين محمد وبين ما جاء له أو لأنفرن بالأحابيئش نفرة رجل واحد" ^(٢) .

وصفوة القول في ذلك أن مراعاة الاعراف والعادات السائدة لدى المدعوين من الأهمية بمكان، مالم تخالف الشرع، حيث سکن بها الرسول صلى الله عليه وسلم النفوس النافرة، وشوقها للقرب منه، والتعرف على دعوته .

ومع أهل الكتاب كان له مواقف مماثلة منها على سبيل المثال : "أنه كان صلى الله عليه وسلم يسدل شعره، وكان المشركون يفرقون روعسهم، وكان أهل الكتاب يسدلون روعسهم، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحب موافقة أهل الكتاب فيما لم يؤمر فيه بشيء، ثم فرق رسول الله صلى الله عليه وسلم رأسه" ^(٣) .

فهو حريص صلى الله عليه وسلم على اسلام هؤلاء، وتآليف قلوبهم، باعتبارهم أهل كتاب، فهم قدوة لغيرهم من الأمم، ولو آمنوا به صلى الله عليه وسلم لترتب على إيمانهم آثار بعيدة المدى ^(٤) .

(١) صحيح البخاري مع الفتح. ك الشروط. باب (الشروط في الجهاد، والمصالحة مع أهل الحرب، وكتابة الشروط) ج ٥ ص ٣٣١ .

(٢) السيرة النبوية لابن كثير. ج ٢ ص ٣١٦ .

(٣) صحيح البخاري مع الفتح. ك المناقب. باب (صفة النبي صلى الله عليه وسلم) ج ٦ ص ٥٦٦ .

(٤) انظر الغرياء الأولون (أسباب غريبتهم - ومظاهرها - وكيفية مواجهتها) سلمان بن فهد العودة. ص ٢١٢-٢١٣. دار ابن الجوزي. (ط : ١) ١٤١٠هـ .

القسم الرابع : التركيز على دعوة الملأ

سبق الحديث عن الأثر البالغ الذي يحدثه هذا الصنف في أتباعهم؛ إذ يضلونهم إذا ضلوا، ويهدونهم إذا اهدتوا .

يقول الرسول صلى الله عليه وسلم مبيناً الأثر العظيم الذي يترتب على اسلام أمثال هؤلاء، يقول : "لو آمن بي عشرة من اليهود لآمن بي اليهود"^(١) . وكان كل واحد من هؤلاء رئيساً في اليهود، ولو أسلم لاتبعه جماعة منهم^(٢)، ولذلك كان صلى الله عليه وسلم يقتنص الفرص ليتصيد هؤلاء الكبراء ليدعوهم إلى الله تعالى .

وابن كثير - رحمه الله - يصور هذا الحرص من الرسول صلى الله عليه وسلم على دعوة هؤلاء حين بعث أشراف مكة إلى الرسول صلى الله عليه وسلم يفيدون بأنهم مجتمعون للتحدث إليه^(٣) يقول : "فجاءهم رسول الله صلى الله عليه وسلم سريعاً، وهو يظن أنه قد بدالهم في أمره بدو وكان حريصاً يحب رشدهم ويعز عليه عنتهم"^(٤) .

وكان ينجي عتبة بن ربيعة وأبا جهل بن هشام والعباس بن عبدالمطلب، وكان يتصدى لهم كثيراً ويحرص عليهم أن يؤمنوا^(٥)، حتى نزل القرآن يعتب على الرسول صلى الله عليه وسلم بسبب صدوده عن ابن أم مكتوم لانشغاله بهؤلاء الكبراء "عبس وتولى * أن جاء الأعمى * وما يدريك لعله يزكى * أو يذكر فتنفعه الذكرى * أما من استغنى * فأنت له تصدى * وما عليك ألا يزكى"^(٦) يقول ابن هشام - رحمه الله - في تفسيره للآيات : "أي إنما بعثتك بشيراً ونذيراً، لم أخص بك أحد، فلا تمنعه ممن ابتغاه، ولا

(١) صحيح البخاري مع الفتح. ك/مناقب الأنصار. باب (إتيان اليهود النبي صلى الله عليه وسلم حين قدم المدينة)

ج ٧ ص ٢٧٤ .

(٢) انظر فتح الباري. ج ٧ ص ٢٧٥ . (مرجع سابق) .

(٣) انظر السيرة النبوية لابن كثير. ج ١ ص ٤٧٩ . (مرجع سابق) .

(٤) المرجع السابق نفسه. ج ١ ص ٤٧٩ .

(٥) انظر تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٧٣٩ . (مرجع سابق) .

(٦) انظر المرجع السابق نفسه ج ٤ ص ٧٣٩ .

تتصدى لمن لا يريد^(١) .

وحينما أرسل النبي صلى الله عليه وسلم مصعب بن عمير إلى المدينة دعا أسعد بن حضير رضي الله عنه فأسلم وقال "إن ورائي رجلاً إن اتبعكما لم يتخلف عنه أحد من قومه، وسأرسله إليكما الآن، سعد بن معاذ"^(٢) .

ودعاه إلى الاسلام فما النتيجة ؟ أسلم - رضي الله عنه - ثم عاد إلى قومه فقال : فإن كلام رجالكم ونسائكم علي حرام حتى تؤمنوا بالله ورسوله"^(٣) فماذا حدث بعد ذلك ؟ . قالوا : "قو الله ما أمسى في دار بني عبد الأشهل رجل ولا امرأة إلا مسلماً أو مسلمة"^(٤) . هذا من الأسباب التي جعلت الرسول - صلى الله عليه وسلم - يحرص على استثمارها أطيب استثمار، وفيه علاج فعال لنفس الداء، فالتقليد الأعمى لهؤلاء الزعماء، أنجع علاج له محاولة دعوتهم للاسلام، وفي هذا ترشيد للجهود الدعوية، فقد يدعو الداعي افراداً لا حساب لهم ولا يحصل على الأثر المرجو لا رتباطهم بهؤلاء الزعماء وخوفهم منهم .

فصاحب السلطة لا يمكن مساواته بالرجل العادي^(٥) الذي لا يملك الا أمر نفسه، ولا يعني هذا إهماله، ولكن يعني العناية المركزة والتخطيط السليم لدعوة الملأ أو على الأقل تحييدهم فلا يتعرضون للدعوة بسوء، ولا يكونون عقبة تحول بين الناس وبين قبول الحق . ومن عنايته صلى الله عليه وسلم بهؤلاء أنه يذهب بنفسه إليهم لما يعرفه فيهم من أنفه . فهذا مسلمة الكذاب : "قدم في بشر كثير من قومه فأقبل إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه ثابت بن قيس بن شماس"^(٦) .

(١) السيرة النبوية لابن هشام ج ٢ ص ١٢ (مرجع سابق) .

(٢) انظر السيرة النبوية لابن كثير ج ٢ ص ١٨٢ .

(٣) انظر المرجع السابق نفسه ج ٢ ص ١٨٤ .

(٤) المرجع السابق نفسه ج ٢ ص ١٨٤ .

(٥) انظر وقفات دعوية في رحلة سفير الدعوة الأول مصعب بن عمير إلى المدينة . زيد عبد الكريم الزيد . ص ٤٤ . دار العاصمة . الرياض . (ط : ١) ١٤١٢ هـ .

(٦) صحيح البخاري مع الفتح . ك المغازي . باب (وافد بني حنيفة وحديث ثامه بن اثال) ج ٨ ص ٨٩ .

فالحديث يشير إلي انه بقي في الرحال ولم يجيء مع قومه "وكانت إقامته في رحالهم باختياره أنفةً منه واستكباراً أن يحضر مجلس النبي صلى الله عليه وسلم وعامله النبي صلى الله عليه وسلم معاملة الكرم على عادته في الاستتلاف" (١) .

فهؤلاء يرون في أنفسهم أشياء وهمية إذ يخيل لهم أن في القوم إلى الداعي كعامة الناس تحقيراً وإهانة لهم .

فعالج صلى الله عليه وسلم هذه النفس المريضة مباشرة وقدم هو إليه، وهو قائد الأمة؛ إذ رأى في ذلك مصلحة للإسلام والمسلمين (٢) .

فاستفزاز هؤلاء وإثارتهم فيه ضرر للدعوة الفتية التي بدأت تقوى ويشد عودها . ويدل على ذلك قصة عامر بن الطفيل حينما قدم وأفداً إلى المدينة، وطلب من الرسول صلى الله عليه وسلم أمراً فأبى فقال متوعداً : "أما والله لأملأنها عليك خيلاً ورجالاً" (٣) .

وهذا أمية بن أبي الصلت يقدم المدينة، فمر بطريقة ببدر فأخبر بصناديد قريش الذين قتلوا ورموا بالقلب، وفيهم أقارب له، فشق ثيابه وجذع ناقته، وبكى ورجع إلى الطائف فمات بها (٤) . ولذلك ترى الرسول صلى الله عليه وسلم يبقي على عبدالله بن أبي رأس النفاق ويمتنع عن قتله، لما يحدثه ذلك من خلخلة في المجتمع، وكذلك مراعاة لشعور أتباعه؛ إذ هو سيد في قومه (٥) .

ويقول في أسرى بدر : "لو كان المطعم بن عدي حياً ثم كلمني في هؤلاء لنتني لتركتهم له" (٦) . وأياً كان سبب هذه المقولة، فالرجل كان من رجال قريش المعدودين . فالمجتمع بكامله قد يتحرك لحركة أحد هؤلاء الكبراء، فينفرون من عدوه، ويقربون من صديقه، فمراعاة أحوال هؤلاء هي في حقيقة الأمر مراعاة لمن ورائهم كذلك .

(١) فتح الباري. ج ٨ ص ٩٠ (مرجع سابق) .

(٢) انظر المرجع السابق ج ٨ ص ٩٠ .

(٣) السيرة النبوية لابن كثير. ج ٤ ص ١٠٩. (مرجع سابق) .

(٤) انظر فتح الباري ج ٧ ص ١٥٤ .

(٥) انظر فتح الباري ج ١٢ ص ٢٧٣ .

(٦) صحيح البخاري مع الفتح. ك المغازي. باب (مات أبو يزيد ولم يترك عبداً وكان بدرياً) ج ٧ ص ٣٢٣ .

وفي حديث ثمامة بن اثال والمعاملة الكريمة له من الرسول صلى الله عليه وسلم يعلق النووي قائلاً : "هذا من تأليف القلوب وملاطفة لمن يرجى إسلامه من الاشراف الذين يتبعهم على إسلامهم خلق كثير"^(١) .

وهذا الرجل هو سيد أهل اليمامة^(٢) مما يفيد بعظمة مركزه لدى قومه .

وصفوة القول أن مراعاة هؤلاء، والتركيز على دعوتهم فيه علاج مباشر لدافع التقليد الأعمى، حيث لا يخفى مبلغ أثر هذا الصنف على من ورائهم .

كما فيه علاج لدافع الكبر والحسد، حيث تقتلع دواعيهما، بما يشعرون به من اهتمام ورعاية من القيادة الاسلامية، ويشير إلى هذا قول الرسول صلى الله عليه وسلم حينما سأل عن خير الناس كان من جوابه قوله "خيرهم في الجاهلية خيارهم في الاسلام إذا فقهوا"^(٣) "فصفة الشرف لا تتغير في ذاتها؛ بل من كان شريفا في الجاهلية فهو بالنسبة إلى أهل الجاهلية رأس؛ فإن أسلم استمر شرفه وكان أشرف ممن أسلم من المشركين في الجاهلية"^(٤) .

فلقد اظهر (صلى الله عليه وسلم) فيما سبق مواقف اجتماعية عظيمة فبرهنت هذه المواقف - بما لا يدع مجال للشك - أنه خير من كان يعرف طباع العرب وعصبيتهم للقبيلة، ومن أجل ذلك سايرهم، وتآلف زعمائهم بالحلم والمال، فعاملهم مراعيأ حالاتهم النفسية، ومراكزهم الاجتماعية^(٥) .

(١) شرح النووي على صحيح مسلم ج ١٢ ص ٨٩ . (مرجع سابق) .

(٢) صحيح مسلم ومعه شرح النووي ج ١٢ ص ٨٧ .

(٣) صحيح البخاري مع الفتح . باب (قول الله تعالى : لقد كان في يوسف وإخوته آيات للسائلين) ج ٦ ص ٤١٧ .

(٤) فتح الباري ج ٦ ص ٥٢٩ . (مرجع سابق) .

(٥) انظر مجتمع المدينة في عهد الرسول (صلى الله عليه وسلم) . عبدالله بن عبدالعزيز بن إدريس . ص ١٤٤ . الناشر :

عمادة شؤون المكتبات . جامعة الملك سعود . ١٤٠٢هـ .

المبحث الخامس : السبل النفسية
ويحتوي مدخلاً وأربعة أقسام :

- | | |
|----------------|-----------------------|
| القسم الأول : | الترغيب والترهيب |
| القسم الثاني : | حسن العرض وجمال الشكل |
| القسم الثالث : | الحاجة إلى التقدير |
| القسم الرابع : | إحداث وخز في النفس |

المدخل :

إن السبل النفسية لها قدرة عظيمة في فتح مغاليق النفوس، بيد أنه استعمال مفتاح العوامل النفسية صعب لا يتسنى إلا بكثير من المهارة والحدق^(١) .
فتأثير هذه السبل في نتائج الدعوة من نجاح وإخفاق؛ له أهميته الكبيرة؛ فقد يؤثر في جذب الناس أمور شتى، ولكن لا ريب أن السبل النفسية من أهمها في جذب الناس .

فما المقصود بالسبل النفسية ؟

المقصود هنا : تتبع السبل التي تلامس أدق انفعالات النفس الانسانية؛ فتثير فيها شعوراً، وتحرك عاطفة .

وهناك عوامل كثيرة تثير ذلك؛ كالترغيب والترهيب، والخوف والرجاء، والحاجة إلى التقدير، والحب والبغض، والمدح والذم، ونحو ذلك .

والمراد من كل هذا تهيئة النفس لتلقي الدعوة بلا حواجز ولا عقبات تحول نون ذلك .
ولأهمية هذا العامل، يلاحظ عناية التخصصات المتنوعة في دراسات شتى به، فقد استحدث كل منها علم نفس خاص؛ فتجد على سبيل التمثيل : علم نفس الطفل، وعلم نفس الشخصية، وعلم النفس التربوي، وعلم النفس الاجتماعي، ونحو ذلك .

وحتى الحروب لم تخلو من هذا العلم فقالوا : علم نفس الحروب، بل إن الحرب النفسية أخطر من الحرب الحسية .

فما أولى الدعاة وأحوجهم إلى دراسة نفس الانسان؛ دراسة فاحصة تعينهم على سبر أغوار نفسه مما يسهل لهم اختراقها، وإنقاذها من كل شر للسمو بها نحو كل خير .

وصفوة القول في ذلك أن المراد بالسبل النفسية هنا هو : "مجموعة السبل التي ترتكز على النفس فتحرك فيها الشعور والوجدان فتهيئها لقبول الدعوة"

(١) انظر سيكولوجية القصة في القرآن من ٢٤ . (مرجع سابق) .

١ - الترغيب والترهيب :

وهذا الباب في الكتاب والسنة واسع جداً، فلا تكاد تمر على آية أو حديث؛ إلا وهما يحويان في طياتهما شيء من الترغيب أو الترهيب أو هما معاً .

قاله هو خالق النفوس، وهو أعلم بما يقربها وبما يبعتها : "ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير"^(١) .

ولذا تجد القرآن الكريم يعالج النفوس في ثبات واطراد، ويدعوها دعاء العليم الخبير بطبيعتها، ومدخلها، ومسارها، وما تستجيب له، وما يؤثر فيها .

ومما يدل على ذلك موقف القرآن من بني اسرائيل؛ حيث تجد الأساليب العجيبة في صورها من ترغيب وترهيب .

ومن ذلك قوله تعالى : "يا بني اسرائيل اذكروا نعمتي التي انعمت عليكم وأوفوا بعهدي أوف بعهدكم وإياي فارهبون"^(٢) .

فالترغيب في هذه الآية الموجزة له مدلولات بعيدة المدى في النفس؛ يقول ابن كثير : "يقول تعالى أمراً بني اسرائيل بالدخول في الاسلام، ومتابعة محمد صلى الله عليه وسلم، ومرغباً لهم بذكر أبيهم اسرائيل؛ وهو نبي الله يعقوب (عليه السلام)؛ وتقديره : يا بني العبد الصالح المطيع لله، كونوا مثل ابيكم في متابعة الحق، كما تقول : يا بن الكريم افعل كذا، يا بن الشجاع بارز الأبطال يا بن العالم اطلب العلم، ونحو ذلك"^(٣) .

ولذلك تجد الرسول صلى الله عليه وسلم عند مخاطبته لهؤلاء المردة يناديهم بأحب انبيائهم لهم ويذكر كتبهم بتعظيم^(٤) .

ففي ذلك امتصاص لنوازع الحسد، إذ فيه اشعار بالمساواة، وفيه تذكير بفضائل الله عليهم؛ فلم يحسدون غيرهم الخير؟

(١) الملك - ١٤ - .

(٢) البقرة - ٤٠ - .

(٣) تفسير ابن كثير. ج ١ ص ١٢٥ .

(٤) انظر مسند الامام أحمد بن حنبل ج ٤ ص ١٧٦-١٧٧ .

ويلحظ الرازي فائدة عظيمة حول ذلك اثناء حديثه في قوله تعالى : "أم يحسدون الناس على ما أتاهم الله من فضله فقد أتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة، وآتيناهم ملكاً عظيماً" (١) يقول : - وأعلم أنه تعالى لما بين أن كثرة نعم الله عليه صارت سبباً لحسد هؤلاء اليهود، بين ما يدفع ذلك؛ فقال " فقد أتينا آل إبراهيم .. الآية" والمعنى أنه حصل في أولاد إبراهيم جماعة كثيرون جمعوا بين النبوة والملك وأنتم لا تتعجبون من ذلك ولا تحسدونه، فلم تتعجبون من حال محمد وتحسدونه ؟ " (٢) ومنه قوله تعالى : "يا قوم اذكروا نعمة الله إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكاً وأتاكم مالم يؤت أحد من العالمين" (٣) .

وهؤلاء المردة اذا لم ينجح معهم هذا الأسلوب، تحول الخطاب في القرآن إلى التهريب. ومن ذلك وهو كثير "ولقد علمتم الذين اعتدوا في السبت وقلنا لهم كونوا قردة خاسئين* فجعلناها نكالاً لما بين يديها وما خلفها وموعظة للمتقين" (٤) .

وفي مواضع أخرى يتنقل القرآن إلى معالجة النفوس المتكبرة، فيسخر منها، ومن ذلك قوله تعالى : "إن شجرة الزقوم * طعام الأثيم * كالمهل يغلي في البطون * كغلي الحميم * خذوه فاعتلوه إلى سواء الجحيم * ثم صبوا فوق رأسه من عذاب الحميم * ذق إنك أنت العزيز الكريم * إن هذا ما كنتم به تمترون" (٥) فالمعنى بهذه الآيات كما ينقله ابن كثير - عن غير واحد من السلف - هو أبوجهل المتكبر (٦) قبجه الله .

وفي وصف فضاة هذه الشجرة ينقل عن أحد السلف قوله : "إن قطرة منها لو نزلت على الأرض لأفسدت على أهلها معاشهم" (٧) .

فأين النفس التي تطبق ذلك ؟ إن النفوس تنفر من سماع ذلك ومجرد التفكير فيه،

(١) النساء - ٥٤ - .

(٢) التفسير الكبير ج ١٠/٥ ص ١٣٣ (مرجع سابق) .

(٣) المائدة - ٢٠ - .

(٤) البقرة - ٦٦ - .

(٥) الدخان - ٤٣-٥٠ - .

(٦) انظر تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٢٢٢ . (مرجع سابق) .

(٧) انظر نفس المرجع السابق. ج ٤ ص ٢٢٢ .

فيكيف بالنفوس المترهلة؛ التي تتقلب في الحرير، وتاكل ما طاب من ملذات الطعام، والشراب الصافي النقي، ويعد هذا كله يتحمل هذه الشجرة بمواصفاتها .

ولأنه في الحياة الدنيا ممن يلحظ جنابه، ويقدم، ويكرم، فيستحق في الآخرة أن يقال له : "ذق إنك أنت العزيز الكريم" فالذوق مستعار للاحساس، وصيغة الأمر مستعملة في الإهانة. ^(١) .

وقوله: "العزيز الكريم" فهو مساق للتهكم؛ والمقصود عكس مدلوله؛ أي : أنت الذليل المهان ^(٢) . كيف كان أثر هذا الأسلوب على المنكرين ؟ يحكي جبير بن مطعم (رضي الله عنه) بنفسه أثر ذلك عليه؛ حيث استمع إلى الرسول صلى الله عليه وسلم وهو يقرأ سورة الطور فلما بلغ "أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون" حتى قوله "أم هم المسيطرون" ؟ يقول كاد قلبي أن يطير ^(٣) فلقد انزعج جبير حتى كاد قلبه يطير، ومال إلى الإسلام ^(٤) .

والرسول الكريم (صلى الله عليه وسلم) يوجهه القرآن الكريم إلى استعمال هذه السبل فيقول تعالى : "وقل لهم في أنفسهم قولاً بليفاً" ^(٥) أي : بالغاً في أنفسهم متغلغلاً فيها، يغوص ويبلغ ما يراد به منها ^(٦)، ففي هذه الآية تعبير مصور، وكأنما القول يودع مباشرة في الأنفس ويستقر في القلوب ^(٧) .

ولقد استفاد صلى الله عليه وسلم من توجيه ربه، فاستثمر ذلك لخدمة الحق والخير يزرعهما في قلوب الناس منتزعاً كل ما يشوب هذه القلوب ويدنسها من كل شر .
ومن الأدلة على ذلك أنه بلغه قاله صدرت من بعض أحداث السنن من الأنصار ^(٨)

(١) انظر التحرير والتنوير. ج ٢٥ ص ٢١٦. (مرجع سابق) .

(٢) انظر المرجع السابق نفسه. ج ٢٥ ص ٢١٦ .

(٣) صحيح البخاري مع الفتح ك / التفسير. (صورة الطور) ج ٨ ص ١٠٢ .

(٤) انظر فتح الباري ج ٨ ص ٦٠٢ (مرجع سابق) .

(٥) النساء - ٦٢ - .

(٦) انظر التحرير والتنوير ج ٥ ص ١٠٨ (مرجع سابق) .

(٧) انظر في ظلال القرآن ج ٢ ص ٦٩٥ (مرجع سابق) .

(٨) انظر السيرة النبوية لابن كثير ج ٣ ص ٦٧٢ .

فأمر بجمع الأنصار له، ثم خطبهم فقال : 'يا معشر الأنصار ألم أجدكم ضلالاً فهداكم الله بي؟ وكنتم متفرقين فالفكم الله بي؟ وعالة فأغناكم الله بي؟ كلما قال شيئاً قالوا : الله ورسوله أمن'. قال : 'لو شئتم قلتم : جئنا كذا وكذا. أما ترضون أن يذهب الناس بالشاء والبعير، وتذهبون برسول الله صلى الله عليه وسلم، إلى رحالكم؟ لولا الهجرة لكنت امرءاً من الأنصار، ولو سلك الناس واديا وشعباً، لسلكت وادي الأنصار وشعبها الأنصار شعار والناس دثار' (١) .

فما فعلت هذه المقولة في نفوس الأنصار (رضوان الله عليهم) ؟ لقد بلغت مبلغاً عظيماً في نفوسهم؛ حتى قيل : 'إن القوم بكوا حتى اخضلوا لحاهم. وقالوا : رضينا بالله رباً، ورسوله قسماً' (٢) .

فإنه (صلى الله عليه ولم) طبيب نفوس، يصرف الدواء إلى كل أحد بحسب حالته المرضية، فهو يعرف أن هؤلاء ربانيون مهمهم؛ وسدمهم رضا ربهم؛ وما هذه الآفة التي قيلت إلا جرثومة عابرة، فأعطاهم الجرعة النفسية المناسبة فزالت بإذن الله؛ ومما يؤكد مدى معرفته لهذه الحقيقة أنه حرص (صلى الله عليه وسلم) بأن لا يدخل أحد غيرهم معهم (٣) .

وصنف آخر هو سبب هذه المقولة، والموعظة البليغة، وهم المؤلفات لقلوبهم، فهؤلاء حالهم يختلف عن أولئك، إذ لا يزالون حديث عهدهم بالجاهلية، ولا تزال نفوسهم متعلقة بلعاعة الدنيا وملذاتها، فأعطاهم منها حتى تطيب نفوسهم؛ ويتأكدوا بأن الإسلام دين محوره الجوهري لا العرضي .

وكذلك هي جبر لخواطهم، إذ فتحت مكة بلا قتال ولا مقاومة تذكر، وفي هذا صدمة نفسية كبيرة، فقريش ذات المكانة المرموقة، والمقام الرفيع الذي لا يطال تفتح بلا أدنى مقاومة .

(١) صحيح البخاري مع الفتح. ك المغازي. باب (غزوة الطائف في شوال سنة ثمان) ج ٨ ص ٤٧ .

(٢) انظر السيرة النبوية لابن كثير. ج ٣ ص ٦٧٩ .

(٣) انظر السيرة النبوية لابن كثير ج ٣ ص ٦٧٨ .

بل عالجهم الرسول (صلى الله عليه وسلم) بأبعد من ذلك وأقوى أثر؛ إذ توجه بجيوش المسلمين مباشرة إلى هوازن، وهي من القبائل العربية المعدودة، قوة، وعدة، وعدداً فهزمتها وكسر شوكتها .

ففي هذا تسرية لقريش، والتثام لجرحها؛ إذ ليست هي الوحيدة المهزومة، وهزيمة هوازن بعدها مما يحيل الشماتة إليها، وينسي من هزيمة قريش، ثم بعد ذلك أعطى قريش من فيء هذه المعركة ليزداد الدواء فائدة ونجاحاً، ليصل إلى أعماق هذه النفوس فيقتلع ما فيها من غل وحسد .

ومما يشير إلى أنه (صلى الله عليه وسلم) قصد كل ذلك، ما جاء في رواية أنه قال :
إن قريشاً حديث عهد بجاهلية، ومصيبة، وإني أردت أن أجبرهم، وأتألفهم^(١) .
ويتعدى علاجه النفسي (صلى الله عليه وسلم) إلى صنف آخر؛ هم صنف الملوك حيث أرسل رسله عبر الأفاق إلى هؤلاء .

ومنهم هرقل ملك الروم؛ حيث أرسل له كتاباً فيه - على وجازته - من الترغيب والترهيب ما يصلح أن يكون منهجاً يفيد منه الدعاة في كل عصر ومصر .

والكتاب جاء فيه : "من محمد بن عبدالله، ورسوله إلى هرقل عظيم الروم. سلام على اتبع الهدى. أما بعد فإنني أدعوك بدعاية الاسلام، أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين".^(٢) ويستنبط العلماء من ثنايا هذا الكتاب فوائد كثيرة، ومما يفيد في هذا المقام ما ذكره معلقين على قوله : "عظيم الروم" فإنه قد عدل عن ذكره بالملك؛ لأنه معزول بحكم الاسلام، ولكنه مع ذلك لم يتركه بلا إكرام^(٣) .

فهؤلاء قد اعتادوا على اطرائهم، وإضافة الألقاب الفخمة لأشخاصهم فهو في ذلك أشبع هذه الرغبة، ولم يبالغ بوصفه بما لا يستحقه .

يقول النووي : "ولم يقل إلى هرقل فقط؛ بل أتى بنوع من الملاطفة، فقال عظيم الروم؛

(١) صحيح مسلم بشرح النووي. ك الزكاة. باب اعطاء المؤلفات ومن نخاف على إيمانه) ج ٧ ص ١٥٢ .

(٢) صحيح البخاري مع الفتح ك بدء الوحي. ج ١ ص ٢٧ .

(٣) انظر فتح الباري. ج ١ ص ٢٨ .

أي الذي يقدمونه؛ وقد أمر الله تعالى بالإنابة القول لمن يدعى إلى الإسلام^(١) .
وفي قوله "أسلم تسلم" ففي هذه العبارة الموجزة، جمع المعاني العظيمة الشاملة، ففيه
البشرى بالسلامة من خزي الدنيا بالحرب، والسببي، والقتل، وأخذ الديار والأموال، ومن
عذاب الآخرة^(٢) .

ويتحول الخطاب إلى تهيب غير مباشر حين قال : "فإن توليت فإن عليك إثم
الأريسيين" ولم يقل إن توليت فأنت كافر، وفيك وفيك لما فيها من النفرة، مما يدعو المدعو
إلى العناد والمكابرة .

ومع ذلك فإنه يفهم من العبارة المبالغة في الإثم؛ حيث يحمل مع ذنبه ذنب الاتباع^(٣) .
ومثاله لو تقول لابنك الأكبر تحرضه على الصلاة؛ وإن لم تصل ستتحمل إثم إخوانك،
ومسئوليتهم عندي، فالمعنى أنك ستحاسب بذنبك، وزيادة عليه تتحمل ذنوبهم .

بل مع ما أحدثه من زعر وانزعاج نفسي لهرقل، وبطارقتة، فقد صاحب ذلك أثر
نفسى من نوع آخر تعدى المقصود، حيث رأى أبوسفيان (رضي الله عنه) المنظر الذي
هاله وهو خوف ملك الروم من أمر محمد (صلى الله عليه وسلم) فأحدث في نفسه أثراً
عظيماً وصفه بقوله : "لقد أمر أمر ابن أبي كبش؛ إنه يخافه ملك بني الأصفر"^(٤) بل ظل
هذا الحدث يصطرع في نفسه؛ إذ يتم حديثه بقوله : "فمازلت موقناً أنه سيظهر، حتى
أدخل الله علي الإسلام"^(٥) . وأبوسفيان من الملأ من قريش، ويعرف ماذا يعني أن يخاف
ملك الروم من كتاب محمد (صلى الله عليه وسلم) وسيصل هذا حتماً لصناديد قريش في
مكة، فيعيدون حساباتهم، وتتطا من كبرياتهم .

وزبدة القول أنه اتضح مما سبق مبلغ أثر الترغيب والترهيب على المدعويين، فهو إن

(١) شرح النووي على صحيح مسلم ج ١٢ ص ١٠٨ .

(٢) انظر المرجع السابق ج ١٢ ص ١٠٨ .

(٣) انظر فتح الباري ج ١ ص ٢٩ .

(٤) صحيح البخاري مع الفتح ج ١ ص ٢٨ .

(٥) المرجع نفسه والمدرك نفسه .

لم ينقلهم إلى حديقة الخير والاسلام، فعلى أقل تقدير أحدث اثرأ قد يتسبب في تغيير النفوس ولو بعد حين .

وينتقل الحديث إلى سبل نفسيه أخرى، وهي وإن كانت تابعة للترغيب والترهيب بشكل عام؛ إلا أنها لخصوصيتها تستحق أن تفرد بعناوين مستقلة .

٣ - حسن العرض وجمال الشكل :

وهذا من المؤثرات النفسية الفاعلة، فالإحساس بالجمال فطرة بالانسان، وتحريك هذا الاحساس مدخل إلى عمقه النفسي والفطري، ويتم هذا التحريك بطرق متعددة^(١)، وابن القيم يقول في أهميته : "والقلوب كالمطبوعة على محبته كما هي مفضورة على استحسانه"^(٢) . وهذا القرآن الكريم ينبه إلى هذا الأسلوب فترى القرآن يطوف بالقاريء في السماء والأرض وما بينهما من آيات الجمال؛ كالنجوم والشمس، والقمر، والبحار، والأنهار، والجبال، إلى غير ذلك، من آيات الجمال وحسن الابداع وإتقانه لتبهر الألباب، وتحرك النفوس فتسال بشغف : من ذا الذي صنع ذلك ؟ فيقول المجيب : "صنع الله الذي أتقن كل شيء"^(٣) .

فأين المتكبر من ذلك ؟ ليسال نفسه : هل يستحق أن يتصف بالكبرياء وهو لا يملك، ولا يتقن صنعه ؟ لتتكسر نفسه فتعود خاسئة وهي حسيرة. وينسحب ذلك على المغرور فيرتدع الاثنان ويرجعان عن غيهما، فيستغفران ويتوبان .

والجمال له زوايا وطرق متعددة منها : تقديم الحقائق والمعاني والقيم في وعاء جميل، وشكل جذاب، وكساء أنيق^(٤) .

(١) انظر النظرية الاسلامية في الاعلام والعلاقات الانسانية. الشيخ زين العابدين الركابي، ص ٣١٦، وهو بحث قدم

ضمن (ابحاث ووقائع اللقاء الثالث للنوة العالمية للشباب المنعقد في الرياض بتاريخ ٢٣/١٠/١٣٩٦هـ) (ط : ٢) .

(٢) انظر الجمال (فضله، حقيقته، أقسامه). شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم. ص ١٥٥. تحقيق. ابراهيم بن

عبدالله الحازمي. (ط : ١) ١٤١٣هـ .

(٣) النحل - ٨٨ - .

(٤) انظر النظرية الاسلامية في الاعلام والعلاقات الانسانية. ص ٣١٦ .

وهذا استخدمه الرسول (صلى الله عليه وسلم)؛ فقد أثر عنه حرصه على جذب القلوب بكل حسن وجمال، بالعرض والشكل؛ ومن ذلك أنه حينما كان يعرض دعوته الحقه على القبائل العربية كان يختار أفضل الألقاب والألفاظ، ليحببهم ويقربهم من الدعوة، فمن ذلك "أنه أتى كلباً في منازلهم، إلى بطن منهم يقال لهم بنو عبدالله، فدعاهم إلى الله وعرض عليهم نفسه، حتى أنه ليقول: "يا بني عبدالله إن الله أحسن اسم أبيكم"^(١).

وكثيراً ما كان يخاطب ألد أعداء الدعوة بأحب الكنى والألقاب إليهم فينادي عتبة بن ربيعة بقوله "يا أبا الوليد"^(٢) وينادي أبا جهل "يا أبا الحكم"^(٣) ولتشعر بالفرق حاول أن تكتني الناس بدل ذكر أسماعهم مجردة، فإنك ستحس بالأثر فور وصولها إلى أسماعهم، فتجد الاجابة النشطة .

ومن حرصه على استخدام هذه الأسلوب، فإنه يختار رسله الذين يبعثهم بعناية فائقة، فقد أرسل دحية الكلبي (رضي الله عنه) إلى هرقل ملك الروم؛ وكان يضرب بجماله المثل^(٤)، وكذا من رسله جرير بن عبدالله البجلي (رضي الله عنه)، ويذكر أنه من أجمل الناس وجهاً، حتى قال عمر (رضي الله عنه) : هو يوسف هذه الأمة^(٥).

ولتأكيد تعهده باختيار من يحمل هذه السمات، فإنه يقول (صلى الله عليه وسلم) :
 "إذا أبردتم إليّ بريداً، فابعثوه حسن الوجه، حسن الاسم"^(٦).

وعلى ما في ذلك من لفت للأنظار، لتستعد للسمع لصاحب هذا الوجه الحسن، والرأي الجميل، فإن في ذلك علاج مباشر للكبرياء والغرور ولا يخفى أن الروم والفرس كانوا يحقرون العرب؛ ويتبين ذلك بوضوح ابان المعارك الحربية التي دارت رحاها بين المسلمين وبين أولئك، فحين يذهب الرسل للمفاوضة كان المنطق الرومي والفارسي يبرز مكانة العرب السافلة لدى هؤلاء .

(١) السيرة النبوية لابن كثير ج ٢ ص ١٥٧. (مرجع سابق) .

(٢) انظر المرجع السابق نفسه ج ١ ص ٥٠٤ .

(٣) انظر المرجع السابق نفسه ج ١ ص ٥٠٧ .

(٤) انظر الاصابة في تمييز الصحابة. ج ١ ص ٤٦٣. (مرجع سابق) .

(٥) انظر المرجع السابق نفسه ج ١ ص ٢٢٤ . وانظر الطبقات الكبرى ج ١ ص ٢٦٥ - ٢٦٦ .

(٦) صحيح الجامع الصغير وزيادته (الفتح الكبير) ج ١/١ ص ١٢٢ . حديث رقم [٢٥٧] .

فالشاهد أن ذلك كسر لحدة هذه الدوافع لدى هؤلاء، مما يجعلهم يتهمون رأيهم ويلتفتون للداعي باستعداد مناسب^(١) .

(١) انظر على سبيل المثال المحاورة التي جرت بين رسل المسلمين (رضوان الله عليهم) إلى الفرس قبل معركة القادسية، وبين يزجرد المتكبر ملك الفرس، فيزجرد يصف العرب بأنهم أشقى الأمم بالأرض، وأقلها عدداً، وأسوأها فرقة .

ولما استمع رستم إلى كلامهم، وحسن القائهم، كان من قوله فيهم يخاطب من عنده من عظماء الروم : هل رأيتم كلاماً قط أوضح ولا أعزُّ من كلام هذا الرجل؟ وقالت طائفة منهم يصفون كلام الرسول : والله لقد رمى بكلام لا يزال عبيدنا ينزعون إليه . قاتل الله أولينا . ما كان أحقهم حين كانوا يصغرون أمر هذه الأمة . *

انظر تاريخ الطبري .. ج ٣ ص ٤٩٩ ، ٥٢٠ ، ٥٢٢ (مرجع سابق) .

٣ - الحاجة إلى التقدير :

وهذه الناحية كان يراعيها (صلى الله عليه وسلم)، إذ في تطبيقها أثر نفسي عظيم، سيما أن أصحاب هذه الدوافع ممن يرون أنفسهم أهلاً لهذا التقدير .
ومن ذلك موقفه (صلى الله عليه وسلم) من أبي سفيان (رضي الله عنه) زمن الفتح؛ إذ أتى العباس (رضي الله عنه) بأبي سفيان فقال يا رسول الله إن أبا سفيان رجل يحب الفح فأجعل له شيئاً^(١) .

فيشبع الرسول (صلى الله عليه وسلم) هذه الرغبة الجامحة في حب البروز والظهور، ويكلمة لا يضير الإسلام والمسلمين منها شيئاً، فيقول : "من دخل دار أبي سفيان فهو آمن"^(٢) يقول النووي (رحمه الله) : ففيه تأليف لأبي سفيان، وإظهار لشرفه"^(٣) .

فكيف ظهر أثر هذا الفخر ؟ تحول الرجل رسولاً للمسلمين، واصفاً لهم بالجيش العرمم الذي لا طاقة لسواهم بهم .

أما قولة الرسول فإنها جعلت الناس يقبلون إلى دار أبي سفيان^(٤) وفي هذا توجيه نبوي كريم للدعاة ليستثمروا صاحب هذا الدافع؛ فيشبعوه ببديل مناسب، ولا يضر الدعوة منه شيئاً .

٤ - إحداث وخرز في النفس :

وهذا أيضاً من المؤثرات النفسية الهامة إذ يلزم أحياناً استخدام ما يصدم النفس فيوقظها من أثر الدافع، فتستدل على حقيقتها وقدرها .
ولقد استخدم الرسول (صلى الله عليه وسلم) ذلك بالاشارة إليه باللسان، ويتصرفه كذلك العملي إذا رأى الفرصة المناسبة .

(١) انظر السيرة النبوية لابن كثير ج ٢ ص ٥٤٩ (مرجع سابق) .

(٢) صحيح مسلم بشرح النووي. ك الجهاد. باب (فتح مكة) ج ١٢ ص ١٢٧ .

(٣) شرح النووي على صحيح مسلم. ج ١٢ ص ١٢٧. (مرجع سابق) .

(٤) صحيح مسلم بشرح النووي ج ١٢ ص ١٢٧ .

ومن ذلك قوله (صلى الله عليه وسلم) ناهياً عن الفخر الباطل بالآباء، والأجداد "لا تفتخروا بأبائكم الذين ماتوا في الجاهلية؛ فوالذي نفسي بيده؛ لما يدهده الجعل بمنخريه خير من أبائكم الذين ماتوا في الجاهلية"^(١) فالفخر من مسببات الكبر، ومن أكبر دواعية، وفي هذا علاج لإقتلاع جذور هذا الفخر .

ولك أن تتصور أيضاً مبلغ أثر هذا على أحلاس التقليد، وكيف يتحملون هذا الوصف لأبائهم الذين يقاتلون من يسيء إليهم بأنفه شيء .

وفي موضع آخر يكرر (صلى الله عليه وسلم) هذا الأسلوب عملياً؛ حيث أمر بلالاً (رضي الله عنه) أن يؤذن فوق الكعبة، ولا يخفى مكانة الكعبة لدى العرب، فما فعل أثر ذلك في نفوس العرب ؟ .

يتبادر للذهن للوهلة الأولى أن هذا تصرفاً تلقائياً لا يحتمل تفسيراً آخر كما يراد به هنا .

ولكن ابن كثير رحمه الله له رأي في ذلك؛ إذ يؤكد أن الرسول (صلى الله عليه وسلم) أمر بذلك ليغيض به المشركين^(٢) .

وما هذه الاغظة إلا وخز نفوس هؤلاء المتكبرين لتتطامن من كبرياتها، فتعود حسيرة ذليلة، فتتواضع للحق والخلق .

فبعض الناس ينفع في علاجه من غروره وكبرياته أن تبخسه بعض قدره، كأن تتكبر عليه، بل قال أحد السلف مبيناً حقيقة التواضع : "أن تتكبر على المتكبرين"^(٣) . ويقول صاحب المنار : "وللانسان أن يتكلف اعلاء نفسه على غيره، أو اكثاره من الاستعلاء عليه بحق؛ كالترفع عن المبطلين، وإهانة الجبارين، واحتقار المحاربين"^(٤) .

ومما يشير إلى ذلك فيؤكدده؛ رخصة الرسول (صلى الله عليه وسلم) بالخيلاء في

(١) مسند الامام أحمد بن حنبل. ج ٥ ص ٢٧٣٩ [٢٧٣٩] .

(٢) انظر السيرة النبوية لابن كثير. ج ٢ ص ٥٧٦ .

(٣) البصائر والنخائر. التوحيد. ص ٢٤٦ .

(٤) تفسير المنار. ج ٩ ص ١٩٧ .

مواطن، بل جعلها مما يحبه الله، إذ يقول (صلى الله عليه وسلم) : وإن من الخيلاء ما يبغض الله، ومنها ما يحب الله، وأما الخيلاء التي يحب الله؛ فاختيال الرجل نفسه عن القتال، واختياله عند الصدقة..^(١) .

وعودة إلى موقف العرب من أذان بلال فوق الكعبة ومبلغ أثره، يذكر في ذلك أن رجلاً من قريش قال لآخر : ألا ترى إلى هذا العبد أين صعد ؟ وقال آخر : لقد أكرم الله سعيداً (وهو اسم والده) إذ قبضه قبل أن يسمع هذا الأسود على ظهر الكعبة !^(٢) .
فالاسلام قلب الموازين الجاهلية، وأحدث فيها تغييراً هائلاً ينبني على أسس متينة منبثقة من توجيه القرآن وهديه القويم، فالرفعة الجاهلية، والنعرات الأرضية لا تغني عن الحق شيئاً .

ولذا حينما أحس المتكبرون بما فعله الاسلام بمقاييسهم المادية؛ أنفوا من ذلك حتى قال أحدهم : "إلا إن صاحبكم هذا قد وضع كل فارس بن فارس، ورفع كل راع بن راع"^(٣) .

وثمة ملاحظة تستفاد من جملة السبل النفسية التي مرت في هذا البحث، وهي أن البناء النفسي يعتمد على عنصرين هامين هما :

الأول : افراغ المادة النفسية السيئة المترسبة في النفوس .

الثاني : التعبئة النفسية الحسنة بثتى السبل؛ بالقول، والعمل، مع مراعاة تكرار ذلك حتى يتمكن في النفس، وتظهر آثاره .

(١) صحيح سنن أبي داود . ك . الجهاد . باب (في الخيلاء في الحرب) ج ٢ ص ٥٠٥ .

(٢) انظر السيرة النبوية لابن كثير ج ٢ ص ٣٧٥-٥٧٦ (مرجع سابق) .

(٣) مسند الامام احمد بن حنبل ج ١ ص ٨٧-٨٨ .

الخاتمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على اشرف الأنبياء والمرسلين .
الحمد لله على ما من به من نعمه الظاهرة والباطنة، ونعمه جلّ وعلا لا تُعد ولا تُحصى .
وهذا الجهد المتواضع؛ هو من نعمه جلّ جلاله ...
وفي نهاية هذا البحث - أسأل الله تعالى أن يجعله خالصاً لوجهه الكريم، وأن ينفع
به المسلمين عامة، والدعاة على وجه الخصوص - يحسن تسجيل أهم ما جاء بين ثناياه
كخاتمة مذيبة ببعض التوصيات المتواضعة :-
في الفصول السابقة محاولة للتقدم خطوة جديدة في ميدان الدراسات الدعوية في
ضوء توجيهات أي القرآن الكريم، والسنة، والسيرة النبوية؛ باستخراج كل ما يتعلق بمادة
هذا البحث من قريب، أو بعيد؛ ثم استخلاصها بعد تحليلها، وتصنيفها، لتفيد الداعي في
نفسه فيحذر من تلبسه بهذه الدوافع، وتفيده ايضاً باحداث الأثر المطلوب في المدعويين .
وقد شملت هذه الدراسة أبرز الآفات السيئة؛ التي تعرض للانسان فتعترض طريق
الحق فلا يصل إليه، أو على أقل تقدير تشوش صفاء هذا الخير فتؤخر قبوله، أو تمنعه .
وفي اعتقادي أن ما جاء من حديث عن الدوافع في هذا البحث جدير بالعناية، وذلك
لاعتماده على نصوص الوحي بشقيه؛ وبعده عن الظنيات والآفات التي تصيب البشر .
فقبل هذه الدراسة لم تكن هناك دراسة مستقلة أخرى لهذه الدوافع، فضلاً عن كون
غالبها انصب على تحذير المسلمين منها، أما هذه الدراسة فهي خاصة بالكافرين .
اضافة إلى ما سبق تحدث البحث عن الفطرة وسلامتها، ثم عرض المؤثرات عليها
وأخطرها وهي : الشيطان، والبيئة، وهوى النفس .
وتطرق البحث كذلك عن دوافع الإنكار، فتبين أن هذه الدوافع - عدا التقليد - منشأه
نفسي، ولكن أثرها يتعدى إلى الآخرين فتصبح حينئذ نفسية اجتماعية .
أما التقليد فيتحول مع الزمن إلى دافع نفسي متأصل، ويتبين من البحث أيضاً أن
هذه الدوافع إذا تمكنت من الانسان فإنها تكون حائلاً خطيراً بينه وبين الحق الموجه إليه .

أبرز البحث كل ما يتعلق بالدوافع بحسب الاستطاعة حتى تطرق لأعراض هذه الدوافع؛ فالمتكبر قد تستطيع ملاحظته، والتعرف عليه، من نبرة صوته، ومن حركة جسمه، وطريقة سيره، ولبسه ومشى الناس حوله؛ حتى تجبره وقتله لأهل الخير والصلاح .
اثبت البحث بحمد الله أن علاج هذه الدوافع ممكن، وأن الطريق الأول هو الانسان بتحرك مشاعره، وتقوية إرادته .

ولكثرة أسباب هذه الدوافع وتنوعها، فقد حرص الباحث على بيان كيفية معالجتها في العهد النبوي، وتتبع مختلف الطرق، والأساليب وجمعها، وتصنيفها، وبيان مبلغ أثر كل منها .

التوصيات :

من هذه التوصيات :

- إن موضوع هذا البحث دقيق جداً، وعليه تنبني أسس لحل عقد ومشاكل نفسية تخص الانسان؛ الذي هو ميدان الدعوة الأول، فإذا يسر حل هذه العقد؛ فإنه يسير راشداً إلى طريق النور .

ولذا لا بد أن تتضافر الجهود؛ لتحقيق الشفاء الممكن لبني الانسان من العلل الواردة في هذا البحث .

وبناءً على ذلك فإنني أوصي بما يلي :

- اجراء دراسات نفسية عميقة للانسان استناداً إلى نصوص القرآن والسنة .

ولتسهيل ذلك، وتهيئة المناخ الفكري المناسب، فإنني أوصي باستحداث قسم يسمى "قسم علم نفس الدعوة" .

وكخطوة أولى في هذا السبيل أوصي بالتقارب العميق بين قسمي الدعوة وعلم النفس بالجامعة ولا يكتفى بتقرير تدريس مادة في علم النفس في فصل دراسي واحد، يخرج الطالب منها بلا نتيجة تذكر .

وأوصي بأن يهتم قسم الدعوة باستقطاب رجال الفكر الاسلاميين الذين يعنون

بالدراسات الانسانية للاستفادة منهم في هذا المجال، وإقامة مؤتمر اسلامي تتبناه
جامعة الامام يكون موضوعه "علم النفس والدعوة إلى الله" .
هذا وأسأل الله العلي القدير أن ينصر دينه ويعلي كلمته، وأن يرزقنا الاخلاص في
السر والعلن، والصلاة والسلام على رسول الله .

الفهارس

- أولاً : فهرس الآيات القرآنية الكريمة
ثانياً : فهرس الاحاديث النبوية الشريفة
ثالثاً : فهرس الاعلام التي ورد ذكرها في البحث
رابعاً : مصادر ومراجع الدراسة
خامساً : محتويات الدراسة

أولاً :

فهرس الآيات القرآنية

أولاً : فهرس الآيات القرآنية

رقم الآية	رقم الصفحة	رأس الآية	السورة
٤	٧٦	والذين يؤمنون بما ...	البقرة
١٤	٩٦ ، ٥٠	وإذا خلوا إلى ...	
٢٠	١٥٣	إني جاعل في الارض خليفة ...	
٢٤	٦٢ ، ٩	أبى واستكبر ...	
٤٠	٢٦٠ ، ٢٤٢	وايها فآرهبون ...	
٤٩	٨٤ ، ٧٤	وإذ نجيناكم ...	
٦٦	٣٦١	ولقد علمتم ...	
٦٨	٣١٢	ادع لنا ربك ...	
٦٩	٣١٢	ادع لنا ربك ...	
٧٠	٣١٢	ادع لنا ربك ...	
٧١	٣١٢	فذبوها وما كانوا ...	
٧٥	١٠٩	افتطمعون أن يؤمنوا ...	
٧٩	١٤٣ ، ١٠٩	فويل للذين يكتبون ...	
٨٠	٢١٣ ، ١١٠	وقالوا لن تمسنا ...	
٨٣	١٣١	وإذ أخذنا ميثاق ...	
٨٥	١٣٠	ثم انتم هؤلاء ...	
٨٦	١٣١	أولئك الذين اشتروا ...	
٨٧	١٩٨ ، ١١٠	ولقد آتينا موسى ...	
٨٩	٢٣٥	وكانوا من قبل ...	
١٠٥	٢٣٣	ما يود الذين كفروا ...	

رقم الآية	رقم الصفحة	رأس الآية	السورة
١٠٩	٢١٨ ، ٢٢٠	ود كثير من أهل ...	
١١١	١٥٢ ، ١١٣	وقالوا لن يدخل الجنة ...	
١٣٦	٨٤	قولوا آمنا بالله ...	
١٣٧	٤٨	فإن آمنوا بمثل ...	
١٤٠	١٥٢	أأنتم اعلم أم الله ...	
١٧٠	٢٦٩ ، ٢٥٩	وإذا قيل لهم ...	
١٧١	٢٦٩	ومثل الذين كفروا ...	
٢٠٠	٢٧١	فاذكروا الله ...	
٢١٣	٢٣١	كان الناس أمة ...	
		*	
١٤	٢٤٦	زين للناس حب ...	آل عمران
١٩	٢٣٢	إن الدين عند الله ...	
٧٣	٢١٣	ولا يؤمنوا إلا ...	
٧٥	١٣٢	ذلك بأنهم قالوا ...	
٧٨	١٠٩	وأن منهم فريقاً ...	
١٠٣	٣٤٤	واذكروا نعمة الله ...	
١١٨	٢٢٢	وبوا ما عنتم ...	
١٣٠	١٤٠	يا أيها الذين آمنوا ...	
١٥٩	٣٢٧	فيما رحمة من الله ...	
١٧٥	٢٥٢ ، ٢٤٥ ، ٢٤٢	فلا تخافوهم ...	
١٨١	١١٠	إن الله فقير ونحن أغنياء ...	

رقم الآية	رقم الصفحة	السورة
٢٢	١٢٧	النساء
٥٣	٢٣٤	ولا تنكحوا ما نكح ...
٥٤	٢٣٤ , ٣٦١	أم لهم نصيب ...
٦٣	٣٦٢	أم يحسدون ...
١١٦	٩٧	وقل لهم في أنفسهم ...
١١٩	٥٥	ومن يشرك بالله ...
١٢٠	٥٦	ولأضلنهم ولأمنينهم ...
١٤٠	٩٠	يعدهم ويمنيهم ...
١٤٢	٢٥٦	إن الله جامع ...
١٥٥	١٢٩	إن المنافقين يخادعون ...
١٦١	١٤٣	فبما نقضهم ...
١٦٣	١٠٧	وأخذهم الربا ...
١٦٤	١٠٧	إنا أوحينا إليك ...
١٧١	١١٣	ورسلاً قد قصصناهم ...
		يا أهل الكتاب لا تغلو ...
		*
٢	٢٥٨	ولا الهدي ...
٤	٢٨٥	وما علمتم من الجوارح ...
٧	٢٨	واذكروا نعمة الله ...
٨	٢٢٣	ولا يجرمنكم شنآن ...
١٤	١١٣	ومن الذين قالوا إنا نصارى ...
١٨	١٧٩	نحن أبناء ...
٢٠	٢٦١	يا قوم اذكروا ...

رقم الآية	رقم الصفحة	رأس الآية	السورة
٢٤	٢٥٦ ، ٨٥	فأذهب أنت وربك ...	المائدة
٢٦	٨٥	قال فإنها محرمة ...	
٢٧	٢٢٩	واتل عليهم نبأ ...	
٣٠	٥٣٠ ، ٢٢٩	فطوعت له نفسه ...	
٣٢	٢٣١	من قتل نفساً بغير نفس ...	
٤٤	٢٤٢ ، ١٠٨	انا انزلنا التوراه ...	
٤٦	١١٢	وليحكم أهل الانجيل ...	
٤٧	١١٢	وقفينا على آثارهم ...	
٦٠	٨٢	قل هل اوبئكم ...	
٦٤	١٣٣	كلما اوقدوا ناراً	
٧٢	١١٢	لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ...	
٧٣	١١٣	لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ...	
٧٧	٢٨٣	قل يا أهل ...	
٨٢	٣١٧ ، ٨٦	الذين قالوا ...	
٨٣	٢٨٢ ، ٢	وإذا اسمعوا ما أنزل ...	
٩١	٥٦	إنما يريد الشيطان ...	
١١٠	١١٢	وإذ تخلق من الطين ...	
١١٦	١١٢	وإذ قال الله يا عيسى ...	
١١٦	١١٢	ما قلت لهم إلا ...	
		*	
٧	١٩٦ ، ٧	ولو نزلنا عليك ...	الأنعام
٢٣	١٩٠ ، ١٨٤ ، ٧	فإنهم لا يكذبونك ...	

رقم الآية	رقم الصفحة	السورة
٥٣	١٨٤ ، ١٩٤ ، ٢٢٣	الانعام
٨١	٢٥٧	وكيف أخاف ...
٩٠	٣٠٤	أولئك الذين هدى الله ...
١٠٨	١٧٦	ولا تسبوا الذين ...
١١٢	٥٨ ، ٥٠	شياطين الإنس ...
١١٩	٧٣	ليضلون بأهوائهم ...
		*
٥٨	١٣٢	والذي خبث ...
٦٠	١٨٦	فقال الملا الذين ...
٧٥	١٨٦	قال الملا الذين استكبروا ...
٨٠	٣٦	ولوطاً إذ قال ...
٨٢	٣٦	وما كان جواب قومه ...
٨٦	١٩٧	ولا تقعدوا بكل ...
٨٨	١٨٦ ، ٦٥	لنخرجنك يا شعيب ...
٩٩	٢٤٣	أفأمن أهل القرى ...
١٣٨	٨٥	وجاوزنا ببني ...
١٤٦	١٨٩ ، ١٩٠ ، ١٩١	سأصرف عن آياتي ...
١٦٠	٨٤	وقطعناهم ...
١٧٢	٢٧	وإذ أخذ ربك ...
١٧٦	٧١ ، ٣٤	ولو شئنا لرفعناه ...
١٧٩	٧٢	لهم قلوب لا يفقهون ...
١٨٥	٣٠٨	أولم ينظروا في ملكوت ...

رقم الآية	رقم الصفحة	رأس الآية	السورة
١٢٤	٢٣٧	... لن نؤمن حتى ...	الاعراف
١٣٤	١٠٨	... الله يعلم حيث ...	
١٣٦	١٣٩ ، ١٠٥	... وهذا لشركائنا ...	
١٣٩	١٣٩	... وقالوا ما في بطون ...	
١٤٩	٤٣	... قل فله الحجة ...	
١٥١	١٢٦	... ولا تقتلوا اولادكم ...	
١٥٤	١٠٨	... ثم اتينا موسى ...	
١٦٥	١٥٦	... وهو الذي جعلكم ...	
١٢	٢٠٥	... قال ما منعك ...	
١٦	٥٦	... فيما اغويتني ...	
٢٠	٢٠٧ ، ٥٢	... فوسوس لهما الشيطان ...	
٢٢	٢٠٧	... فدلاهما بفرور ...	
٢٠	١	... فريقاً هدى وفريقاً ...	
٤٣	١٧٢	... ونزعنا ما في صدورهم ...	
		*	
٢٢	٢	... وإذا قالوا اللهم ...	الأنفال
٦٣	٣٤٣	... وألف بين قلوبهم ...	
		*	
١٢	٣٠١ ، ٢٧٧ ، ٩٥	... فقاتلوا أئمة ...	التوبة
٣٠	١١٠	... اجعلتم سقاية ...	
٣١	٢٧٤	... واتخذوا احبارهم ...	
٣٤	١٤٣ ، ١٤٢	... والذين يكتزون الذهب ...	

رقم الآية	رقم الصفحة	رأس الآية	السورة
٦٠	٩٣	إنما الصدقات ...	يونس
١٢٨	٢٢٨	لقد جاءكم رسول ...	
		*	
١٨	٢٥	ويقولون هؤلاء ...	
٢٢	٢٦	وجاءهم الموج من كل ...	
٤٤	٤٤	إن الله لا يظلم ...	
٧٨	١٨٧	وقالوا أجبنا لتفتنا ...	
٨٣	٢٥٢	فما آمن لموسى ...	
٨٨	٢٩٩	ربنا إنك أتيت ...	
١٠٠	١٦٤	وما كان لنفس ...	
		*	
٢٧	١٩٥ ، ١٨٤	وما نراك اتبعك ...	هود
٨٤	١٢١	يا قوم اعبدوا الله ...	
		*	
٤	٨٤	يا أبت إنني رأيت ...	يوسف
٤٤	٣٠٧	وما نحن بتأويل ...	
٩٩	٨٤	ادخلوا مصر ...	
١٠٥	٢٧٣	وكأين من قرية ...	
١٠٦	١٠٢	وما يؤمن أكثرهم ...	
		*	
٢٢	٣٣٠	ويدرون بالحسنة ...	الرعد

رقم الآية	رقم الصفحة	رأس الآية	السورة
٤	٣٠٩	وما أرسلنا من رسول ...	إبراهيم
١٠	١٧٦	إن أنتم إلا بشر ...	
١٣	٦٥	وقال الذين كفروا ...	
٢١	٧٤	وبرزوا الله جميعاً ...	
٢٥	١٢٢	تؤتي أكلها ...	
٢٦	١٢١	مثل كلمة خبيثة ...	
٥٢	٣٤٠	هذا بلاغ للناس ...	
		*	
٢٦	٥٨	قال ربي فانظرني ...	الحجر
٢٩	٥٥	لأزين لهم ...	
		*	
٣٥	٤٣	وقال الذين أشركوا ...	النحل
٣٦	١٠٧	ولقد بعثنا ...	
٧١	١٢٨	والله فضل بعضكم ...	
٨٨	٣٦٦	صنع الله ...	
٩٠	٣٢٦	إن الله يأمر ...	
٩٨	٥١	فأستعذ بالله ...	
١٠٦	٦٤	ومن كفر بالله ...	
١١١	١٦٤	ويؤتاني كل نفس ...	
		*	
٤٤	٣٠٧	ولكن لاتفقهون ...	الإسراء
٦١	٥٥	وإذ قلنا للملائكة ...	

رقم الآية	رقم الصفحة	رأس الآية	السورة
٦٢	٥٨	لأحتكن ذريته ...	الكهف
٨٩	١٩٥	ولقد صرفنا للناس ...	
٩٠	١٩٥	وقالوا لن نؤمن ...	
٩١	١٩٥	أو تكون لك جنة ...	
٩٣	١٩٥ ، ١٨٢	أو يكون لك بيت ...	
		*	
٢٨	١٢٤	واصبر نفسك ...	
٣٢	٢٠٩	كلتا الجنتين ...	
٣٣	٢٠٩	وفجرنا خلالهما ...	
٣٤	٣٠٩	وكان له ثمر ...	
٣٥	٢٠٩ ، ١٨٢	ودخل جنته ...	
٣٦	٢٠٩	وما أظن الساعة ...	
٤٢	٢٩٨ ، ٢١٠	وأحيط بثمره ...	
٤٣	٢١٠	ولم تكن له فئة ...	
٥٠	٥٢	افتتخونه وذريته ...	
		*	
٧٣	٢١١	وإذا تتلى عليهم آياتنا ...	مريم
٧٧	٢١١	افرايت الذي كفر ...	
٧٨	٢١١	اطلع الغيب ...	
		*	
١٢٣	٣٨	وما نرسل المرسلين ...	طه

رقم الآية	رقم الصفحة	رأس الآية	السورة
١٨	٣٠٠	بل نقذف بالحق ...	الأنبياء
٢٤	١٧٠	أم اتخذوا من دونه ...	
٢٥	٣٤٠ ، ١٢١	وما أرسلنا من قبلك ...	
٣٦	١٩٤	وإذا رآك ...	
٤٨	١٠٨	ولقد آتينا موسى ...	
٨٢	٥٣	ومن الشياطين ...	
		*	
٩	١٦٥	ومن الناس من يجادل ...	الحج
٢٨	١٣٩	على ما رزقهم من بهيمة ...	
٤٦	٣٨	فإنها لا تعمى ...	
٧٠	٤٢	ألم تعلم أن الله ...	
٧٥	١٠٨	يصطفي من الملائكة ...	
		*	
١٢-١٤	٣٢	ولقد خلقنا الإنسان ...	المؤمنون
٢٥	١٠٧	وما أرسلنا من قبلك ...	
٤٤	٤	ثم أرسلنا رسلنا ...	
٤٤	١٩٣	كلما جاء أمة ...	
٨٤-٨٩	٢٤	أولئك يسارعون ...	
		*	
٢	٤١	وخلق كل شيء ...	الفرقان
٢١	١٦٤	لقد استكبروا ...	
٤١	١٩٤	وإذا رأوك ...	

رقم الآية	رقم الصفحة	رأس الآية	السورة
٤٤	١٦٩	أم تحسب أن أكثرهم ... *	
١٠٩	١٨٣	وما أسألكم عليه من أجر ... *	الشعراء
١٠	٢٤٣	يا موسى لا تخف ...	النمل
١٤	١٩٠ ، ٩	وجحدوا بها ...	
٥٩	٣٤١	ء الله خير أما يشركون ...	
٦٠	٣٤١	أمن خلق السموات ...	
٦٤	٣٤١	أأله مع الله ... *	
٧٧	٢٠٨	وابتغ فيما أتاك ...	القصص
٧٨	٢٠٨	إنما أوتيته على علم ...	
٧٩	٢٠٣	فخرج على قومه في زينته ...	
٧٩	٢٠٣ ، ٢٢٥	قال الذين يريدون ...	
٨٠	٢٢٥	واتل عليهم نبأ ...	
٨١	٢٩٩	فخسفنا به وبداره ...	
٨٢	٢٩٩	وقالوا إن نتبع ... *	
١٧	١٣٨	فابتغوا عند الله الرزق ...	العنكبوت
٢٦	٦٤٢	وقال إنني مهاجراً إلى ربي ...	
٤٣	٣١٠	وما يعقلها إلا العالمون ...	

رقم الآية	رقم الصفحة	رأس الآية	السورة
١	١١٧	الم ...	الروم
٢	١١٧	غلبت الروم ...	
٣	١١٧	في أدنى الأرض ...	
٣٠	٣٥	فأقم وجهك للدين حنيفا ...	
		*	
١٢		ولقد آتينا لقمان ...	لقمان
١٨	١٦٥	ولاتصغر خدك ...	
٢٠	١٥٢	وأسبغ عليكم ...	
٢٢	٢٦	وإذا غشيهم موج ...	
		*	
٧	٣١	وبدأ خلق الإنسان ...	السجدة
٨	٣١	ثم جعل نسله من سلالة ...	
٩	٣١	ثم سواه ونفخ فيه من روحه ...	
		*	
٢١	٣٠٥	لقد كان لكم في رسو الله ...	الاحزاب
٤٦	٣٠٨	أن تقوموا لله مثنى ...	
٦٧	١٩٣ ، ٢٧٤	وقالوا ربنا إنا أطعنا ...	
٧٣	٩٠	ليعذب الله المنافقين ...	
		*	
٢٠	٤٩	ولقد صدق عليهم إبليس ...	سبأ
٣١	٢٧٥	ولو ترى إذ الظالمون ...	
٣٢	٢٧٥	وقال الذين استكبروا ...	

رقم الآية	رقم الصفحة	السورة	رأس الآية
٢٧٥	٣٣		وقال الذين استضعفوا ...
٢١٢	٣٥		وقالوا نحن أكثر ...
٢١٢	٣٦		قل إن ربي يبسط الرزق ... *
٣١٠ ، ٢٤٢	٢٨	فاطر	إنما يخشى الله من عباده ... *
٧٩	٧٧	الصافات	وجعلنا ذريته هم الباقين ...
١٥٩	٣٥		إنهم إذا قيل لهم ... *
١٩٤	٤	ص	وقال الكافرون هذا ساحر ...
٢٨٣	٧		ما سمعنا بهذا في الملة ...
	٧٠		فاحكم بين الناس بالحق ... *
٢٥	٣	الزمر	ما نعبدهم إلا ليقربونا ...
١٨٦	٦		وانطلق الملائمة منهم ... *
١٩٤	٥	غافر	وجادلوا بالباطل ...
١٤٧ ، ٢٧٦ ، ١٩١	٢٩		ما أرىكم إلا ما أرى ...
١٦٤	٣٥		وكذلك يطبع الله ...
١٩٢	٣٦		وقال فرعون يا هامان ...
١٩٢	٣٧		اسباب السموات فاطلع ...
١٩٣	٥٦		إن الذين يجادلون ...

رقم الآية	رقم الصفحة	رأس الآية	السورة
١٥	٢٠٨ ، ١٨١	فأما عاد فاستكبروا ...	فصلت
٢٥	٥٤	وقيضنا لهم قرناء ...	
٢٦	٣٢١ ، ١٩٥	لا تسمعوا لهذا القرآن ...	
٣٤	٣٢٨	أدفع بالتي هي أحسن ...	
٣٧	١٠٥	لا تسجدوا للشمس ولا للقمر ...	
		*	
٥٢-٥٣	١	وإنك لتهدى الى صراط ...	الشورى
		*	
٢٠	٤٣	وقال لو شاء الرحمن ...	الزخرف
٢٣	٢٦٧	وكذلك ما أرسلنا من قبلك ...	
٢٦	٣٠٤	وإذ قال إبراهيم لأبيه ...	
٣١	٨	وقالوا لولا نزل ...	
٣٦-٣٧	٥٧	ومن يعيش عن ذكر الرحمن ...	
٥١	٢٠٩	ونادى فرعون في قومه ...	
		*	
٤٩	٣٦١	ذق إنك أنت ...	الدخان
٥٠	٣٦١	إن هذا ما كنتم ...	
٤٣	٣٦١	إن شجرة ...	
٤٣	٣٦١	طعام الأثيم ...	
٤٥٠	٣٦١	كالمهل يغلي ...	
٤٦	٣٦١	كفلي الحميم ...	
٤٧	٣٦١	خذوه فاعتلوه ...	

رقم الآية	رقم الصفحة	رأس الآية	السورة
٤٨	٣٦١	ثم صبوا فوق ... *	
١٨	٧٣	ولا تتبع اهواء الذين ... *	الجاثية
١٤	٧٣	أفمن كان على بينة ...	محمد
٢٤	٢٠٧	أفلا يتدبرون القرآن ... *	
٢٠	١٤٢	وعدكم الله مغانم ...	الفتح
٢٦	٢٦٣	إذ جعل الذين كفروا ... *	
١٣	٦١	وجعلناكم شعوباً وقبائل ...	الحجرات
١٣	١٧٨ ، ١٢٣	يا أيها الناس انا خلقناكم ... *	
١٤٥	٢٤٤	فذكر بالقرآن من يخاف ... *	ق
٥٢-٥٣	٤	كذلك ما أتى الذين من قبلهم ... *	الذاريات
٢٩	١٩٤	فذكر إنما انت بنعمة ربك ... *	الطور
٢٣	٦٩	إن يتبعون إلا الظن ...	النجم

رقم الآية	رقم الصفحة	رأس الآية	السورة
٢	٧٣	وما ينطق عن الهوى ...	
٢	٧٣	ومناة الثالثة الأخرى ...	
٢٣	١٢٨	قد خسر الذين قتلوا ...	
		*	
٣	٧٢	وكذبوا واتبعوا أهواءهم ...	القمر
٤٩	٤١	إنا كل شيء خلقناه بقدر ...	
		*	
٢٠	٢٠٧	إنما الحياة الدنيا لعب ...	الحديد
٢٢-٢٣	٤٢	ما أصاب من مصيبة في الأرض ...	
		*	
١١	٣٠٩	يرفع الله الذين آمنوا ...	المجادلة
		*	
٢	١٢٩	فاعتبروا يا أولي الأبصار ...	الحشر
١١	٩٣	الم تر إلى الذين نافقوا ...	
١٤	٣٠٨	تحسبهم جميعاً ...	
		*	
١٤	٨٧	قال عيسى بن مريم للحواريين ...	الصف
		*	
٦	١٨٤	فقالوا أبشر يهودنا ...	التغابن

رقم الآية	رقم الصفحة	رأس الآية	السورة
٩	٢٠١	يا أيها النبي جاهد ... *	التحريم
١٠	٢٠٩ ، ٢٨	وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ...	الملك
١٤	٢ ، ١٥٢	الا يعلم من خلق ... *	
١٩	٢٩٨	فطاف عليها ...	القلم
٢٠	٢٩٨	فاصبحت كالصريم ...	
٢٦	٢٩٨	فلما رأوها قالوا إنا لضالون ...	
٥١	٢٢١	وإن يكاد الذين كفروا ليزلقونك ... *	
٢٣	١٠٣	ودأ وسواعاً ...	نوح
٢٧-٢٦	٦٧	وقال نوح رب لا تذر ... *	
١١	١٨١	ذرني ومن خلقت وحيدا ...	المدثر
١٣	١٨١	وبنين شهوداً ...	
٢٣	١٨١	ثم أدبر واستكبر ...	
٢٠	٢١٢	عليها تسعة عشر ...	
٥٥	٢٠٨	كلا إنها تذكره ... *	
٢	٢١	إنا هديناه النجدين ...	الإنسان

رقم الآية	رقم الصفحة	رأس الآية	السورة
٤٠	٧٠ ، ٢٦٨	ونهى النفس عن الهوى ...	النازعات
٤١	٧٠	فإن الجنة هي المأوى ...	
		*	
٨	١٢٦	وإذا الموعودة سئلت ...	التكوير
		*	
٢٩	٢٣٧	إن الذين أجمعوا ...	المطففين
		*	
٢، ٢، ١	٤١	سبح اسم ربك الأعلى ...	الأعلى
		*	
١٠	١٨١	وفرعون ذي الاوتاد ...	الفجر
١١	١٨١	الذين طغوا ...	
		*	
٠٧	١٦٤	ونفس وما سواها ...	الشمس
٨	١٦٤	فآلهمها فجورها وتقواها ...	
٨، ٧	٣٠	ونفس وما سواها ...	
		*	
١	٣١٠	إقرأ بإسم ربك ...	العلق
٦	١٧١ ، ١٨٢ ، ١٨١	كلا إن الانسان ليطغى ...	
٥	٣١٠	علم الإنسان ...	
٧	١٧١ ، ١٨٢ ، ١٨١	أن رآه استغنى ...	

رقم الآية	رقم الصفحة	رأس الآية	السورة
٢	١٣٨	ايلافهم رحلة ...	قريش
٤	٢٥١	الذي اطعمهم ...	
		*	
٥	٢٢٠ ، ٢٢١	ومن شر حاسدٍ ...	الفلق
		*	
٦	٥١	من الجنَّةِ والناس ...	الناس

ثانياً:

فهرس الأحاديث الشريفة

ثانياً : فهرس الأحاديث الشريفة

رقم الصفحة	رأس الحديث	المسلسل
	• ١ •	
٢١٢	أتى نفر من اليهود ...	١
٢٦٧	إذا أبردتم إليّ ...	٢
٢١٧	استعينوا على إنجاح ...	٣
٩٠	أربع من كن فيه ...	٤
٣٠١	اعلموا إنّما الأرض ...	٥
٤٦	اعملوا فكل ميسر ...	٦
١١١	افتقرت اليهود ...	٧
٣٢٤	البر حسن الخلق ...	٨
٢٢٠	العين حق ...	٩
١٦٢	الفخر والخيلاء ...	١٠
١٨٤	الكبر بطل الحق ...	١١
٢٩٩	اللهم أعني عليهم ...	١٢
١١٧	أما إنهم سيغلبون	١٣
١٨٥	أما إنهم لم يكونوا ...	١٤
٣٣٤	أنا وكافل اليتيم ...	١٥
٥١	إنّ الأبل خلقت ...	١٦
٥٨	إنّ الشيطان قال ...	١٧
٥٤	إنّ الشيطان يجري ...	١٨
١٥٥ ، ٣٤	إنّ الله تعالى خلق آدم ...	١٩

رقم الصفحة	رأس الحديث	المسلسل
٢٣	إن الله تعالى خلق خلقه ...	٢٠
٢٩٠	إن الله لا ينظر ...	٢١
٢٤٧	إن قريشاً أهمتهم ...	٢٢
٢٦٤	إن قريشاً حديث ...	٢٣
٤١	إن لكل شيء حقيقة ...	٢٤
٢٢٣	إنما بعثت ...	٢٥
٢٨٨	إنما العلم بالتعلم ...	٢٦
٢٩٤	إني لأعطي الرجل ...	٢٧
٢٧٦	أول من غير ...	٢٨
٢٦٨	أي عم قل لا إله إلا الله ...	٢٩
	" ب "	
٢٣١	بعث النبي صلى الله عليه وسلم خيلاً ...	٣٠
١٧٤ ، ١٦٦	بينما رجل يمشي ...	٣١
	" ت "	
	تتنافسون ثم تتحاسدون ...	٣٢
١٥٦ ، ٣٤	تجدون الناس معادن ...	٣٣
٢٣٤	تكون بين يدي ...	٣٤
٢٨٨	تنكح المرأة لأربع ...	٣٥
	" ث "	
١٧٠	ثلاث مهلكات ...	٣٦
١٧٤	ثلاثة لا يكلمهم الله ...	٣٧

رقم الصفحة	رأس الحديث	المسلسل
	" ج "	
١٠٠	جاء جبريل يعلمكم ...	٢٨
٣٥٨ ، ١٨١	خيارهم في الجاهلية ...	٢٩
	" د "	
٢٢٨	دب إليكم داء الأمم ...	٤٠
٢٢٩	دخل رهط من اليهود ...	٤١
٢٢١	دعوة وأهريقوا ...	٤٢
	" ر "	
١٠١	رأيت عمرو ب لحي ...	٤٣
٢٤٢	الرجل يقاتل ...	٤٤
	" س "	
٢٢٤	الساعي على المسكين ...	٤٥
٢٢٨ ، ٧٩	سيصيب أمتي داء ...	٤٦
	" ف "	
٢٥١	فأخاف أن تنكر ...	٤٧
٢٣١	فكوا العاني ...	٤٨
٢٤٢	فو الله إني أعلمهم ...	٤٩
٢٢٤	فو الله ما الفقر ...	٥٠
٩٥	في أمتي اثني عشر ...	٥١
٢٢٤	في كل ذات كبد ...	٥٢
	" ك "	
١٦٧	كان بشراً ...	٥٣

رقم الصفحة	رأس الحديث	المسلسل
١٦٧	كان يأتي ...	٥٤
٢٦٥	كل مولود يولد ...	٥٥
٢٣٠	كنت أمشي مع ...	٥٦
٢١٥	كنت قائماً عند رسول ...	٥٧
٢٩٨	الا استعطت ...	٥٨
٤٥	لا بل شيء ...	٥٩
٢٢٨ ، ٢٢٢	لا تباغضوا ولا تحاسدوا ...	٦٠
٢٩٠	لا تحساسدوا ولا تناجشوا ...	٦١
٢٢٩	لا تقتل نفس ظلماً ...	٦٢
	لا تفتخروا بأبائكم ...	٦٣
٧٤	لا تعجل فإن أبابكر ...	٦٤
٣١٠ ، ٧٨	لا تقوم الساعة حتى ...	٦٥
٢١٧	لا حسد إلا في اثنتين ...	٦٦
٢٥٢	لا حلق في الاسلام ...	٦٧
٢٠٠	لا يدخل الجنة من ...	٦٨
	لا يزال قلب الكبير ...	٦٩
١٦٦	لا ينظر الله يوم ...	٧٠
٢٧٨	لنتبعن سنن من ...	٧١
	ليس من مولود ...	٧٢
١٦٨	ما استكبر من أكل ...	٧٣
٥٤	ما من بني آدم مولود ...	٧٤
٣٧ ، ٢٧ ، ٢٠ ، ١٩	ما من مولود إلا ...	٧٥

رقم الصفحة	رأس الحديث	المسلسل
٢٤٥	مر رجل على رسول الله ...	٧٦
١٦٧	من أحب أن يتمثل له ...	٧٧
٣٦٩	من دخل دار ...	٧٨
٢٣٥	من لا يرحم لا يرحم ...	٨٠
٣٦٤	من محمد بن عبدالله إلى ...	٨١
	" ن "	
٢٨١	الناس تبع لقريش ...	٨٢
	" و "	
٤٥	وإذا ذكر القدر ...	٨٣
١٠٧	والأنبياء أولاد علات ...	٨٤
٦٩	والعاجز من اتبع ...	٨٥
٦٧	وإن الله نظر إلى ...	٨٦
١٦٦	وإن من أبغضكم ...	٨٧
٣٧١	وإن من الخيلاء ...	٨٨
١١٣	وتفرقت النصارى ...	٨٩
٤١	وتؤمن بالقدر ...	٩٠
٣٠٥	ودماء الجاهلية ...	٩١
٣٠٥	وربا الجاهلية ...	٩٢
١٦٨	وكان لا يأنف ...	٩٣
١٦٧	وكان يجلس على ...	٩٤
٩٥	وكلكم مغفور له ...	٩٥
٢٥٢	وهل ترك عقيل ...	٩٦

رقم الصفحة	رأس الحديث	المسلسل
	ي	
٢٤٥	يا أبانر أعيرته ...	٩٧
٢٢٦	يا أيها الناس ...	٩٨
٢٤٨	يا بني بياضة ...	٩٩
٢٤٤	يا حصين كم تعبد ...	١٠٠
٢٥١	يا عائشة لولا ...	١٠١
٢٦٢	يا معشر الأنصار ...	١٠٢
٢٠١	يحشر المتكبرون ...	١٠٣
٢٣١	يسروا ولا تعسروا ...	١٠٤
٢٧	يقول الله تبارك ...	١٠٥

فهرس الاعلام التي ورد ذكرها في البحث

العلم والصفحة	العلم والصفحة
أ	
ابن الجوزي - ٢٧ ، ٧٠ ، ٧٦ ، ٨٣ ، ٩٩ ، ١١٨ ، ١٥٤ ، ٢٢٩ .	ابراهيم (عليه السلام) - ٨٠ ، ٨٣ ، ١٠١ . ١٥٥ .
ابن حجر - ٢٠ ، ٢١ ، ٥٠ ، ٨٩ ، ٩٠ ، ١٠٠ ، ١٥٦ ، ١٨٢ ، ٢١٥ ، ٢٢٠ ، ٢٤٧ ، ٢٧٨ ، ٣١٦ ، ٣٢٩ ، ٣٥٢ .	إيليس ٩ - ٤٨ ، ١٦٣ ، ٢٠٥ ، ٢٢٩ ، ٢٥٧ ، ٢٦٠ ، ٢٧٦ ، ٣٠٤ . اتاتورك ، ٧٨ ، اسامة ، ٣٤٧ ، ٣٥٢ . اسحاق - ٢٦٠ . اسماعيل - ٧٨ ، ١٠٠ . أنس : ٢٩٤ ، ٢٩٥ ، ٣٣٠ . اسرائيل ١٠٠ . آدم - ٤٨ ، ٥٥ . أمية بن أبي الصلت - ٢٥ ، ٢٥٣ ، ٢٥٧ ، اقرع بن حابس : ٢٩٣ ، ٣٣٠ . أبا القاسم - ٣١٢ ، ٣١٣ ، ٣١٤ ، ٣٢٩ . الأخنس - ٣٢١ .
ابن حزم - ٨٠ .	
ابن خلدون - ٢٦٦ ، ٢٧٨ ، ٣٤٣ .	
ابن سيده - ٨١ .	
ابن فزانه - ١١٤ .	
ابن القيم - ٩ ، ٤٤ ، ٧١ ، ٨٧ ، ١١٨ ، ١١٩ ، ١٥٨ ، ٢١٩ ، ٢٢٩ ، ٢٤٠ ، ٢٤٣ ، ٢٥٥ ، ٢٦١ ، ٢٧٥ .	
ابن عاشور - ٦٨ ، ٨٣ ، ٨٤ ، ٨٦ ، ٩٥ ، ٩٩ ، ١٠٠ ، ١٩٩ ، ٢٠٢ ، ٢٣٢ .	
ابن عباس - ٥٠ ، ٥٤ ، ٧٠ ، ٨٣ ، ٨٦ ، ٩٦ ، ١٠١ ، ١١٧ ، ١٢٢ ، ١٢٨ ، ١٦٢ ، ١٩٨ ، ٢٨٣ ، ٣١٤ .	
ابن عبدالبر - ٢٠ .	
ابن عثيمين - ٤٠ .	
ابن عمر - ٤٦ ، ٥٥ .	
ب - الكنية	
	ابن أبي - ٢٣٨ ، ١١٢ ، ٢٦٢ ، ابن تيمية - ٢٠ ، ٢٢ ، ٤٥ ، ٥٠ ، ٧٦ ، ٩١ ، ٣٨ ، ١١٩ ، ٢١٥ ، ٢١٨ ، ٢٢٢ ، ٢٢٧ ، ٢٤٢ ، ٢٥٩ ، ٢٧٥ ، ٢٨٧ ، ٢٩٣ .

ابن كثير - ٢٧ ، ٤١ ، ٥٠ ، ٧٩ ، ٨٩ ،	بختصر - ٨٥ .
٩٤ ، ٩٦ ، ١٤٣ ، ١٥٦ ، ١٥٧ ، ٢٧٦ ،	بقيس بنت الهداد - ١٢٦ .
٣٤٤ ، ٣٥٥ ، ٣٦٠ ، ٣٧٠ .	
ابن الكلبي - ١٠٣ ، ١٠٤ ، ١٢٥ .	" ت "
ابن مسعود - ٧٠ ، ٨٣ ، ٩٩ ، ١٥٩ .	الترمذي - ١٠٦ .
ابن منظور - ١٥٩ ، ٥٠ .	
ابن هشام - ٧٩ ، ٩٢ ، ٣٠٢ ، ٣٥٥ .	" ث "
ابن ربيعة بن الحارث - ٣٠٥ .	ثقيف - ٢٥٣ .
أبو بكر - ١١٧ ، ٧٤ .	ثمامة بن أثال - ٣٣١ ، ٣٥٨ .
أبو جهل - ٨ ، ٦٢ ، ١٥٥ ، ١٧١ ، ١٧٣ ،	ثمود - ٣٢٠ .
١٨١ ، ١٩٨ ، ٢٠٠ ، ٢١٢ ، ٢٣٦ ، ٢٣٧ ،	ثابت بن قيس - ٣٥٦ .
أبو حنيفة - ٢٢ .	
أبوسفيان - ٢٣٧ ، ٢٥٠ ، ٣٠٢ ، ٣٢١ ،	" ج "
٣٦٥ ، ٣٦٩ .	الجاحظ - ١٦٤ .
أبوشهبة - ٩١ .	جبريل (عليه السلام) - ١٠٠ ، ٣٢٤ .
أبوطالب - ٦٢ ، ٢٥٣ ، ٢٦٣ ، ٢٦٧ ،	جرير بن عبدالله - ٣٦٧ .
٢٦٩ .	جعفر بن ابي طالب - ١٢٩ ، ٣١٣ .
أبولهب - ٢٦٣ ، ٢٧١ .	جعفر شيخ إدريس - ١٦٢ .
أبومسعود - ٨ .	جابر بن عبدالله - ٣٢٩ .
أبوموسى - ٤٧ .	جبير بن مطعم - ٣٦٢ .
أبوهريره - ٨٠ ، ٩٦ .	
أبوذر؛ ٢٢٤ ، ٢٢٦ ، ٣٤٥ ، ٣٤٦ .	" ح "
أم مصعب - ٢٥٣ .	حنيفة - ٩٤ ، ٩٥ .
	الحسن البصري - ١٦٩ ، ٢١٩ .
	حسان بن ثابت - ٧٤ .
	" ب "
البخاري - ٢٠ ، ١١٨ ، ١٢٧ ، ١٢٨ ، ٢٦٨ .	

"س"

- سارة - ٨٠ .
سعد بن أبي وقاص ٧٢ ،
سعد بن عباد - ٢٢٨ .
سفيان الثوري - ١٨٣ .
سلمان الفارسي - ٩٢ ، ٢٨٩ .
سليم الهلالي - ١٦٠ .
سمية - ١٩٨ .
سهيل - ٣٥٣ .
سيد قطب - ٥٦ ، ٦٤ ، ٩٢ ، ٩٩ ، ١٠٠ ،
١٥٣ ، ١٥٤ ، ٢١٥ .
سيد الشنقيطي - ٨٦ ، ١٥٢ .

"ش"

- شاس بن قيس - ١٣٣ .
شعيب (عليه السلام) ١٢١ ، ١٨٦ .
الشنقيطي (محمد الأمين) ٢١٧ ، ٢٢١ .
الشوكاني - ٢١ .
الشهرستاني - ٨١ ، ١٠٥ ، ١١٤ ، ١١٦ .

"ص"

- صالح (عليه السلام) ١٨٦ .
صفوان بن أمية - ٢٩٣ ، ٢٩٥ ، ٣٢٨ .
صهيباً - ٢٤٦ .

"ط"

- الطبري - ٧٩ ، ١٣٥ ، ١٤٦ .
الطيبي - ٤٦ .

- حاطب بن أبي بلتعة - ٢٤٦ .
حكيم بن حزام - ٣٥٢ .

"خ"

- خباب بن الارت - ٢٣٥ .
خبيب بن عدي - ١٩٥ .
خديجة - ١٣٩ ، ٢٢٣ .
الخطابي - ٥٥ .

"د"

- دراز - ٩٨ .
الدوسري - ٥١ ، ٩٢ ، ٢٢٧ ، ٢٧٠ .

"ر"

- الراغب الأصفهاني - ٤٠ ، ٨٣ ، ٩٨ ،
١٤٩ ، ١٦١ ، ٣٠٨ .
الرازي - ١٧٠ ، ١٧١ .
رستم - ١٣٥ ، ١٤٦ .

"ز"

- الزجاج - ١١٧ .
زكريا (عليه السلام) - ٢٢٣ .
الزمخشري - ٣٦ ، ٧٦ ، ٩٣ .
زويمر ، ٦٦ .
زهير بن أبي سلمى ، ١٤٧ .
زيد بن عمرو - ٢٥ .
زيد الخير الطائي - ٢٩٣ .

" ع "

عائشة - ١٢٧ ، ١٤٤ ، ٣٢٤ ، ٣٢٩ ، ٣٥١ .
عاد - ٣٢٠ .

العباس - ٣٠٥ .

عبدالرحمن الميداني - ٩٢ .

عبدالله بن أبي - ٩ ، ٣٥٧ .

عبدالله بن سلام - ٣٠٥ ، ٣٢٦ .

عبدالمطلب - ٢٦٤ ، ٢٦٨ ، ٢٧٠ .

عبدالله بن جحش - ٢٥ .

عبدالله بن أبي أمية - ١٩٦ .

عتبة بن ربيعة - ٦٣ ، ٣٠٠ ، ٣١٨ ، ٣٦٧ .

عثمان بن الحويرث - ٢٥ .

علي أبو جريشة - ٢٠ .

علي بن أبي طالب - ٦٢ ، ١١٦ ، ١٦٧ ، ١٧٠ .

علقمة بن علاثة - ٢٩٣ .

عمران بن الحصين - ٢٦ .

عمر بن الخطاب - ٤٧ ، ٩٥ ، ١٦٦ ، ٢٥٤ ، ٢٨٦ ، ٣٦٧ .

عمر بن عبدالعزيز - ٣١٠ .

عمرو بن لحي الخزاعي - ١١٦ ، ٢٣٦ .

عياض - ١٥٦ ، ١٥٧ .

عيسى (عليه السلام) - ٨٧ ، ١١٢ ، ٣١٧ .

عيينه بن الحصن - ٢٩٣ .

عكرمة بن أبي جهل - ٢٩٣ .

" غ "

الغزالي - ٢٨ ، ١٦١ ، ١٦٤ ، ١٧٢ ، ٢٠٣ ، ٢١٩ ، ٢٢٦ ، ٢٤٠ ، ٢٤٧ ، ٢٨٥ .
محمد بن عبدالله (صلى الله عليه وسلم) - ٦ ، ١٣٩ ، ١٧١ ، ١٧٥ ، ١٨٦ ، ٢١١ ، ٢١٢ ، ٢٢٧ ، ٢٣٤ ، ٢٣٦ ، ٢٤٦ ، ٢٥٠ ، ٢٧٠ ، ٢٨٢ ، ٢٨٤ .

" ف "

فرعون - ١٤٧ ، ١٨١ ، ١٩٠ ، ١٩١ ، ٢٠٩ ، ٢٥٠ ، ٢٥٢ ، ٢٧٢ ، ٢٧٦ ، ٢٩٩ .

" ق "

قارون - ٢٢٩ .

قتادة - ٣٦ ، ٧٩ ، ٨٦ .

قحطان - ٩٥ .

قيس بن ساعدة ، ٢٢ .

قصي بن كلاب - ٢٧٠ .

القرطبي - ٤١ ، ٥٠ ، ٥٥ ، ٦٩ ، ٨٩ ، ١١٤ ، ١١٥ ، ١٥٩ ، ٢١٥ ، ٢٥٩ .

٢٦٠ .

" ك "

كسرى - ١٣٥ ، ١٥٥ .

كعب بن الأشرف - ٢٣٥ .

" ل "

لوط (عليه السلام) - ٣٦ ، ١٢١ .

" م "

المازري - ٢٠ .

مصعب بن عمير - ٣٥٦ .

مالك بن دينار - ٦٨ .

مجاهد - ٩٩ .

محمد بن عبدالله (صلى الله عليه وسلم) - ٦ ، ١٣٩ ، ١٧١ ، ١٧٥ ، ١٨٦ ، ٢١١ ، ٢١٢ ، ٢٢٧ ، ٢٣٤ ، ٢٣٦ ، ٢٤٦ ، ٢٥٠ ، ٢٧٠ ، ٢٨٢ ، ٢٨٤ .

- محمد عبده - ٣٥ .
- محمد عزة درويزة - ٨٧ ، ٩٦ .
- محمد عفيفي - ١٥١ ،
- محمد قطب - ٢١ ، ١٧٦ .
- المسعودي - ١١٦ ،
- مسلم - ١٠١ .
- مصطفى فهمي - ١٥٠ .
- مصطفى كمال اتاتورك - ٦٥ .
- المقوقس - ١٥٥ .
- موسى (عليه السلام) - ٨٥ ، ١٩٢ ، ٢٤٣ ،
- ٢٥٠ ، ٢٥٢ ، ٢٥٦ ، ٢٧٢ ، ٢٧٣ ، ٢٩٩ ،
- ٣١٢ ، ٣١٣ ، ٣١٤ .
- مريم - ٣١٧ .
- مسليمة الكذاب - ٣٥٦ .
- " ن "
- النجاشي - ١٢٦ ، ١٥٥ ، ٢٤٧ ، ٣١٧ .
- نوح (عليه السلام) - ٦٧ ، ١٨٦ .
- النووي - ٢٠ ، ٢٦ ، ٤٦ ، ٢٨٩ ، ٣٣٣ ،
- ٣٦٤ .
- " و "
- ورقة بن نوفل - ٢٥ .
- الوليد بن المغيرة - ٣١٨ .
- " هـ "
- هاجر - ٨٠ .
- هارون - ٢٧٢ .
- هامان - ١٩٢ .
- هرقل - ١٣٦ ، ١٥٥ ، ١٧٦ ، ٢٤٧ ، ٢٥٠ .
- هند بن عتبة - ٢٠٦ ، ٢٢٧ .
- هود (عليه السلام) - ١٨٦ ، ٢٧٦ .
- " ي "
- يحيى (عليه السلام) - ١٢٣ .
- يوشع بن نون - ١٠١ .
- يعقوب - ٢٦٠ ، ٣١٤ .
- يوسف (عليه السلام) - ٨٤ ، ٢٦٠ .

ثالثاً : فهرس أهم المصادر والمراجع :

أولاً : القرآن وعلومه

١ - القرآن الكريم

انظر فهرس الآيات (٣٧٥ - ٣٩٣) .

- ٢ - أسباب نزول القرآن. أبي الحسن علي الواحدي. تحقيق. أحمد صقر. دار الثقافة. جدة (ط : ٢) ١٤٠٤هـ .
- ٣ - أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن. محمد الامين ابن محمد المختار المكنى بالشنقيطي. عالم الكتب. بيروت .
- ٤ - الاساس في التفسير. سعيد حوني، دار السلام. القاهرة. (ط : ١) ١٤٠٥هـ .
- ٥ - التفسير القيم. لابن القيم. تحقيق. محمد حامد الفهري. دار العلوم الحديثة. بيروت. لبنان. ب : ت .
- ٦ - التفسير الكبير. الامام. الفخر الرازي. ب : ت (ط : ٢) دار احياء التراث العربي. بيروت .
- ٧ - الجامع لاحكام القرآن أبي عبدالله محمد بن احمد الانصاري القرطبي. دار الكتاب العربي (ب : ت) للطبعة .
- ٨ - الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الاقاويل في وجوه التأويل أبي القاسم جار الله محمود ابن عمر الزمخشري الخوارزمي. مكتبة ومطبعة. مصطفى البابي الحلبي. مصر. (١٣٩٢هـ) .
- ٩ - المفردات في غريب القرآن. أبي القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني. دار المعرفة. بيروت .
- ١٠ - تفسير أبي السعود المسمى إرشاد العقل السليم الى مزايا القرآن الكريم.

- القاضي. أبي السعود محمد بن محمد العمادي. دار احياء التراث العربي. بيروت.
ب : ت .
- ١١ - تفسير البغوي (معالم التنزيل) الامام أبي محمد الحسين ابن مسعود البغوي.
(دار طيبة. الرياض (١٤٠٩هـ) .
- ١٢ - تفسير الجلالين للقرآن العظيم. للإمامين. جلال الدين عبدالرحمن أبي بكر
السيوطي. وجلال الدين محمد بن أحمد المحلى. مكتبة مصطفى البابي الحلبي
وأولاده. مصر. (ط : ٣)؛ ١٣٧٤هـ .
- ١٣ - تفسير القاسمي. المسمى محاسن التأويل. محمد جمال الدين القاسمي. دار الفكر
بيروت. (ط : ٢) ١٣٩٨هـ .
- ١٤ - تفسير القرآن الحكيم. الشهير بتفسير المنار. تأليف محمد رشيد رضا. دار
المعرفة. بيروت (ط : ٢) ١٣٩٣هـ .
- ١٥ - تفسير القرآن العظيم. الامام. أبي الفداء الحافظ ابن كثير الدمشقي (طبعة جديدة
مخرجة الاحاديث)، دار الفكر ١٤٠٨هـ .
- ١٦ - المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز. القاضي. ابي محمد عبدالحق ابن غالب
ابن عطية الأندلسي. تحقيق المجلس العلمي بفاس. وزارة الأوقاف والشؤون
الإسلامية بالمغرب. (ط : ٢) ١٤٠٣هـ .
- ١٧ - زاد المسير في علم التفسير. ابي الفرج جمال الدين عبدالرحمن ابن علي ابن
محمد الجوزي القرشي البغدادي. المكتب الاسلامي بيروت. (ط : ٤) ١٤٠٧هـ .
- ١٨ - سيكولوجية القصة في القرآن د. التهامي نقرة. الشركة التونسية (ط : ٣) .
- ١٩ - صفوة الآثار والمفاهيم من تفسير القرآن العظيم. عبدالرحمن بن محمد الدوسري
(ط : ٢) ١٤٠٤هـ .

- ٢٠ - فتح القدير الجامع بين فني الرماية والدراية من علم التفسير. محمد بن علي الشوكاني. دار الفكر. ١٤٠١هـ .
- ٢١ - فوائد قرآنية. عبدالرحمن بن ناصر السعدي. تحقيق زهير الشاويش. المكتب الاسلامي. بيروت. ب : ت .
- ٢٢ - في ظلال القرآن. الشهيد/ سيد قطب. دار الشروق. (ط : ٤) ١٣٩٧هـ .
- ٢٣ - مدخل إلى القرآن الكريم. محمد عبدالله دراز. دار القلم (١٤٠٤هـ) .
- ٢٤ - مواقف القرآن من خصومه كما تصوره سورة التوبة. د. عمر عبدالرحمن. (رسالة دكتوراه غير مطبوعة) .

ثانياً : الحديث الشريف :

- انظر فهرس الأحاديث (٣٩٤ - ٣٩٩) .
- ٢٥ - المسند للإمام. أحمد بن حنبل. دار الكتب والوثائق القومية. ب : ت .
- ٢٦ - تحفة الاحوذى بشرح جامع التزمذي للإمام الحافظ ابي العلام محمد ابن عبدالرحمن بن عبدالرحيم المباركفوري، المكتبة السلفية بالمدينة (ط : ٢) ١٣٨٤هـ .
- ٢٧ - سبل السلام شرح بلوغ المرام من جمع أدلة الأحكام الإمام محمد اسماعيل الأمير اليماني الصنعاني. دار الريان للتراث. مصر. (ط : ٤) ١٤٠٧هـ
- ٢٨ - سلسلة الاحاديث الصحيحة. محمد ناصر الالباني. مكتبة المعارف. الرياض (ط : ١) ١٤١٢هـ .
- ٢٩ - صحيح الجامع الصغير وزيادته الفتح الكبير. محمد ناصر الدين الاسلامي. المكتب الاسلامي. (ط : ٣). ١٤٠٢هـ .
- ٣٠ - سنن الدارمي. الامام أبو محمد عبدالله بن عبدالرحمن ابن الفضل بن بهرام الدارمي. دارالكتب العلمية. بيروت .
- ٣١ - صحيح مسلم. الامام. أبي الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري. دار الفكر. بيروت. (ط : ٢) ١٣٩٨هـ. نشر وتوزيع (رئاسة البحوث العلمية والافتاء والدعوة والارشاد بالمملكة العربية السعودية)، دار الفكر. بيروت. الطبعة الثانية. ١٩٨٠م .
- ٣٢ - صحيح مسلم بشرح النووي. مؤسسة الكتب الثقافية. دار الكتب العلمية. بيروت. ب : ت .
- ٣٣ - صحيح سنن أبي داود باختصار السند. محمد ناصر الدين الالباني. مكتب التربية العربي لدول الخليج. المكتب الاسلامي. بيروت. الطبعة الاولى. ١٤٠٩هـ .

- ٣٤ - صحيح سنن ابن ماجة باختصار السند. محمد ناصر الدين الالباني الناشر. مكتب التربية العربي لدول الخليج. المكتب الاسلامي. بيروت. (ط : ٣) ١٤٠٨ هـ .
- ٣٥ - صحيح سنن الترمذي باختصار السند. محمد ناصر الدين الالباني. مكتب التربية العربي لدول الخليج. المكتب الاسلامي (ط : ١) ١٤٠٨ هـ .
- ٣٦ - صحيح سنن النسائي باختصار السند. محمد ناصر الدين الالباني. مكتب التربية العربي لدول الخليج. المكتب الاسلامي. (ط : ١) ١٤٠٩ هـ .
- ٣٧ - ضعيف سنن الترمذي. ناصر الدين الالباني. مكتب التربية العربي لدولة الخليج العربي. المكتب الاسلامي. (ط : ١) ١٤١١ هـ .
- ٣٨ - عون المعبود شرح سنن أبي داود. أبي الطيب محمد شمس الحق العظيم أيادي. مع شرح الحافظ ابن القيم. دار الكتب العلمية. بيروت. (ط : ١) ١٤١٠ هـ .
- ٣٩ - فتح الباري بشرح صحيح البخاري للإمام. أحمد بن علي بن حجر العسقلاني. المكتبة السلفية. القاهرة. ب : ت .
- ٤٠ - مشكاة المصابيح. محمد عبدالله الخطيب التبريزي. تحقيق الالباني. المكتب الاسلامي. بيروت (ط : ٣) ١٤٠٥ هـ .

ثالثاً : السيرة النبوية :

- ٤١ - الجوانب الاعلامية في حياة الرسول (صلى الله عليه وسلم) (مرحلة الاعداد والممارسة العامة في مكة) د. عبدالوهاب كحيل. دار الهداية. ب : ت .
- ٤٢ - الدر الثمين في معالم درا الرسول (صلى الله عليه وسلم) غالي محمد الأمين الشنقيطي. دار القبلة للثقافة الاسلامية. (ط : ٣) ١٤١١هـ .
- ٤٣ - الرسول العربي المربي. د. عبدالحميد الهاشمي. دار الهدى. الرياض (ط : ١) ١٤٠٥هـ .
- ٤٤ - السيره الطلية في سيرة الأمين والمؤمن إنسان العيون. على بن برهان الدين الحلبي. دار المعرفة. بيروت. ب : ت .
- ٤٥ - السيره النبوية أبي الحسن النووي. دار الشروق. (ط : ٨) .
- ٤٦ - السيره النبوية. أبي محمد عبدالملك بن هشام المعافري. دار الجيل. بيروت. ١٩٧٥م .
- ٤٧ - السيره النبوية. الإمام. اسماعيل بن كثير. دار المعرفة بيروت (١٣٩٦هـ) .
- ٤٨ - السيره النبوية في ضوء القرآن والسنة. د. محمد محمد أبوشبهة. دار العلم. دمشق. (ط : ١) .
- ٤٩ - السيره النبوية كما جاءت في الأحاديث الصحيحة. محمد الصوياني. مطابع شركة الصفحات الذهبية. الرياض (ط : ١) ١٤١٢هـ .
- ٥٠ - الشفا بتعريف حقوق المصطفى. القاضي عياض بن موسى البيهقي الاندلسي. تحقيق. مجموعة من العلماء. مؤسسة علوم القرآن. دار الفحياء. عمان (ط : ٢) ١٤٠٧هـ .

- ٥١ - الشمائل المحمدية. الإمام الترمذي. دار الحديث للطباعة. تعليق عزت عبيد الدعاس .
- ٥٢ - المغازي. للوافدي. محمد بن عمر بن واقد. تحقيق. د. هارسدن جونس. عالم الكتب. بيروت (ط : ٣) ١٤٠٤هـ .
- ٥٣ - المنهج الحركي للسيرة النبوية. منير محمد الغضبان. مكتبة المنار الاردن (ط : ٦) ١٤١١هـ .
- ٥٤ - النبوه وما قبلها. محمد بن عبدالله الشيباني. دار عالم الكتب. الرياض .
- ٥٥ - الوفا بأحوال المصطفى. الامام. أبي الفرج عبدالرحمن ابن الجوزي. المؤسسة السعيدية. الرياض. ب : ت .
- ٥٦ - جوامع السيره النبوية. ابن حزم الاندلسي. دار الجيل. بيروت (ط : ٣) ١٤٠٤هـ .
- ٥٧ - خاتم النبيين (صلى الله عليه وسلم). محمد أبوزهره. دار الفكر العربي. ب : ت .
- ٥٨ - دراسات في السيره النبوية د. محمد علي جماز. دار القلم. الكويت (ط : ١) ١٤٠٢هـ .
- ٥٩ - دراسة تحليلية لشخصية الرسول (صلى الله عليه وسلم) (من خلال سيرته الشريفة) د. محمد رواس قلعة جي. دار النفائس. بيروت (ط : ١) ١٤٠٨هـ .
- ٦٠ - سيرة الرسول (صلى الله عليه وسلم) صورٌ مقتبسة من القرآن الكريم. محمد عزه دروزه .
- ٦١ - فقه السيره. محمد الغزالي .
- ٦٢ - فقه السيره (دراسات منهجية علمية لسيرة النبي المصطفى (صلى الله عليه وسلم)

- بما تنطوي عليه من عظات ومبادئ وأحكام) د. محمد سعيد رمضان البوطي.
دار الفكر (ط : ٨) ١٤١٠ هـ .
- ٦٣ - مجتمع المدينة في عهد الرسول (صلى الله عليه وسلم). عبدالله عبدالعزيز بن إدريس، عمادة شؤون المكتبات، جامعة الملك سعود، الرياض (ط : ١) ١٤٠٢ هـ .
- ٦٤ - محمد رسو الله (صلى الله عليه وسلم) (منهج رسالة، بحث وتحقيق) محمد الصادق ابراهيم عرجون، دار القلم، دمشق (ط : ١) ١٤٠٥ هـ .
- ٦٥ - مختصر الشمائل المحمدية، محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف، الرياض (ط : ٢) ١٤١٠ هـ .
- ٦٦ - من أخلاف الرسول (صلى الله عليه وسلم)، عبدالمحسن بن حمد العباد، مكتبة الهدى النبوية الاسلامية، بورسعيد، ب : ت .
- ٦٧ - من معين السيره، صالح احمد الشامي، المكتب الاسلامي (ط : ١) ١٤٠٥ هـ .

رابعاً : الدعوة الإسلامية :

- ٦٨ - اخلاف الدعوة إلى الله تعالى (النظرية والتطبيق) د. طلعت محمد عفيف سالم. مكتبة الايمان. ب : ت .
- ٦٩ - اسباب نجاح الدعوة الاسلامية في العهد النبوي. عبدالله محمد موسى. دار عالم الكتب. الرياض. (ط : ١) ١٤٠٥هـ .
- ٧٠ - اصول الدعوة. عبدالكريم زيدان. مؤسسة الرسالة. (ط : ٤) ١٤١١هـ .
- ٧١ - الحكمة في الدعوة الى الله (تعريف وتطبيق) د. زيد عبدالكريم. دار العاصمة. الرياض (ط : ١) ١٤١٢هـ .
- ٧٢ - الأخلاف والدعوة الى سبيل الله. جمع محمد السباعي عامر (مجموعة مذكرات من كلية اصول الدين الازهرية) المطبعة المصرية الاهلية الحديثة. القاهرة. ب : ت.
- ٧٣ - الدعوة الى الله (الرسالة، الوسيلة، الهدف) د. توفيق الواعي. مكتبة الفلاح. الكويت. (ط : ١) ١٤٠٦هـ .
- ٧٤ - الدعوة الى الله تعالى (دراسة مستوحاة من سورة النمل) د. عبدالرب نواب الدين آل نواب. دار القلم. دمشق. الدار الشامية. بيروت (ط : ١) ١٤١٠هـ .
- ٧٥ - الدعوة الاسلامية (اصولها، ووسائلها) د. احمد احمد غلوش. دار الكتاب المصري. القاهرة. (ط : ٢) ١٤٠٧هـ .
- ٧٦ - الدعوة الاسلامية في عهدها المدني. د. رؤوف شلبي. دار القلم. الكويت (ط : ١) .
- ٧٧ - الدعوة في عهدها المكي. د. رؤوف شلبي. دار القلم، الكويت (ط : ٣) ١٤٠٢هـ .
- ٧٨ - الدعوة الاسلامية والغزو الفكري. د. جعفر ادريس. بحث اصدرته رابطة الشباب

- المسلم العربي. اللجنة الثقافية. سلسلة البحوث والدراسات (١٩٨٧م) .
- ٧٩ - الدعوة والانسان. د. عبدالله الشاذلي. المكتبة القومية الحديثة. ب : ت .
- ٨٠ - الذين ينكرون القدوة. حسن الشرقاوي. مؤسسة شباب الجامعة. ١٣٨٤هـ .
- ٨١ - المصطفى من صفات الدعاه. عبدالحميد البلالي. دار الدعوة. الكويت (ط : ٣) ١٤٠٧هـ .
- ٨٢ - تاريخ الدعوة الاسلامية في زمن الرسول (صلى الله عليه وسلم) والخلفاء الراشدين د. جميل المصري (ط : ١) مكتبة الدار بالمدينة المنوره .
- ٨٣ - تذكرة الدعاه. البهي الخولي. مكتبة الفلاح. (ط : ٧) ١٤٠٤هـ .
- ٨٤ - دعوة الرسل الى الله تعالى (محمد احمد عبدالعليم العدوي. مكتبة العلوم والحكم. المدينة المنورة. ب : ت .
- ٨٥ - سيكولوجية الرأي والدعوة. د. رؤوف شلبي. دار القلم. الكويت (ط : ٢) ١٤٠٢هـ .
- ٨٦ - عقبات في طريق الدعاه وطرق معالجتها في ضوء الاسلام. عبدالله ناصح علوان. دار السلام. القاهرة. (ط : ١) ١٤٠٧هـ .
- ٨٧ - على هامش فقه الدعوة. د. علي جريشه. دار البشير للثقافة. طنطا. ط : ١) ١٤١١هـ .
- ٨٨ - فصول في الدعوة والثقافة الاسلامية. د. حسن عيسنى عبدالظاهر. دار القلم. الكويت (ط : .)
- ٨٩ - فقه الدعوة الى الله. د. علي عبدالحليم محمود. دار الوفا للطباعة والنشر (ط : ١) ١٤١٠هـ .

- ٩٠ - فقه الدعوة والإعلام. د. عماد نجيب. مكتبة المعارف. الرياض. ب : ت .
- ٩١ - فن نشر الدعوة مكاناً وزماناً. د. محمد زين الهادي. دار العاصمة. الرياض (ط : ١) ١٤٠٩هـ .
- ٩٢ - في موكب الدعوة. محمد الغزالي. دار الكتب الحديثة (ط : ٤) ١٩٦٥م .
- ٩٣ - مع الله - دراسات في الدعوة والدعاة. محمد الغزالي. دار احياء التراث العربي. بيروت. (ط : ٥) ١٤٠١هـ .
- ٩٤ - مناهج الدعوة وأساليبها. د. علي جريشه. دار الوفاء. المنصورية. (ط : ١) ١٤٠٧هـ .
- ٩٥ - منهج الرسول (صلى الله عليه وسلم) في دعوة أهل الكتاب. محمد ولد سيدي ولد حبيب. دكتوراه غير مطبوعة .
- ٩٦ - وقفات دعوية في رحلة سفير الدعوة الأول مصعب بن عمير الى المدينة. د. زيد عبدالكريم الزيد. دار العاصمة. الرياض (ط : ١) ١٤١٢هـ .

خامساً : المراجع العامة :

- ٩٧ - احكام أهل الذمة. ابن القيم. دار العلم للملايين (ط : ٣) .
- ٩٨ - احكام غير المسلمين في الجرائم والعقوبات في الدولة الاسلامية. عبدالله صالح الحديثي. رسالة ماجستير غير مطبوعة مقدمة للمعهد العالي للقضاء .
- ٩٩ - احياء علوم الدين. ابي حامد محمد الغزالي (ط : ١) دار القلم. بيروت. ب : ت .
- ١٠٠ - أخلاف اليهود وأثرها في حياتهم المعاصرة. د. صادق. دار الفرقان (ط : ١) ب : ت.
- ١٠١ - آداب النفوس. أبو عبدالله بن الحارث أسد المحاسبي. مؤسسة الكتب الثقافية. (ط : ١) ١٤٠٨هـ .
- ١٠٢ - أدب الدنيا والدين. أبي الحسن علي بن محمد البصري المارودي. دار الرياض للتراث (ط : ١) ١٤٠٨هـ .
- ١٠٣ - أدب الطلب. محمد بن علي الشوكاني. تحقيق ونشر مركز الدراسات والابحاث اليمنية. صنعاء (١٩٧٩) .
- ١٠٤ - اساسيات البحث العلمي. د. حنان سلطان. غانم العبيد (ط : ١) دار العلوم للطباعة والنشر .
- ١٠٥ - أسرار مجاهدة النفس الامار. أبي عبدالله محمد بن علي ابن الحسن الحكيم الترمذي. تحقيق. ابراهيم الجمل. دارالمشرق العربي. القاهرة (١٤٠٩هـ) .
- ١٠٦ - اسملة المعرفة. المباديء العامة وخطة العمل) د. اسماعيل الفاروقي. ترجمة عبدالوارث سعيد. دار البحوث العلمية. (ط : ١) ١٤٠٤هـ .

- ١٠٧ - اصول الاعلام الاسلامي. د. سيد محمد حسن الساداتي. دار عالم الكتب (ط : ١) .
- ١٠٨ - اصول البحث الاجتماعي. عبدالباسط محمد حسن. مكتبة وهبة. القاهرة (ط : ١) ١٤٠٩هـ .
- ١٠٩ - اصول البحث الاجتماعي ومناهجه د. احمد بدر (ط : ٥) ١٩٧٩م وكالة المطبوعات .
- ١١٠ - اصول التربية الاسلامية وأساليبها. د. عبدالرحمن النحلوي. دار الفكر. دمشق (ط : ٢) ١٤٠٣هـ .
- ١١١ - اضمحلال الامبراطورية الرومانية وسقوطها. ادوارد حبييون. دار الكتاب العربي. ترجمة. لويس اسكندر .
- ١١٢ - اعلام التربية في تاريخ الاسلام. ابن تيمية. عبدالرحمن النحلوي. دار الفكر (ط : ١) ب : ت .
- ١١٣ - اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم. شيخ الإسلام ابن تيمية. تحقيق د. ناصر العقل. شركة العبيكان (ط : ١) ١٤٠٤هـ .
- ١١٤ - انبياء الله والحياة المعاصرة. د. عبدالغني عبود. دار الفكر العربي (ط : ١) ١٩٧٨م .
- ١١٥ - اهداف التربية الاسلامية (دراسة مقاومة بين أهداف أصول التربية الاسلامية والاهداف التربوية المعاصرة) د. ماجد عرسان الكيلاني. مكتبة دار التراث. المدينة (ط : ٢) ١٤٠٨هـ .
- ١١٦ - ايران في عهد الساسانيين. ارثر كريسنيتش. ترجمة يحيى خشاب. دارالنهضة العربية. بيروت .

- ١١٧ - الاخلاق الاسلامية وأسسها. عبدالرحمن حسن الميداني. دار القلم. بيروت (ط : ١) ١٣٩٩ هـ .
- ١١٨ - الاخلاق والسير في مداواة النفوس. الامام. أبو محمد علي احمد بن سعيد بن حزم. دار الكتب العلمية. بيروت. (ط : ٢) ١٤٠٥ هـ .
- ١١٩ - الاسس النفسية والتربوية. د. عمر بن محمد التومي الشيباني. الدار العربية للكتاب. طرابلس. ليبيا. (ط : ٢) ١٩٨٧ م .
- ١٢٠ - الاسلام. مقاصده. خصائصه. د. محمد عقله. مكتبة الرسالة الحديثة . (ط : ١) ب : ت .
- ١٢١ - الاسلام كما ينبغي ان نعرفه. د. محمد شامه. مكتبة وهبه (ط : ١) ب : ت .
- ١٢٢ - الاصنام. أبو المنذر هشام بن محمد بن السائب الكلبى. تحقيق. احمد زكي. الدار القومية القاهرة . ب : ت .
- ١٢٣ - الاعتصام. ابواسحاق ابراهيم الشاطبي. دار المعرفة. بيروت (١٤٠٦ هـ) .
- ١٢٤ - الاعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام وإظهار محاسن دين الاسلام وإثبات نبوة محمد (صلى الله عليه وسلم). الامام القرطبي. تحقيق د. احمد حجازي السقا. دار التراث العربي. القاهرة. ب : ت .
- ١٢٥ - الاعلام في صدر الاسلام. د. عبداللطيف حمزه. دار الفكر العربي (ط : ٢) ١٩٧٨ م .
- ١٢٦ - الافعى اليهودية في معاقل الاسلام. عبدالله التل. المكتب الاسلامي. بيروت (ط : ٢) ب : ت .

- ١٢٧ - الانسان ذلك المجهول. الكسيس كاريل. دار المعارف (ط : ٢) .
- ١٢٨ - الانسان في القرآن. عباس محمود العقاد. دار النهضة. القاهرة. ب : ت .
- ١٢٩ - الانسان في القرآن الكريم. محمد عايد طبيشان. الدار الوطنية للنشر والتوزيع. الرياض .
- ١٣٠ - الانسان في ظل الاديان (المعتقدات والاديان القديمة). د. عمارة نجيب. مكتبة المعارف. الرياض (١٤٠٠هـ) .
- ١٣١ - الانسان (وجوده وخلافته في الارض في ضوء القرآن الكريم. عبدالرحمن بن ابراهيم المطرودي. مكتبة وهبه. القاهرة. (ط : ١) ١٤١٠هـ .
- ١٣٢ - الايمان في القرآن. د. مصطفى عبدالواحد. دار الصحوة للنشر (ط : ١) ب : ت.
- ١٣٣ - البحث العلمي. د. فاخر فاضل. دار العلم للملايين (ط : ٢) ١٩٨٢م .
- ١٣٤ - البداية والنهاية. لابن كثير. مكتبة المعارف. بيروت (ط : ١) .
- ١٣٥ - التبشير والاستعمار في البلاد العربية. د. مصطفى الخالدي. د. عمر فروخ. منشورات المكتبة المصرية. بيروت .
- ١٣٦ - التعريفات. علي محمد بن علي الجرجاني. عالم الكتب. (ط : ١) ١٤٠٧هـ .
- ١٣٧ - التقليد والتبعية وأثرها في كيان الأمة الاسلامية. ناصر عبدالكريم العقل. بحث مقدم لكلية الشريعة عام ٩٣ - ٩٤م مطابع الرياض ب : ت .
- ١٣٨ - الجاهلية قديماً وحديثاً. احمد أمين عبدالغفار. شركة الشعاع. الكويت .
- ١٣٩ - الجزيرة قبل البعثة. مصطفى هاشم الشوريجي (ط : ١) ١٤٠٨هـ . الناشر غير

معروف .

١٤٠ - الحديث النبوي وعلم النفس. د. محمد عثمان نجاتي. دار الشروق (ط : ١)
١٤٠٩هـ .

١٤١ - الحرب النفسية من منظور اسلامي. د. أحمد نوفل. دار الفرقان. عمان (ط : ٢)
١٤٠٧هـ .

١٤٢ - الحسد (الداء والدواء) أب عبدالله الحارث بن أسد المحاسبي. تعليق. محمد شاكر
الشريف. دار طيبة. مكة والرياض. (ط : ١) ١٤١١هـ .

١٤٣ - الحسنه والسئنه. ابن تيمية. دار الكتب العلمية. بيروت. ب : ت .

١٤٤ - الحق المر. محمد الغزالي. دار الجيل. بيروت (ط : ٢) ١٤٠٧هـ .

١٤٥ - الجمال (فضله - حقيقته - أقسامه) ابن تيمية وتلميذه ابن القيم. تحقيق ابراهيم
بن عبدالله الحازمي. (ط : ١) ١٤١٣هـ .

١٤٦ - الخوف. و. ج. ما كبريد. ترجمة د. سيد غنيم. دار الفكر العربي. ب : ت .

١٤٧ - الدافعية والانفعال. ادوارد. ج . موراي. ترجمة د. أحمد بن عبدالعزيز سلامة.
مراجعة د. محمد عثمان نجاتي. دار الشروق. (ط : ١) ١٤٠٨هـ .

١٤٨ - الدوافع النفسية. د. مصطفى فهمي. مكتبة مصر. القاهرة (ط : ٦) ب : ت .

١٤٩ - الدين ضرورة حياة الانسان. عبدالكريم الخطيب. دار الاصاله .

١٥٠ - الدين في ضوء الكتاب والسنة والفكر الاسلامي. د. محمد عبدالله دراز. دار
القلم. بيروت. (ط : ٢) .

- ١٥١ - الرعي العام في عهد النبوة والخلفاء الأربعة (عوامل تكوينه، خصائصه، وقواعد مخاطبته) د. سعيد بن علي بن ثابت. (رسالة دكتوراه مقدمة لقسم الاعلام. بجامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية) غير مطبوعة .
- ١٥٢ - الرأي العام في ضوء الاسلام. د. سيد محمد الساداتي. عالم الكتب. الرياض. (ط : ١) ١٤١٠هـ .
- ١٥٣ - الرسل والرسالات. د. عمر سليمان الأشقر. مكتبة الفلاح. (ط : ٣) ١٤٠٥هـ .
- ١٥٤ - الروح. ابن القيم الجوزية. دار المدني. جدة ب : ت .
- ١٥٥ - الزهد : الامام أحمد بن حنبل الشيباني. دار الكتب العلمية. بيروت (ط : ١) ١٤٠٣هـ .
- ١٥٦ - الزواجر عن اقتراف الكبائر. أبي العباس أحمد بن محمد بن علي بن حجر الهيتمي. دار المعرفة ب يروت. ١٤٠٧هـ .
- ١٥٧ - السلوك الاجتماعي بين علم النفس والدين. فوزي سالم عفيفي. دار الصحابة للتراث. طنطا (ط : ١) ١٤١١هـ .
- ١٥٨ - السلوك الانساني . د. انتصار يونس. مكتبة دار المعارف. ١٩٨٦م .
- ١٥٩ - السلوك الانساني (تحليل وقياس المتغيرات) د. سعد عبدالرحمن. مكتبة ب : ت .
- ١٦٠ - الشخصية اليهودية من خلال القرآن (تاريخ وسمات ومصير) د. صلاح الخالدي. دار القلم. دمشق (ط : ١) ١٤٠٧هـ .
- ١٦١ - الشورى بين الاسلام وواقع المسلمين المعاصر. نور الحسن فدا. بحث مكمل للماجستير مقدم لقسم الدعوة جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية (غير منشور) .

- ١٦٢ - الشيطان والانسان. عبدالكريم الخطيب. دار الفكر العربي ١٩٧٩ م .
- ١٦٣ - الصراع بين الفكرة الاسلامية والفكرة الغربية في الاقطار الاسلامية. أبو الحسن الندوي. دار القلم. الكويت (ط : ٤) ب : ت .
- ١٦٤ - الطبقات الكبرى. ابن سعد. دار الفكر. بيروت. بدون رقم وتاريخ للطبعة .
- ١٦٥ - الطبيعة البشرية في القرآن الكريم. د. لطفي بركات احمد. دار المريخ (ط : ١) ١٤٠١ هـ .
- ١٦٦ - الطريق الى الاسلام. محمد أسد. ترجمة : عفيف البعلبكي. دار العلم للملايين. بيروت (ط : ٧) ١٩٨١ م .
- ١٦٧ - العقد الفريد. ابن عبد ربه. دار الكتب العلمية. بيروت (ط : ١) ١٤٠٤ هـ .
- ١٦٨ - العقيدة في الله. د. عمر الأشقر. مكتبة الاصلاح. (ط : ١) .
- ١٦٩ - العوائق. محمد الراشد. مؤسسة الرسالة. بيروت. (ط : ١) .
- ١٧٠ - العين حق. احمد بن عبدالرحمن الشميمري. (ط : ٢) ١٤١١ هـ .
- ١٧١ - الغار على العالم الاسلامي. أ.ل. ستاتليه. ترجمة. محب الدين الخطيب. ومساعد اليافي. مكتبة اسامة بن زيد. بيروت . ب : ت .
- ١٧٢ - الغرباء الأولون (أسباب غربتهم - وكيفية مواجهتها) . سلمان بن فهد العودة. دار ابن الجوزي. (ط : ١) ١٤١٠ هـ .
- ١٧٣ - الغربية والغرباء. للائمة ابن تيمية، وابن القيم، والشاطبي. تحقي. سليم الهلالي. دار الهجرة. (ط : ١) ١٤٠٩ هـ .

- ١٧٤ - الغرور. ماكس نوردوا. تعريب. حافظ نجيب. مطبعة المعارف. مصر. (ط : ١) ١٣٤١هـ .
- ١٧٥ - الغزو الثقافي يمتد في فراغنا. محمد الغزالي. دار الصحوة. ب : ت .
- ١٧٦ - الفراسة. الامام فخر الدين الرازي. تحقيق. مصطفى عاشور. مكتبة القرآن .
- ١٧٧ - الفروق. شهاب الدين أبي العباس الصنهاجي المشهود بالقرافي .
- ١٧٨ - الفروق النفيسة بين صفات النفس الطيبة والخبيثة. ابن قيم الجوزية. تعليق. أبو حذيفة ابراهيم بن محمد. دار الصحابة للتراث. طنطا. (ط : ١) ١٤١١هـ .
- ١٧٩ - الفصل في الملل والأهواء والنحل. الامام أبي محمد علي بن أحمد بن حزم الظاهري. دار المعرفة. (ط : ٢) .
- ١٨٠ - الفضائل الخلقية في الاسلام. د. أحمد عبدالرحمن ابراهيم. دار العلوم. الرياض. (ط : ١) ١٤٠٢هـ .
- ١٨١ - الفوائد. ابن القيم الجوزية. المكتبة القيمة (ط : ١) ١٤٠٠هـ .
- ١٨٢ - القاموس المحيط. الفيروز أياي. مؤسسة السرالة (ط : ١) ب : ت .
- ١٨٣ - القرآن وعلم النفس. د. محمد عثمان نجاتي. دار الشروق. (ط : ٤) ١٤٠٩هـ .
- ١٨٤ - القضاء والقدر. محمد متولي الشعرواي. مؤسسة أخبار اليوم .
- ١٨٥ - الكامل في التاريخ. ابن الأثير. دار الكتاب العربي. بيروت. (ط : ٤) ١٤٠٢هـ .
- ١٨٦ - الكنز المرصود في قواعد التلمود. ترجمة. د. يوسف نصر الله. دار العلم. دمشق (ط : ١) ١٤٠٨هـ .

- ١٨٧ - الله أو الدمار. سعد جمعة. دار بوسلاحة. تونس. (ط : ١) ب : ت .
- ١٨٨ - المجتمع - ر.م - ماكيفر، شارلزه. بيدج، ترجمة. د. علي احمد عيسى. مكتبة النهضة المصرية (ط : ٣) ١٩٧٤ هـ .
- ١٨٩ - المجتمع الرياني. محمد ابراهيم شقره. المكتبة الاسلامية. عمان. الاردن (ط : ٢) ١٤١٠ هـ .
- ١٩٠ - المدخل الى البحوث السلوكية. د. صاح العساف. العبيكان للطباعة والنشر (ط : ١) ١٤٠٩ هـ .
- ١٩١ - المرشد في علم النفس الاجتماعي. د. عبدالحميد محمد الهاشمي. دار الشروق (ط : ٢) ١٤٠٩ هـ .
- ١٩٢ - المستصفي من علم الأصول. أبي حامد محمد بن محمد الغزالي. دار العلوم الحديثة. بيروت . ب : ت .
- ١٩٣ - المعجم الوسيط. مجمع اللغة العربية. المكتبة الاسلامية. استانبول .
- ١٩٤ - المعارف. أبو محمد عبدالله بن مسلم قتيبة الدنيوري. دار الكتب العلمية. بيروت (ط : ١) .
- ١٩٥ - المغني. أبي محمد عبدالله بن أحمد بن محمد بن قدامة. مكتبة الرياض الحديثة. الرياض. ب : ت .
- ١٩٦ - المقدمات الممهدة لبيان ما اقتضته رسوم المدونة من الأحكام الشرعية والتحصيلات المحكمات الشرعية لأمها مسائلها المشكلات. الحافظ أبي الوليد محمد بن أحمد رشد. مطبعة السعادة. مصر. (ط : ١) ب : ت .
- ١٩٧ - النظرية الخلقية عند ابن تيمية. د. محمد بن عبدالله عفيفي. مركز الملك فيصل

- للبحوث والدراسات الاسلامية. (ط : ١) ١٤٠٨ هـ .
- ١٩٨ - النور أولى. زين العابدين الركابي. (ط : ٢) ب : ت .
- ١٩٩ - اليهود في القرآن. عبدالكريم الخطيب. دار الشروق. (ط : ١) ب : ت .
- ٢٠٠ - اليهود في القرآن. عفيف عبدالفتاح طيارة. دار العلم للملايين. بيروت. (ط : ٥) ١٩٧٧ م .
- ٢٠١ - اليهود في القرآن الكريم. محمد دروزة. المكتب الاسلامي. (١٤٠٠ هـ) .
- ٢٠٢ - بحوث الاعلام الأسس والمبادئ د. سمير محمد حسين. عالم الكتب. القاهرة. ب : ت .
- ٢٠٣ - بدائع الفوائد. ابن القيم. دار الكتاب العربي. بيروت. ب : ت .
- ٢٠٤ - بروتوكولات حكماء صهيون. الإتحاد الإسلامي العالمي للمنظمات الطلابية (ط : ١) .
- ٢٠٥ - بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب. محمود شكري الأوسلي. عباس الباز. مكة المكرمة .
- ٢٠٦ - بنو اسرائيل في الكتاب والسنة د. محمد سيد طنطاوي. الزهراء للإعلام الاسلامي. (ط : ١) ١٤٠٧ هـ .
- ٢٠٧ - تاج العروس. محمد مرتضى الزبيدي. دار مكتبة الحياة. بيروت. ب : ت .
- ٢٠٨ - تاريخ الأدب العربي (العصر الجاهلي). د. شوقي ضيف. دار المعارف. مصر. (ط : ٧) ب : ت .

- ٢٠٩ - تاريخ الأمم والملوك. أبو جعفر محمد بن جرير الطبري. دار سويدان. بيروت.
ب : ت .
- ٢١٠ - تاريخ العرب والاسلام (منذ ما قبل المبعث وحتى سقوط بغداد) د. سهيل زكار.
دار الفكر. ب : ت .
- ٢١١ - تاريخ عمر بن الخطاب. ابن الجوزي. تحقيق أحمد شومان. مكتبة المؤيد.
الطائف. ب : ت .
- ٢١٢ - تجديد الفكر الاسلامي. جمال سلطان. دار الوطن. الرياض. (ط : ١) ١٤١٢هـ .
- ٢١٣ - تجديد الفكر العربي. د. زكي نجيب محمود. دار الشروق. بيروت. (ط : ٧)
١٤٠٢هـ .
- ٢١٤ - تعريف عام بدين الاسلام. علي الطنطاوي. دار الوفاء بيروت. (ط : ١٢)
١٤٠٨هـ .
- ٢١٥ - تذكرة الدعاة. البهي الخولي. مكتبة الفلاح (ط : ٧) ١٤٠٤هـ .
- ٢١٦ - تهذيب الأخلاق. أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ. دار الصحابة للتراث (ط : ١)
١٤١٠هـ .
- ٢١٧ - تهذيب الأخلاق في التربية. ابن مسكويه. دار الكتب العلمية. بيروت. (ط : ١)
١٤٠٥هـ .
- ٢١٨ - تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق. أبي علي أحمد بن محمد بن يعقوب الرازي
(مسكويه). منشورات دار مكتبة الحياة. بيروت. (ط : ٢) .
- ٢١٩ - تهذيب مدارج السالكين. ابن القيم. تهذيب عبدالمنعم صالح العزي. دار المطبوعات
الحديثة. جدة ب : ت .

- ٢٢٠ - جامع بيان العلم وفضله وما ينبغي في روايته وحمله. الامام. أبي عمر يوسف ب
عبدالبر النمري القرطبي. دار الكتب الاسلامية. مصر. (ط : ٢) ١٤٠٢هـ .
- ٢٢١ - حتى يغيروا ما بأنفسهم جودت سعيد. دار الكتب المصرية (ط : ١) ب : ت .
- ٢٢٢ - حسد الحاسدين بين العلم والدين (حقيقة الحسد وعلاج المحسود) مجدي محمد
الشهاوي. مكتبة القرآن. القاهرة. ب : ت .
- ٢٢٣ - حصوننا مهددة من داخلها. د. محمد محمد حسين. المكتب الاسلامي. بيروت.
(ط : ٥) ١٣٩٨هـ .
- ٢٢٤ - حضارة العرب. غوستاف لويون. ترجمة. عادل زعيتر. عيسى البابي الحلبي
وشركاه. مصر .
- ٢٢٥ - حضارة العرب في عصر الجاهلية. د. حسين الحاج حسن. المؤسسة الجامعية
للدراسات والنشر. (ط : ٢) ١٤٠٩هـ .
- ٢٢٦ - خطط الشام. محمد كرد علي. دار العلم للملايين. بيروت. ١٣٨٩هـ .
- ٢٢٧ - خلق المسلم. محمد الغزالي. دار الكتب الحديثة. معد. (ط : ٨) ١٣٩٤هـ .
- ٢٢٨ - دراسات اسلامية في العلاقات الاجتماعية والدولية. د. محمد عبدالله دراز. القلم.
الكويت. ١٤٠٠هـ .
- ٢٢٩ - دراسات في النفس الانسانية محمد قطب .
- ٢٣٠ - دستور الأخلاق في القرآن الكريم. د. محمد عبدالله دراز. تعريب وتحقيق وتعليق
د/عبدالصبور شاهين. مراجعة. د. السيد محم بديوي. مؤسسة السراة. (ط : ٦)
١٤٠٥هـ .

- ٢٣١ - لهوى. ابن الجوزي (ط : ١) ب : ت .
- ٢٣٢ - رسالة التقليد. ابن القيم. تحقيق. محمد عفيفي. المكتب الاسلامي. بيروت. (ط : ١) ١٤٠٣هـ .
- ٢٣٣ - رؤية اسلامية لأحوال العالم المعاصر. محمد قطب. دار الوطن. الرياض. (ط : ١) ١٤١١هـ .
- ٢٣٤ - سير أعلام النبلاء. الامام شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي. مؤسسة الرسالة. بيروت. (ط : ٣) ١٤٠٥هـ .
- ٢٣٥ - شرح العقيدة الطحاوية للعلامة ابن ابي العز الحنفي. تحقيق جماعة من العلماء. المكتب الاسلامي. تخريج الألباني. المكتب الاسلامي. (ط : ٤) ١٣٩١هـ .
- ٢٣٦ - شرح المعلقات السبع. للروزني. دار بيروت. بيروت. ب : ت .
- ٢٣٧ - شرح مختصر الروضة. نجم الدين أبي الربيع سليمان بن عبدالقوي عبدالكريم بن سعيد الطوفي. تحقيق. د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي. مؤسسة الرسالة. بيروت. (ط : ١) ١٤١٠هـ .
- ٢٣٨ - شفاء العليل. ابن قيم الجوزية. الطبعة الأولى. مكتبة الرياض الحديثة (ط : ١) ١٣٢٢هـ .
- ٢٣٩ - طب القلوب. ابن القيم. جمع وحوار. د. عجيل جاسم النشمي. دار الدعوة. الكويت. (ط : ٢) ١٤١٠هـ .
- ٢٤٠ - طريق الهجرتين وباب السعادتين ابن قيم الجوزية. تحقيق. عبدالله ابراهيم الأنصاري من مطبوعة ردارة الشؤون الدينية. قطر. ١٣٩٧هـ .
- ٢٤١ - عبقرية الصديق. عباس العقاد. المكتبة العصرية. صيدا. بيروت (ب : ت) .

- ٢٤٢ - عصر الالحاد. خلفيته التاريخية وبداية نهايته. محمد تقي الامين. ترجمة. د. مقتدي حسن ياسين. دار الصحوة للنشر والتوزيع ب : ت .
- ٢٤٣ - علم النفس الاجتماعي. د. حامد عبدالسلام زهران. عالم الكتب. القاهرة. (ط : ٤) ١٩٧٧ م .
- ٢٤٤ - علم النفس المعاصر. د. محمد محمود محمد. دار الشروق. (ط : ١) ب : ت .
- ٢٤٥ - عوامل قيام حركات الردة بعد وفاة (صلى الله عليه وسلم). د. علي حسن الخربوطلي. دار الفكر العربي. ب : ت .
- ٢٤٦ - في فلسفة التربية الاسلامية. د. حسن ابراهيم عبدالعال. عالم الكتب. الرياض. ١٤٠٥ هـ .
- ٢٤٧ - في مهب المعركة. مالك بن نبي. دار الفكر. دمشق. ١٤٠٥ هـ .
- ٢٤٨ - قادة الغرب يقولون : دمروا الاسلام أبيدوا أهله. جلال العالم. (ط : ٢) ب : ت .
- ٢٤٩ - قاموس علم الاجتماع. حرره وراجعته. د. محمد عاطف غيث. الهيئة المصرية العامة للكتاب. ١٩٧٩ م .
- ٢٥٠ - قذائف الحق. محمد الغزالي. المكتبة العصرية. بيروت. ب : ت .
- ٢٥١ - كلمة الحق في القرآن الكريم موردها ودلالاتها، الشيخ. محمد الراوي أشرف عى طباعته ونشره. ادارة الثقافة والنشر بجامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية (١٤٠٩ هـ) .
- ٢٥٢ - كيف نكتب التاريخ الاسلامي ؟ محمد قطب. دار الوطن. الرياض. (ط : ١) ١٤١٢ هـ .

- ٢٥٣ - لسان العرب. ابن منظور. دار لسان العرب. بيروت. ب : ت .
- ٢٥٤ - لمحات نفسية في القرآن الكريم. د. عبدالحميد محمد الهاشمي. (من مطبوعات رابطة العالم الاسلامي). العدد (١١). ١٤٠٢هـ .
- ٢٥٥ - ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين. ابوالحسن الندوي. دار القلم. الكويت .
- ٢٥٦ - مجتمع كراهية. سعد جمعة. دار الكاتب العربي. بيروت. ب : ت .
- ٢٥٧ - مجموع فتاوي شيخ الاسلام ابن تيمية جمع القاسم، طبعة. مكتبة المعارف، الرياض. المغرب. ب : ت .
- ٢٥٨ - مدخل الى التربية في ضوء الاسلام. عبدالرحمن الباني. المكتب الاسلامي (ط : ٢) .
- ٢٥٩ - مدخل علم النفس. لندال دافيدوف. الدار الدولية للنشر والتوزيع (ط : ٣) ١٩٨٨م .
- ٢٦٠ - مسائل الجاهلية التي خالف فيها (صلى الله عليه وسلم) اهل الجاهلية. شيخ الاسلام محمد بن عبد الوهاب. وتوسع فيها محمود شكري الألويسي. دار المجد. الرياض (ط : ١) ١٤١٢هـ .
- ٢٦١ - مسائل في العقيد. محمد بن صالح بن عثيمين. عالم الكتب. الرياض (ط : ١) ب : ت .
- ٢٦٢ - معالم في الطريق. سيد قطب. (ط : ١) الاتحاد الاسلامي العالمي .
- ٢٦٣ - معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية د. احمد زكي بديوي. مكتبة لبنان. ب : ت .
- ٢٦٤ - معجم مقاييس اللغة. أبي الحسن احمد بن فارس. دار الفكر. ب : ت .

- ٢٦٥ - مصر في عصر الرومان. د. أمال محمد الراوي. (دراسة سياسية اقتصادية اجتماعية) في ضوء الوثائق التاريخية . دار البيان العربي. جدة ب : ت .
- ٢٦٦ - مفاهيم القرآن في العقيدة والسلوك. محمد البهي. مكتبة وهبه. (ط : ١) ١٣٩٣هـ.
- ٢٦٧ - مفتاح السعادة ومصباح السيادة. في موضوعات العلوم. احمد بن مصطفى الشهير بطاش كبرى زاده . دار الكتب العلمية . بيروت (ط : ٤) ١٤٠٨هـ .
- ٢٦٨ - مقدمة بن خلدون. عبدالرحمن بن محمد بن محمد بن خلدون. مكتبة لبنان (ط : ٤) ١٩٩٠م .
- ٢٦٩ - مقدمة في فلسفة التربية الاسلامية (التربية والطبيعة الانسانية). د. حسن ابراهيم عبدالعال. دار عالم الكتب . (ط : ١) ب : ت .
- ٢٧٠ - مناهج التشريع الاسلامي. في القرن الثاني الهجري. د. محمد بلتاجي. طبع لجنة البحوث والتأليف والترجمة والنشر . جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية . (١٣٩٣هـ) .
- ٢٧١ - مكاييد يهودية. عبر التاريخ. عبدالرحمن حسن حبنكة الميداني. (ط : ٣) دار القلم دمشق. ب : ت .
- ٢٧٢ - مكة في عصر ما قبل الاسلام . احمد ابو الفضل عوض الله. (مطبوعات دار الملك عبدالعزيز) (ط : ٢) ١٤٠١هـ .
- ٢٧٣ - مناهج التربية واساليبها. د. علي جريشه. دار الوفاء المنصورة. (ط : ١) ١٤٠٧هـ.
- ٢٧٤ - موسوعة اخلاق القرآن. د. احمد الشرباصي. دار الرائد العربي. بيروت. (ط : ٢) ١٤٠٧هـ .

- ٢٧٥ - نساء نور الله قلوبهن. مصطفى فوزي غزالة. دار القبلة للثقافة الاسلامية. جدة ب : ت .
- ٢٧٦ - نصوص قرآنية في النفس الانسانية. د. عز الدين اسماعيل. دار النهضة العربية ب : ت .
- ٢٧٧ - هداية الحيارى في اجوبة اليهود والنصارى. الامام ابن القيم. مؤسسة مكة للطباعة. (توزيع الجامعة الاسلامية بالمدينة المنورة) .
- ٢٧٨ - واقعنا المعاصر. محمد قطب. مؤسسة المدينة للصحافة. (ط : ٢) ١٤٠٨ هـ .
- ٢٧٩ - واقعية المنهج القرآني. توفيق محمد سبع. دار المختار. (ط : ٣) ب : ت .
- ٢٨٠ - وظيفة الإخبار في سورة الانعام. د. سيد محمد ساداتي الشنقيطي. (ط : ٣) ١٤١٢ هـ .
- ٢٨١ - ولاية الشرطة في الاسلام. (دراسة فقهية تطبيقية). نمر بن محمد بن ابراهيم الحميداني (رسالة دكتوراه مقدمة للمعهد العالي للقضاء ١٤١٢ هـ. غير منشورة).

ب - الدوريات/المقالات/الدراسات :

- ٢٨٢ - جريدة الحياة. عدد (١٠٦٤٤) ١٤١٢/٩/٢٧ هـ .
- ٢٨٣ - جريدة المسلمون. عدد (٣٤٧) ١٤١٢/٣/١٩ هـ .
- ٢٨٤ - مجلة الأزهر. ج ٦ (السنة السادسة) .
- ٢٨٥ - مجلة النور. عدد (٧٧) رجب ١٤١٠ هـ .
- ٢٨٦ - مجلة دراسات تاريخية. (جامعة دمشق). عدد (٧) ١٤٠٢ هـ .

ج - المصادر الشخصية :

٢٨٧ - صالح اللحيدان. (د) عضو هيئة التدريس بـ "قسم علم النفس" جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية. حيث قام الباحث بزيارة علمية له في مكتبه وأجرى معه حواراً في بعض النقاط النفسية .

٢٨٨ - عبدالله بن محمد المطلق (د) وقد أجرى الباحث معه حواراً علمياً .

٢٨٩ - يوسف محي الدين أبوهملاله (د) عضو هيئة التدريس في قسم الدعوة ، كلية الدعوة والاعلام .

محتويات الدراسة

رقم الصفحة	الموضوع
	المقدمة
١٨	- توطئة
١ - ٣٠٠	- الاستدلال على المشكلة البحثية
١١	- تحديد المشكلة البحثية
١٢	- تساؤلات البحث
١٣	- اهمية البحث واسباب اختياره
١٣	- ادوات جمع مادته العلمية
١٤ - ١٥	- مكانته من الدراسات السابقة
١٦	- حدود البحث الزمنية والجغرافية
١٧ - ١٨	- نوع البحث ومنهجه
	- تقسيم الدراسة
	- شكر وتقدير
	الفصل التمهيدي
١٩	المبحث الأول : كون الناس على الفطرة
	المطلب الأول : تعريف الفطرة
١٩	اولاً : تعريف الفطرة في اللغة
١٩ - ٢٠	ثانياً : تعريف الفطرة في الاصطلاح
٢٢ - ٢٩	المطلب الثاني : كون الناس على الفطرة
	المبحث الثاني :
٢٠ - ٢٩	المطلب الأول : قابلية الانسان للخير والشر
٤٠ - ٤٨	المطلب الثاني : هل القضاء والقدر عذر لأهل الشر
٤٩ - ٧٣	المبحث الثالث : المؤثرات على الفطرة
٤٩	التمهيد
٥٠ - ٥٩	المطلب الأول : الشيطان

رقم الصفحة	الموضوع
٦٧ - ٦٠	المطلب الثاني : البيئة
٧٣ - ٦٨	المطلب الثالث : هوى النفس
	الفصل الأول
- ٧٤	المنكرون والظروف المحيطة بهم
٧٥ - ٧٤	توطئة
١٤٤ - ٧٦	المبحث الأول : أقسام المنكرين
٧٧ - ٧٦	تمهيد
٨٠ - ٧٨	المطلب الأول : الوثنيون العرب
٨٧ - ٨١	المطلب الثاني : أهل الكتاب
٩٦ - ٨٨	المطلب الثالث : المنافقون
- ٩٧	المبحث الثاني : الظروف المحيطة بالمنكرين
١٢٠ - ٩٧	المطلب الأول : الظروف الدينية عند المنكرين
١٣٧ - ١٢١	المطلب الثاني : الظروف الإجتماعية عند المنكرين
١٢٣ - ١٢١	توطئة
١٢٨ - ١٢٤	المسألة الأولى : الظروف الاجتماعية عند الوثنيين العرب
١٣٣ - ١٢٩	المسألة الثانية : الظروف الاجتماعية عند اليهود
١٣٧ - ١٣٤	المسألة الثالثة : الظروف الاجتماعية عند الفرس والروم
١٤٧ - ١٣٨	المطلب الثالث : الظروف الاقتصادية عن المنكرين
١٤١ - ١٣٨	١ - الظروف الاقتصادية عند العرب
١٤٤ - ١٤٢	٢ - الظروف الاقتصادية عند اليهود
١٤٧ - ١٤٥	٣ - الظروف الاقتصادية عند الفرس والرومان
	الفصل الثاني
- ١٤٨	بواقع الإنكار
١٥٨ - ١٤٨	توطئة
٢٠١ - ١٥٩	المبحث الأول : دافع الكبر
١٦٠ - ١٥٩	المطلب الأول : تعريف الكبر

رقم الصفحة	الموضوع
١٦٣ - ١٦١	المطلب الثاني : حقيقة الكبر
- ١٦٤	المطلب الثالث : مكان الكبر
١٦٨ - ١٦٥	المطلب الرابع : اعراض الكبر ومظاهره
١٧٣ - ١٦٩	المطلب الخامس : اسباب الكبر
١٨٣ - ١٧٤	المطلب السادس : نواعي التكبر
١٨٤	المطلب السابع : اقسام التكبر
١٨٨ - ١٨٥	المطلب الثامن : اقسام المتكبرين
١٩٩ - ١٨٩	المطلب التاسع : آثار الكبر
٢٠١ - ٢٠٠	المطلب العاشر : نهاية الكبر
٢١٤ - ٢٠٢	المبحث الثاني : دافع الغرور
٢٠٢	المطلب الأول : تعريف الغرور
٢٠٤ - ٢٠٣	المطلب الثاني : حقيقة الغرور
٢٠٧ - ٢٠٥	المطلب الثالث : اسباب الغرور
٢١٤ - ٢٠٨	المطلب الرابع : آثار الغرور
٢٣٩ - ٢١٥	المبحث الثالث : دافع الحسد
٢١٦ - ٢١٥	المطلب الأول : تعريف الحسد
٢٢١ - ٢١٧	المطلب الثاني : حقيقة الحسد
٢٢٦ - ٢٢٢	المطلب الثالث : أسباب الحسد
٢٢٧	المطلب الرابع : بيان كثرة الحسد بين الأقران
٢٣٩ - ٢٢٨	المطلب الخامس : آثار الحسد
٢٥٧ - ٢٤٠	المبحث الرابع : دافع الخوف
٢٤١ - ٢٤٠	المطلب الأول تعريف الخوف
٢٤٤ - ٢٤٢	المطلب الثاني : حقيقة الخوف
٢٤٨ - ٢٤٥	المطلب الثالث : أسباب الخوف
٢٥٣ - ٢٤٩	المطلب الرابع : آثار الخوف
٢٥٧ - ٢٥٤	المطلب الخامس : الجبن وعلاقته بالخوف
٢٨٤ - ٢٥٨	المبحث الخامس : التقليد الأعمى
٢٥٩ - ٢٥٨	المطلب الأول : تعريف التقليد

رقم الصفحة	الموضوع
٢٦٢ - ٢٦٠	المطلب الثاني : حقيقة التقليد
٢٦٥ - ٢٦٣	المطلب الثالث : أسباب التقليد
٢٦٦	المطلب الرابع : ركائز التقليد
٢٨٤ - ٢٦٧	المطلب الخامس : آثار التقليد
٢٧١ - ٢٨٥	الفصل الثالث : سبل العلاج
	توطئة
٢٠٦ - ٢٩٢	المبحث الأول : السبل الحسية
٢٩٥ - ٢٩٣	المطلب الأول : دفع الاحوال
٢٩٧ - ٢٩٦	المطلب الثاني : المعجزات الحسية
٢٠٠ - ٢٩٨	المطلب الثالث : زوال النعمة
٢٠٢ - ٢٠٠	المطلب الرابع : الجهاد في سبيل الله
٢٠٦ - ٢٠٣	المطلب الخامس : القنوة الحسنة
٢٠٧	المبحث الثاني : سبل العلاج العقلية
٢٠٧	توطئة
٣١٧ - ٣١٢	المطلب الأول : مواقف الرسول (صلى الله عليه وسلم) العقلية مع أهل الكتاب
٣٢٢ - ٣١٨	المطلب الثاني : مواقف الرسول (صلى الله عليه وسلم) العقلية مع الوثنيين العرب
٣٢٣	المبحث الثالث : السبل الاخلاقية التمهيد
٣٣٦ - ٣٢٦	اثر السبل الاخلاقية على المنكرين
٣٣٧	المبحث الرابع : سبل العلاج الاجتماعية
٣٣٧	المدخل
٣٤٤ - ٣٤٠	القسم : الأول : تحديد الغاية
٣٤٨ - ٣٤٥	القسم الثاني : ربط الناس بالقيم العليا
٣٥٤ - ٣٤٩	القسم الثالث : مراعاة الاعراف والعادات
٣٥٨ - ٣٥٥	القسم الرابع : التركيز على دعوة الملأ